الغُصن الذهبي

دراسة في السحر والدين

تأليف

سير جيمس فريزر

ترجمة بإشراف

الدكتور أحمد أبو زيد

الجزء الأول

الغُصْنُ الذّهبيّ

الجزء الأول

الغُصن الذهبِي

دراسة في السحر والدين

تأليف

سير جيمس فريزر

ترجم بإشراف

الدكتور أحمد أبو زيد

الجُزء الأول

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر
١٩٧١

المشتركون فى هذا الكتاب

الترجمة : دكتور أحمد أبو زيد : الفصول ١-٤ ثم الفصل السادس

دكتور محمد أحمد غالى : الفصول ٧ - ١٢

دكتورة نور شريف : الفصل الخامس

المراجعة والتعليقات وتقديم الترجمة العربية :

دكتور أحمد أبو زيد

فهرس

الموضوع **الصفحة**

الموضوع **الصفحة**

مقـــــدمة



فريزر والغصن الذهبى

بقلم الدكتور : أحمد أبوزيد

يمثل موت سير جيمس جورج فريزر Sir James G. Frazer نهاية مرحلة من أهم المراحل التى مر بها التفكير الأنثروبولوجى النظرى وأخصبها ، على الرغم من كل ما يوجه إليها الآن من انتقادات ، ونعنى بها مرحلة التفسير التطورى الذى صبغ كل التفكير العلمى فى القرن التاسع عشر والذى تأثر تأثراً واضحاً بكتابات داروين واهتمامه بالبحث عن أصل الأنواع . وعلى الرغم من أن فريزر عاش ما يقرب من نصف حياته (ولد فى عام ١٨٥٤) ومات فى عام ١٩٤١) فى القرن الحالى فإنه يعتبر بشخصيته وثقافته العريضة المتنوعة وأسلوب تفكيره ومنهج كتابته ابناً للقرن الماضى ،

لدرجة أن الكثيرين من مؤرخى الفكر الاجتماعى والأنثروپولوچى يشيرون إليه على أنه من مفكرى ذلك القرن ، ويعتبرونه امتداداً لتفكير تايلور Taylor ومورجان Morgan وغيرهما من أعلام التفكير الأنثروپولوچى القديم . ولقد كان التيار الفكرى السائد بين هؤلاء الكتاب والعلماء يقوم أساساً على الإيمان بوحدة المعرفة الإنسانية وتطورها فى مراحل ثابتة معلومة واضحة المعالم ، ومن هنا كان هؤلاء العلماء يحاولون – من ناحية – الجمع بقدر الإمكان بين مختلف فروع العلم والمعرفة وأن يوفقوا بين العلوم الطبيعية (كالفيزيقاء والبيولوچيا) والدراسات الإنسانية بالمعنى الواسع للكلمة الذى يدخل فيه إلى جانب الآداب الكلاسيكية والشعر والتاريخ والفلسفة وما إليها الدراسات الاجتماعية المتعارف عليها . ومن هنا أيضاً كان هؤلاء العلماء يحاولون – من الناحية الأخرى – فهم الحضارات القديمة عن طريق مقارنتها بالثقافات التى كانت سائدة فى مجتمعات القرن التاسع عشر وبخاصة لدى الشعوب المتخلفة التى يطلق عليها بصفة عامة اسم « الشعوب البدائية » أو « الهمجية » – حسب تعبير فريزر ، على زعم أن تلك الشعوب تمثل المراحل الأولى والمبكرة التى مرت بها الحضارة الإنسانية فى تاريخها الطويل . وقد ظهر هذان الاتجاهان فى كل كتابات فريزر وبخاصة فى « الغصن الذهبى The Golden Bough » . فالكتاب فى أصله محاولة لفهم وتفسير أسطورة بسيطة عن الإلهة ديانا Diana فى نيمى Nemi

بجنوب إيطاليا . ولكن البحث لم يلبث أن تفرع وتشعب فى كل واد وتناول كثيراً من الموضوعات فى مختلف الثقافات والمجتمعات والعصور حتى خرج الكتاب فى آخر الأمر فى اثنى عشر مجلداً ضخماً . وهذا الكتاب الذى نقدم لترجمته هنا تلخيص للكتاب الضخم ، قام فريزر نفسه بكتابته نزولا على إرادة الكثيرين من القراء ورغبة منه فى تيسير قراءته واستيعابه وتداوله بين جمهرة أكبر من القارئين على ما يقول هو نفسه فى « التصدير » . والهام هنا هو أن أية محاولة جديدة لفهم فريزر وتفكيره — وبخاصة كما يتمثل فى أكبر كتبه وأهمها وهو « الغصن الذهبى » — يجب أن تأخذ فى الاعتبار ظروف العصر الذى نشأ فيه . والمؤثرات التى خضع فريزر نفسه لها والتى أسهمت فى تشكيل فكره وتوجيه اهتماماته وجهة معينة بالذات وتحديد المنهج الذى يتبعه فى البحث والدراسة والكتابة .

١

وأول هذه المؤثرات وأهمها التى لقيت مزيداً من التعضيد والتوكيد فيما بعد من الظروف التى أحاطت بحياته العلمية هو نشأته

الأولى والجو العائلي الذى وجد نفسه فيه وبخاصة الطابع الديني الذى كان يطبع الحياة العائلية اليومية ويسيطر عليها . فقد ولد فريزر لأبوين متدينين إلى حد كبير ، وكانا من أتباع الكنيسة الاسكتلندية ومن أنصار المذهب الكالفني ومن المتمسكين بأصول الدين وتعاليمه وحرفيته ، بحيث ان حياة البيت اليومية كانت تدور إلى حد كبير حول العبادة والقراءة فى الكتاب المقدس ، بل إن معظم النشاط فى أيام الآحاد ذاتها لا يتعدى الذهاب إلى الكنيسة . وقد أدى ذلك إلى توجيه اهتمام فريزر إلى الكتاب المقدس والرغبة فى دراسته دراسة متعمقة . واستمر هذا الاهتمام حياً فى نفسه طيلة حياته للدرجة أنه درس اللغة الآرامية ليقرأ التوراة فيها . ويتمثل هذا الاهتمام بجلاء لا فى التأليف والكتب التى خصصها للدراسة بعض النواحى الهامة المتعلقة بالعهد القديم وأهمها كتابه الكبير عن « الفولكلور فى العهد القديم (١) » (وهو فى أساسه دراسات مقارنة فى الدين والخرافات والقانون) ، فحسب ؛ بل أيضاً فى الإشارات الكثيرة إلى الكتاب المقدس التى تمتلىء بها كتبه الأخرى . ولكن من الإنصاف أن نذكر أنه على الرغم من كل هذا الاهتمام فإن فريزر لم يقبل الكتاب المقدس

---

(١) العنوان الاصلى لهذا الكتاب هو *Follore in the Old Testament*: Studies in Comparative Religion, Legend and Law, 1918.

وقد ظهر الكتاب فى الاصل فى ثلاثة أجزاء كبيرة ولكن لم يلبث فريزر ان أعد منه كتابا موجزا على غرار ما فعل بكتاب «الغصن الذهبى» . وقد ظهرت هذه الطبعة الموجزة لاول مرة في عام ١٩٢٣ ، ثم ترجم الى اللغة الفرنسية وظهرت الترجمة عام ١٩٢٤ تحت عنوان *Le Folklore dans l'Ancien Testament.*

بحرفيته ، بمعنى أنه لم يأخذ الأحداث التى وردت فيه على علاتها ولم ينظر إليه على أنه سجل تاريخى علمى ، بل اعتبره نوعاً من الأدب الراقى الذى يسهم إسهاماً كبيراً فى التسامى بالجنس البشرى . إلا أن هذا لايعنى أيضاً أن فريزر — برغم تشككه الدائم فى صحة الأحداث الواردة فيه من الناحية التاريخية — كان يقف موقف العداء الصريح من الدين مثلما فعل كثير من معاصريه من أمثال تايلور أو هربرت سبنسر . فقد تركت نشأته الدينية الأولى أثراً عميقاً فى نفسه كان يمنعه من التهجم على الدين أو التمادى فى إظهار معارضته لبعض تعاليمه . وعلى أية حال فإن هذه التنشئة الدينية الأولى وتأثير والديه الذى لازمه إلى ما بعد فترة الطفولة والصبا حتى فترة الشباب كان لهما دخل كبير فى اختيار الجامعة التى يلتحق بها بل نوع التعليم الذى يتلقاه فى الجامعة . فقد كان فريزر يرغب فى الالتحاق بجامعة اكسفورد بعد مرحلته الجامعية التمهيدية بجامعة جلاسجو ولكن والده عارض فى ذلك وفضل له الالتحاق بجامعة كمبردج . وقد كانت جامعة اكسفورد فى ذلك الحين مسرحاً لبعض الاتجاهات الدينية المتحررة التى كان الأب يراها اتجاهات مارقة وخشى أن يقع ابنه فريسة لها . وفى كمبردج خضع فريزر بطبيعة الحال لتأثير تيارات علمية وثقافية من طابع معين كان لها دخل كبير فى تحديد ملامح تفكيره .

وقد خضع فريزر أثناء فترة تعليمه الجامعى فى جامعة جلاسجو

ثم فى جامعة كامبردج لتأثير قوى مستمر متنوع من بعض كبار الأساتذة فى عهده ، تمثل فى توجيه اهتمامه نحو آفاق جديدة من العلم والمعرفة مما كان له أثره لا فى تنوع معلوماته وكثرتها فحسب بل أيضاً — وهذا هو الهام — فى شمول نظرته إلى الكون والعالم والإنسان والمجتمع والثقافة الإنسانية . فلقد اتصل فى جلاسجو بثلاثة من كبار العلماء ترك كل منهم طابعه الخاص فى حياته وتكوينه الذهنى والعلمى . وأول هؤلاء الثلاثة هو چورج چيلبرت رامساى G.G. Ramsay الذى أفلح فى أن يثير فيه اهتماماً دائماً وعميقاً بالدراسات الكلاسية . وكان رامساى « استاذاً » للغة اللاتينية فى جلاسجو ما بين ١٨٦٣ و ١٩٠٦ ولكنه — حسب قول فريزر نفسه — كان يتمتع بقدرة هائلة على تذوق الأدب وعلى إثارة اهتمام تلاميذه به . ويعترف فريزر بأنه يدين له فى توجيه تفكيره لعدة سنوات نحو الكتابات الكلاسيكية القديمة . وقد تمكن من أن يرد له هذا الدين فيما بعد حين أهدى إليه ترجمته لكتاب باوسانياس Pausanias (١) الذى سنتكلم عنه فيما بعد . ولقد حقق فريزر فى تلك الدراسات مستوى رفيعاً إلى حد كبير جداً وأظهر قدرة فائقة فى كل كتاباته وبخاصة فى « الغصن الذهبى » الذى يكشف عن مدى إحاطتهالشاملة العميقة بالآداب الكلاسيكية . وقد ساعده على ذلك

---

(1) Downie, R.A. : *James George Frazer*, Watts, London, 1940, pp. 5-6.

إجادته التامة للغة اللاتينية التى كان قد تعلمها فى مرحلة التعليم العام قبل دخوله إلى الجامعة ، كما أن هذا الاهتمام ذاته هو الذى أدى به إلى الاعتقاد بأن أفضل مدخل لدراسة الإنسان وفهمه (وهو موضوع الأنثربولوچيا) هو دراسة الحضارة اليونانية والحضارة الرومانية القديمتين . ويتمثل هذا الاهتمام لا فى المعلومات الهائلة وحدها التى حشدها فى كتاباته المختلفة والتى سنجد لها مثالا فذاً فى كتاب « الغصن الذهبى » ، بل أيضاً فى الجهود الكبيرة التى بذلها إما فى ترجمة بعض الكتب الصعبة الهامة عن هاتين الحضارتين أو التأليف فيهما (١) .

وثانى هؤلاء الأساتذة الذين أثروا فى منهج تفكيره وفى اتجاهه العام هو چون فايتش John Weich أستاذ المنطق والميتافيزيقا فى جلاسجو الذى تعلم منه فريزر طريقة عرض أفكاره بوضوح مهما تكن درجة التعقد والتشعب التى بلغتها الموضوعات التى يعالجها

---

(١) من أهم الاعمال التى قام بها فريزر فى ميدان الدراسات الكلاسيكية ترجمته لكتاب باوسانياس Pausanias عن « وصف بلاد اليونان Description of Greece » وقد قام بالتعليق عليه بحيث ظهر فى ستة اجزاء ، وكذلك ترجمته لكتاب أوفيد المشهور وتعليقه عليه بحيث ظهر فى خمسة اجزاء *The Fasti of Ovid* : Text, Translation and Commentary

ومن الكتب التى قام فريزر بتأليفها فى هذا الميدان أيضا :

***Studies in Greek Scenery, Legend and History*; *Graecia Antiqua*, Maps and Plans to Illustrate Pausanias' Description of Greece; *The Growth of Plato's Ideal Theory*, etc.**

مع الكتابة فى الوقت ذاته بأسلوب رصين محكم يقوم أساساً على انتقاء اللفظ الجزل والترفع عن الأساليب والعبارات الشائعة الضحلة . ومع أن أسلوب فريزر برصانته ودقته وإحكامه وثروته اللفظية الهائلة يأخذ القارئ ويقدم له مادة ومعلومات مشوقة ومثيرة فإنه يعتبر فى الوقت ذاته من أكبر العوائق التى تصادف كل من يحاول ترجمة أعمال فريزر إلى اللغات الأخرى . ومن هنا كانت ترجمة كتبه وبخاصة « الغصن الذهبى » من أشق الأعمال التى تحتاج إلى بذل جهود طويلة ومضنية . وهذا لا يعنى على أية حال أن فريزر فى اهتمامه بجزالة اللفظ وفخامة الأسلوب كان يبحث عن الكلمات الغريبة أو القليلة الاستعمال ، أو أن ذلك أدى إلى غموض كتاباته ، فهى تتميز على العكس من ذلك بالوضوح وترتيب الأفكار بطريقة منطقية سليمة .

أما الأستاذ الثالث الذى تأثر به منذ عهد تلمذته الأولى بجامعة جلاسجو فهو لورد كلفن Lord Kelvin عالم « الفيزياء » التى كانت تعرف فى ذلك الحين باسم « الفلسفة الطبيعية » . وقد استمد منه فريزر قوة الإيمان بوجود نظام عقلى ومعقول يحكم الطبيعة ويسيطر على أحداثها ، وأن الكون يخضع لمجموعة من القوانين الطبيعية المطلقة الثابتة التى لا تتغير والتى يمكن التعبير عنها فى صيغ رياضية دقيقة ومضبوطة . وقد لازمته هذه الفكرة فى كل كتاباته وكانت هى الأساس الذى بنى عليه نظريته المشهورة عن السحر والدين والعلم والقوانين التى تحكم

عمليات السحر والعلم على السواء (١) . وكثيراً ما يستخدم فريزر فى كتاباته مصطلح « القانون الطبيعى » ليعنى به هذه المبادىء الثابتة التى تسيطر على الكون بكل ظواهره وأحداثه .

ولكن إذا كان كل أستاذ من هؤلاء الثلاثة ترك أثراً خاصاً فى تفكير فريزر ، أو على الأصح فى ناحية محددة بالذات من تفكيره ، فقد كان لاتصاله الوثيق بهم جميعاً فى وقت واحد أثره القوى فى تنوع اهتماماته واتساع أفق تفكيره وشمول نظرته إلى المعرفة الإنسانية بحيث جمع بين الفيزياء والبيولوچيا وغيرهما من العلوم الطبيعية من ناحية والآداب الكلاسيكية واللغات القديمة والحديثة من الناحية الأخرى ثم أضاف إلى هذا كله فى مرحلة تالية اهتمامه بالدراسات الاجتماعية والأنثروبولوچية التى يدين بالفضل فيها إلى اتصاله بروبرتسون سميث Robertson Smith حين التحق بجامعة كمبردج . ومن هنا كان كثير من مؤرخى الفكر الاجتماعى والأنثروبولوچى يدخلون فريزر بحق ضمن دائرة العلماء الموسوعيين الذين ينظرون إلى الثقافة فى ذاتها ويؤمنون بوحدة المعرفة الإنسانية وتكاملها على نحو ما ذكرنا .

وعلى أية حال فإن اتصاله بروبرتسون سميث كان هو العامل الحاسم فى توجيه فريزر نحو الأنثروبولوچيا ونحو الاهتمام بأشكال

---

(١) Malinowski, B. : *A Scientific Theory of Culture*, p. 179.
Kardiner and Prebre : *They Studied Man*, Mentor Books, p. 72.

الحياة التقليدية وبالشعوب المتخلفة التى يحب أن يطلق عليها فى كتاباته اسم الشعوب الهمجية . ولقد كان روبرتسون سميث من أكبر العلماء اللاهوتيين فى عصره ، ولكنه لم يكن ينظر إلى دراسة الدين تلك النظرة الضيقة التى عرف بها معظم اللاهوتيين ، وإنما كان يهتم بنوع خاص بدراسة تطور الفكر الدينى والشعائر الدينية وتحليلها فى ضوء الظروف الاجتماعية العامة التى نشأت فيها . وبذلك يمكن القول إن روبرتسو ن سميث وضع فى بريطانيا أسس ما يمكن تسميته بالأنثروبولوچيا الدينية ، كما يمكن القول ان اتصال فريزر المباشر به وتأثره بآرائه وكتاباته وبخاصة كتابه المعروف عن « دين الساميين The Religion of the Semites »هو أول خطوة خطاها فى ميدان الأنثروبولوچيا أوصلته بعد سنوات إلى أن يصبح أول أستاذ لأول كرسى للأنثروبولوچيا فى بريطانيا ، وذلك حين تولى الأستاذية بجامعة ليفربول عام ١٩٠٩ . وساعده على السير فى هذا الطريق اتصاله فى الوقت ذاته بكتابات العالم البريطانى ادوراد بيرنت تايلور E.B. Tylor الذى يلقب عادة باسم « أبى الأنثروبولوچيا البريطانية » وبخاصة كتابه الفذ عن « الثقافة البدائية Primitive Culture » فمن هذين الرجلين بدأ اتجاهه العام يتبلور نحو دراسة ثقافة الإنسان « الهمجى » ودراسة الدين فى عمومه والدين البدائى والسحر بوجه خاص ، وهو الموضوع الرئيسى الذى يعالجه فى كتاب « الغصن الذهبى » والذى وصل إليه

من تلك البداية البسيطة الساذجة التى بدأ بها الكتاب ، ونعنى بها معالجة أسطورة ديانا فى نيمى . وتعتبر نظرية فريزر عن الدين والسحر أهم نظرية فى تفكيره كله على الرغم من الاعتراضات والانتقادات التى أثارتها .

وقد بدأ الاتجاه الأنثروبولوچى يغلب على كتابات فريزر منذ أن عهد إليه روبرتسون سميث بكتابة مقالين لدائرة المعارف البريطانية عن « التابو » و « الطوطمية » ، وهما موضوعان كانا يشغلان بال كثير من علماء القرن التاسع عشر سواء علماء الأنثروبولوچيا فى بريطانيا وأمريكا من أمثال تايلور ولويس مورجان Lewis Morgan أو علماء الاجتماع فى فرنسا وبخاصة إميل دوركايم Emile Durkheim الذى عالج الموضوعين فى أكثر من مقال له بالإضافة إلى الاهتمام الواضح الذى أبداه بالنظام الطوطمى وهو يدرس الدين عند الأستراليين الأصليين فى كتابه القيم « الصور الأولية للحياة الدينية » . ولا تزال المشاكل المتعلقة بالطوطم والتابو تحتل مكاناً بارزاً فى كثير من الدراسات الأنثروبولوچية الحديثة التى تولى عنايتها بها لتحليل الحياة والشعائر الدينية لدى الشعوب البدائية . ويمثل ظهور مقالى فريزر فى الطبعة التاسعة من دائرة المعارف البريطانية (١٨٨٨) بداية عهد جديد فى حياته العلمية استمر حتى موته ، إذ أخذ منذ ذلك الحين يعالج فى كتاباته ومقالاته موضوع الأصول الأولى للأديان . وكان لا بد له إزاء ذلك من أن ينتهج

منهج البحث التطورى الذى كان سائداً على أية حال فى كل كتابات القرن التاسع عشر . وبعد ظهور هذين المقالين بعامين اثنين — أى فى عام ١٨٩٠ — ظهر كتاب « الغصن الذهبى » وكان يتألف فى ذلك الحين (الطبعة الأولى) من جزءين لا غير .

وطبيعة الحياة التى عاشها فريزر فى كمبردج والظروف التى أحاطت به والتسهيلات التى قدمتها له هذه الجامعة تعتبر كلها مسئولة إلى حد كبير عن الإنجازات الهائلة التى حققها فريزر فى مجال الدراسات الأنثروبولوجية النظرية وبخاصة فى مجال الدين والفولكلور . فقد استطاع فريزر بفضل هذه التسهيلات أن ينقطع تماماً إلى الدراسة والبحث والتحصيل لسنوات طويلة جداً فى مكتبة الجامعة وأن يشبع رغبته فى الاطلاع الواسع المتشعب العميق . والواقع أن فريزر كان قد حصل الشىء الكثير منذ صباه قبل أن يلتحق بجامعة جلاسجو ذاتها . فقد وجد فى بيته مكتبة زاخرة بشتى الكتب ومختلف فروع المعرفة لا فى الدين وحده . فأبوه دانييل فريزر Daniel Frazer كان يملك متجراً للعقاقير والكيماويات فى جلاسجو ولكنه كان رجلا واسع الاطلاع محباً للقراءة ، وكانت لديه مكتبة خاصة ممتازة وبخاصة فى الأدب الانجليزى . غير أن كل هذا لا يقاس اطلاقاً بما وجده فى جامعة كمبردج التى قدمت له كثيراً من المنح الدراسية لكى ينقطع فى مكتبتها للقراءة والاطلاع ، ثم منحته آخر الأمر منحة مدى الحياة ، وبذلك استطاع أن يستغنى

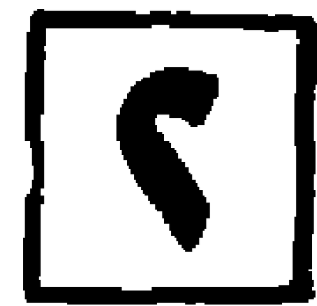
تماماً عن العمل لكسب العيش ، فيما عدا سنة واحدة أمضاها فى جامعة ليڤربول كأول أستاذ للأنثروپولوجيا فى تاريخ ذلك العلم ببريطانيا على ما سبق ذكره . ولم يكن فريزر يترك عمله فى القراءة بالمكتبة إلا لفترات قصيرة ، كان يسافر أثناءها بعيداً عن كمبردج لإلقاء المحاضرات أو لتقبل درجة من الدرجات العلمية الفخرية أو درجة من درجات الزمالة فى الجمعيات والمؤسسات والمعاهد العلمية المختلفة . وليس من شك فى أن هذا الانقطاع للدراسة والتحصيل هو الذى هيأ له الفرصة لتأليف كل هذه المصنفات الضخمة التى تملأ عناوينها وحدها أكثر من أربعين صفحة ، ومعظم هذه المصنفات يتألف من عدة مجلدات (١) . لكن حياة كمبردج بكل ما وفرته له من فرص للقراءة والاتصال بكثير من العلماء البارزين فى ذلك العصر صرفته فى حقيقة الأمر عن الاتصال بالعالم الخارجى ،

(١) لعل أفضل مثل لذلك هو كتاب «الغصن الذهبى» نفسه الذى يتألف من اثنى عشر مجلدا . ولكن هناك بالاضافة الى ذلك عددا آخر من الكتب الضخمة التى قام فريزر بتاليفها والتى يضم كل منها عدة أجزاء مثل كتاب «الطوطمية والزواج الاغترابى *Totemism and Exogamy* » وهو يتالف من اربعة أجزاء وكتاب «الاعتقاد فى الخلود *The Belief in Immortality* » ويتألف من ثلاثة أجزاء صدرت بين عامى ١٩١٣ و ١٩٢٤ ، وكتاب الفولكلور في العهد القديم *Folklore in the Old Testament* فى ثلاثة اجزاء ايضا ظهرت عام ١٩١٨، ثم كتابه عن «الخوف من الموتى فى الدين البدائى *The Fear of the Dead in Primitive Religion* » الذى صدر بين عامى ١٩٣٣ و ١٩٣٦ . ويلاحظ أن فريزر كان يشتغل بعدد من الكتب فى وقت واحد . وربما كان ذلك راجعا الى الطريقة التى كان يتبعها فى القراءة والتلخيص وجمع المعلومات وتكويمها ثم تبويبها وتصنيفها فى شكل كتب ، ثم لقلة التفكير النظرى فى هذه الكتب كلها .

بحيث أصبح يعيش فى عالم خاص به يتألف من الأديان والأساطير والفولكلور والآلهة وأنصاف الأرباب وما إليها . وكانت النتيجة المتناقضة الغريبة لهذا كله هى أن الكاتب الذى كرّس حياته لدراسة دراما الوجود الإنسانى لم يعش هو نفسه تلك الدراما ، وإنما تعرف عليها وعلى الوجود الإنسانى من خلال القصص والأساطير والخرافات ومختلف الآداب . وهذا نقص شديد بغير شك لعله لم يكن يعيب علماء الأنثروبولوجيا فى القرن الماضى ولكنه يعتبر من أشد العيوب التى يمكن أن يوصف بها أحد الأنثروبولوجيين المحدثين .

ثم يأتى بعد هذا كله الدور الذى لعبته زوجته الفرنسية فى تشكيل حياته وتوجيهها وتهيئة الجو الملائم للقراءة والكتابة . ولقد كرست « الليدى فريزر » حياتها كلها لخدمته وترتيب اتصالاته مع غيره من العلماء والهيئات العلمية والعمل على توسيع هذه الاتصالات بالإضافة إلى إشرافها التام على كل شئون حياته اليومية التى لم يكن يفهم فيها الكثير ، كما عملت على تعريف الفرنسيين بكتاباته وتفكيره . ولقد كانت تدرك قبل الزواج أى نوع من الحياة ينتظرها مع زوجها العالم الباحث . بل المعتقد أن الزواج ذاته لم يتم إلا بعد أن تم الاتفاق بينهما على أن تتركه وشأنه فيما يتعلق بالقراءة والتأليف والحياة بين الكتب ، ومن هنا لم يصرفه الزواج عن عمله الأساسى . بل السائد بين العلماء هو أن فريزر كان يمضى بين الكتب بعد الزواج

وقتاً أطول مما كان تمضيه بينها قبل أن يتزوج . ولقد ظلت ليدى فريزر شديدة الارتباط بزوجها وبخاصة فى السنوات الأخيرة من عمرها وعمره . ، حين أصيب هو بالعمى وأصيبت هي بالصمم ، ثم تبعته حتى فى موته . فقد ماتت بعده بساعات قليلة بعد أن أتمت دورها فى تمكينه من إتمام عمله والانصراف إلى المهمة التى اختار لنفسه الاضطلاع بها فى ميدان الفولكلور والأنثروپولوچيا .



على الرغم من أهمية هذه المؤثرات فى تكوين فكر فريزر وتوجيه حياته العلمية وصياغة آرائه وأفكاره فإنها كلها مؤثرات شخصية بحتة ، بمعنى أنها أثرت فيه نتيجة لاتصالاته الخاصة بأشخاص وعلماء معينين بالذات أو نتيجة للظروف الخاصة التى أحاطت به ، سواء كانت هذه الظروف ظروفاً عائلية أو ظروفاً تتعلق بفترة الدراسة الجامعية وما شابه ذلك . ولكن كان هناك إلى جانب هذا كله بعض عوامل أخرى ذات طبيعة عامة وأكثر شمولا لعبت دوراً أساسياً فى تحديد موقفه من المعرفة الإنسانية بعامة ومن الأنثروپولوچيا

بخاصة وفرضت عليه اتباع منهج معين فى دراساته وكتاباته ، وأعنى بذلك المناخ الفكرى العام الذى كان يسود القرن التاسع عشر والاتجاهات الفكرية البارزة حينذاك . ولقد كان فريزر نتاجاً حقيقيا للقرن التاسع عشر ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان ، ففى كتاباته تظهر كل الملامح الرئيسية التى تميز ذلك القرن عن غيره من فترات تاريخ الفكر البشرى وتاريخ الفكر الاجتماعى والأنثروپولوچى بالذات ، وهى الملامح التى تتعلق على الخصوص بالتفكير التطورى الذى يُعتبر السمة الأساسية لذلك العصر .

وليس من شك فى أن ظهور كتاب داروين عن « أصل الأنواع » كان من أهم العوامل التى دفعت علماء القرن التاسع عشر إلى اتباع المنهج التطورى . فقد ظهرت إثر ذلك كتب كثيرة تبحث فى « أصل » الحضارة أو « أصل » القانون أو « أصل » اللغة أو « أصل » الفقه أو « أصل » العائلة وهكذا . وقد افترضت كل هذه الكتب والدراسات وجود مراحل معينة بالذات مرت بها الحياة والنظم الاجتماعية فى تطورها بحيث ان كل مرحلة من هذه المراحل تعتبر بسط من المرحلة اللاحقة لها وممهدة لظهورها .

ولكن من الخطأ القول إن كتاب داروين كان وحده المسئول عن ذلك الاتجاه التطورى الذى سيطر على الدراسات الإنسانية المختلفة . فالظروف والأوضاع العامة السائدة فى أوروبا فى ذلك الوقت كانت تدفع دفعاً إلى السير فى ذلك التيار . فالمعروف مثلا أن القرن

التاسع عشر هو عصر التصنيع ، و على الأصح العصر الذى شاهد الثورة الصناعية فى أوجها وتحول المجتمع الأوربى فيه من أنماط الحياة الاقتصادية التقليدية إلى الأنماط الصناعية ، وهى مراحل أكثر رقياً وتقدماً . كذلك كان القرن التاسع عشر هو عصر الكشف الجغرافى وعصر الاستعمار و بالتالى بداية الاحتكاك القوى المستمر بالشعوب الأخرى المتخلفة أو « البدائية ». وقد أدى ذلك إلى الاهتمام بمقارنة أنماط الحياة الاجتماعية وأشكال التجمع الإنسانى ومحاولة تصنيفها وترتيبها فى سلسلة واحدة تتدرج من البسيط إلى المعقد بحيث تنتهى إلى المجتمعات الغربية التى كان علماء ذلك القرن يفترضون أن نظمها وقيمها تمثل قمة التطور الإنسانى وأعلى ما وصلت إليه الإنسانية فى تاريخها الطويل .

ولم يشذ فريزر بطبيعة الحال عن هذا الاتجاه العام . وكل كتاباته وبخاصة كتاب « الغصن الذهبى » ونظريته فى السحر والدين — وهى المحور الرئيسى الذى يدور حوله الكتاب — تنهج النهج التطورى ، وإن لم يكن فريزر قد وضع نظرية و نسقاً متكاملا وواضحاً عن المراحل التى مر بها الإنسان بنفس الدقة والوضوح اللذين نجدهما عند غيره من علماء عصره التطوريين من مثال مورجان و حتى تايلور الذى لا يرتفع إلى مستوى مورجان فى هذا الصدد . بل إنه يمكن القول بوجه عام إن سيطرة التفكير التطورى فى ذلك الوقت بالاضافة إلى تأثير روبرتسون سميث

الذى سبقت الإشارة إليه يرجع إليهما أكبر الفضل فى اهتمام فريزر بدراسة كل ما هو « بدائى » وبالتالى عنايته بدراسة المعتقدات والعادات والممارسات والشعائر الدينية والسحرية عند « البدائيين » أو « المتوحشين » أو « الهمج » كما كان يسميهم هو وغيره من علماء عصره ، وذلك على اعتبار أن دراسة الإنسان البدائى هى المدخل الطبيعى لفهم الحضارة الإنسانية فى عمومها من ناحية وفهم الحضارة الحديثة المعقدة من ناحية أخرى . فلقد كان فريزر يهتم فى أعماق كتاباته بمأساة الوجود الإنسانى ، وإذن فلم يكن ثمة بد من أن يتتبع هذه المأساة من جذورها ومن أن يبدأ من أبسط أشكالها — وهو فى الوقت ذاته أروع هذه الأشكال .

ولقد كان فريزر — وشأنه فى ذلك شأن الكثيرين من علماء عصره الذين تأثروا بفلسفة عصر الاستنارة أو عصر التنوير يؤمن بتشابه الجنس البشرى فى الأساسيات ، ولذا كانت المشكلة التى واجهته وواجهت الكثيرين من العلماء التطوريين هى البحث عن أسباب الاختلافات العميقة القائمة بالفعل بين الأجناس والمجتمعات البشرية . وظهر نتيجة لذلك عدد من النظريات تعالج مظاهر التفاوت بين المجتمعات الإنسانية المعروفة فى ذلك الوقت وتحاول المقارنة بينها على أساس ما حققته من تقدم خلال تطورها . فالمجتمع الإنسانى عموماً يتطور ببطء ويتقدم أثناء ذلك التطور . ولكن المجتمعات

المتمايزة لا تتقدم بدرجة واحدة أو بسرعة موحدة أثناء ذلك التطور وإن كانت كلها تتقدم تدريجياً من المستوى البدائى إلى المستويات الأخرى الأكثر تقدما . ففكرة التطور ترتبط فى أذهان هؤلاء العلماء بفكرة التقدم ، بل إن التطور عندهم يعنى التقدم الذى يتحقق بأكمل صوره فى المجتمع الأوربى الصناعى . وقد يكون من الصعب التعرف بدقة على مراحل التطور بطريق مباشر ، وذلك نظراً لأن بعض هذه المراحل موغل فى القدم ويصعب الحصول على معلومات وبيانات دقيقة عنه خاصة وأن بعض مظاهر الحضارة فى تلك المراحل قد اندثر تماما . ولذا فإن الوسيلة الوحيدة التى كان يمكن الاعتماد عليها حينذاك لتحديد مراحل التطور ومظاهره وأشكاله هى الاستنباط عن طريق ما يعرف فى الكتابات الانثروبولوجية باسم الرواسب أو المخلفات الثقافية cultural survivals وهى السمات الثقافية التى « تلكأت » فى سيرها وتخلفت عن ركب التطور ، أو على الأقل لم تتطور بنفس السرعة التى تطورت بها بقية السمات والنظم ، وأصبحت نتيجة لذلك غريبة إلى حد كبير عن الحياة الاجتماعية الحديدة فى مجملها ولم يعد وجودها يتلاءم مع بقية النظم السائدة فى ذلك المجتمع كما لم يعد لها وظيفة معينة فى الحياة الاجتماعية (١) . وتتمثل هذه المخلفات أو البقايا والرواسب

---

(١) لم تقابل فكرة الرواسب الثقافية بالرضا من علماء القرن العشرين وبخاصة العلماء الوظيفيين من أمثال مالينوفسكى الذين يرون ان لكل ظاهرة ـ

فى بعض العادات التى يمارسها المجتمع المتحضر دون أن يدرك لوجودها سبباً ، كما يتمسك بها الناس دون أن يعرفوا معناها الأصلى الذى نسوه تماماً . كذلك تتمثل هذه الرواسب والبقايا فى نفس النظم الاجتماعية والأنماط الثقافية السائدة فى المجتمعات البدائية على اعتبار أن هذه المجتمعات تمثل مراحل سابقة فى تاريخ المجتمع الإنسانى ككل . ومع أن فريزر لم يذكر لنا صراحة أى تعريف أو تحديد لمعنى الرواسب أو المخلفات الثقافية — بعكس تايلور — فالفكرة ذاتها واضحة إلى حد كبير جداً فى كتاباته ، ويبدو أنه متأثر فى هذا الصدد بما كتبه تايلور عن هذا الموضوع فى كتابه « الثقافة البدائية Primitive Culture » . كذلك اضطر هؤلاء العلماء إزاء النقص الشديد فى المعلومات الإثنوجرافية المؤكدة عن ماضى

= اجتماعية أو ثقافية وظيفة معينة تؤديها فى المجتمع الذى توجد فيه . وبذلك فان من الخطأ فى رأى هؤلاء العلماء الزعم بأن الرواسب هى سمات ثقافية لاتؤدى أى دور فى حياة المجتمع «» وعلى هذا الاساس فان ما يوصف بأنه رواسب ثقافية انما هى فى الحقيقة عناصر ثقافية أو اجتماعية يمكن الكشف عن وظائفها عن طريق البحث والتحليل العميقين . الا أن هذا الموقف الذى يقفه مالينوفسكى لايخلو هو نفسه من التطرف والغلو بحيث لايكاد يجد له أنصاراً حتى من بين تلاميذ مالينوفسكى أنفسهم الذين دلتهم خبراتهم المستمدة من دراساتهم الحقلية على وجود ظواهر اجتماعية «متخلفة» من الماضى لاتكاد ترتبط بأى شىء آخر في المجتمع الذى توجد فيه ولايكاد يكون لها أى أثر فى الحياة الاجتماعية . أنظر فى ذلك الجزء الاول من كتابنا «البناء الاجتماعى ، المفهومات» ، صفحتى ١٢٠ — ١٢١ ، أنظر ايضا كتابنا عن «تايلور» . (مجموعة نوابغ الفكر الغربى) دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ صفحات ٦٣ — ٦٧ .

تلك الثقافات إلى الالتجاء لوسيلة أخرى لا تقل سوءاً عن الاعتماد على « الرواسب » الثقافية وأعنى بها التاريخ الظنى أو التاريخ التخمينى Conjectural History الذى كان الباحث بمقتضاه يتصور وجود أحداث لم يقم الدليل على حدوثها بالفعل فى الماضى وذلك حتى تظهر نظريته فى صورة منطقية محكمة . وليس هنا مجال الإفاضة فى الحديث عن هذه الطرق والمناهج . إلا أن الإنصاف يدعونا إلى القول بأن هؤلاء العلماء ومنهم فريزر بطبيعة الحال — كانوا يحاولون قدر الإمكان الإستعانة بالمعلومات التى بدأت ترد بكثرة فى كتابات الرحالة والمبشرين عن المجتمعات الهمجية أو البدائية المعاصرة لهم ، وكانوا يفترضون أن ثقافاتها تمثل المراحل الأولى من تاريخ الثقافة الإنسانية فى عمومها ، وذلك على زعم أن « الرجل البدائى » يمثل طفولة الجنس البشرى مثلما يمثل الطفل أولى مراحل نمو الإنسان نحو النضج » والاكتمال . والهام من هذا كله هو أن علماء القرن التاسع عشر حاولوا عن طريق الأساليب والمناهج المختلفة الوصول إلى « أصل » النظم والأشياء مثلما وصل داروين إلى تحديد « أصل الأنواع » .

وعلى الرغم من أن فريزر سار فى نفس الطريق الذى سلكه علماء القرن التاسع عشر التطوريون وتأثر فى كتاباته بأفكارهم وآرائهم بحيث أصبح اسمه يتدرج تحت مجموعة المدرسة التطورية ، فلم يكن له فى حقيقة الأمر « منهج » واضح يتبعه ويتمسك به ويدافع عنه ،

بل إنه لم يحاول أن يشرح بإسهاب موقفه من دراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية التي يملأ بها كتاباته ، ولم يترك لنا بذلك نظرية متماسكة واضحة المعالم مثلما فعل غيره من العلماء المعاصرين له . فهو لم يشرح لنا مثلا رأيه فى التطور أو المراحل التطورية أو فكرة « الأصل الأول » . بل إنه لم يذكر لنا صراحة أى تعريف أو تحديد لمعنى « الرواسب » أو « المخلفات » التى ترددت كثيراً فى كتاباته والتى استعارها بغير شك من كتابات تايلور وبخاصة من كتابه « الثقافة البدائية Primitive Culture » على نحو ما ذكرنا .

والواقع أن الناحية النظرية فى كتابات فريزر تعتبر أضعف النواحى فى كتاباته وهى تثير بالتالى كثيراً من الشكوك حول مكانته فى الأنثروبولوجيا مما يضعه فى مرتبة متأخرة عن المرتبة التى يحتلها تايلور وسبنسر مثلا ، وذلك على الرغم من أنهما لم يتلقيا تعلما جامعياً منتظماً بعكس فريزر الذى عاش حياته كلها فى أروقة الجامعة . فالأفكار التى اقتبسها فريزر من المدرسة التطورية ليست فى الواقع إلا مبادىء عامة استرشد بها فى كتاباته ؛ ومن الصعب اعتبارها منهجاً صريحاً متكاملا التزم به واتبعه بدقة . وكل ما يقال عن « منهج » فريزر التطورى، هو استنتاجات نخلص إليها من قراءة كتبه العديدة التى هى فى مجموعها أقرب إلى كتب الأدب والثقافة العامة منها إلى الكتب العلمية الدقيقة بالمعنى الضيق لهذه الكلمة . ولقد كان فريزر نفسه أديباً وفناناً أكثر منه عالماً أكاديمياً وهو يعالج فى كتبه

كثيراً من الموضوعات الصعبة التي كانت ولا تزال تعتبر من أهم الموضوعات التي يتعرض لها علماء الاجتماع والأنثروبولوچيا وظهرت فيها عدة نظريات محكمة تهزأ كلها من طريقة فريزر في التفكير والتأليف والكتابة والعرض ، على اعتبار انها طريقة تتنافى تماماً مع متطلبات التفكير العلمى الدقيق الصارم . ومن هنا فإن الكثيرين من علماء الأنثروبولوچيا المحدثين ينفرون الآن من تلك الكتابات نفوراً شديداً ويرفضون اعتبارها كتابات فى الاجتماع والأنثروبولوچيا حين نخضعونها للمقاييس الحديثة المتبعة فى هذين العلمين . وامتد هذا النفور حتى أصبح نوعاً من الجحود والنكران للجهود التي بذلها فريزر فى مجال الدراسات الأنثروبولوچية بحيث نجد الآن من بين العلماء من يرفض الاعتراف بأثر فريزر وكتاباته فى توجيه الجيل التالى من الأنثروبولوچيين ، وإذا كان له أى أثر على الإطلاق فى هذا المجال فهو — فى زعمهم — أقل بكثير من أثر غيره من العلماء المعاصرين له الذين لم يتركوا مثل ذلك الانتاج الوفير من الكتابات الذى تركه فريزر .

وترجع بعض المسئولية فى ذلك إلى الطريقة التي اتبعها فريزر فى التأليف والتي تعتمد على جمع أكبر قدر ممكن من المعلومات من كل أنحاء العالم عن أى موضوع ورصها رصاً بعضها إلى جانب بعض والمغالاة فى ذكر التفاصيل التي يضيع بينها القارىء وتضيع معها أية مبادىء نظرية كان يمكن استخلاصها منها . ولقد ذكرنا

من قبل أن مثل هذه الطريقة كانت متبعة من قبل جميع العلماء فى القرن التاسع عشر وأنها السبب الرئيسى فى تضخم كتابات هؤلاء العلماء، إلا أن فريزر فاقهم جميعاً فى هذا المضمار نظراً لظروف حياته الخاصة وانقطاعه تماماً للقراءة والتأليف. ولقد أدى ذلك إلى أن تصبح كتاباته وبخاصة «الغصن الذهبى» مزيجاً غريباً من الحقائق والمعلومات الأثنوجرافية الجزئية التى تبدو لأول وهلة أنها لاتخضع لأى ضابط أو مبدأ. وان كان فريزر يسلط عليها فكرة التطور محاولا أن يردها إلى شيء من الوحدة والتماسك. ولقد وصفت روث بنديكت كتاب «الغصن الذهبى» بالذات بأنه يجمع اشتاتاً من مظاهر السلوك والتصرفات التى ينتقيها فريزر من كل الثقافات رغم مابينها من تباين ثم يحاول أن يزاوج بينها بحيث يخرج لنا فى النهاية مسخاً مشوهاً «عينه اليمنى من فيجى وعينه اليسرى من أوربا. وإحدى ساقيه من تيرا ولفويجو بينما الساق الأخرى من تاهيتى وكل أصبع من أصابع يديه وقدميه من منطقة مختلفة فهو بذلك مخلوق لا يوجد له مثيل فى الحقيقة والواقع لا فى الماضى ولا فى الحاضر(١)». وهذا قول يمكن أن يصدق على كتابات معظم علماء القرن التاسع عشر ولكنه يصدق فى المحل الأول وبكل قوة وقسوة على فريزر.

ويزيد الأمر سوءاً أن فريزر، على الرغم من تأثره الذى لاشك

---

(1) Benedict, R. : *Patterns of Culture*, Routledge.

فيه بكتابات روبرتسون سميث وتايلور ، لم يفلح فى أن يدرك دقائق نظرياتهما فضلا عن أن يتابع السير فى الطريق الذى شقه كل منهما وأن يعمل على تطوير تلك النظريات . بل إن كتاباته فى بعض الميادين أغفلت تماماً كثيراً من النواحى الهامة المثمرة التى كان هذان العالمان ، وبخاصة روبرتسون ، قد طرقاها ، وبذلك جاءت كتاباته أقل فى مستواها من كتابتهما . وربما كان أفضل مثل لذلك هو موقفه من دراسة الدين الذى يحتل مكاناً هاماً فى معظم كتبه . فالمعروف مثلا أن روبرتسون سميث كان أول من وجه الأنظار إلى العناصر الاجتماعية فى الدين وبين أن أى محاولة للوصول إلى فهم عميق للعقائد والشعائر فى أى دين من الأديان وبخاصة فى أديان المجتمعات البسيطة يجب أن تعطى جانباً كبيراً من العناية بدراسة المكونات الاجتماعية فى هذه العقائد والشعائر ، على أساس أن الدين فى تلك المجتمعات هو حصيلة الحياة الاجتماعية التى تسود هناك من ناحية، كما أنه جزء من ثقافة تلك المجتمعات من الناحية الأخرى . ومع أن هذه النظرية أفلحت فى توجيه المدرسة الفرنسية فى علم الاجتماع وتوجيه دراسات إميل دوركايم بالذات فى دراسة الدين البدائى بحيث يمكن اعتبار روبرتسون سميث هو المسئول الأول عن نظرية دوركايم فى الدين كما يعرضها فى كتابه « الصور الأولية للحياة الدينية » ، فقد أخفق فريزر كل الاخفاق فى إدراك أهمية هذه العناصر وفى متابعة المناقشات النظرية التى كان روبرتسون سميث قد بدأها .

وكان معنى ذلك أن فريزر لم يدرك – بالتالى – العوامل الاجتماعية فى الفولكور والميثولوجيا ، على الأقل بنفس العمق الذى نجده فى كتابات سميث ودوركايم ، وظل الدين والسحر بالنسبة إليه – حسب تعبير مالينوفسكى – (١) مجرد « فلسفات للحياة والمصير » حسبما كانت تظهر لذهن الرجل البدائى أو الوحشى أو الهمجى أو اليونانى أو الرومانى القديم . كذلك الحال فيما يتعلق بدراسته للتابو أو القانون ، فقد فصلهما كل الفصل عن الواقع الاجتماعى الذى يعيشان فيه باعتبارهما جزءاً من الحياة الاجتماعية . فعلى الرغم من أن دراسته لموضوع التابو تشغل مساحة كبيرة من « الغصن الذهبى » علاوة على المقال الذى كتبه لدائرة المعارف البريطانية كما ذكرنا من قبل فلم يخطر بباله أن يعالجه كجزء من القانون البدائى ، كما لم يخطر بباله أن من الصعب فهم القانون البدائى بدون النظر إلى المجتمع ككل . والشىء نفسه يمكن أن يقال فيما يتعلق بتأثير تايلور عليه . فعلى الرغم من أن فريزر نفسه يعترف بأنه مدين بالكثير لتايلور ويرد إليه فضل توجيهه إلى الاهتمام بالثقافة البدائية فإن كتاباته تخلو خلواً عجيباً من التفسيرات الحيوية Animistic التى تصبغ تفكير تايلور والتى أثرت فى كتابات الكثيرين من علماء ذلك العصر. وقد يكون ذلك دليلا على استقلال فريزر فى التفكير وفى تفسير المعلومات التى تصل إليه من الآخرين ولكنه فى الوقت

(١) Malinowski, op. cit.

ذاته يعتبر من أكبر العيوب التي تعيب كتاباته والتي ينقصها الاستناد إلى نظريات محكمة ودقيقة على عكس ما نجد فى كتابات معاصريه ، كما أن الآراء النظرية التى قد تظهر من حين لآخر من بين أكوام المعلومات الإثنوجرافية المتراكمة آراء لا تستند إلى الواقع الاجتماعى ولا تكاد تربط تلك المعلومات بالحياة الاجتماعية السائدة فى تلك المجتمعات التى استمدت منها تلك المعلومات ذاتها .



ويعكس لنا كتاب « الغصن الذهبى » أهم ملامح التفكير التطورى بكل محاسنه وعيوبه . وقد تضاربت الآراء حول أهميته وقيمته تضاربا شديداً : فبينما نجد اليوت سميث Elliot Smith الذى يُعتبر من أهم أنصار المدرسة الانتشارية أو المدرسة القائلة بانتشار الثقافة Diffusion of Culture ينعت الكتاب بأنه مجرد « هراء علمى » فإن مالينوفسكى – وهو من أهم أنصار المدرسة الوظيفية Functionalism ، يصفه بأنه إحدى الملاحم الإنسانية العظيمة ، وذلك على الرغم من أن كلتا المدرستين : الانتشارية والوظيفية تعارضان المدرسة التطورية معارضة شديدة بل إنهما

قائمًا فى الأصل لهدم آراء هذه المدرسة التى تعتمد اعتمادًا كبيرًا على التاريخ الظنى أو التاريخ التخمينى فى إقامة نظرياتها حين كان يعوزها الدليل القاطع والشواهد اليقينية على صدق ما تذهب إليه (١) .

وعلى أية حال فليس من شك فى أن « الغصن الذهبي » هو أهم كتب فريزر لا لأنه أضخم مؤلفاته التى تتصف عمومًا بالضخامة فحسب ، أو لأنه يستوعب قدرًا هائلا من المعلومات التى تجعل منه دائرة معارف هامة تعالج كثيرًا من أمور الدين والسحر والشعائر والأساطير والفواكلور ، بل أيضًا — وربما كان هذا هو النقطة الرئيسية فى الموضوع — لأن الكتاب يضم معظم جوانب تفكير فريزر ومعظم آرائه فى مختلف الموضوعات التى تناولها فى كتبه الأخرى بشيء من التفصيل. ومن هذه الناحية يعتبر « الغصن الذهبى » الكتاب الرئيسى الذى تتركز فيه خلاصة تفكير فريزر بشكل أكثر

---

(١) على الرغم من أن المدرسة الانتشارية تعيب على المدرسة التطورية افتراضها وجود مراحل معينة مرت بها الانسانية خلال تاريخها دون ان يكون ثمة دليل على وجود هذه المراحل ، فان اليوت سميث نفسه وقع فى مثل هذا الخطأ حين ذهب فى كتابه المشهور «انتشار الثقافة» وكذلك فى كتابه القصير «فى البدء In the Beginning » الى القول بانتشار الثقافة في العالم كله من مصدر واحد أصلى هو مصر القديمة ورسم الخطوط التى سارت فيها الثقافة المصرية اثناء انتشارها من مكان لآخر دون أن يكون لديه دليل على ذلك غير مجرد التشابه بين الملامح والسمات الثقافية فى مصر من ناحية والمناطق البعيدة النائية من الناحية الاخرى . فجانب كبير من نظريات اليوت سميث والانتشاريين تقوم بدورها على مجرد التخمين ■

تنسيقاً مما نجده فى الكتب الأخرى ، كما أنه هو الكتاب الوحيد الذى يربط فيه بطريقة منهجية بين تلك الآراء أو « النظريات » العديدة التى صاغها عن الدين والسحر والطوطم والتابو وأرواح الموتى وما إليها ، بحيث يستطيع القارىء — حتى القارىء المتخصص — أن يستغنى عن بقية كتاباته فيما عدا دراسته القصيرة عن النظام الطوطمى Totemism التى تتميز رغم قصرها غير المألوف فى كتاباته (١) بالعمق والإحكام . يضاف إلى ذلك أن « الغصن الذهبى » أثر تأثيراً قوياً فى الأنثروبولوچيا البريطانية فى بداية هذا القرن وذلك على الرغم من كل ما يثيره الأنثروبولوچيون المحدثون ضده من اعتراضات وانتقادات . وقد يكون هذا التأثير قد أتى بطريق غير مباشر نتيجة للمناقشات الطويلة العنيفة التى دارت حوله فى أوساط العلماء من أنصار المدرسة الوظيفية التى تعترض على جمع المعلومات والحقائق من مختلف المجتمعات والعصور وترى أن الأولى بالانثروبولوچيا أن تركز اهتمامها على دراسة مجتمع واحد معين من جميع نواحيه بحيث تدرس العلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية المختلفة السائدة فى ذلك المجتمع المعين . ولكن هؤلاء العلماء جميعاً تأثروا بدرجات مختلفة بنظرية فريزر عن النظام الطوطمى بالذات ،

(١) هذا الكتاب القصير « هو غير كتابه الذى سبقت الاشارة اليه عن «الطوطمية والاكسوجامية» والذى يقع فى ثلاثة أجزاء . والواقع أن الكتاب القصير الذى ظهر أولا عام ١٨٨٧ أصبح جزءاً من الكتاب الكبير الذى ظهرت طبعته الاولى عام ١٩١٠ .

وهى نظرية لا يزال لها بعض الاعتبار ، كما أن المنهج الذى اتبعه فى كتاباته ظل لفترة طويلة يعتبر مثالاً للمنهج المقارن وذلك قبل أن يظهر العلماء الوظيفيون فى أواخر الثلاثينيات من هذا القرن وأوائل الأربعينيات لينادوا بأنه ليس ثمة جدوى من مقارنة الأحداث الجزئية والظواهر البسيطة المفردة مثلما فعل فريزر ، وأن المقارنة العلمية يجب أن تقوم بين أنساق كاملة من هذه الظواهر ؛ لأن الظاهرة الواحدة قد توجد فى مجتمعين مختلفين فيكون لها معنيان مختلفان : فالانتقادات التى وجهت إلى فريزر إذن كانت من أهم أسباب تقدم الأنثروبولوجيا وظهور المدارس الحديثة السائدة الآن . وليس هذا بالفضل اليسير الذى يُعزى إلى كتابات فريزر ، رغم ما قد يبدو فى هذا القرن من غرابة .

وأخيراً فإنه يمكن القول إن كتابات فريزر بوجه عام « والغصن الذهبى » بوجه خاص كان لها دخل كبير فى استثارة خيال رواد الأنثروبولوجيا الاجتماعية الأوائل وحفزهم على القيام بالدراسات الحقلية بين الشعوب البدائية أو القبائل الهمجية — كما يسميها فريزر — التى كتب عنها وتناول حياتها الدينية وممارساتها الشعائرية والسحرية بالدراسة والتحليل ، وان كان مزاج فريزر الخاص قد أقعده عن الحركة والانتقال وصرفه عن السفر والرحلة لدراسة تلك الشعوب التى جعل من حياتها موضوعاً لتخصصه . ونحن نعلم أن من أهم ما يميز الأنثروبولوجيا الاجتماعية عن علم الاجتماع اهتمام الأنثروبولوجيين

بدراسة الحياة الاجتماعية عند البدائيين بالمئات ! دراسة تعتمد على الملاحظة المباشرة التى تتطلب من الباحث الإقامة الطويلة التى قد تصل إلى عامين أو أكثر فى المجتمع الذى يدرسه . ولم تكن تقاليد الدراسة الحقلية قد وضعت أيام اشتغال فريزر بتأليف « الغصن الذهبى » . ولكن الملاحظ أن أول بعثة فى تاريخ الأنثروبولوچيا فى بريطانيا خرجت من جامعة كمبردج التى ارتبط اسم فريزر بها وضمت البعثة عدداً من علماء كمبردج الذين عاصروا فريزر واتصلوا به اتصالا وثيقاً وبخاصة هادون Haddon (١) . ومع أن « الغصن الذهبى » ظهر فى طبعته الأولى عام ١٨٩٠ فقد أمضى فريزر سنوات طويلة بلا شك وهو يعد لهذا الكتاب عن طريق الاتصال بالرحالة والمبشرين ممن عملوا بين تلك الشعوب البدائية كما أنه وضع فى عام ١٨٨٧ قائمة طويلة من الأسئلة عن « أخلاق الشعوب غير

---

(١) الواقع ان فكرة قيام الانثروبولوجيين بالدراسات الحقلية بأنفسهم بدلا من الاعتماد على تقارير الرحالة اخذت تسيطر على الأذهان فى أواخر القرن الماضي . وقد بدأ العالم الامريكى بوس Boas دراساته الحقلية بين الاسكيمو فى عامى ١٨٨٣ – ١٨٨٤ اما بعثة جامعة كمبردج فقد اتجهت الى مضايق توريس Torres Straits وغينيا الجديدة عام ١٨٩٨ واشترك فيها ستة من العلماء من تخصصات مختلفة ، ولم يكن بينهم اى عالم انثروبولوجى وان كان بعضهم تحول بعدها الى التخصص فى الانثروبولوجيا مثل هادون نفسه وسلجمان Seligman وريفرز Rivers ، وقد اصبح الثلاثة فيما بعد من اساطين الانثروبولجيين قاموا بدراسات وأبحاث حقلية فى مناطق اخرى فيما بعد .

المتحضرة أو شبه المتحضرة وعاداتها وأديانها وخرافاتها (١) ، وكان يرسلها لكل من يعرف أن له صلة بالشعوب البدائية ليطلب إليه الإجابة عليها ، وضمن كتاباته المختلفة كثيراً من هذه المعلومات : وتعتبر هذه الوسيلة من الأساليب والطرائق التي يلجأ إليها بعض الأنثروبولوجيين حتى الآن لاستكمال معلوماتهم رغم ما يشوبها من عيوب .

وإذا كان كتاب « الغصن الذهبي » هو أهم كتب فريزر فهو أيضا أشهرها وأكثرها ذيوعا. ولعله الكتاب الوحيد من كتبه الذى لايزال يقرأ حتى الآن – فى صورته الموجزة التى نقدم الآن لترجمتها – خارج دائرة المتخصصين فى الأنثروبولوجيا . وإذا كان الأنثروبولوجيون المحدثون يرون أن معظم نظرياته أصبحت الآن بالية ولا يعتد بها كثيراً بالاضافة إلى بساطة هذه النظريات وسذاجتها التى قد تصل أحياناً إلى حد الفجاجة فإن للكتاب خصائص أدبية لا يمكن إنكارها مما يقربه إلى غير المتخصصين .

والكتاب رغم طوله وكثرة المعلومات فيه بشكل غير مألوف يدور حول موضوع مركزى بسيط ولكنه هام ويعتبر من أهم أشكال التنظيم الاجتماعى فى المجتمعات البدائية ، وأعنى به نظام الملك

---

(١) *Questions on the Manners, Customs, Religions, Superstitions; etc., of Uncivilized or Semi-Civilized People (1887).*
وقد اضاف اليها عدة اضافات وأدخل عليها كثيرا من التعديلات فيما بعد بحيث ظهرت عام ١٩٠٧ فى شكل كتيب قصير .

المقدس أو المؤلّه . ويبدأ الكتاب بمعالجة أسطورة قديمة مؤداها أن كاهن الإلهة ديانا فى نيمى — وهو فى الوقت ذاته ملك الغابة التى تسكنها الإلهة — لا يصل إلى مكانته السامية إلا إذا تمكن من قتل الكاهن الملك الذى يحتل تلك المكانة بالفعل واستولى منه عنوة على السلطة بنوعيها : سلطة الملك وسلطة الكهنوت ، وأنه قبل أن يفعل ذلك لابد من أن يقطع غصناً معيناً من شجرة معينة بالذات يعتقد بعض الكتاب أنه هو الغصن الذهبى الذى ورد ذكره فى شعر ڤرجيل . فإذا ما تم له النصر على خصمه كان عليه أن يعمل ما استطاع للمحافظة على حياته هو ومنصبه وأن يدافع عنهما طيلة الوقت ، فهو يدرك تماماً أنه كما قتل سلفه فسوف يُقتل بيد خلفه ؛ فهذا مصير كل ملك كاهن وقدره . ومن هذه البداية البسيطة يتتبع فريزر الأسطورة فى أشكالها وصورها المختلفة فى كثير من شعوب الأرض سواء فى العصور الغابرة أو فى الأزمان الحديثة حيث توجد الأسطورة — بل والنظام ذاته — لدى عدد من القبائل الإفريقية ، وإن كان هذا النظام قد اندثر الآن تماماً أو كاد رغم أنّ بعض هذه القبائل لا تزال تقوم بتمثيل الأسطورة حين تتقدم السن برؤسائها ويُطلب إليهم اعتزال مناصبهم وتركها لزعماء آخرين من الأجيال التالية . وقد شدت هذه الأسطورة انتباه فريزر إليها واهتم منذ البداية بالبحث عن إجابته لسؤالين هامين فى نظره ؛ الأول هو : لماذا كان يتعين على كاهن ديانا فى نيمى أن يقتل سلفه

الذى سوف يحل محله ؟ والثانى هو : لماذا كان يتحتم عليه قبل أن يفعل ذلك أن يقطع ذلك الغصن الذى أشرنا إليه والذى اتخذه عنواناً لهذا الكتاب ؟ وفى محاولته الإجابة على هذين السؤالين كتب فريزر كتابه الضخم بأجزائه الإثنى عشر ،

بيد أن الكتاب ليس على هذه الدرجة من البساطة ، فهو أبعد وأعمق بكثير من أن يكون مجرد سرد لأسطورة معينة وتتبع أشكالها ومحاولة تفسيرها على الرغم من مظهر الكتاب الخادع . فليست الأسطورة فى حقيقة الأمر سوى ذريعة يتذرع بها فريزر ليعرض رأيه فى تطور الفكر الإنسانى والمجتمع البشرى تمشياً مع التيار العام الذى كان يسود فى القرن التاسع عشر . ولقد حدد فريزر نفسه موضوع الكتاب بأنه دراسة للتطور الطويل الذى مر به فكر الإنسان وجهوده للسيطرة على العالم وعلى الكون كله خلال عدد من المراحل المتتالية التى تتصف كل مرحلة منها بطابع عقلى عام يمثل موقف الإنسان من الكون وعلاقته به . فالطابع الغالب على الكتاب إذن هو الطابع التطورى المقارن الذى يعتمد على جمع المعلومات والحقائق من جميع أنحاء العالم وفى كل الأزمان للتعرف على أوجه الشبه أو الاختلاف بينها . فهو فى جوهره كتاب فى الأنثروبولوچيا الثقافية التطورية ، شأنه فى ذلك شأن الكثير من الكتب التى صدرت عن أقلام كبار العلماء الأوائل الذين ظهروا فى ذلك القرن من أمثال تايلور وباخوفن J.J. Bachofen وسير هنرى مين

ولويس مورجان Sir Henry Maine وماكلينان McLennan
وغيرهم من العلماء التطوريين الذين اتبعوا المنهج التطورى المقارن وأرسوا بذلك قواعد الأنثروبولوچيا الاجتماعية والأنثروبولوچيا الثقافية، على الرغم من كل الأخطاء التى وقعوا فيها نتيجة لاعتمادهم على التاريخ التخمينى وعلى الافتراضات التى لا تستند إلى الشواهد والأدلة المؤكدة الثابتة ، وإن كان فريزر يقل عن هؤلاء جميعاً فى قدرته على التفكير النظرى ، كما أنه لم يلبث أن أسقط من حسابه تماماً كل محاولة لتحليل المعلومات التى جمعها والتى تزخر بها كتبه التى ظهرت بعد « الغصن الذهبى » وبخاصة كتبه المتأخرة التى لم تعد أن تكون مجرد سرد وصفى للظواهر الاجتماعية والثقافية فى مختلف أنحاء العالم .

ولقد مر العالم فى رأى فريزر من حيث العلاقة بين الإنسان والكون بثلاث مراحل كبرى هى مرحلة السحر ثم مرحلة الدين وأخيراً مرحلة العلم الذى يعتبره فريزر قمة ما وصل إليه الإنسان من ناحية ونهاية الإنسان نفسه التى سوف يلقى حتفه فيها من ناحية أخرى . وفكرة التمييز بين ثلاث مراحل فى تاريخ الإنسان والمجتمع فكرة كانت شائعة شيوعاً كبيراً فى كتابات علماء الاجتماع والأنثروبولوچيا فى القرن التاسع عشر وان اختلفت التسميات من عالم لآخر . إذ نصادفها فى قانون الحالات الثلاث الذى قال به أوجيست كونت Auguste Conte والذى بمقتضاه ميز بين

ثلاث حالات أو مراحل أساسية للمجتمع الإنسانى هى المراحل اللاهوتية والميتافيزيقية ثم الوضعية . ولكن هذا التقسيم الثلاثى بلغ ذروته عند علماء الأنثروبولوجيا الأوائل الذين أفاضوا - كل على طريقته الخاصة وتبعاً لتصوره لتاريخ العالم وحسب نظريته فى ذلك - فى شرح خصائص كل مرحلة من هذه المراحل الثلاث ومميزاتها وأهم ملامحها وعلاقتها بالمرحلتين الأخريين . وربما كان تقسيم لويس مورجان هو أهم هذه التقسيمات ، أو على الأصح أكثرها ذيوعاً ، نظراً لأنه اكتسب فيما بعد بعض المضامين السياسية حين اتخذه فلاسفة الشيوعية أساساً من الأسس التى أقاموا عليها نظريتهم السياسية . ولقد ميز مورجان فى تاريخ العالم بين ثلاث مراحل رئيسية هى الوحشية أو الهمجية Savagery والبربرية Barbarism ثم الحضارة الحديثة . بل إنه حين أراد التمييز داخل كل مرحلة من المرحلتين الأوليين بين فترات زمنية وحضارية متمايزة قسم كل مرحلة منهما إلى ثلاث فترات هى الدنيا والوسطى والعليا . فكأن فريزر فى محاولته التمييز بين ثلاث مراحل فى تاريخ الإنسان وعلاقته بالكون ومحاولته السيطرة عليه وتسخيره لصالحه الخاص إنما كان يسير فى نفس التيار الفكرى الذى كان يسود فى ذلك العصر . والاختلاف الوحيد فى هذا الصدد هو الزاوية التى نظر منها إلى ذلك التاريخ . فبينما كان غيره من العلماء يقيم تصنيفه على أساس التمايز فى أنماط الحياة الاقتصادية أو السياسية أو الجنسية أقام فريزر

نظريته على أساس التمايز فى نظرة الإنسان إلى الكون الذى يحيط به ونوع العلاقات المتبادلة بين الإنسان من ناحية وبقية الكائنات التى تعمر هذا الكون والظواهر الطبيعية الهامة من الناحية الأخرى . وفريزر يقترب فى ذلك اقترابا شديداً من موقف تايلور وإن لم يتعمق فى تحليل هذه العلاقات بنفس الطريقة أو على نفس المستوى اللذين نجدهما عند تايلور .

٤

وتعتبر نظرية السحر والدين أهم ما أسهم به فريزر فى الدراسات الأنثروبولوچية التطورية وإن كانت له بعض نظرات مقبولة فى علاقة النظام الطوطمى والزواج الإكسوجامى على ما سبق أن ذكرنا . وربما كان أطرف ما فى هذه النظرية محاولته الربط والتقريب بين السحر والعلم اللذين يقفان موقف التعارض مع الدين ، ولكنهما يقومان على أسس ومبادئ منطقية واحدة تعتمد على تداعى المعانى أو ترابط الأفكار وإن كانت عملية التداعى فى السحر تتم بطريقة خاطئة . فالسحر صورة من صور تطبيق — أو على الأصح إساءة تطبيق — مبادىء تداعى وترابط المعانى ، ولذا يُطلق عليه

فى كتابات كل من تايلور وفريزر اسم « العلم الزائف » أو « العلم الكاذب » pseudo-science . (١) وليس ثمة ما يدعو إلى الدخول هنا فى كثير من التفاصيل عن نظرة فريزر إلى السحر ، فهو يعرضها فى هذا الكتاب عرضاً دقيقاً وطريفاً وبكثير من التفاصيل ويبرز رأيه بكثير جداً من الأمثلة التى يستمدها من كل أنحاء العالم . ويكفى هنا أن نشير إلى المبدأين الأساسيين اللذين يقوم عليهما السحر وهما المبدأ القائل بأن «الشبيه ينتج الشبيه» والمبدأ القائل « باستمرار التأثير المتبادل بين الأشياء المتصلة حتى بعد انفصالها بعضها عن بعض » ، أى أن الأشياء التى كانت متصلة فى وقت من الأوقات يؤثر أحدها فى الآخر بعد أن يتم انفصالها . ويعتبر هذان المبدآن فى نظر فريزر قانونين للسحر البدائى ، أو على الأصح موقف البدائى من السحر ، وإن كان البدائيون أنفسهم عاجزين بحكم الواقع عن صياغة هذا الموقف أو تلك النظرة فى شكل مبادئ وصيغ وقوانين مجردة ، على الرغم من أنهم يتخذون من هذين المبدأين أساساً لفهم مجريات الأمور وكل أحداث الطبيعة التى تتم بدون أى تدخل من الإرادة الإنسانية ، وعلى الرغم أيضاً من اعتمادهم عليهما فى تسخير قوى الطبيعة لصالحهم الخاص . فنظرية السحر عند فريزر هى فى الحقيقة نظريته فى موقف الرجل البدائى من العالم ونظرته إليه ، وهى

---

(١) انظر فى ذلك كتابنا عن « تايلور » المرجع السابق ذكره ، صفحات ٨٤ — ١٠٠

نظرة تقوم على التجربة وعلى الملاحظة والخبرة الطويلة بظواهر الحياة وأحداثها وتقلبات الفصول ، وكلها أسس هامة فى قيام العلم والتفسير العلمى . ومن هنا كان الربط والتقريب بين السحر والعلم فى كتابات فريزر :

وتفسير السحر بالخطأ فى تداعى الأفكار وترابطها يثير فى الذهن ما ذهب إليه عالم الاجتماع الفرنسى لوسيان ليفى بريل Lucien Lévy-Bruhl من أن العقلية البدائية عقلية سابقة على المنطق Pré-logique ، وهو قول أخطأ فهمه الكثيرون من الكتاب وهاجموا بذلك ليفى بريل ونظريته حيث اعتقدوا — خطأ — انه يقصد القول بأن الرجل البدائى عاجز عن التفكير المنطقى . والواقع أن كل ما كان يقصده ليفى بريل بجملته المشهورة هو أن للرجل البدائى منطقاً يختلف عن منطق الرجل الحديث نظراً لاختلاف الأصول التى يستمد منها كل من الرجل البدائى والرجل المتحضر فى المجتمعات الغربية مادة تفكيره ، وكذلك نظراً لاختلاف الظروف التى تحيط بكل منهما ، وهو قول لا غبار عليه . وكثير من النظريات الحديثة عن السحر ومحاولة تفسيره تبين لنا أن خطوات التفكير التى يسير فيها عقل الرجل البدائى خطوات منطقية تماماً بالنسبة له ولظروف حياته والبيئة التى يعيش فيها . فما نسميه نحن سحراً هو « علم » الرجل البدائى الذى يتحدد على معرفته بأسرار الكون وظواهر الطبيعة ، بينما ينشأ الدين من أصول أو مبادئ مختلفة كل الاختلاف

عن الأصول أو المبـادىء التى يقوم عليها علم البدائيين (السحر) الذى نسميه علماً زائفاً أو كاذباً ، وعلم المتحضرين على السواء . وربما كان ذلك هو السبب الرئيسى فى اهتمام علماء الأنثروپولوچيا والاجتماع بالتمييز بين السحر والدين وتبيين التعارض بينهما مما أدى إلى ظهور كثير من النظريات التى تعتمد كل منها على مقاييس مختلفة للتمييز بين الاثنين .

ولقد أقام فريزر تمييزه بين السحر والدين على أساس أن الدين يشترط الاعتقاد فى الكائنات الروحية أو الإلهية والأرباب بينما يتألف السحر من الأعمـال والممارسات والشعائر التى تتصل بالكائنات الأخرى . ويتفق رأى فريزر مع رأى معظم علماء الاجتماع والأنثروپولوچيا فى القرن التاسع عشر وأوائل هذا القرن فى أن السحر أسبق فى الزمن من الدين . ولقد كان الرحالة والمبشرون والعلماء الأوائل على العموم يفترضون أن الرجل البدائى لا يعرف الدين الذى يرتبط فى نظرهم بالأشكال الأكثر تقدماً من الحضارة . وحتى تايلور Tylor نفسه ، على الرغم من أنه لم ينكر وجود الدين كل النكران فى الأشكال البدائية للحياة الاجتماعية ، كان يرى أن فكرة الله لم تظهر إلا فى مرحلة متأخرة من تاريخ الإنسانية بعد تطور طويل فى التفكير الحيوى أو الأنيمى animism الذى كان يرى الحياة والروح منتشرين بصورة أو بأخرى فى كل الموجودات وجميع الكائنات .

وقد بلغ من شيوع هذه الفكرة وسيطرتها على الأذهان أن ضاعت الأصوات التى أرادت التدليل على أن فكرة الله كانت موجودة دائماً فى ضمير البشرية ومنذ أقدم العصور ، وأن الرجل البدائى فى كل المجتمعات المتأخرة المعروفة لنا عنده فكرة الدين (١) . فالرأى السائد إذن بين هؤلاء العلماء هو أن السحر مهد لظهور الدين، وأن معظم الممارسات والطقوس التى يمارسها البدائيون والتى تتصل بعالم الغيبيات وبالكائنات الإعجازية أو الخارقة للطبيعة هى ممارسات وطقوس سحرية ، ولم يشذ فريزر عن ذلك الرأى أو يخرج عليه .

واختلاف النظريات التى تدور حول التفرقة بين السحر والدين وتعدد هذه النظريات يكشف لنا عن صعوبة التمييز بينهما . والكتابات الأنثربولوجية زاخرة بالآراء والقواعد والأسس المتضاربة التى يحاول أصحابها الالتزام بها فى محاولتهم التمييز بين الاثنين . ولكن معظم الآراء تكاد تتفق على عدد من الأسس الهامة ؛ أولها أن السحر له القدرة على « إجبار » عالم ما فوق الطبيعة أو عالم الغيبيات على تحقيق مطالبه ، وأن الممارسات السحرية لا يمكن أن تفشل فى تحقيق

(١) يعتبر آندرو لانج Andrew Lang من أهم أنصار الراى القائل بقدم فكرة الدين عند الانسان . وقد هاجم لانج كتابات فريزر وبخاصة الغصن الذهبى هجوما عنيفا ومريرا امتنع فريزر على اثره من قراءة أى نقد يوجه الى كتاباته نظرا لما أصابه من اضطراب بعد قراءة نقد لانج صرفه مدة طويلة عن الكتابة والتاليف .

النتائج المرجوة إلا نتيجة ارتكاب أحد الأخطاء أثناء ممارسة تلك الطقوس أو نتيجة لتدخل سحر آخر مضاد يكون أقوى مفعولا وذلك بعكس الدين الذى لا يحقق – فى رأى أنصار فريزر على الأقل – النتائج المطلوبة فى كل الأحوال نظراً لأنه يقتصر على التضرع والابتهال والسؤال دون القيام بأى عمل إيجابى لتحقيق مطالبه.

ومن ناحية أخرى فإن الممارسات السحرية لا يمكن القيام بها على مستوى المجتمع كله ، أو الجانب الأكبر منه ، كما هى الحال بالنسبة للدين ، بل إنها كثيراً ما تمارس فى الخفاء وقد لا يكون لها أى مظهر اجتماعى على الاطلاق . ومن أهم الاختلافات بين السحر والدين أن السحر يعتمد على عبارات تعاويذ وصيغ كثيراً ماتكون غير مفهومة حتى للأشخاص الذين يستخدمونها ، وذلك بعكس الدين الذى يستخدم اللغة العادية السائدة فى المجتمع ، وأخيراً فإن السحرة يؤلفون جماعة منعزلة عن رجال الدين كما أن نظرة المجتمع إليهم تختلف اختلافاً كبيراً عن نظرته إلى رجال الدين ، إذ يعتبرهم أقل منهم مكانة وأدنى فى المرتبة حتى وإن كان بعضهم يسخر سحره لصالح الجماعة كلها . ذلك كله بالإضافة إلى أن رجل الدين يحتاج فى العادة إلى فترة إعداد طويلة قبل أن يباشر وظيفته ، وهى وظيفة يعترف بها المجتمع نفسه ويقرها ، وذلك بعكس الحال بالنسبة للسحر ، أو على الأقل بعض أنواعه وبخاصة السحر الأسود Black Magic أو السحر الضار : ولكن على الرغم من هذه

الأسس فكثيراً ما يفشل العلماء فى التمييز بين ما هو سحر وما هو دين (١) ، وكثير جداً من الأمثلة التى يوردها فريزر للسحر فى « الغصن الذهبى » يمكن بسهولة أن تؤخذ على أنها شعائر دينية . ويبدو أن فريزر نفسه أحس بذلك إذ يشير فى أكثر من موضع من كتابه إلى أن بعض العناصر الدينية قد تجد طريقها إلى الممارسات السحرية ، ولكن ذلك لا يحدث فى رأيه إلا فى المراحل الأكثر تقدماً فى تاريخ الحضارة .

ومهما يكن من أمر هذه الاختلافات فإن الرأى السائد بين علماء الأنثروبولوجيا المحدثين الذين قاموا بدراسات وأبحاث حقلية بين الشعوب المتخلفة والتقليدية هو أن كلاً من السحر والدين يقتضى نوعاً مختلفاً من السلوك الاجتماعى رغم أنهما يتعلقان بعالم الغيبيات ويستعينان بالكائنات الروحية أو بالقوى الخفية الخارقة للطبيعة لتحقيق الطمأنينة والهدوء وراحة البال والتوفيق . ويقف العلماء المحدثون من دراسة السحر والدين والعلم موقفاً يختلف كل الاختلاف عن موقف فريزر ومعاصريه من علماء القرن التاسع عشر . فهم لا ينظرون إليها على أنها مراحل أو حالات مختلفة ومتمايزة يمر بها المجتمع الإنسانى فى تطوره ، واحدة بعد الأخرى عبر الزمن ، وإنما يعتبرونها ثلاثة أنماط من النشاط العقلى ، أو ثلاث وجهات

(١) انظر فى ذلك كتابنا عن «البناء الاجتماعى» ، الجزء الثانى (الأنساق) دار الكاتب العربى للطباعة والنشر الاسكندرية ١٩٦٧ صفحات ٥٢٥ – ٥٣٧ .

نظر إلى الكون وأحداث الطبيعة وأنها توجد جنباً إلى جنب فى المجتمع الواحد وفى وقت واحد ويؤثر بعضها فى بعض كما تؤثر بأشكال ودرجات مختلفة فى السلوك الإنسانى . ومن الإنصاف أن نقول إن فريزر ، رغم منهجه التطورى الواضح ورغم ترتيبه للمراحل التى مر بها الفكر الإنسانى من السحر إلى العلم ومروره أثناء ذلك بالدين فإنه يذكر أمثلة كثيرة فى « الغصن الذهبى » تبين وجود هذه الحالات الذهنية الثلاث معاً فى المجتمع وتبين التأثير المتبادل بينها ، كما أنه لم يغفل تماماً المظاهر المختلفة للسلوك البشرى فى المجتمعات التى يتعرض لها بالذكر . وهذا معناه أن بعض ملامح المنهج « الوظيفى » فى دراسة المجتمع — وهو المنهج الذى يسيطر الآن على الدراسات الأنثروبولوجية — ظهرت فى كتابات فريزر مثلما ظهرت فى كتابات تايلور ومورجان وغيرهما من العلماء التطوريين ، وإن كان الطابع الغالب على كتاباتهم هو الطابع التطورى الذى لا يهتم كثيراً — بعكس الحال فى الدراسات الوظيفية — بدراسة العلاقات المتبادلة بين النظم الاجتماعية المختلفة التى توجد معاً فى المجتمع ، ويحاول بدلا من ذلك أن يتعرف على أصل هذه النظم والعلاقات « التاريخية » بينها . ومن هنا ظهر الانتقاد الذى كثيراً ما يوجه إلى فريزر — والذى لا يخلو من الصحة — من أنه لم يحاول أن يدرس الممارسات السحرية والدينية على أنها ظواهر اجتماعية يقتضى فهمها ضرورة الإلمام ببقية النظم والأنساق الاجتماعية وكذلك نسق القيم السائد فى المجتمع ،

كما يستلزم الأخذ فى الاعتبار بوجهة نظر الناس أنفسهم عن الشعائر التى يمارسهونها ومعناها الاجتماعى بالنسبة إليهم دون الاكتفاء بتقديم تفسيرات الباحث نفسه لتلك الشعائر . فالأمر يحتاج إلى معرفة التفسيرات والتعليلات التى يقدمها أفراد المجتمع لسلوكهم الشعائرى والسحرى والدينى ، وهو ما لم يكن يهتم به فريزر ومعاصروه الذين كانوا يهتمون فى المحل الأول بتقديم تفسيراتهم وتأويلاتهم هم أنفسهم ، وهذه كانت متأثرة بغير شك بالمفهومات والتصورات المستمدة من واقع الحياة الشعائرية السائدة فى المجتمعات الغربية فى القرن التاسع عشر.

٥

ويدفعنا هذا إلى التساؤل عن المركز الحقيقى الذى يحتله فريزر فى الأنثروبولوجيا وعن مكانته بين الأنثروبولوجيين ومدى تأثيره فى التفكير الأنثروبولوجى على العموم . ولقد سبق أن رأينا كيف أن الكتاب يختلفون فيما بينهم فى تقويم أعمال فريزر وكتاباته وبخاصة « الغصن الذهبى » الذى اعتبره البعض نوعاً من الهراء والسخف العلمى وأنه أشبه شيء بالمسخ المشوه بينما يرتفع به البعض

الآخر إلى مستوى أرقى الملاحم الإنسانية الرفيعة . وهذا الاختلاف نفسه لا يزال قائماً بين العلماء المحدثين . فبينما نجد العلماء الشبان المتمردين على التقاليد الأنثروپولوچية القديمة يوجهون الكثير من النقد اللاذع الملىء بالسخرية إلى كتابات فريزر على نحو ما يفعل چارڤى Jarvie مثلاً يقوم بعض الأساتذة الكبار بالدفاع عنه والسخرية من الساخرين كما فعل ليتش Leach فى سخريته من چارڤى والانتقادات التى يوجهها إلى فريزر . ومن الإجحاف أن نطبق على فريزر المعايير التى تستخدم الآن فى الدراسات الأنثروبولوجية أو أن نحكم على كتاباته بالمناهج المتبعة حالياً عند العلماء المحدثين . فلم تكن الدراسات الحقلية التى تعتبر الآن أداة البحوث الأنثروپولوچية قد عرفت حين عكف فريزر على التأليف ، كما أن المدارس والاتجاهات السائدة الآن فى الأنثروپولوچيا الاجتماعية وبخاصة الاتجاه البنائى الوظيفى لم تكن قد تبلورت واتضحت فى أذهان علماء القرن الماضى وإن كانت بوادرها قدأخذت فى الظهور كما أن المنهج المقارن بالمعنى السائد الآن لم يكن معروفاً فى ذلك الحين وكانت المقارنة تعنى بكل بساطة محاولةتبيين أوجه الشبه أو الاختلاف بين ظواهر جزئية يجمعها الدارسون من كل زمان ومكان على ما ذكرنا من قبل . ولو أخذنا هذه الاعتبارات كلها فى الحساب فإنه يمكن القول بدون تردد إن فريزر كان يعتبر من أكبر علماء عصره ، وأنه إذا كانت أهميته فى الوقت الحالى قد تضاءلت وكادت تتوارى

فإن ذلك يرجع فى حقيقة الأمر إلى انحسار أهمية الكتابات الأنثروپولوچية التطورية وتراجع النظريات التطورية فى الأنثروپولوچيا أمام تيار النزعة الوظيفية البنائية الجارف نتيجة لتقدم الدراسات الحقلية . ومع ذلك فإنه على الرغم من كل ما يثيره المتشككون فى كتابات فريزر من انتقادات فإن التقارير الحقلية التى جاءت من رواد الأنثروپولوچيا الذين اتصلوا اتصالا وثيقاً بالمجتمعات البدائية من أمثال سير بولدوين سبنسر B. Spencer وچيلين Gillin أيدت إلى حد كبير كثيراً من آرائه عن الرجل البدائى .

ومهما كانت نظرة العلماء « الكبار » إلى كتابات فريزر فلا يزال لهذه الكتابات وللغصن الذهبى بالذات تأثير هائل فى المبتدئين فى الدراسات الأنثروپولوچية كما أنها تعتبر ، شأنها فى ذلك شأن كتابات عدد قليل محدود من العلماء المحدثين من أمثال مارجريت ميد Margaret Mead ، من الكتب الجذابة التى تحبب الأنثروپولوچيا إلى نفوس هؤلاء المبتدئين ، ولذا فإنها تعد خير مدخل لهذه الدراسات على الرغم من كل ما يؤخذ عليها ويوجه إليها من انتقادات ، وعلى الرغم من أن معظم العلماء المحدثين يضعون « الغصن الذهبى » بين كتب الأدب الإنجليزى وليس بين كتب الأنثروپولوچيا : ولقد تعدى هذا التأثير مجال الأنثروپولوچيا بالمعنى الدقيق للكلمة إلى كثير من المجالات العلمية الأخرى ، واعتمد كثير من العلماء — وبخاصة علماء التحليل النفسى — على المعلومات الكثيرة التى يزخر

بها «الغصن الذهبي» فى إقامة نظرياتهم . ولعل أفضل مثل لذلك هو اعتماد سيجموند فرويد فى كتابه عن «الطوطم والتابو» على ذلك الكتاب واستمداده كثيراً من الأمثلة منه . والغريب فى الأمر أن فريزر لم يكن يأبه كثيراً بفرويد ونظرياته بل كان يأبى أن يقرأ ما يكتبه هو وأعضاء مدرسته كما كان يحمل الكثير من الاحتقار للتحليل النفسى ذاته ولكل ما يتصل به (١). ويعتبر الكثير من العلماء هذا الموقف من جانب فريزر دليلا على ضيق نظرته رغم اتساع معلوماته ، وعلى تحيزه وتعصبه لآرائه واعتزازه الشديد بتلك الآراء وهو اعتزاز كثيراً ما كان يؤدى إلى إلحاق الأذى بسمعته . فقد صرفه عن مناقشة آراء الآخرين فى كتاباته والتعرف على وجهة نظرهم فى الموضوعات التى يعالجها . وحين سلط عليه آندورو لانج لسانه اللاذع - كما ذكرنا - ووصف كتاب «الغصن الذهبى» وما فيه من نظريات وآراء ومعلومات بأنه «سوق خضار» المدرسة الأنثروبولوچية انتاب فريزر كثير من الألم والاضطراب بحيث أوقف العمل كلية لمدة طويلة .

وهذا كله يعزز الرأى الذى يسود بين جمهرة مؤرخى الأنثروبولوچيا من أنه على الرغم من التأثير العميق الذى كان فريزر يتركه فى الناس والتلاميذ والقراء بكتاباته فلم يكن أستاذاً بمعنى الكلمة . فقد كان عزوفاً بل عاجزاً عن المناقشة ، منطوياً على نفسه

(١) Kardiner and Preble, op. cit.

فى الأوساط العلمية ولذا كانت نظرياته تعانى الكثير من الضعف والقصور . بيد أنه يبقى له الفضل رغم ذلك كله فى إثارة الحماس فى نفوس الكثيرين من شباب العلماء فى عصره ممن أمكن لهم السير بخطى ثابتة فى الطريق الذى شقه لهم الأستاذ . ويكفى أن نقرأ لأحد هؤلاء العلماء الذين ترتبط الأنثروپولوچيا الآن باسمهم ، ونعنى به مالينوفسكى ، ما يقوله عن فضل فريزر عليه وأثره فى توجيهه وتشجيعه أثناء دراسته الحقلية فى غينيا الجديدة وميلانيزيا من أن « الخطابات والرسائل التى تسلمتها من فريزر أثناء اقامتى هناك ساعدتنى بما أثارته من إيحاءات وتساؤلات وتعليقات أكثر من أى تأثير آخر . » كما يبقى له بعد ذلك كله أيضاً الفضل فى جمع كل تلك المعلومات الهائلة من جميع الثقافات والشعوب والعصور وتقديمها للقارىء بطريقة مشوقة . وقد تكون النظريات التى أقامها فريزر نظريات ساذجة بسيطة خاطئة ، لكن كتاباته لا تزال تدعو العلماء المحدثين إلى إعادة النظر فى كل تلك الذخيرة المتنوعة من المعلومات وإعادة دراستها وتحليلها من زوايا جديدة بعد أن تقدمت النظرية الاجتماعية والأنثروپولوچية وظهر كثير من الاتجاهات والمدارس التى لم يكن لها وجود من قبل .

وقد يكون فى نقل هذا الكتاب إلى اللغة العربية ما يساعد المشتغلين بالدراسات الاجتماعية والأنثروپولوچية فى العالم العربى على ارتياد بعض آفاق البحث العلمى التى لم تلق حتى الآن ما تستحقه من اهتمام ،

وعلى بذل مزيد من العناية بدراسة تراثنا القديم وآدابنا الشعبية وثقافاتنا التقليدية المتنوعة فى ضوء النظريات الحديثة حتى نصل الى فهم أعمق وأفضل لذلك التراث وتلك الآداب والثقافات التى لا تزال تؤثر بشكل أو بآخر فى حياتنا ونظمنا وقيمنا الروحية والأخلاقية والاجتماعية . والله ولى التوفيق .

أحمد أبوزيد

الاسكندرية سبتمبر ١٩٧٠

أهم أعمال فريزر

(نكتفي هنـــا بذكر اهم كتب فريزر ـ غير كتاب « الغصن الذهبي » الذي يقع في اثني عشر مجلدا . وقد طبع معظم هذه الكتب عدة مرات ، ولكننا نذكر هنا تاريخ الطبعة الأولى فقط . وقد تولى نشر هذه الكتب دار ماكميلان Macmillan بلندن الا في الحالات التي سوف نشير اليها)

1887 1) *Questions on the Manners, Customs, Religions, Superstitions, etc., of Uncivilized or Semi-Civilized Peoples.*

2) *Totemism,* Edinburgh, Adam and Charles Black.

1895 *Passages of the Bible,* London, Adam and Charles Black.

1898 *Pausanias's Description of Greece,* Translated with a Commentary, six volumes.

1905 *Lectures on the Early History of Kingship.*

1908 *The Scope of Social Anthropology.* A lecture delivered before the University of Liverpool, May 14, 1908.

1909 *Psyche's Task, A Discourse concerning the Influence of Superstitions on the Growth of Institutions.*

1910 *Totemism and Exogamy, A Treatise on certain Early Forms of Superstition and Society* (four volumes).

1913 *The Belief in Immortality, The Belief Among the Aborigines of Australia, the Torres Straits Islands, New Guinea and Melanesia* (three volumes, vol. II in 1922, vol. III in 1924).

1915 *Essays of Joseph Addison* (two volumes).

1917 1) *Studies in Greek Scenery,* Legend and History.
2) *Folklore in the Old Testament, Studies in Comparative Religion, Legend and Law* (three volumes).

1920 *Sir Roger de Coverley and other Literary Pieces.*

1921 *Apollodorus, The Library* (two volumes).

1923 *Sir Ernest Renan,* Paris, Geuthner and Co.

1926 *The Worship of Nature.*

1929 *Publii Ovidii Nasonis Fastorum Libri Sex* (five volumes).

1930 1) *Graecia Antiqua.*
2) *Myths of the Origin of fire.* An Essay.
3) *The Growth of Plato's Ideal Theory.*

1933 1) *Condorcet on the Progress of the Human Mind,* Oxford.
2) *The Fear of the Dead in Primitive Religion* (three volumes, vol. II in 1934, vol. III in 1936).

1935 *Creation and Evolution in Primitive Cosmogonies.*

1936 *Aftermath : A Supplement in the Golden Bough.*

1937 *Totemica : A Supplement to Totemism and Exogamy.*

38/39 *Anthologia Anthropologica* (four volumes, Passages Selected from Frazer's Notebooks and Edited by R.A. Downie).

تصدير المؤلف

« الهدف المبدئى لهذا الكتاب هو تفسير القاعدة الغريبة التى كانت تنظم عملية تولى منصب الكهنوت الخاص بالإلهة ديانا فى أريكيا . وحين عكفت لأول مرة منذ أكثر من ثلاثين سنة على دراسة هذه المشكلة لايجاد حل لها كنت أعتقد أن هذه مسألة هينة ميسورة ؛ ولكننى لم ألبث أن أدركت أن الوصول إلى حل جائز أو حتى مقبول عقلا يحتاج إلى مناقشة عدد كبير من المسائل العامة الأخرى التى لم تكد تحظى بعناية أحد من الدارسين حتى الآن . ولقد شغلت مناقشة هذه المسائل والموضوعات المتفرعة عنها حيزاً كبيراً من الكتاب كان يتسع و يمتد فى الطبعات المتتالية ، كما أن البحث ذاته تشعب فى مختلف الأنحاء بحيث أن الكتاب الذى كان يتألف فى الأصل من مجلدين اثنين تضخم حتى أصبح يضم اثنى عشر مجلداً . وفى الوقت ذاته أبدى الكثيرون رغبتهم فى أن يروا للكتاب طبعة موجزة . والمجلد الحالى هو محاولة للاستجابة لهذه الرغبة ، وبالتالى لتيسير الكتاب ووضعه فى متناول عدد أكبر من القراء . ومع أن حجم الكتاب انكمش و تقلص إلى حد كبير جداً ، فقد بذلت جهدى لكى أحتفظ

فى هذا المجلد بالمبادىء الأساسية التى قام عليها الكتاب الأصلى ، وأبقيت فيه على قدر كبير من الشواهد والأدلة التى توضح تلك المبادىء بجلاء ، كما حافظت فى الأغلب على لغة الكتاب الأصلية رغم أننى أوجزت فى الوصف فى بعض المواضع . وقد اضطررت إزاء الرغبة فى الابقاء على أكبر قدر ممكن من النص ذاته إلى حذف كل التعليقات والهوامش بل كل المراجع والمصادر التى اعتمدت عليها أيضاً . وعلى ذلك فإنه يتعين على القارىء الذى يريد التحقق من مصدر أى حكم معين بالذات الرجوع إلى الكتاب الأصلى الكبير الملىء بالأسانيد والذى زودته بقائمة كاملة للمراجع :

ولم أضف لهذا الكتاب الوجيز أية معلومات جديدة ، كما أننى لم أغير أو أبدل فى الآراء التى أبديتها فى الطبعة الأخيرة ، وذلك لأن كل المعلومات التى وصل إليها علمى فى هذه الفترة كانت إما شواهد وأدلة جديدة تعزز النتائج السابقة وتؤكدها ، وإما أمثلة جديدة توضح المبادىء القديمة . مثال ذلك أن المعلومات المتعلقة بعادة ممارسة قتل الملوك فى نهاية فترة زمنية معينة من بدء حكمهم أو حين تتدهور قواهم الصحية والجسمية زادت زيادة هائلة تدل على مدى شيوع هذه العادة وانتشارها . ومن الأمثلة الصارخة لذلك النمط من الحكم الملكى المحدد بفترة زمنية مرسومة النظام الذى كان سائداً فى مملكة الخزر القوية التى قامت فى جنوب روسيا فى القرون الوسطى ، حيث كان الملوك يتعرضون للموت إما عند نهاية فترة زمنية محددة

وإما حين تنزل بالبلاد إحدى الكوارث العامة كالجدب أو القحط أو الهزيمة فى الحرب ، مما كان يُعتبر علامة على اضمحلال قواهم الطبيعية وتدهورها . ولقد سبق لى أن جمعت فى مكان آخر (١) القرائن والشواهد الخاصة بنظام قتل ملوك الخزر ، وهى مستمدة فى عمومها من كتابات الرحالة العرب القدامى . كذلك تزودنا إفريقيا بكثير من الأمثلة الحديدة عن نظام مماثل لقتل الملوك . وربما كان أبرز هذه الأمثلة العادة التى كانت متبعة فى الماضى عند البونيورو Bunyoro والتى تقوم على اختيار «ملك زائف» كل عام من عشيرة معينة بالذات ويفترضون أنه يتقمص شخصية الملك الراحل ويباح له بذلك الاتصال جنسياً بأرامله فى المعبد الذى دفن فيه الملك ثم يقتلونه بعد أن يحكمهم لمدة أسبوع (٢) . وتشبه هذه العادة عيد السكايا Sacaea عند البابليين القدماء شبهاً قوياً : فقد كان البابليون يختارون لذلك العيد ملكاً زائفاً يضعون عليه ملابس الملك الحقيقى ويبيحون له الاستمتاع بمحظياته وتولى مقاليد الحكم فيهم لخمسة أيام يجردونه بعدها من ملابسه ويُنزلون به أشد أنواع العذاب حتى يلقى حتفه . وقد تم العثور أخيراً على بعض النقوش

(١) J.G. Frazer «The Killing of the Khazer Kings», *Folklore*, XXVIII (1917) pp. 382-407. المؤلف

(٢) Rev. J. Roxoe, *The Soul of Central Africa* (London, 1922), p. 200 ; J.G. Frazer, « *The Mackie Ethnological Expedition to Central Africa Man* », XX, (1920), p. 181. المؤلف

الأشورية (١) التي تلقي مزيداً من الضوء على هذا المعبد والتي يبدو أنها تعزز تفسيرنا له على أنه احتفال بالسنة الجديدة وأنه هو أصل عيد البوريم Purim عند اليهود (٢) . ومن الأمثلة المشابهة لنظام الملوك الكهنة السائد فى أريكيا أيضاً والتى وصل إليها علمنا حديثاً نظام الكهنة والملوك الأفريقيين الذين كانوا يُرسلون إلى حتوفهم فى نهاية فترات زمنية تتراوح بين عامين وسبعة أعوام كانوا يتعرضون خلالها لكثير جداً من الهجمات إلى أن يتمكن أحد الرجال الأشداء من قتلهم وتولى منصب الكهنوت أو الملك بعدهم (٣) .

إزاء كل هذه الأمثلة وغيرها من العادات المماثلة لم يعد من الميسور أن تعتبر قاعدة الخلافة أو تولى منصب الكهنوت الخاصة بالإلهة ديانا فى أريكيا حالة استثنائية . فهى تمثل بلا ريب نظاماً شائعاً إلى حد كبير ، وإن كانت معظم الحالات والأمثلة المشابهة تأتى من إفريقيا . ولست أزعم أن هذه الوقائع والحقائق تدل على أن إيطاليا تعرضت لبعض

(١) H. Zimmern, *Zum Babylonischen Neujahrsfest*, (Leipzig, 1918) ; A.H. Sayce in *Journal of the Royal Asiatic Society*, July 1921, pp. 440-442. المؤلف

(٢) *The Golden Bough*, Part VI, *The Scapegoat*, p. 354 sqq., p. 412 sqq. المؤلف

(٣) P. Amaury Talbot, in *Journal of the African Society*, July 1916, p. 309 sq. ; id., in *Folklore*, XXVI (1916), p. 279 sq. ; H.R. Palmer in *Journal of the African Society*, July 1912, pp. 403, 407. المؤلف

التأثيرات الوافدة من افريقيا أو أن بعض الجماعات الإفريقية استوطنت فى جنوب أوربا فى زمن مبكر . فالعلاقة بين القارتين فى عصور ما قبل التاريخ غامضة ولا تزال فى حاجة إلى مزيد من البحث والدراسة .

ولابد لى أن أترك للمستقبل أمر الحكم على مدى صحة أوخطأ التفسير الذى أقدمه هنا لهذا النظام . ولكننى على استعداد تام ودائم للتخلى عن هذا التفسير إذا أمكن تقديم تفسير آخر أفضل منه . بيد أننى أرجو فى الوقت الحالى وأنا أضع الكتاب فى صورته الجديدة تحت حكم القراء ألا يخطئوا فى تقدير مجال الكتاب الذى لا يزال متخماً ومثقلا بالمعلومات رغم كل محاولته الآن لتحديد هذا المجال . وإذ كنت قد عالجت فى الكتاب الحالى موضوع عبادة الأشجار بشىء من الإطناب فإن هذا لا يرجع إلى الرغبة فى المبالغة فى أهميتها بالنسبة لتاريخ الأديان أو حتى الرغبة فى أن استنبط منها نظرية كاملة فى الميثولوچيا . وإنما يرجع ذلك ببساطة إلى استحالة إغفال هذا الموضوع فى محاولتى شرح أو تفسير أهمية الكاهن الذى يحمل لقب «ملك الغابة» ، والذى يعتبر من مبررات توليه تلك الوظيفة انتزاعه لأحد الأغصان من شجرة معينة فى الروضة المقدسة ، وهذا الغصن هو الغصن الذهبى . ولكننى لا أزال مع ذلك بعيداً جداً عن أن أعلق على تقديس الأشجار أهمية كبرى بالنسبة لتطور الدين . والواقع أننى أعتبره بوجه عام عاملا ثانوياً بالنسبة لغيره من العوامل وبخاصة

عامل الخوف من الموتى ، الذى أعتقد أنه أكبر قوة تقف وراء نشأة الدين البدائى . وأرجو بعد هذا التنصل الصريح ألا أتهم بأننى أعتنق نظرية معينة فى الميثولوچيا ، فهذا أمر لا أعتبره غير صحيح فحسب بل أعتبره أيضاً مجافياً للعقل والواقع . ومع ذلك فإننى أعرف تماماً « أخطبوط » (١) الخطأ ، ولا أتوقع بذلك أن اجتزاز إحدى رءوس الوحش سوف يمنع من أن ينبت بدلا منها رأس أخرى أو حتى نفس الرأس التى سبق قطعها . وكل ما أستطيع عمله هنا هو أن أعتمد على رجاحة عقل القارىء وفطنته فى تقويم هذا التصور الخاطىء الشنيع لآرائى ، وذلك بالرجوع إلى هذا الموقف الذى أعلنه هنا بوضوح وصراحة (٢) .

ج . ج . فريزر

ا بريك كورت — تمپل
لندن ، يونيو ١٩٢٢

---

(١) الكلمة المستخدمة فى الاصل هى العدار Hydra وهو حيوان خرافى له تسعة رءوس . ويشير فريزر هنا الى الاسطورة اليونانية التى تدور حول صراع هرقل مع هذا الحيوان حتى تمكن من ذبحه .. (أ . أ) .

(٢) على الرغم من قدرة فريزر الفائقة على جمع المعلومات ، وتبويبها وتصنيفها وعرضها بطريقة منطقية فان كتاباته تخلو خلوا عجيبا من التفكير النظرى المجرد . وفيما عدا نظريته العامة عن نشأة السحر والدين فانه كان يحاول بقدر الامكان أن يبتعد عن صياغة النظريات أو حتى الارتباط بنظرية معينة او الانتماء الى مدرسة فكرية وأضحة المعالم . ومن هنا كان هذا الدفاع أصلا ضد الآراء التى ظهرت فى بعض المقالات والكتب والتى حاول اصحابها ان يحددوا مكان فريزر من بعض المدارس والنظريات التى كانت تعنى فى ذلك الحين بتفسير الاساطير — (أ . أ) .

الفصل الأول

ملك الغابة

١ ـ ديانا وفيربيوس :

هل هناك من لا يعرف لوحة الغصن الذهبي التي رسمها تيرنر Turner ؟ إن المنظر الذي يغمره وهج المخيلة الذهبي الذي غمس فيه تيرنر ذهنه الإلهي ثم أضاء به حتى أشد المناظر الطبيعية بساطة هو أشبه شيء برؤيا حالمة لبحيرة نيمي Nemi الصغيرة الراقدة بين الأحراش والتي كان القدماء يسمونها « مرآة ديانا » . ومن الصعب على من شاهد المياه الساكنة وهي ترقد في هدوء في حضن أحد تجاويف تلال آلبا الخضراء أن ينسى هذا المشهد . ولا يكاد منظر القريتين الإيطاليتين النائمتين على شواطىء البحيرة ، ومنظر القصر الإيطالي ذي الحدائق المتدرجة التي تنحدر بشدة نحو البحيرة يعكران من سكون ذلك المشهد الذي يوحي بالعزلة والانزواء وصفائه . وربما كانت ديانا ذاتها لا تزال تهفو إلى هذا الشاطىء المنفرد وتتوق إلى تلك الأحراش الموحشة .

لقد كان هذا المكان الذي تكسوه الغابات والأشجار مسرحاً لمأساة غريبة كانت تتكرر في الماضي المرة تلو المرة . فعلى الشاطىء الشمالي للبحيرة وتحت صخوره العالية الوعرة مباشرة حيث تجثم قرية نيمي الحديثة تقوم روضة ديانا نيمورينسيس Diana Nemorensis

---

* ملك الغابة : ترجمة د. احمد أبو زيد .

(أو ديانا ربة الغابة) وهيكلها المقدسان . ولقد كانت البحيرة والروضة تعرفان فى وقت من الأوقات باسم بحيرة أريكا وروضتها. ولكن مدينة أريكيا (التى تعرف الآن باسم لاريكيا La Riccia كانت تقوم على بعد حوالى ثلاثة أميال عند سفح جبل آلبا ، وكان يفصلها منحدر عميق عن البحيرة التى ترقد على جانب الجبل فى تجويف صغير يشبه فوهة البركان . وفى هذه الروضة المقدسة كانت شجرة معينة يحوم عليها طيلة النهار وحتى جزء كبير من الليل شبح إنسان متجهم الوجه ، يحمل سيفه المشرع فى يده وهو يتلفت طيلة الوقت حوله فى حرص وحذر كمن يتوقع أن يثب عليه فى أى لحظة أحد أعدائه . كان هذا الشخص كاهناً وقاتلا معاً ، كما كان مقدراً له أن يموت — إنْ عاجلا أو آجلا — بأيدى ذلك الشخص الذى يبحث عنه والذى سوف يتولى منصب الكهنوت بدلا منه . لقدكانت هذه هى شريعة الهيكل المقدس : ألا يصل شخص إلى منصب الكهنوت إلا إذا قتل الكاهن ، فإذا تم له ذلك احتفظ لنفسه بذلك المنصب حتى يموت بيد شخص آخر أشد منه بأساً وأكثر دهاء.

كان المنصب الذى يتولاه والذى يتعرض من أجله لكل تلك المخاطر يحمل صفة « الملك » . ولكن من المؤكد أنه لم يكن هناك من بين أصحاب الرءوس المتوجة من كان يغزو نومه المضطرب مثل تلك الأحلام المزعجة التى كانت تهاجم ذلك الملك الكاهن . لقد كان يتعين عليه على مر السنين وتعاقب الفصول واختلاف

الأجواء أن يقوم بنفسه بتلك الحراسة الفردية . وحين كان يتمكن من الإغفاء لبعض لحظات خاطفة سريعة فإنما كان ذلك على حساب تعريض حياته للخطر . لقد كانت أقل بادرة تبدر منه — ويستدل منها على عدم الانتباه والحذر أو على أن الوهن بدأ يجد طريقه إلى جسمه وأعضائه أو أن قدرته على القتال والمبارزة أخذت فى التدهور — كفيلة بأن تعرضه للهلاك . لقد كان ظهور الشيب فى رأسه بمثابة حكم الاعدام عليه ، ولذا كان مجرد ظهوره بطلعته الكئيبة على الحجاج الذين يزورون الضريح فى تدين وخشوع كفيلا بأن يطمس بهاء ذلك المنظر الجميل مثلما يحجب الغمام فجأة ضوء الشمس الساطع فى يوم مشرق . والواقع أن هيئته المكتئبة الصارمة لم تكن تتلاءم بحال مع سماء إيطاليا بزرقتها الحالمة أو مع الظلال التى ترسلها أشجار الغابة فى الصيف أو مع مياه الأمواج التى تتلألأ تحت وهج الشمس . وقد يكون الأفضل أن نتخيل ذلك المنظر كما قد يبدو لمسافر وحيد فى ليلة من ليالى الخريف الموحشة حين تتهاوى أوراق الأشجار الجافة الميتة وتعزف الرياح لحن الموت الحزين الذى تعلن فيه اقتراب العام من نهايته . إنها صورة قاتمة بغير شك تتناغم مع الموسيقى الحزينة ، فى خلفية الصورة تقوم غابة سوداء مهلهلة تحت سماء عاصفة مليئة بالغيوم ، والرياح تزفر بين الأغصان وحفيف الأوراق الذاوية يئن تحت وطء الأقدام بينما ترقد المياه الباردة فى أحضان الشاطىء . وفى مقدمة الصورة يظهر شبح إنسان

مكتئب حزين يتنقل بين الظلمة والنور فيلمع بريق سيفه فوق كتفه حين يرسل القمر من وراء الغمام أشعته الشاحبة فتنساب إليه من بين الأغصان الكثيفة المتشابكة .

وليس لهذه القاعدة الغريبة التى يقوم عليها هذا النظام الكهنوتى مثيل فى العصور الكلاسيكية ولذا فلن يمكن تفسيره بالرجوع إليها . وعلى ذلك فيجب البحث فى ميادين أبعد وأوسع للوصول إلى تفسير لها . وقد يكون من الصعب أن ننكر أن هذه العادة ظهرت فى إحدى المراحل البربرية واستمرت فى الوجود حتى عصر إنشاء الامبراطوريات وأنها بذلك تختلف اختلافاً صارخاً عن بقية ملامح الحياة فى المجتمع الإيطالى المهذب فى ذلك العصر . فهى أشبه بإحدى الصخور الناتئة التى ترتفع فى شذوذ فوق سطح الأرض المعشبة المستوية الممهدة . والواقع أن ما تتميز به هذه العادة من همجية وفجاجة هو الذى يجعلنا نأمل فى الوصول إلى تفسير لها . ذلك أن الأبحاث التى تمت أخيراً حول التاريخ المبكر للإنسان كشفت عن مدى التشابه الأساسى فى عمليات العقل البشرى، وهو يضع فلسفته الأولى الساذجة عن الحياة، وإن كان هناك بالطبع كثير من الفوارق والاختلافات الثانوية السطحية . وعلى ذلك فلو استطعنا أن ندلل على أن هذه القاعدة الهمجية الخاصة بنظام الكهنوت فى نيمى توجد فى مكان آخر من العالم ، وأن نكشف الدوافع التى أدت إلى أن تتخذ شكل النظام الاجتماعى ، وأن نبرهن على أن هذه الدوافع كان لها تأثير كبير أو حتى تأثير

عام فى المجتمع الإنسانى وأنها أدت تحت الظروف المختلفة إلى ظهور عدد من النظم التى تختلف فى التفاصيل رغم تشابهها فى الأصل التكوينى ؛ ثم إذا استطعنا أخيراً أن نبين أن هذه الدوافع وبعض النظم الناشئة عنها كانت موجودة بالفعل فى العصور الكلاسيكية القديمة ، فإنه يحق لنا حينئذ أن نستنتج أن هذه الدوافع ذاتها هى التى أدت فى وقت أكثر تبكيراً إلى ظهور نظام الكهنوت المعروف فى نيمى . ومثل هذه الاستنتاجات التى تفتقر إلى الأدلة المباشرة على الطريقة التى ظهر بها النظام بالفعل قد لا ترقى أبداً إلى مرتبة البرهان ، ولكنها تتمتع مع ذلك بدرجة من الاحتمال تتناسب مع قدرتها على تحقيق الشروط التى أشرنا إليها . وهدف هذا الكتاب هو أن يقدم — عن طريق تحقيق هذه الشروط — تفسيراً على درجة عالية من الاحتمال لنظام الكهنوت فى نيمى .

وأبدأ هنا بعرض الحقائق والخرافات القليلة التى وصلت إلينا عن هذا الموضوع .... تذهب إحدى الروايات إلى أن عبادة ديانا فى نيمى وضع أسسها أورستيس Orestes الذى تمكن بعد أن قتل ثوءاس Thoas ملك كرسونيس الطورية Tauric Chersonese (القرم) من أن يهرب مع أخته إلى إيطاليا حاملا معه تمثال ديانا الطورية بعد أن أخفاه داخل حزمة من العصى . وحين مات أورستس نقل رفاته من أريكيا إلى روما ودفن أمام معبد ساتورنوس Saturn الواقع على السفح الكابيتولى بجوار معبد الكونكورد . والشعائر الدموية

التى تنسبها القصة إلى ديانا الطورية مألوفة لدى المتخصصين فى الدراسات الكلاسيكية ، إذ يقال إن أى شخص غريب تطأ قدماه ذلك الشاطىء كان يُذبح ويُقدم قرباناً لها . ولكن حين نُقلت هذه الشعائر إلى إيطاليا اتخذت صورة أكثر اعتدالا ، فقد كانت توجد فى هيكل نيمى شجرة معينة كان يحرم على الناس كسر فروعها ، ولا يستثنى من ذلك إلا العبد الذى يتمكن من الهرب . فإذا استطاع أن يكسر أحد أغصان هذه الشجرة حق له أن ينازل الكاهن فى مبارزة فردية ، فإذا تمكن من قتله تولى شئون الحكم بدلا منه وحمل بالتالى لقب « ملك الغابة Rex Nemorensis » . ولقد كان الأقدمون يعتقدون أن هذا الغصن الحاسم هو الغصن الذهبى الذى انتزعه آينياس Æneas بايعاز من سيبولا Sibyl قبل أن يشرع فى رحلته الخطرة إلى عالم الموتى . ويقال إن هروب العبد إنما يرمز إلى هروب أورستيس نفسه ، وأن مبارزته مع الكاهن ترمز إلى القرابين والأضحيات البشرية التى كانت تقدم إلى ديانا الطورية . وقد ظلت هذه القاعدة لتولى الملك بحد السيف معمولا بها حتى العهود الامبراطورية ، إذ نجد مثلا أنه من ضمن نزوات كاليجولا Caligula أنه اعتقد أن كاهن نيمى شغل وظيفته مدة أطول مما يجب فاستأجر أحد السفاحين الأشرار ليقتله . وقد لاحظ أحد الرحالة اليونانيين الذى زار إيطاليا أيام عائلة أنطونينوس Antonines أن منصب الكاهن كان حتى ذلك الوقت يقدم جائزة يظفر بها

الشخص الذى يفوز في المبارزة الفردية .

وثمة بعض ملامح أساسية أخرى يمكن ذكرها عن عبادة ديانا في نيمي . إذ يبدو من القرابين التي كان الناس ينذرونها والتي تم الكشف عنها في تلك المنطقة أن الناس كانوا يعتبرون ديانا إلهة للقنص في المحل الأول ، وإن كانت تمنح إلى جانب ذلك الرجال والنساء النسل والذرية ، وتساعد الحوامل على الولادة السهلة الميسرة . كذلك يبدو أن النار كانت تلعب دوراً جوهرياً في الشعائر المتعلقة بها . ففي أثناء الاحتفال بعيدها السنوى الذى كان يقام في الثالث عشر من أغسطس ، أى في أشد أيام السنة حرارة ، كانت غيضتها المقدسة تضاء بعدد كبير جداً من المشاعل التي كان ضوءها الأحمر القانى ينعكس في مياه البحيرة ، كما كان الناس يحتفلون بذلك اليوم في طول إيطاليا وعرضها بإقامة الشعائر المقدسة أمام المواقد في البيوت . وقد عثر في حرم المعبد على بعض التماثيل البرنزية الصغيرة التي تمثل الإلهة ذاتها وهى تحمل مشعلا في يدها اليمنى وترفعه إلى أعلى ، كما كان النساء اللاتى تستجاب صلواتهن ودعاؤهن يتوافدن على الهيكل وقد تتوجت رءوسهن بالأكاليل وهن يحملن المشاعل المضاءة وفاء بنذورهن . ولقد كرس شخص مجهول مشعلاً يوقد باستمرار في ضريح صغير في نيمي لتأمين حياة الامبراطور كلوديوس[1] Claudius وأسرته .

(1) الواقع ان هناك اثنين من اباطرة الرومان يحملان اسم كلوديوس ، وهما كلوديوس الاول الذى حكم مابين عامى ٤١ ، ٥٤ بعد الميلاد ، وهو أخو الامبراطور تيبريوس Tiberius وكان في شبابه ماجنا ومهرجا الى حد كبير ولكنه لم =

أما القناديل المصنوعة من الطين المحروق والتى اكتشفت فى الغيضة فمن المحتمل أنها كانت تخدم نفس الغرض بالنسبة للأشخاص الأقل مكانة ومنزلة . ولو صح ذلك فإن المماثلة بين هذه العادة وعادة الكاثوليك فى نذر الشموع المقدسة فى الكنائس تصبح واضحة . والأكثر من ذلك أن لقب « فيستا » Vesta (١) الذى تحمله ديانا فى نيمي يشير بجلاء إلى وجود نار مقدسة أبدية فى هيكلها . ففى الركن الشمالى الشرقى من المعبد كان يوجد (بدروم) دائرى

= يلبث ان تحول الى طاغية بعد أن تولى الحكم بعد الامبراطور كاليجولا المشهور بنزواته وقسوته ، وقد قتل زوجته الثالثة ميسالينا Messalina لخيانتها وعلاقاتها الفاضحة ، وتزوج بعدها اجريبينا Agrippina الصغرى التى تآمرت عليه بعد ان أعلن أن ابنها سوف يتولى العرش بعده ، ثم ندم على ذلك واراد الرجوع فى قراره . وقد تولى ذلك الابن العرش وعرف باسم نيرون المشهور وأما كلوديوس الثانى فقد حكم روما مابين عامى ٢٦٨ ــ ٢٧٠ وكان ينتسب الى عائلة مغمورة فى الاصل ولكنه اكتسب شهرة عريضة فى الحرب ، ويبدو أنه كان احد المتآمرين على الامبراطور جالينوس Gallienus ، ولم يحكم سوى فترة قصيرة ولكنها امتازت بالانتصارات الحربية . ويبدو أن اشارة فريزر هنا يقصد بها كلوديوس الاول (أ . ف) .

(١) فيستا هى الهة اوربة الموقد فى روما ، وهى تقابل فى ذلك الالهة هستيا Hestia عند الاغريق ، وكان الناس يعبدونها فى روما أمام الموقد الخاص الموجود فى كل بيت وكذلك امام المذبح « المركزى » للمدينة أو الدولة . وكان ضريحها فى الفورم Forum الرومانى يضم النار المقدسة التى يقال انها جلبت من طروادة وكان يشرف عليها ست فتيات يعرفن باسم « عذارى فيستا » وكانت مهمتهن تنحصر فى المحافظة على النار بحيث لا تخمد أبدا . وكان يفترض فى هؤلاء العذارى العفة المطلقة بحيث أن العذراء منهن التى تحيد عن السلوك المفروض فيها كانت تدفن حية . وقد ظلت هذه العبادة قائمة حتى أبطلها الاباطرة المسيحيون ــ (أ ف) .

فسيح تؤدى إليه ثلاث درجات ولا يزال يوجد به بعض بقايا ممشى مرصوف بالفسيفساء ، ومن المحتمل أنه كان يقوم عليه معبد دائرى لديانا باعتبارها هى ذاتها فيستا كما هو الحال بالنسبة لمعبد فيستا الدائرى فى الفورم Forum الرومانى . والظاهر أن عذارى فيستا كن يشرفن على تلك النار المقدسة . فقد تم العثور على رأس لفيستا من الطين المحروق فى ذلك الموقع ، كما أن عبادة النار الأبدية التى تشرف عليها العذارى المقدسات كانت شائعة على ما يبدو فى إقليم لاتيوم Latium (١) منذ أقدم الأزمنة حتى أكثرها حداثة . ومن ناحية أخرى ، فإن كلاب الصيد كانت تتوج أثناء العيد السنوى للإلهة ، وكان الناس يحرصون على عدم التعرض للحيوانات البرية . كما كان الشبان يخضعون لبعض الطقوس التطهرية بينما تقدم الخمور للجميع . أما الوليمة ذاتها فكانت تتألف من لحم الجدى ومن الكعك الذى يقدم ساخناً جداً على صحاف من أوراق الشجر بينما يتدلى التفاح بكثرة من أغصانه .

ولكن ديانا لم تكن تنفرد بالحكم فى غيضتها المقدسة فى نيمى ،

---

(١) لايتوم هو أحد أقسام وأقاليم ايطاليا القديمة واليه ينتسب اللاتين الذين يظن انهم كانوا أول السكان فى العصور التاريخية والذين كانوا فى الاغلب مزيجا من العناصر الاصلية والجماعات الغازية ، وكانوا يعيشون فى قرى ومدن مستقلة على التلال وسفوح الجبال . ومن المحتمل انهم كانوا يؤلفون فيما بينهم اتحادات قوية لاغراض دينية وسياسية ومع ان روما استطاعت تدمير مدينتهم الرئيسية وكانت تحتل مركز الزعامة والقيادة حوالى عام ٦٠٠ ق.م فان الامر لم يستتب لها تماما الا بعد ذلك بوقت طويل . — (أ.ا) .

وإنما كان يشاركها هيكلها فى الغابة إثنان من الأرباب الأقل شأناً . وأحد الإثنين هى الربة إجيريا Egeria ، حورية الماء الصافى التى كانت تندفع إلى أعلى من بين الصخور البازلتية لتهبط فى رشاقة على شكل شلال فى البحيرة فى المكان المعروف باسم لمولى Le Mole حيث توجد الطواحين التابعة لقرية نيمى الحديثة . ولقد أشار أوفيد Ovid (١) إلى خرير ماء النهر فوق الحصباء والحصى وأنه كثيراً

---

(١) الشاعر المشهور بيبليوس آنيدوس ناسو Publius Ovidus Naso (٤٣ ق.م ــ حوالى ٧١ ميلادية) ولد فى سولمو Sulmo بجنوب ايطاليا من عائلة ذات مركز محترم . وعلى الرغم من كل ما بذلته عائلته لحمله على التخصص فى القانون وشئون الحكم فقد كان يميل الى الشعر وان كان قد تولى مع ذلك بعض المناصب القضائية الدنيا . وشعره جذب اليه انتباه المجتمع الرومانى ولكن عبثه وطيشه أوغر صدر الامبراطور أوغسطس عليه خاصة وانه كان يريد تطهير المجتمع من مفاسده عن طريق العودة الى الاخلاق والتقاليد القديمة ، ولذا نفاه الى البحر الاسود حيث أمضى بقية حياته .. ولا يعتبر أوفيد على العموم من الشعراء العظام أو الفحول رغم جودة معظم شعره وبخاصة في الحب والغزل. .. وربما كان أكثر أعماله تحرراً وعبثاً هو عمله عن « فن الحب Ars amotoria » الذى يعرض فيه كثيرا من أساليب وطرق الاغواء والفتنة كما لو كانت علما يستحق الدراسة بكل دقة وعناية . وعلى أية حال فان أعظم اعمال أوفيد التى يحفظها لنا التاريخ للآن هو كتابه عن « المسخ أو الانسلاخ Metamorphosis » وهو قصيدة طويلة تزخر بقصص عديدة عن التغير والانسلاخ معظمها مستمد من الميثولوجيا الاغريقية . ومن الكتب التى تهمنا هنا بوجه خاص كتابه الذى ترجمه فريزر بعنوان *The Fasti of Ovid* ونشره فى خمسة اجزاء مع تعليقات مطولة عام ١٩٢٩ ، وهو دراسة شعرية للتقويم الرومانى يسجل الاحداث التاريخية والظواهر الفلكية والممارسات الدينية شهرا بشهر . وكان عمر فريزر حين نشر الكتاب خمسا وسبعين سنة انظر فى ذلك (١٠١) .

Downie, R.A. : *James George Frazer : The Portrait of a Scholar*, Watts, London, 1940, pp. 48-50.

ما كان يشرب [illegible]. وكانت النساء الحوامل يقدمن القرابين إلى ايجيريا التى كن يعتقدن فى قدرتها على تسهيل الولادة ، مثل ديانا تماماً . وتذهب الأخبار إلى أن هذه الحورية كانت زوجة — أو عشيقة — للملك نوما Numa الحكيم ، وأنه بنى بها سراً فى الغيضة المقدسة ، وأن القوانين التى منحها نوما للرومان كانت مستوحاة من معاشرتها الربانية. ويقارن بلوتارك Plutarch هذه الأسطورة بغيرها من قصص الحب الذى كثيراً ما كان ينشأ بين الربات والآدميين مثل حب كوبيلى Cybele والقمر لاثنين من أجمل الشبان هما آتيس Attis وأندوميون Andymion . ويذهب البعض إلى أن مكان التقاء العشاق لم يكن فى غابات نيمى وإنما فى إحدى الغيضات خارج پورتا كاپينا Porta Capena فى روما ، وهو مكان كثير المياه ، إذ كان يتدفق من الكهف المعتم نبع مقدس لإيجيريا . وكانت عذارى ڤيستا الرومانيات يخرجن كل يوم لجلب الماء من ذلك النبع فيحملنه على رءوسهن فى جرار من الفخار لغسل معبد ڤيستا . ولكن الصخرة الطبيعية كانت مغطاة تماماً بالرخام فى زمن جوفينال Juvenal (١) ،

---

(١) أحد الشعراء الرومان الهجائين . عاش بين عامى ٥٠ – ١٣٠ تقريبا ويبدو ان اباه كان عبداً ثم اعتق . وقد أغرم جوفينال فى صباه بالخطابة التى مارسها سنوات طويلة حتى نفى من روما . ولم يبق لنا من شعره الا بعض قصائد الهجاء التى تدور فى معظمها حول مهاجمة الجريمة والرذيلة والمجون التى كانت تشيع فى روما فى ذلك الوقت ، وان كان بعضها الآخر يدور حول موضوعات شتى ذات طابع اخلاقى على العموم ، وهى كلها تعطى على أى حال صورة حية لما كان عليه المجتمع الرومانى فى عهده (أ.ا) .

كما أن البقعة المقدسة انتهكت حرمتها بفعل جماعات اليهود والفقراء الذين كانوا يتزاحمون للإقامة مثل الغجر فى الغيضة . ويمكن أن نزعم أن النبع الذى كان يصب فى بحيرة نيمى كان هو إيجريا الأصلية الحقيقية ، وأنه حين نزل المستوطنون الأوائل من فوق تلال آلبا إلى شواطىء نهر التيبر أتوا معهم بالحورية وأقاموا لها موطناً جديداً فى إحدى الغيضات خارج الأسوار . وتدل بقايا الحمامات التى عثر عليها داخل الحرم المقدس وكذلك التماثيل العديدة المصنوعة من الطين المحروق والتى تصور مختلف أجزاء الجسم البشرى على أن مياه ايجريا كانت تستخدم فى شفاء المرضى الذين كانوا يعبرون عن آمالهم أو عن شعورهم بالجميل والعرفان باهداء هذه التماثيل التى تصور أعضاءهم المريضة إلى الإلهة ، وذلك تبعاً لبعض العادات التى لاتزال موجودة حتى الآن فى كثير من أنحاء أوربا . والظاهر أن النبع لا يزال محتفظاً ببعض فوائده الطبية .

أما الرب الثانى الأقل شأناً فى نيمى فهو ڤيربيوس Virbius الذى تذهب القصة إلى أنه كا هو البطل الاغريقى هيپوليتوس Hippolytus العفيف الجميل الذى تعلم فن الصيد والقنص من القنطور خيرون Chiron (١) وكان ڤيربيوس يمضى كل أيامه فى الأحراش

(١) القنطور Centaur كان خرافى يظهر فى كثير من الاساطير اليونانية القديمة ويظهر نصفه الاعلى على شكل انسان بينما بقية جسمه على شكل حصان .. وكان اليونانيون القدماء مغرمين بالقنطور بحيث كان يظهر كثيرا فى رفقة الانسان ويدعى الى مجالسه ، الى ان حدث فى احدى حفلات الزواج =

الخضراء يطارد الوحوش ، ولم يكن يصحبه فى هذه الرحلات سوى الصيادة العذراء أرتميس Artemis (وهى المقابل لديانا). وقد بلغ من اعتزاز هيپوليتوس بصحبتها الإلهية أن ترفع عن حب النساء مما جلب عليه المصائب . فقد آلم ذلك التعفف أفروديتى Aphrodite فأهاجت حبه فى قلب فيدرا Phaedra زوجة أبيه ، فلما ازدري مراودتها الخبيثة عن نفسه اتهمته ظلماً أمام أبيه ثيسيوس Theseus الذى صدق التهمة وابتهل إلى مولاه پوسيدون Poseidon أن يثأر له من أجل هذا الجرم المزعوم . وترتب على ذلك أنه بينما كان هيپوليتوس يقود عربته الحربية بجوار شاطىء الخليج الساروني

= بين بعض الارباب ان فقد احدها وعيه من كثرة الشراب فحاول أن يعتدى على العروس وتبعه فى ذلك زملاؤه وحدثت معركة قتل فيها عدد كبير من هذه الكائنات الخرافية . وسجلت هذه الواقعة فى كثير من أعمال الفن القديم سواء فى ذلك الشعر او النحت . ولكن القنطور خيرون لم يكن على مثل هذا الخلق السيء ، فقد اشرف على تعليمه وتنشئته أبوللو وديانا واكتسب كثيرا من المهارة فى القنص والطب والموسيقى بل اكتسب القدرة على التنبؤ ، وتتلمذ عليه كثير من الابطال الاغريق الذين ترد أسماؤهم في القصص والاساطير القديمة ، ولعل من أهمهم هيبوليتوس نفسه وكذلك اسكلابيوس الذى سوف يرد ذكره بعد قليل والذى حذق على يديه فنون الطب لدرجة أنه تمكن فى احدى الحالات ، كما سنرى ، من أن يرد الحياة الى هيبوليتوس نفسه بعد أن مات تحت أقدام الخيل . وقد لقى سكلابيوس جزاه على ذلك اذ سلط عليه جوبتير Jupiter بأمر من بلوتو Pluto البرق فصعقه . والمهم هو ان القنطور خيرون كان يعتبر من افضل تلك الكائنات الخرافية وأحكمها لدرجة انه حين مات رفعه جوبتير الى السماء ووضعه بين النجوم . (أ.ا) .

راجع فى ذلك :

Bulfinch, T.; *The Age of Fable*, Doubleday & Co., N.Y.; pp. 142-43.

أرسل عليه إله البحر (پوسيدون) ثوراً هائجاً طلع من بين الأمواج فهاجت الخيل وركضت بعنف من الخوف والفزع وألقت هيپوليتوس من فوق العربة وداسته بأقدامها حتى مات . ودفع الحب ديانا إلى أن تقنع المطبب اسكلاپيوس Aesculapius بأن يستخدم علمه وفنه لبرد الحياة إلى الصياد الشاب الجميل . وحنق چوبيتر Jupiter لعودة أحد البشر الفانين من أبواب الموت فأرسل المطبب نفسه إلى عالم الموتى جزاء له على تجاوزه حدوده وتدخله فى غير شئونه . ولكن ديانا أفلحت فى أن تخفى محبوبها (هيپوليتوس) عن الإله الناقم داخل غمامة كثيفة بعد أن غيرت ملامحه بأن أضافت إلى عمره بضع سنين ثم حملته بعيداً إلى وديان نيمى حيث تركته فى حمى الحورية إجيريا ورعايتها ، وهناك عاش فى أعماق الغابة الإيطالية مجهولا وحيداً متخفياً تحت اسم فيربيوس . وقد حكم فيربيوس هناك كملك كما وقف هيكلا للإلهة ديانا وأنجب ابناً لطيفاً أسماه فيربيوس أيضاً . ولم يرهب الابنَ مصيرُ الأب وقدره ، فقاد كوكبة من الجياد الشرسة لينضم إلى اللاتينيين فى حربهم ضد أينياس Æneas وأهل طروادة . وقد عبد الناس فيرپيوس كإله ليس فى نيمى وحدها بل فى كثير من الأماكن الأخرى أيضاً . والمعروف أنه كان يوجد فى كامپانيا Campania كاهن مخصص لأداء الشعائر والصلوات الخاصة به. ولقد كان دخول الخيل إلى غيضة أريكيا وهيكلها محظوراً لأن هيپوليتوس مات تحت أقدام الخيل ،

كما كان لمس تمثاله محرماً على الناس . وكان البعض يعتقدون أنه هو الشمس ، ولكن سرفيوس يقول : « إن الحقيقة هي أنه كان أحد الأرباب الذين ارتبطوا بديانا مثلما ارتبط آتيس بأم الآلهة واريخثونيوس Erichthonius بمنيرفا Minerva وأدونيس Adonis بفينوس Venus . وسوف نرى فيما بعد طبيعة هذه العلاقة أو الرابطة . ولكن مما هو جدير بالملاحظة أن هذه الشخصية الأسطورية أظهرت قدرة عجيبة على التشبث بالحياة والإصرار عليها . اذ لايكاد يوجد أدنى شك فى أن القديس هيپوليتوس Saint Hippolytus الذى يظهر فى التقويم الرومانى والذى سحبته الخيول حتى مات فى الثالث عشر من شهر أغسطس — وهو اليوم المخصص لعيد ديانا ليس إلا البطل اليونانى الذى يحمل نفس الاسم والذى استطاع بعد أن مات مرتين كإنسان وثنى خاطىء أن يبعث من جديد فى صورة أحد القديسين المسيحيين .

ولسنا فى حاجة إلى أى برهان دقيق أو محكم لكى نقتنع بأن القصص التى تروى عن عبادة ديانا فى نيمى ليست قصصاً تاريخية . فواضح أنها تنتمى إلى تلك الطائفة الكبيرة من الأساطير التى تصاغ لكى تفسر أصل إحدى الشعائر الدينية دون أن يكون لها أساس آخر غير التشابه — حقيقياً كان أو متخيلا — الذى قد تمكن رؤيته بينها وبين بعض الشعائر الأجنبية الأخرى . والواقع أن الأساطير الخاصة نيمى تعانى الكثير من الغموض والاضطراب نظراً لأن أساس

العبادة يُردّ أحياناً إلى أورستيس وأحياناً أخرى إلى هيپوليتوس تبعاً للجوانب أو الخصائص التي تؤخذ في الاعتبار حين النظر إلى تلك الشعائر . والقيمة الحقيقية لهذه القصص هي أنها تعطينا فكرة عن طبيعة العبادة يمكن في ضوئها إجراء المقارنات ، كما أنها تحمل بعض الشواهد التي تدل بشكل أو بآخر على قدمها في الزمن ، وذلك حين تبين أن الأصل الحقيقي لهذه العبادة غير معروف لأنه ضاع واندثر في ضباب الأزمنة الخرافية الموغلة في القدم . ومن هذه الناحية الأخيرة فقد يمكن الاعتماد على القصص الخرافية التي تدور حول نيمي أكثر مما نعتمد على الروايات التاريخية التي يؤازرها كاتو الكبير Cato the Elder (١) من أن الغيضة المقدسة كان قد وقفها على عبادة ديانا ديكتاتور لاتيني يدعى اجيريوس بابيوس Egerius Baebius أو لايفيوس التسكلومي Laevius of Tusculum باسم شعوب

(١) ماركوس كاتو من رجال الحرب الرومانيين وأحد زعمائهم السياسيين (٢٣٤ ـ ١٤٩ ق.م) . من أبناء توسكلوم .. بدأ حياته الحربية وهو لا يزال في السابعة عشرة من عمره ، ثم اشترك في الحرب اليونانية الثانية حيث أبدى كثيرا من الشجاعة والقدرة . تولى عدة مناصب سياسية وادارية وحاول ان يدخل كثيرا من التغيير في حياة المجتمع الروماني التي دخلها كثير من عناصر الانحلال والتفكك نتيجة للترف والغنى ، وكان ينادي بالعودة الى الحياة الرومانية التقليدية البسيطة ، وادى ذلك به الى ان يقف موقف المعارضة من كل المحاولات للتجديد بصرف النظر عن أهميتها وفائدتها .. في عام ١٥٧ ق.م أرسل سفيرا لروما في قرطاجة وقد دهش لما كانت عليه قرطاجة في ذلك الوقت من تقدم وقوة لدرجة انه امضى بقية حياته في الدعوة الى ضرورة القضاء عليها وتدميرها حتى تستطيع روما أن تعيش في أمن وسلام (أ.ا) .

تسكلوم وأريكيا ولانوفيوم ولورنتيوم وكورا وتيبور وبوميتيا وآرديا. فهذه الرواية تشير في الواقع إلى العصر الزاهر الذي مر به الهيكل، لأنها ترد تأسيسه على ما يبدو إلى ما قبل عام ٤٩٥ ق.م، وهي السنة التي دمر فيها الرومان بوميتا وأزالوها تماماً من الوجود. ولكن من الصعب علينا أن نفترض أن تلك القاعدة الهمجية الخاصة بنظام الكهنوت في أريكيا قد اشترك في وضعها عمداً عدد من المجتمعات التي بلغت درجة عالية من الحضارة، وهو ما كانت عليه تلك المدن اللاتينية بغير شك. فلابد إذن من أن تكون هذه العادة قد انحدرت من أزمان سحيقة جداً لا تعيها ذاكرة إنسان — حين كانت إيطاليا لا تزال على درجة من التأخر لم نعرفها عنها في أى مرحلة من تاريخها المعروف. بل إن الثقة في هذه الرواية تتزعزع إذا أخذنا في الاعتبار رواية أخرى تنسب إنشاء الهيكل إلى شخص يدعى مانيوس الإجيرى Manius Egerius وهو الذى يدور حوله المثل القائل «هناك مانيون كثيرون في أريكيا». وقد ذهب البعض في تفسير هذا المثل إلى الزعم بأن مانيوس الأجيرى كان جداً لسلسلة طويلة من الأحفاد الممتازين، بينما يرى البعض الآخر أنه يشير إلى وجود عدد كبير من الأشخاص القبيحى المنظر والمشوهين في أريكيا وأنهم استمدوا اسم «مانيوس» من كلمة «مانيا» التي تعني الروح الخبيث أو «البعبع» الذى يخوفون به الأطفال. وقد استخدم أحد الهجائين الرومان اسم مانيوس في التشهير بالشحاذين الذين يقفون على منحدرات أريكيا

فى انتظار الحجاج . هذه الاختلافات فى الرأى ، بالإضافة إلى التضارب بين « مانيوس » الأجيرى فى أريكيا و « اجيريوس » ليفيوس فى توسكلوم وكذلك التشابه بين هذين الاسمين واسم « اجيريا » الوارد فى الأسطورة أمور خليقة باثارة الشكوك . ولكن الرواية التى يسجلها « كاتو » تبدو قريبة جداً مما هو قائم بالفعل كما أن صاحبها يتمتع بدرجة عالية من الاحترام بحيث لا نستطيع رفضها على زعم أنها مجرد خيال سقيم . والأجدر بنا أن نفترض أنها تشير إلى إحدى المحاولات القديمة لترميم الهيكل أو إعادة بنائه ، وأن اتحاد تلك الولايات قام فعلا بتنفيذها . ومهما يكن الأمر ، فإن هذه الرواية دليل آخر على الاعتقاد بأن الغيضة كانت منذ زمن بعيد مكاناً عاماً للعبادة بالنسبة لأقدم المدن فى المنطقة إن لم يكن بالنسبة للاتحاد اللاتينى كله .

٢ ـ ارتميس وهيبوليتوس :

سبق أن ذكرت أن القصص والخرافات الأريكية التى تدور حول أورستيس وهيبوليتوس ليس لها أى قيمة كتاريخ ، ولكن لها مع ذلك فائدة لاتنكر فى محاولة الوصول إلى فهم أفضل وأدق للعبادة فى نيمى عن طريق مقارنتها بالشعائر والأساطير التى تدور حول الهياكل المقدسة الأخرى . ولابد لنا من أن نسأل أنفسنا عن سبب اهتمام مؤلفى هذه القصص بأورستيس وهيبوليتس بالذات فى محاولتهم

تفسر ڤبربيوس ملك الغابة . والجواب واضح فيما يتعلق بأورستيس . فقد استعانوا به وبتمثال ديانا الطورية التى لا ترضى بشىء أقل من إراقة الدم البشرى لتوضيح نظام الخلافة الخاص بمنصب الكهنوت فى أريكيا والذى يقوم على القتل والاغتيال . ولكن الأمر ليس على مثل هذه البساطة فيما يتعلق بهيپوليتوس . صحيح أن الطريقة التى لاقى بها حتفه هى سبب تحريم دخول الخيول إلى الغيضة ، ولكن هذا فى حد ذاته ليس مبرراً كافياً للربط الكامل الذى يصل إلى حد التوحيد بين الشخصيتين . وعلى ذلك فلابد من أن نتعمق فى دراسة هذه العبادة بالإضافة إلى دراسة خرافة أو أسطورة هيپوليتوس ذاتها .

ولقد كان لهيپوليتوس هيكل مقدس مشهور فى موطن أجداده فى ترويزن Troezen يقوم على ذلك الخليج الجميل الذى تكاد الأرض تحيط به من كل جانب ، وحيث ينمو على الشريط الساحلى الخصب الممتد أسفل الجبال الوعرة حدائق البرتقال والليمون وأشجار السرو الباسقة التى ترتفع كالمسلات المعتمة فوق حديقة هسبريديز Hesperides ، كما تقوم جزيرة بوسيدون Poseidon — بقممها العالية التى تحجبها أشجار الصنوبر الخضراء القاتمة — وتحمى الخليج الهادىء بمياهه الزرقاء الصافية الجزيرة من البحر المفتوح . على هذا الساحل الجميل قامت عبادة هيپوليتوس حيث كان يوجد داخل هيكله معبد به تمثال قديم له ، ويقوم بالصلوات الخاصة به كاهن يشغل ذلك المنصب مدى الحياة . وكان يقام احتفال قربانى

فى كل عام لتمجيده كما كان الناس يحتفلون بذكرى موته المبكر كل سنة بالبكاء والترانيم الحزينة التى ترتلها العذارى . وكان الشبان والفتيات يقدمون بعض خصلات من شعرهم للمعبد قبل زواجهم . وعلى الرغم من وجود قبره فى ترويزن فقد كان الناس يرفضون الإدلاء بموقعه . ويرى البعض — وهو رأى له ما يسنده — أن هيبوليتوس الوسيم محبوب أرتميس الذى مات فى عز شبابه والذى كانت العذارى يبكينه فى كل عام — هو مجرد حالة من حالات العشق الذى كان ينشأ بين الآدميين الفانين والربات الخالدات . وتظهر هذه العلاقة بكثرة فى الدين القديم ، ويعتبر أدونيس أشهر هؤلاء العشاق جميعاً . ويقول أصحاب هذا الرأى إن تنافس أرتميس وفيدرا على حب هيبوليتوس يظهر فى صور مختلفة وتحت أسماء أخرى كما هو الحال مثلا فى تنافس أفروديتى وبروسربينى Proserpine على حب أدونيس ، إذ ليست فيدرا سوى نسخة من أفروديتى . والواقع أن هذه النظرية لم تهضم هيبوليتوس وأرتميس حقهما ، لأن أرتميس كانت فى الأصل واحدة من أعظم ربات الخصوبة . وتبعاً للمبادىء التى يرتكز عليها الدين فى أول مراحل ظهوره فإن الإلهة أو الربة التى تمنح الطبيعة الخصوبة لابد أن تكون هى ذاتها على درجة عالية جداً من الخصوبة والقدرة على الحمل والولادة . ولن يتيسر ذلك إلا إذا اتخذت لها بعلا من الذكور . ومن هنا كان هيبوليتوس يعتبر زوجاً لأرتميس فى ترويزن ،

كما أن خصلات الشعر المجزوز التى كان شباب وعذارى ترويزن يقدمونها له قبل الزواج كانت تهدف إلى تقوية ارتباطهم بالآلهة ، ومن ثم إلى زيادة خصوبة التربة والماشية والناس على السواء . ومما يعزز هذه النظرة بعض الشيء أنه كانت تقوم داخل أرباض هيپوليتوس فى ترويزن عبادة اثنتين من قوى الأنوثة تعرفان باسم داميا Damia وأوكسيزيا Auxesia وهما من القوى التى لها علاقة أكيدة بخصوبة الأرض . وحين عانت أبيداوروس(١) Epidaurus من الجدب والقحط قام الناس — استجابة لإحدى التنبؤات — بحفر صورة من خشب الزيتون المقدس لكل من داميا وأوكسيزيا ، وما أن انتهوا من ذلك ودفنوهما فى الأرض حتى أثمرت التربة من جديد . يضاف إلى ذلك أنه فى ترويزن ذاتها وفى نطاق أرباض هيپوليتوس على ما يبدو كان يقام مهرجان غريب لقذف الأحجار تمجيداً لهاتين « العذراوين » ، كما يسميهما أهل ترويزن . وثمة أمثلة كثيرة لعادات مماثلة تمارس فى عدد من البلاد للتعبير عن الرغبة والأمل فى الحصول على محصولات وفيرة ،

---

(١) أبيداوروس هى احدى مدن اليونان القديمة على الساحل الشرقى للبيلوبينيز حيث تطل على الخليج السارونى . وعلى الرغم من انهـا كانت تؤلف دولة مستقلة ومتمايزة فانها كانت تعتمد الى حد كبير على اسبرطة . وقد اشتهرت ابيداوروس بمعبدها المخصص لاسكلابيوس الذى سبقت الاشارة اليه وكان يؤمه الكثير من كل أنحاء بلاد اليونان للشفاء ، كما اشتهرت أيضا بمسرحها الذى كان يعتبر من افضل المسارح ، ولا تزال اجزاء كبيرة موجودة منه للآن (أ.أ) .

كما أن مأساة مقتل هيپوليتوس الشاب لها كثير من القصص المماثلة التي تدور حول شباب من البشر الذين يتمتعون بدرجة عالية من الحسن والكمال ولكنهم دفعوا حياتهم ثمناً لنشوة قصيرة في حب إحدى الربات الخالدات . ويحتمل جداً أن هؤلاء المحبين التعساء لم يكونوا دائماً مجرد أساطير ، كما أن الخرافات والقصص التي ترى دماءهم المراقة في براعم البنفسج الأرجوانية أو في لون شقائق النعمان القرمزية أو في حمرة الخجل التي تصبغ الورد لم تكن مجرد تشبيهات شعرية للصبا والجمال الذابلين كأزهار الصيف . فالواقع أن هذه القصص الخرافية تتضمن فلسفة أكثر عمقاً عن العلاقة بين حياة البشر وحياة الطبيعة ، وهي فلسفة قاتمة أدت إلى ظهور كثير من الممارسات المفجعة . وسوف نعرف فيما بعد الشيء الكثير عن تلك الفلسفة وهذه الممارسات .

٣ ـ الخلاصة :

وقد نستطيع الآن أن نفهم السبب في أن القدماء ربطوا إلى كل هذا الحد بين هيپوليتوس زوج أرتيمس من ناحية وڤربيوس الذي كان يقف من ديانا ـ على ما يقول سرڤيوس ـ موقفاً مشابهاً لموقف أدونيس من ڤينوس أو موقف آتيس من أم الآلهة . فلقد كانت ديانا مثل أرتميس تماماً ـ إحدى ربات الخصوبة بعامة والوضع والولادة بخاصة . ومن هذه الناحية فإنها كانت مثل زميلتها اليونانية تحتاج

إلى قرين من الذكور(١) . وكان هذا القرين — لو صحت رواية سرفيوس — هو فربيوس . ولقد كان فربيوس بصفته مؤسس الغيضة المقدسة فى نيمى وأول من تولى الحكم فيها — هو المؤسس الأول بل والمثال الأسطورى لكل تلك السلسلة الطويلة من الكهنة الذين توافروا على خدمة ديانا ، حاملين فى الوقت ذاته لقب « ملوك الغابة » ، والذين انتهت حياتهم مثله واحداً بعد الآخر نهاية عنيفة . ولذا فإن من الطبيعى أن نزعم أن علاقتهم بإلهة الغيضة كانت تشبه علاقة فربيوس بها ، أى من ملك الغابة الآدمى الفانى كان يتخذ ديانا إلهة الأحراج ملكة وزوجة له . وإذا كانت الشجرة المقدسة التى كان يحرسها ويحميها بحياته تعتبر — على ما يبدو — تجسيداً خاصاً للإلهة ، فالأغلب أن كاهن ديانا لم يكن يعبد تلك الشجرة كإلهة فحسب بل إنه كان يحبها أيضاً كزوجة . وليس فى هذا الافتراض ما ينافى العقل ، خاصة وأن أحد النبلاء الرومان على أيام بلينى Pliny (٢) كان يعامل بنفس الطريقة إحدى أشجار الزان الجميلة

---

(١) هناك مشابهات كثيرة جدا وصارخة بين الميثولوجيا اليونانية والرومانية ، وتظهر ذلك فى خصائص الآلهة والربات والادوار التى يقومون بها بحيث نكاد نجد لكل اله او ربة عند اليونان مقابلا مماثلا عند الرومان ، وكثيرا ما يستخدم الكتاب اسم أحد هؤلاء الارباب في احدى اللغتين والثقافتين لمقابله فى اللغة والثقافة الاخرى كما يحدث فى الخصوص فى الخلط فى الاستخدام بين فينوس وافروديتى (أ . أ) .

(٢) المقصود هنا هو بلينى الاصغر (٦١ — ١٣١ م) أحد رجال الادب اللاتينى المشهورين ، وهو غير بلينى الاكبر الذى تربطه به روابط القرابة =

يحتضنها ويقبلها وينام فى ظلها ويسكب النبيذ على جذعــها . والظاهر أنه كان يعتبر تلك الشجرة هى الإلهة نفسها . ولا تزال عادة الزواج الفيزيقى بين الآدميين من كلا الجنسين من ناحية والأشجار من ناحية أخرى موجودة فى الهند وبعض بلاد الشرق الأخرى . فهل ثمة إذن ما يمنع من وجودها فى إقليم لاتيوم القديم ؟

ولو نظرنا إلى هذه الأدلة ككل ، فقد نستطيع أن نستنتج أن عبادة ديانا فى غيضتها المقدسة فى نيمى كانت مسألة على جانب كبير من الأهمية ، كما أنها ترجع إلى عهود موغلة فى القدم ، وأنها كانت تُقدس كإلهة للأحراج والحيوانات البرية ، بل ومن المحتمل أيضا كإلهة الحيوانات المستأنسة وثمار الأرض ، وأن الناس كانوا يعتقدون أنها ترزقهم النسل والذرية وتساعد الأمهات فى الوضع والولادة ، وأن نارها المقدسة كانت تستعر باستمرار — برعاية العذارى الأبكار — فى معبد دائرى داخل حدود حرمها المقدس ، وأنه كان يرتبط بها حورية الماء إيجيريا التى كانت تمارس أيضاً

= القريبة والذى كان من الكتاب الموسوعيين فى روما (٢٣ — ٧٩م) والذى تولى تربية بلينى الصغير نفسه . ومع ان بلينى الاصغر اشتغل فترة بالمرافعة امام القضاء ثم عين حاكما لبيثونيا Bithynia فى آسـيا الصغرى فان شهرته الحقيقية الباقية للآن ترجع الى ما خلفه وراءه من مكاتبات ومراسلات عديدة نشر بعضها فى حياته ، وهى عبارة عن مقالات أدبية رائعة تتناول كثيرا من نواحى الحياة التى يحياها سادة الرومان واشرافهم (أ.ا) .

إحدى وظائف ديانا نفسها فى مساعدة النساء أثناء المخاض ، والتى كان الناس يعتقدون أنها تزوجت من أحد الملوك الرومان المسنين داخل الغيضة المقدسة . بل إن ديانا إلهة الغابة نفسها كان لها أيضاً رفيق من الذكور — يدعى فربيوس — وكانت علاقته بها تشبه علاقة أدونيس بفينوس وعلاقة آتيس بكوبيلى Cypele (١) ، وأخيراً فإن هذا الشخص الأسطورى — فربيوس — كانت تمثله فى الأزمنة التاريخية سلسلة من الكهنة الذين كانوا يعرفون باسم « ملوك الغابة » وكانوا دائماً يهلكون بسيوف خلفائهم ، كما كانت حياتهم ترتبط بشكل ما بشجرة معينة بالذات فى الغيضة ، على اعتبار أنه مادامت الشجرة سليمة سلمت حياتهم أيضاً من الأذى .

وليس من شك فى أن هذه النتائج لا تكفى بذاتها لتفسير تلك القاعدة الغريبة المتبعة فى تولى منصب الكهنوت . ولكننا قد نعثر على بذور حل هذه المشكلة لو أننا عرضنا هذه القاعدة فى مجال أوسع وأكثر شمولا . وعلى ذلك فسوف نكرس جهودنا الآن لهذا العرض الواسع الشامل ، وهو عرض طويل وشاق ولا ريب ،

---

(١) يطلق عليها اسم أم الآلهة .. كانت زوجة لكرونوس Cronus (الزمن) واما لزيوس Zeus كبير الآلهة . وتظهر فى بعض اعمال الفن وعليها سيماء الامومة ، وفى احيان اخرى تظهر جالسة على عرش وبجوارها بعض الاسود أو راكبة مركبتها التى تجرها الاسود ايضا (١٠٢) .

ولكن قد يكون فيه بعض اللذة والسحر اللذين يصاحبان إحدى رحلات الاستكشاف التي سوف تحملنا إلى كثير من البلاد الأجنبية الغريبة حيث نصادف شعوباً أجنبية غريبة أيضاً وعادات أشد غرابة .
إن الرياح تضرب حبال السفينة بعنف . فلنرفع لها الأشرعة ، ولنبحر مبتعدين تاركين ساحل إيطاليا وراءنا حتى حين .

الفصل الثانى



الملوك الكهنة

تتركز الأسئلة التي كرسنا أنفسنا للإجابة عنها في سؤالين رئيسيين : الأول هو : لماذا كان يتعين على كاهن ديانا في نيمى — وهو ملك الغابة — أن يقتل سلفه ؟ والثاني ؛ لماذا كان يتعين عليه قبل أن يفعل ذلك أن ينزع أحد الأغصان من شجرة معينة بالذات كان الأقدمون يعتقدون بصفة عامة أنها هي الغصن الذهبي الذي ذكره ڤرجيل ؟ (١)

والنقطة الأولى التي نعكف عليها الآن هي لقب الملك . فلماذا كان يسمى ملك الغابة ؟ ولماذا كانت وظيفته توصف بأنها منصب ملكي أو « الملك » ؟ .

الواقع أن الجمع بين اللقب الملكي والواجبات الكهنوتية كان أمراً شائعاً في إيطاليا القديمة وفي بلاد الإغريق . فقد كان يوجد في روما وغيرها من مدن لاتيوم كاهن يطلق عليه اسم « ملك القرابين » أو « ملك الشعائر المقدسة » ، كما كانت زوجته تحمل اسم ملكة الشعائر المقدسة أيضاً ، وفي أثينا الجمهورية كان الحاكم

---

* الملوك الكهنه : ترجمة د. احمد ابو زيد

(١) أحد كبار شعراء العصر الاوغسطى . تعتبر ملحمته الرائعة « الانيادة Aeneid » في المرتبة التالية مباشرة للملحمتى هوميروس الشهيرتين (الالياذة والاوديسا) وان كان فرجيل نفسه أقل بكثير في الاصالة والقدرة على الخلق والابداع من هوميروس ، وقد عالج في ملحمته مغامرات ومخاطرات انياس بعد هزيمته في حرب طروادة (أ.أ) .

الثانى الذى يختار سنوياً للدولة يلقب بالملك ، كما كانت زوجته تدعى بالملكة رغم أن واجباتهما كانت دينية خالصة. كذلك كان لكثير من الديموقراطيات الإغريقية الأخرى ملوك اسميون لهم - على مايبدو - وظائف دينية تدور حول الموقد العمومى للدولة ، كما كان لبعض الدول الإغريقية عدد من هؤلاء الملوك الاسميين الذين يتولون السلطة معاً فى وقت واحد . وفى روما كانت التقاليد تقضى بتعيين ملك للقرابين والأضاحى حتى بعد إلغاء النظام الملكى لكى يقدم القرابين التى كان يقوم الملوك بتقديمها فى الماضى . ويبدو أنه كان ثمة نظرة مماثلة عن أصل الملوك الكهنة فى بلاد اليونان القديمة . والفكرة ذاتها ليست بعيدة الاحتمال . وقد ظلت قائمة فى اسبرطة التى تكاد تكون الدولة الإغريقية الحقيقية الوحيدة التى احتفظت بالشكل الملكى الحكومة فى العصور التاريخية . فقد كان الملوك أنفسهم هم الذين يقدمون كل قرابين الدولة فى اسبرطة ، وذلك على اعتبار أنهم من نسل الإله ، وكان أحد الملكين هناك يشغل وظيفة « زيوس لاكيدايمون Zeus Lacedaemon (١) بينما يقوم الآخر بوظيفة كاهن زيوس السماوى Celestial .

بل إن الجمع بين الوظائف الكهنوتية والسلطة الملكية كان أمراً مألوفاً فى كثير من المناطق الأخرى. فلقد كانت آسيا الصغرى مثلا مركزاً لعدد كبير من العواصم الدينية الكبرى التى يسكنها آلاف من

(١) يتردد اسم لاكيدايمون أو لاسيدايمون فى الميثولوجيا اليونانية للاشارة الى حاكم لاكونيا Laconia أو الى ابن زيوس الذى كان يحمل هذا الاسم والذى اطلق اسم زوجته (اسبرطة) على عاصمة ملكه (أ.ا) .

العبيد المقدسين ويحكمها رؤساء دينيون كانوا يجمعون بين السلطتين الزمنية والروحية مثل بابوات روما فى القرون الوسطى . ومن هذه المدن التى كانت تخضع لحكم الكهنة زلة Zela وبيسينوس Pessinus . كذلك يبدو أن الملوك التيوتون فى العصور الوثنية القديمة كانوا يشغلون منصب كبار الكهنة ويمارسون سلطاتهم ، كما أن أباطرة الصين كانوا يقومون بتقديم القرابين العمومية طبقاً للتعاليم التى رسمتها لهم — بكل دقة وبالتفصيل — الكتب الخاصة بالطقوس والشعائر . وفى مدغشقر كان الملك يعتبر هو الكاهن الأكبر للملكة ، ولذا فإنه كان يشرف بنفسه على تقديم الأضاحى وأداء صلاة الشكر أثناء الاحتفال الكبير بالسنة الجديدة ، بينما كان رجال شعبة ينحرون بأنفسهم أحد الثيران من أجل خير المملكة وسعادتها . وفى الممالك التى لا تزال تحتفظ باستقلالها عند الجالا (١) فى إفريقيا الشرقية

(١) الجالا من شعوب شرق افريقيا ، ويوجدون فى الاغلب فى وسط الحبشة وبعض أجزاء الصومال " وهم من السلالة الحامية فى الاغلب . ومع ان معظمهم لا يزالون وثنيين فان بينهم كثيرين من المسلمين ومن الاقباط ، ويقوم اقتصادهم على مزيج من النشاط الزراعى والرعوى " ويبدو ان كلام فريزر فيما يتعلق بما يسميه ملك الجالا ينقصه كثير من الدقة اذ لا يكون الجالا مملكة بالمعنى الصحيح للكلمة وانما يخضعون لحكم كبار السن فيهم الذين يؤلفون طبقة متمايزة عن بقية طبقات المجتمع . والتنظيم الطبقى نفسه غريب لانه لا يقوم على أساس التفاوت أو التفاضل الاقتصادى وانما على أساس التفاوت فى العمر بحيث ان جميع الاشخاص الذكور الذين ينتمون الى فئة عمرية واحدة يؤلفون (طبقة) متمايزة ومتماسكة تعرف باسم جادا Gada . وتتناوب هذه الطبقات شئون الحكم حين تصل الى أعلى مراتب العمر ، واذا كان لكل جادا شيخ يتكلم بلسانها أو يقوم ببعض الشعائر الدينية فانه لا يرقى الى مستوى الملوك كما ان وظيفته غير وراثية (١٠١) "

يقوم الملك بتقديم الأضاحى على قمم الجبال كما يشرف على عملية ذبح القرابين الآدمية . وتكشف لنا الأضواء الضيئلة الخافتة المنبعثة من بعض التقاليد القديمة عن نوع مماثل من الاتحاد بين السلطتين الزمنية والروحية وبين الواجبات الملكية والدينية عند ملوك ذلك الإقليم البهيج فى أمريكا الوسطى الذى تتميز عاصمته القديمة (المدفونة الآن تحت الغابات المدارية الكثيفة الكريهة) بخرائب وأطلال بالنكوه Palengue (1) الرائعة الغامضة .

وحين نقول إن الملوك الأقدمين كانوا كهنة فى الوقت ذاته

(٢) تعتبر بالنكوه من أهم المدن القديمة فى جنوب المكسيك نظرا لانها تعكس كثيرا من ملامح حضارة المايا Maya الزائلة وبخاصة فى فن العمارة . فقد كان المايا يسكنون مكانا وسطا فى أمريكا الوسطى ، وأثناء الفترة التى سادت فيها حضارتهم انتقل مركز الجاذبية أو التقدم والارتقاء من مرتفعات جواتيمالا فى الجنوب الى الشمال عبر الاراضى المنخفضة فى جواتيمالا ذاتها حتى وصل فى نهاية الامر الى هندوراس ويوكاتان وجنوب المكسيك . وقد ظهرت مدنهم المشيدة بالحجارة لاول مرة فى الاراضى المنخفضة بعد عام ٣٠٠ م وبلغت قمة روعتها أثناء العصور المظلمة فى أوربا ، ثم طرأ عليها بعد ذلك شيء من التفكك والتدهور الذى لا ندرى سببه للآن . واخيرا بدات المرحلة النهائية قبل مجيء الاسبان بعد عام ١٠٠٠ م وكان مركزها يوكاتان . وتعتبر بالنكوه بأسلوبها المتحرر فى النحت مثلا رائعا لما بلغته هذه الحضارة فى الفن . وقد بلغت المدينة بفنونها المختلفة سواء العمارة أو النحت او غيرها ذروة الرقى فى أواخر القرن السابع ، وقد تم الكشف فيها عن خرائب قديمة تتألف فى الاغلب من مصاطب أو مدرجات صناعية فسيحة أو من اهرام مدرجة من الحجر المنحوت وتنتهى فى قمتها ببعض صروح ذات طابع هندسي غير مألوف وتغطيها رسوم واشكال وصور بارزة وحروف هيروغليفية ملونة ، بالاضافة الى وجود عدد من معابد الشمس بين هذه الخرائب . وقد هجرت المدينة على اى حال فى القرن الثانى عشر . انظر ترجمتنا لكتاب : وليام هاولز « ما وراء التاريخ » دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٦٥ صفحتى ٤١٦ - ٤١٧ . (أ.أ) .

وبوجه عام ، فإننا لا نكون قد وفينّا الجانب الديني من وظيفتهم حقه تماماً . ففي تلك الأيام لم تكن الألوهية التي تحيط بالملك مجرد صورة لفظية جوفاء ، وإنما كانت تعبيراً عن اعتقاد راسخ متين . فقد كان الملوك يقدسون في كثير من الحالات ليس فقط بصفتهم رجال دين أو كهنة أي كوسطاء بين العبد والرب ، بل وأيضاً باعتبارهم هم أنفسهم آلهة وأرباباً قادرين على أن يمنحوا أتباعهم وعبّادهم تلك البركات التي يُظن على العموم أنها تتجاوز طاقة البشر الفانين ، والتي لم يكن في استطاعة الناس الحصول عليها — إن أتيح لهم ذلك على الإطلاق — إلا بالصلاة والتضحية التي يقدمونها للكائنات القدسية التي لا تنالها الأبصار . ومن هنا كان الناس كثيراً ما يتوقعون من ملوكهم أن يرسلوا عليهم المطر أو ضوء الشمس في الموسم المناسب ، وأن يساعدوا على نمو المحاصيل وما إلى ذلك . ورغم ما قد يبدو من غرابة هذه التوقعات فإنها تتفق تماماً مع أنماط التفكير المبكر . فلم يكن من اليسير على الرجل الهمجي أن يدرك التمييز الذي تقيمه الشعوب الأكثر تقدماً بين الطبيعي والخارق للطبيعة ، وإنما كانت الدنيا بالنسبة له تسيرها قوى خارقة للطبيعة ، هي في الوقت ذاته كائنات مشخصة تخضع لبواعث ودوافع تشبه تلك التي يخضع لها هو نفسه ، وأنها تستجيب لمن يستدر عطفها وشفقتها أو يبدى الأمل والرجاء فيها أو الخوف منها . ففي مثل هذا العالم الذي يتصوره على هذا النحو لم يكن الرجل الهمجي يرى حدوداً لقوته في تسخير

أحداث الطبيعة لما فيه صالحه الخاص. فالصلوات والوعود والتهديدات قد تكفل له الحصول على الطقس الملائم والحصول الوفير من الآلهة ، وإذا حدث أن تجسد أحد الآلهة فيه — كما كان الناس يظنون أحياناً — فإنه يصبح فى غير حاجة للالتجاء إلى أى كائن آخر أعلى منه هو نفسه ، ما دام هو — الرجل البدائى — أصبح يملك فى ذاته كل القوى اللازمة لإسعاد نفسه وعشيرته .

كانت هذه إحدى الطرق التى أمكن الوصول بها إلى فكرة الإنسان الإله . ولكن هناك طريقة أخرى . فإلى جانب النظرة التى تتصور العالم مليئاً بالقوى الروحية كان للرجل الهمجى تصور آخر مختلف — وربما كان أسبق فى الزمن وأقدم — قد يمكن أن نجد فيه البذرة الأولى للفكرة الحديثة عن القانون الطبيعى أو تصور الطبيعة كسلسلة من الأحداث التى تتم حسب نظام ثابت لا يتغير وبدون تدخل من أية قوة مشخصة . وهذه البذرة التى أتكلم عنها توجد فيما قد يمكن تسميته بالسحر التعاطفى Sympathetic Magic الذى يلعب دوراً كبيراً فى معظم أنساق الخرافات . فى المجتمع المبكر كان الملك يقوم فى كثير من الأحيان بدور الساحر ودور الكاهن معاً . والظاهر أنه كان كثيراً ما يصل إلى السلطة بفضل براعته المزعومة فى كلا الفنين « الأسود والأبيض » (١) .

(١) يبدو من هذا الكلام أن فريزر يقصد بالفن الاسود فن السحر وبالفن الابيض فن الكهانة . وهذا قد يسيء الى فكرته ونكرة غيره من علماء الاجتماع والانثربولوجيا عن السحر وعلاقته بالدين ، كما قد يوحى الى القارىء بأن فريزر يقصد الدين حين يتكلم عن فن الكهانة أو الفن الابيض . والواقع انه فريزر وغيره من العلماء يميزون فى السحر ذاته بين نوعين : الاسود والابيض وهو فى =

ومن هنا ، فلكي نفهم تطور نظام الحكم الملكي وتلك الخاصية المقدسة التي تحيط بهذا المنصب بوجه عام في أعين الشعوب الهمجية والمتبربرة فإنه يتحتم علينا أن نتعرف مبادىء السحر وأن تكون فكرة عن مدى تسلط نسق الخرافة القدم على العقل البشري في كل العصور وفي كل البلاد . ولذا فقد يكون من الأفضل أن أدرس هذا الموضوع بشيء من التفصيل .

= كلا الحالين يبتعد كل البعد عن الدين . والسحر الاسود سحر ضار يمارس بقصد الحاق الاذى بالآخرين ، أو على الاقل لايذاء شخص ما من أجل شخص آخر أو لتحقيق نفع شخص ما على حساب شخص آخر ، وهذا الشكل من السحر شائع شيوعا كبيرا في كل المجتمعات والثقافات وفي كل العصور . وسوف يضرب فريزر على ذلك عشرات الامثلة في الفصل التالي من هذا الكتاب .. أما السحر الابيض فانه يخدم أهدافا أخرى مختلفة عن ذلك تماما كما انه أكثر اهمية من وجهة نظر المجتمع نظرا لانه يحقق أهدافا عملية تعود بالنفع على المجتمع ككل ولا تتعارض مع قيم ذلك المجتمع . ويتمثل السحر الابيض في أكثر صوره انتشارا في التعاويذ والطلاسم والرقى التي يستعين بها المرء لانجاز أعماله اليومية ويحقق الاهداف التي قد يعجز عن تحقيقها بقواه الخاصة . ولذا فان السحر الابيض له فروع كثيرة متخصصة تتنوع تبعا لتنوع الحياة الاقتصادية على الخصوص .. فهناك سحر خاص بقنص الحيوان وسحر خاص بصيد السمك أو بفلاحة البساتين أو بصناعة الفخار ، وان تكن هناك فروع أخرى تتعلق بغير ذلك من أنواع النشاط الانساني كما هو الحال مثلا في السحر الخاص بالحب. وهذا معناه في الحقيقة انه من الصعب جدا احصاء الصيغ السحرية وتصنيفها تلك الصور التي قد توجد لدى أي شعب من الشعوب بل حتى لدى أي قبيلة من القبائل الصغيرة العدد . ويجمع العلماء على أن أهم نوعين من السحر الابيض في كل أنحاء العالم، هما السحر الخاص بالتنبؤ بالمستقبل أو التنبؤ بالغيب من ناحية ، والسحر الخاص بالعلاج أو التداوي أو التطبيب . وترجع أهميتها الى الدور الذي يلعبانه في حياة الانسان والمجتمع من ناحية كما ان ممارستهما تحتاج الى كثير من التخصص والدراية والمهارة — راجع في ذلك على العموم ما ذكرناه عن السحر في كتابنا عن « تايلور » مجموعة نوابغ الفكر الغربي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ — (ا.ب) .

الفصل الثالث



السحر التعاطفي

١ ــ مبادئ السحر :

إذا حللنا مبادئ الفكر التي يقوم عليها السحر فإنه يحتمل أن نجدها تنحصر في مبدأين اثنين : الأول ؛ هو أن الشبيه ينتج الشبيه أو أن المعلول يشبه علته ، والثاني ، هو أن الأشياء التي كانت متصلة بعضها ببعض في وقت ما تستمر في التأثير بعضها في بعض من بعيد بعد أن تنفصل فيزيقيا . ويمكن أن نسمي المبدأ الأول « قانون التشابه » وأن نسمي المبدأ الثاني « قانون الاتصال » أو « التلامس » . ومن المبدأ الأول ، أي قانون التشابه يستنتج الساحر أن في استطاعته تحقيق الأهداف والنتائج التي يريدها عن طريق محاكاتها أو تقليدها . ومن المبدأ الثاني يستنتج أن كل ما يفعله بالنسبة لأي شيء مادي سوف يؤثر تأثيراً مماثلا على الشخص الذي كان هذا الشيء متصلا به في وقت من الأوقات سواء أكان يؤلف جزءاً من جسمه أو لا يؤلف (١) . وعلى ذلك يمكن أن نسمي التعاويذ

---

* ترجمة د . احمد أبو زيد .

(١) لعل أفضل مثل للاشياء التي كانت تؤلف جزءا من جسم الشخص المراد التأثير فيه باستخدام السحر هو الشعر والاظافر بعد أن تقص وتفصل عن جسم صاحبها، بينما تعتبر الملابس مثلا طيبا للاشياء التي لا تؤلف جزءاً من جسم صاحبها ولكنها تستخدم مع ذلك في السحر ويكون مفعولها قويا . وسوف يذكر فريزر في الصفحات التالية عشرات الامثلة كعادته في توضيح الاحكام التي تصدر عنه . (أ.أ) .

والطلاسم التي تقوم على قانون التشابه بالسحر التشاكلي homoeopathic أو سحر المحاكاة imitative ، بينما نسمى تلك التي تستند إلى قانون الاتصال أو التلامس بالسحر الاتصالي contagious . وقد تكون كلمة « تشاكلي » أفضل من غيرها في تحديد الفرع الأول من فرعي السحر ، وذلك لأن كلمة « محاكاة » أو « تقليد » توحي – إن لم تكن تعني بالفعل – بوجود قوة عاقلة تمارس عمداً عملية المحاكاة أو التقليد ، وهذا يؤدى إلى تضييق مجال السحر إلى حد كبير جداً . فالساحر يعتقد بطريقة ضمنية أن المبادئ التي يستخدمها في ممارسة فنونه هي ذاتها المبادىء التي تنظم عمليات الطبيعة الجامدة أو غير الحية . وهذا معناه أنه يسلم منذ البداية بأن قانوني التشابه والاتصال يصدقان على كل شيء وليس على السلوك الإنساني فقط . وباختصار فإن السحر نسق كاذب أو زائف للقانون الطبيعي مثلما هو موجه ، مُضلل للسلوك : إنه علم كاذب زائف بقدر ما هو فن عقيم (١) . فإذا نظرنا إليه على أنه نسق للقانون الطبيعي ، أي تقرير

---

(١) اعتبار السحر علما زائفا أو كاذبا يظهر بوضوح في كتابات تايلور وبخاصة في كتابه الرئيسي « الثقافة البدائية » . وأساس الفكرة هو ان كلا من السحر والعلم يقوم على أساس معين من تداعى الافكار أو المعانى ولكن هذا التداعي يتم بطريقة خاطئة في السحر بعكس الحال في العلم . فالفكرة في ذاتها ليست جديدة ولا يمكن القول ان فريزر هو الذى ابتدعها كما يظن الكثيرون من الكتاب . ولكن الاهم من ذلك هو ان فريزر يرى ان ثمة علاقة قوية بين السحر والعلم وان السحر هو الطريق الطبيعى الذى سلكته البشرية للوصول الى العلم ، وفى ذلك يختلف فريزر عن كثير من العلماء الذين اهتموا بدراسة السحر والدين يرون ان العلاقة الطبيعية تقوم بين السحر والدين وليس بين السحر والعلم (٤٠١) .

للقواعد التي تتحكم في تتابع الأحداث في العالم كله ، فإنه يمكن تسميته حينذاك بالسحر النظري . أما إذا نظرنا إليه على أنه مجموعة من القواعد والتعاليم التي يتبعها الناس في تحديد أهدافهم فإنه يمكن حينذاك تسميته بالسحر العملي . ولكن يجب أن نأخذ في الاعتبار في الوقت ذاته أن الساحر البدائي لايعرف سوى الجانب العملي من السحر وأنه لا يحلل أبداً العمليات الذهنية التي تقوم عليها أفعاله وممارساته ، كما أنه لا يشغل نفسه بالتأمل والتفكير في المبادىء المجردة التي تنطوي عليها تصرفاته . فالمنطق بالنسبة له — كما هو بالنسبة لمعظم الناس — أمر ضمني وليس أمراً بيناً صريحاً : بمعنى أنه يفكر تماماً مثلما يهضم طعامه دون أن يدري شيئاً على الإطلاق عن العمليات الذهنية أو الفسيولوجية التي تعتبر أساساً لهذين النوعين من النشاط . وعلى الجملة ، فإن السحر بالنسبة له هو دائماً نوع من الفن لا العلم . بل إن فكرة العلم ذاتها لا وجود لها في ذهنه الكليل المتخلف (١) .

---

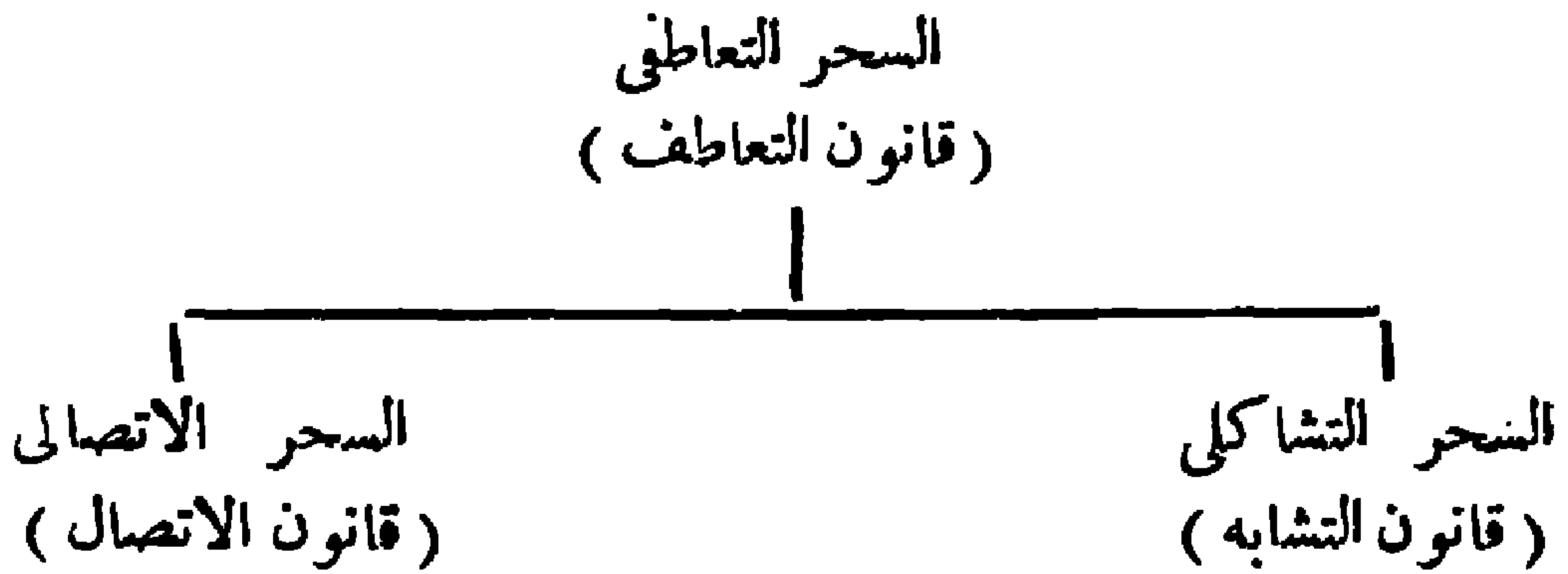
(١) تمتلىء كتابات فريزر وغيره من علماء القرن التاسع عشر الذين كتبوا عن الشعوب « البدائية » بمثل هذه الاوصاف والنعوت التى تنبعث من الاعتقاد بأن الرجل « البدائى » أو « الهمجى » هو نوع من البشر يختلف تماما عن الرجل الاوربى ، وانه بطبيعته وليس بحكم الظروف التى يعيش فيها أقل منه كفاءة وقدرة وذكاء ، وان التخلف الواضح فى حياة الشعوب «البدائية» انما هو نتيجة طبيعية لذلك القصور الطبيعى فى قدراتهم وملكاتهم . وربما كان أول من نادى بضرورة تخلص علماء الانثربولوجيا من مثل هذه الاحكام التقويمية هو تايلور وان لم يفلح هو نفسه فى التخلص تماما من هذا الاتجاه العام ، كما ظهرت نفس الدعوة عند دور كايم فى فرنسا ، وافلحت الدعوتان على اى حال فى تخليص الكتابات الانثربولوجية والسوسيولوجية الحديثة من هذا العيب (ا.ا) ..

إن تتبع تسلسل الفكر الذى يكمن وراء أفعال الساحر وممارساته هو من عمل العقل المتفلسف الذى يستطيع التمييز والفصل بين الخيوط القليلة البسيطة التى تتألف منها تلك الشبكة المعقدة المتداخلة واستخلاص المبادىء المجردة من تطبيقاتها المادية الملموسة ، وبالتالى إدراك العلم الزائف وراء الفن الفاشل العقيم .

ولو صح هذا التحليل لمنطق الساحر فإن المبدأين الأساسيين اللذين يعتمد عليهما سوف يظهر على أنهما مجرد طريقتين مختلفتين لاستخدام تداعى الأفكار استخداماً خاطئاً . فالسحر التشاكلى يقوم على تداعى الأفكار عن طريق التشابه ، بينما السحر الاتصالى يقوم على تداعى الأفكار عن طريق التجاور أو التلامس : السحر التشاكلى يقع فى خطأ افتراض أن الأشياء المتشابهة متطابقة تماماً ، والسحر الاتصالى يقع فى خطأ افتراض أن الأشياء التى كانت متلامسة تظل متصلة باستمرار . ولكن كثيراً ما يرتبط هذان الفرعان من الناحية العملية معاً أو بقول أكثر دقة فإنه بينما يمكن ممارسة السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة بذاته فإن السحر الاتصالى يتضمن على العموم الاستعانة بالتشاكل أو المحاكاة . وقد يكون من الصعب فهم هذه التفرقة من هـذا الوصف العـام ، ولكنها سوف تتضح للذهن حين نضرب بعض الأمثلة الأكثر تحديداً . والواقع أن تسلسل التفكير فى كلا الفرعين فى منتهى البساطة والسذاجة ، ولا يمكن أن يكون الأمر على غير ذلك نظراً لأنهما مألوفان فى الواقع الملموس ، وإن لم

يكونا كذلك على المستوى المجرد بالنسبة للذكاء الفج البسيط الذى لا تتصف به الشعوب الهمجية فقط بل وأيضاً الشعوب المتخلفة التى لا تتمتع بدرجة عالية من الذكاء والفطنة فى كل أنحاء العالم . وقد يمكن فهم فرعى السحر التشاكلى والاتصالى بطريقة أجلى وأفضل إذا أطلقنا عليهما تسمية واحدة شاملة وعامة مثل السحر التعاطفى ، نظراً لأن الاثنين يفترضان إمكان تأثر الأشياء بعضها فى بعض من بعيد عن طريق نوع من التعاطف الخفى ، بحيث ينتقل ذلك التأثير من شىء لآخر خلال ما يمكن تصوره على أنه نوع من الأثير الشفاف . ولا يختلف الأمر هنا عما يسلم به العلم الحديث من أجل غرض مماثل تماماً وهو تفسير كيفية تأثر الأشياء فيزيقيا بعضها فى بعض خلال الفضاء الذى يبدو خالياً .

وقد يحسن بنا أن نضع فروع السحر فى الشكل التالى تبعاً لقوانين الفكر التى تستند إليها :



وسوف نوضح عن طريق الأمثلة كلا من هذين الفرعين الكبيرين للسحر التعاطفى مبتدئين بالسحر التشاكلى .

٢ ـ السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة :

ربما كان أكثر صور استخدام مبدأ التشابه « الشبيه ينتج الشبيه » شيوعاً وانتشاراً هى المحاولات التى يقوم بها كثير من الناس فى مختلف العصور لإلحاق الأذى أو الدمار بأعدائهم عن طريق إيذاء أو تدمير صورهم ، اعتقاداً منهم أن ما يلحق بالصورة من شر وضرر يلحق بصاحبها ، وأنه حين يتم تدمير الصورة يموت الأصل بالضرورة . ويمكن أن نذكر هنا جانباً يسيراً من الأمثلة الكثيرة التى تظهر فى الحال مدى انتشار هذه العادة فى العالم واستمرارها الفريد خلال الزمن . فلقد قامت هذه الممارسات منذ آلاف السنين عند سحرة الهند القديمة وبابل ومصر وكذلك فى بلاد اليونان وروما ، كما أنها لا تزال شائعة حتى الآن عند الجماعات الهمجية الخبيثة الشريرة فى استراليا وافريقيا واسكتلندا . فالهنود الحمر فى أمريكا الشمالية يعتقدون أن رسم صورة الشخص فى الرمل أو الرماد أو الطين أو الحصول على أى جزء من جسمه ونخسه بقطعة حادة من الخشب أو إلحاق أى نوع آخر من الأذى به يستتبع إلحاق أذى مماثل بالشخص ذاته الذى تمثله هذه الصورة . وعلى ذلك فحين يريد شخص عند هنود أوجبواى Ojebway إيذاء أحد أعدائه فإنه يصنع له تمثالا صغيراً من الخشب ثم يغرز إبرة فى رأسه أو قلبه أو يطلق عليه سهماً ، اعتقاداً منه أن عدوه سوف يشعر بآلام حادة نفاذة فى ذلك الجزء من جسمه الذى يقابل الموضع الذى أصابته الإبرة أو السهم

من التمثال . أما إذا كان يريد قتل عدوه مباشرة وفى التو واللحظ فإنه يحرق التمثال أو يدفنه وهو يردد بعض الصيغ السحرية . كذلك كان الهنود الحمر فى بيرو يصنعون من الدهن المخلوط بالحنطة تماثيل على هيئة الأشخاص الذين يكرهونهم أو يرهبونهم ويحرقونها فى الطريق الذى يسلكه هؤلاء الأعداء ، ويعرف ذلك عندهم باسم «حرق الروح» . (١) .

وثمة «تعزيمة» فى الملايو من هذا النوع تقوم على أساس أخذ بعض أجزاء صغيرة من الأظافر والشعر والحواجب وما إلى ذلك بحيث تمثل جميع أجزاء الضحية ، واستخدامها مع بعض الشمع الذى يؤخذ من خلية نحل مهجورة ، فى صنع تمثال أو دمية على هيئته . وتعرض الدمية كل ليلة لسبع ليال متتالية للهب مصباح كى تحترق ببطء، ويردد الساحر أثناء ذلك :

---

(١) الواقع ان هذا الاسلوب من السحر شائع جدا فى كل المجتمعات المعروفة مع خلاف فى درجة الممارسة والتطبيق . ويوجد هذا الاسلوب فى مجتمعاتنا كما هو الحال مثلا فى صنع «عروسة» من الورق وغرزها بالابر فى عدة مواضع ثم احراقها لابطال الحسد . والامثلة الكثيرة التى يضربها فريزر ويبالغ فى الاستشهاد بها تعطى فكرة واحدة عن نمط تفكيره وعن فهمه للمنهج المقارن . فالمقارنة عنده لا تخرج عن ان تكون سردا لاكبر عدد ممكن من المعلومات الجزئية المتشابهة التى يجمعها من كل المجتمعات والثقافات والعصور . وهذه طريقة انثوجرافية بحت تقوم على مجرد السرد والوصف وتجد الآن كثيرا من المعارضة والنقد من علماء الانثربولوجيا المحدثين الذين يفهمون المنهج المقارن بطريقة اخرى غير مجرد جمع المعلومات الجزئية المبتسرة من كل زمان ومكان . ومن هنا كان كثير من العلماء المحدثين يميلون الى اخراج فريزر من زمرتهم واعتباره من رجال الادب والفولكلور — (أ.أ) .

إنى لا أعرض الشمع للهب

إنما أعرض للهب كبد فلان (أو قلبه أو طحاله .. الخ) بعد الليلة السابعة يحرق التمثال تماماً وفيموت صاحبه . وواضح أن هذا الطلسم السحرى يجمع بين مبدأى السحر التشاكلى والسحر الاتصالى ، نظراً لأن التمثال المصنوع على هيئة العدو يضم أشياء كانت متصلة بجسمه فى وقت من الأوقات كالأظافر والشعر واللعاب. ومن التعازيم الأخرى المنتشرة فى الملايو والتى تشبه ما نجده عند الأجبواى شبهاً قوياً أن يصنع الشخص دمية من شمع العسل من خلية مهجورة بحيث يكون طولها حوالى خطوة العدو . فإذا طعن الدمية فى مكان العين أصاب العمى عدوه ، وان طعنها فى موضع المعدة أصابه الغثيان والقيء ، أو طعنها فى الرأس أصابه الصداع ، أو طعنها فى الصدر مزقت الآلام صدره ، وهكذا . فإذا أراد قتله مرة واحدة أولج قضيباً فى الدمية بحيث يخترقها من الرأس حتى القدمين ثم كفنها مثلما يكفن الجسد وصلى عليها مثلما يصلى على الميت ودفنها وسط الطريق بحيث يخطو غريمه فوقها . ولكيلا يقع دم الضحية على رأس الفاعل يقول :

لست أنا الذى يقوم بدفنه
إنما هو جبريل الذى يدفنه

وبذلك يقع الإثم على كاهل كبير الملائكة الذى يستطيع أن يتحمل المسئولية بسهولة ويسر .

ولكن إذا كان السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة الذى يعمل عن طريق الصور أو الدمى يمارس فى العادة لتحقيق الأغراض الشريرة مثل إزالة الأشخاص الممقوتين أو المكروهين وإبادتهم من هذا العالم ، فإنه يستخدم أيضاً —وإن يكن بدرجة أقل بكثير — لتحقيق النوايا الطيبة نحو الآخرين ومساعدتهم فى الحياة . وبقول آخر ، فإنه كثيراً ما يستخدم لتسهيل عملية الوضع والولادة ومنح النسل والذرية للنساء العاقرات . مثال ذلك أن المرأة العاقر عند الباتاكا Batakas فى سومطرة والتى تتمنى الإنجاب تصنع من الخشب دمية لطفل تحملها فى حجرها على أمل أن يؤدى ذلك إلى تحقيق أمنيتها . كذلك حين ترغب المرأة فى جزر بابار Babar فى أن يكون لها ولد فإنها تطلب من أحد الرجال من أصحاب العائلات الكبيرة العدد أن يصلى من أجلها لروح الشمس المدعو أوبوليرو Upulero ثم تصنع « عروسة » من القطن الأحمر تضمها بين ذراعيها كما لو كانت ترضعها ، ويمسك ذلك الرجل المعيال بإحدى الدواجن من ساقيها ويرفعها فوق رأس المرأة وهو يتمتم : « أى أوبوليرو ، خذ هذا الطائر ودع الطفل يسقط . دعه ينزل . إنى أضرع إليك . إننى أبتهل إليك أن تترك الطفل ينزل وينزلق بين يدى وفى حجرى . » ثم يسأل المرأة : « هل جاء الطفل »؟ فتجيبه « : نعم وهو يرضع الآن بالفعل . ويرفع الرجل بعد ذلك الطائر فوق رأس الزوج وهو يردد بعض الصيغ والعبارات السحرية ،

وأخيراً يذبح الطائر ويضعه مع بعض أوراق نبات البتل betel (١) فى المكان الذى يقدم فيه أفراد البيت القرابين . وحين تنتهى هذه الطقوس ينتشر الخبر فى القرية بأن المرأة قد وضعت طفلا ، فتسارع صديقاتها إلى البيت مهنئات . فهنا نجد أن التظاهر بولادة طفل هو طقس سحرى محض ، يهدف عن طريق المحاكاة أو التمثيل إلى ضمان الولادة بالفعل وإن كان الناس مع ذلك يعملون على توكيد فاعلية هذه الطقوس بالصلاة وتقديم القرابين . وبقول آخر فإن السحر هنا يمتزج بالدين ويستمد منه مزيداً من القوة . (٢) .

وعند بعض قبائل الداياك Dayaks فى بورنيو حين يأتى المرأة المخاض تستدعى أحد السحرة لمساعدتها على الوضع . ويقوم الساحر

---

(١) يعتبر نخيل البتل من أنواع النخيل اللاشوكى ويعرف باسم Areca Catechus وترتفع نخلة البتل فى بعض الاحيان ارتفاعا كبيرا قد يصل مائة قدم أو أكثر . وهى تنمو بكثرة فى جنوب شرقى آسيا وان كانت توجد فى بعض جهات أمريكا الاستوائية . ويثمر نخيل البتل ثمارا حمراء اللون أو تميل الى الحمرة وتحتوى الواحدة منها على نواة صلبة يمضغها الاهالى هناك لخواصها الطبية المنبهة ، وان كان لونها يصبغ شفاههم وافواههم بلون احمر وكثيرا ما يؤدى الى اسوداد الاسنان وتلفها (أ . أ) .

(٢) على الرغم من التمييز الحاسم الذى يقيمه فريزر بين السحر والدين فكثيرا ما يستعين الساحر ببعض الطقوس والشعائر الدينية لكى يزيد من مفعول سحره وطلاسمه . ويحدث هذا في العادة فى المجتمعات التى حققت درجة معينة من التقدم وتخطت مرحلة . التوحش او الهمجية الاولى وبدأ الدين يلعب دورا هاما ، وان لم يفلح فى القضاء تماما على السحر . والمعروف ان السحر فى نظر فريزر كان أسبق من الدين فى الظهور ولذا فان هذا الخلط بين الممارسات السحرية والدينية لا يحدث فى المجتمعات الهمجية نظرا لعدم معرفتها بالدين ولاعتمادها كليا في مواجهة ازمات الحياة على السحر (أ.أ) .

بجس جسمها وتحريك الجنين بيده لمعاونتها على الوضع ، وهذه عملية مقبولة عقلا . إلا أنه فى الوقت نفسه يقف ساخر آخر خارج الحجرة ويقوم بأداء بعض الحركات التى تهدف هى أيضاً إلى نفس الغاية دون أن تكون لها صلة معقولة بعملية الوضع ذاتها . وتدور هذه الحركات حول تمثيل ومحاكاة دور المرأة الحامل ، فيربط حجراً كبيراً إلى بطنه بقطعة من القماش يلفها حول جسمه لتمثل الطفل داخل الرحم ثم يقوم — مسترشداً بالتعليمات التى يصدرها إليه زميله من داخل الحجرة — بتحريك الطفل المتوهم فى جسمه ، مقلداً حركات الطفل الحقيقى حتى تتم الولادة .

هذا المبدأ نفسه الذى يقوم على التظاهر والتوهم والذى يظهر بوضوح عند الأطفال دفع بكثير من الشعوب الأخرى إلى الالتجاء إلى محاكاة وتقليد عملية الوضع والولادة كأداة ووسيلة للتبنى ، أو حتى كوسيلة لإرجاع الحياة إلى شخص يعتقدون أنه مات . فإذا تظاهر شخص ما بأنه يلد طفلا معيناً أو حتى رجلا متقدماً فى السن دون أن يمت إليه بنسب فى الحقيقة والواقع فإن ذلك الطفل أو الرجل يصبح فى نظر القانون والفلسفة البدائيين ابناً حقيقياً له من جميع الوجوه . (١) ويذكر لنا ديودورس Diodorus أنه حين أفلح

(١) توجد عادة مماثلة لهذه فى كثير من المجتمعات العربية حيث تلجأ المرأة العاقر (فى الاغلب) الى دفع احد اولاد قريبة او صديقة لها خلال ملابسها من فتحة الثوب عند الرقبة واستقباله عند ذيل الثوب وبذلك يصبح كما لو كان ابنا لها ، وان كان ذلك لا يترتب عليه أى حقوق شرعية فى الوراثة مثلا (ا.ا) .

زيوس Zeus فى إقناع زوجته الغيور هيرا Hera فى أن تتبنى هرقل (١) ، رقدت الإلهة فى فراشها وضمت البطل القوى الضخم الجسم إلى صدرها ثم دفعته خلال ثيابها وتركته يتزلق إلى الأرض كما يحدث فى الولادة الحقيقية (٢) . ويضيف هذا المؤرخ

---

(١) تسجل الاسطورة القديمة قصة الصراع العنيف بين هيرا وهرقل ونقمة هيرا عليه باعتباره من نسل زوجها واحدى زوجاته من بنى البشر الفانين، وقد أعلنت هيرا الحرب على هرقل منذ مولده اذ أرسلت اليه فى مهده التنين من الافاعى القاتلة ولكن الطفل القوى تمكن من قتلهما بيديه ، فأسلمته هيرا بعد ذلك الى يوريستيوس Eurystheus وأجبرته على أن يفعل ما يؤمر به وبذلك أرسله يوريستيوس في رحلات خطيرة لتنفيذ بعض المطالب والاوامر الصعبة المهلكة عسى أن يلقى فيها حتفه . وقد سجلت لنا الاساطير أيضا كل هذه المخاطرات التى تعرف عموما باسم متاعب أو مغامرات هرقل الاثنتى عشرة ، وقد سبقت الاشارة الى احداها وهى صراعه مع العدار (الهيدرا) ذات الرءوس التسعة التى تتميز بأنه كلما قطع راسا منها نبت مكانها رأسان جديدتان كما أن الرأس الوسطى كانت غير قابلة للقطع أو الدمار او الابادة ومع ذلك تمكن هرقل فى آخر الامر من أن يقتلها حرقا وأن يدفن تلك الرأس الباقية الخالدة تحت صخرة ضخمة . ولا تقل المغامرات الاخرى التى كان هرقل يقوم بها عن ذلك خطورة ولكنه أفلح فى التغلب عليها كلها بفضل قوته الجسدية الهائلة . ولم ترض عنه هيرا الا بعد أن مات هو نفسه محروقا وطهرته النار من الجانب الآدمى الفانى الذى ورثه من أمه ثم رفعه زيوس فى عربة تجرها أربعة خيول الى السماء حيث احتل مكانه بين النجوم " ويقال فى الاسطورة ان هيرا قبلت حينئذ أن تزوجه ابنتها . راجع تفاصيل مغامرات هرقل في كتاب بلفينش عن « عصر الخرافة » ، المرجع السابق ذكره ، صفحات ١٥٩ وما بعدها (أ.أ) .

(٢) لا تزال بعض الشعوب والقبائل الافريقية فى جنوب ووسط القارة بوجه خاص تمارس بعض العادات المشابهة لاثبات بنوة الطفل لابيه " وتقضى هذه العادات على الاب حين يأتى الام المخاض أن يرقد فى الفراش ويقوم بكل الحركات التى يفترض صدورها عن المرأة اثناء الوضع ثم يمضى مع الطفل حين يولد فترة النفاس ، وتعرف هذه العادة باسم الكوفاد Couvade (أ.أ) .

أيضاً أن هذه الطريقة ذاتها كانت شائعة على أيامه بين البرابرة كوسيلة لتبنى الأطفال ، كما يقال إنها لا تزال تمارس حتى الآن فى بلغاريا وعند الأتراك فى البوسنة . حيث تأخذ المرأة الطفل الذى تنوى أن تتبناه ثم تدفعه أو تجذبه خلال ملابسها ، ومنذ تلك اللحظة يعتبر ابنها الحقيقى ، فيرث كل ممتلكات والديه بالتبنى . وعند قبائل براوان Berawans فى سراواك حين تريد المرأة أن تتبنى شخصاً مكتمل النضج — رجلا كان أو امرأة — يتجمع نفر كبير من الناس فى حفل كبير وتجلس المرأة أمامهم على مقعد مرتفع وقد تغطت تماماً ثم تسمح للشخص الذى سوف تتبناه بأن يحبو من خلفها بين ساقيها . وبمجرد أن يظهر أمامها تـُلقى عليه بعض الأزهار من نوع معين له رائحة زكية ، ثم يقوم الاثنان وقد ربط أحدهما للآخر ويسيران مترنحين حتى آخر البيت ثم يعودان ثانية أمام الناس . وتعتبر هذه الرابطة التى تقوم بين الاثنين بهذه الطريقة التى تحاكى حرفياً عملية الولادة هناك رابطة متينة للغاية لدرجة أن أى اعتداء يتعرض له الشخص المتبنى يعتبر أشد وأنكى من الاعتداء الذى قد يتعرض له الابن الحقيقى لتلك المرأة . وفى بلاد اليونان القديمة كان الشخص الذى يظن الناس خطأ أنه مات وأقاموا له فى غيابه الشعائر الجنائزية المناسبة يعتبر ميتاً فى نظر المجتمع حتى يمر بعملية الولادة من جديد . وفى هذه العملية كانوا يجعلونه يمر خلال حجر إحدى النساء ثم يغسلون جسمه ويلفونه فى القماط ويسلمونه لإحدى المربيات للإشراف عليه .

ولم يكن يُسمح له بالاختلاط بغيره من الناس الأحياء قبل إتمام هذه الطقوس بكل دقة وعناية . وفى الهند القديمة كان الرجل الذى يُعتقد أنه مات يضطر إلى تمضية الليلة الأولى بعد عودته فى برميل ملىء بخليط من الدهن والماء فيجلس فيه صامتاً تماماً وقد ضم قبضتى يديه إحداهما للأخرى مثلما يجلس الجنين فى الرحم ، بينما تمارس عليه كل أنواع الطقوس المقدسة التى كانت تمارس على المرأة الحامل . وفى صباح اليوم التالى يخرج من البرميل وتمارس عليه مرة أخرى كل الطقوس والشعائر التى سبق أن مر بها منذ طفولته الأولى حتى سنه الحالية ، بل إنه يتعين عليه أن يتزوج امرأة جديدة أو يرد إليه زوجته الأولى مرة أخرى بكل الطقوس المناسبة .

ومن الأوجه المفيدة الأخرى التى يستخدم فيها السحر التشاكلى الاستعانة به فى معالجة الأمراض أو الوقاية منها (١) . ولقد كان

(١) سبق ان ذكرنا ان أهم نوعين من أنواع السحر فى كل انحاء العالم هما السحر الخاص بالتنبؤ بالغيب والسحر الخاص بالتداوى والعلاج (انظر الحاشية رقم ١ ص ١٠١) . ويرد وليام هاولز ذلك الاهتمام الى ان «المرض والشك هما دائما أشد وأقسى أسباب القلق الشخصى والاجتماعى، وهذا نفسه هو السبب فى وجود المشتغلين بقراءة الكف وورق اللعب والعواقين والمنجمين وأمثالهم بيننا — ووجودهم نعمة من غير شك — كما انه هو السبب فى ان الناس لا يزالون يقبلون كل أنواع طب الركة او طب العجائز على الرغم من الطب الحديث بكل معلوماته الصحيحة الشاملة » (انظر ترجمتنا العربية لكتاب هاولز « ما وراء التاريخ » المرجع السابق ذكره ، صفحة ٢٢٥] . والواقع ان الاستعانة بما يمكن تسميته بطب الركة او الطب الشعبى فى علاج الامراض وبخاصة المستعصية والمزمنة شائع فى كثير من المجتمعات والثقافات على اختلاف درجات تقدمها ويعتبر مكملا للطب الحديث ووسائل العلاج العملية بحيث يستخدم المريض الاثنين معا ويرد شفاءه اليهما معا ايضا (أ . أ) .

الهندوس القدماء يمارسون بعض الطقوس الدقيقة التى ترتكز على السحر التشاكلى للعلاج من مرض الصفرة أو البرقان ، وكان الهدف الأساسى من هذه الطقوس هو نقل الصفرة من جسم المريض إلى الكائنات والأشياء الصفراء الأخرى مثل الشمس التى تنتمى إلى ذلك اللون عن جدارة ، ثم حقن المريض باللون الأحمر الذى يدل على الصحة والعافية وذلك من أحد المصادر التى تتمتع بالقوة والحيوية مثل الثيران الحمراء . ولكى يتم ذلك كان أحد رجال الدين عندهم يتلو الرقية التالية « سوف تصعد إلى الشمس آلام قلبك ومرض الصفرة ، وسوف نغمسك فى لون الثور الأحمر. إننا نغمسك فى الأصباغ الحمراء لتنعم بالحياة طويلا . ألا فلتتحرر وتتخلص من ذلك اللون الأصفر . إننا نضفى عليك صورة وحيوية تلك الأبقار التى تنتمى إلى الإلهة روهينى الحمراء . إننا ننقل صفرتك إلى الببغاوات وطيور الدج وغيرها من الطيور الصفراء ».ولكى يسرى رحيق الصحة الوردى فى جسم المريض الشاحب فإنه يرشف أثناء ترديد رجل الدين لهذه الكلمات بعض رشفات من الماء الممزوج بشعر ثور أحمر ، وذلك بعد أن يكون رجل الدين قد سكب الماء فوق ظهر الحيوان ليقدمه للمريض . ويجلس المريض أثناء ذلك فوق جلد دب أحمر وقد ربط قطعة من ذلك الفراء إلى جسمه . ولكى يزيل تماماً كل آثار الصفرة من جسمه ويستبدل بها لون الصحة الأحمر يخضع المريض لمزيد من الشعائر والطقوس التى تبدأ

بأن يدهن له رجل الدين جسمه كله من قمة الرأس حتى أخمص القدمين بنوع من العصيدة الصفراء المصنوعة من الكركم ثم يضعه فى الفراش ويربط ثلاثة أنواع من الطيور الصفراء كالببغاوات أو طائر الدج بخيوط صفراء إلى فراشه من جهة القدمين ، ثم يصب الماء على المريض لإزالة العصيدة ومعها بلا ريب مرض الصفرة الذى ينتقل بذلك من جسمه إلى تلك الطيور . ولكى تكتسب البشرة شيئاً من النضارة والتألق يأخذ رجل الدين بعض الشعيرات من ثور أحمر فى إحدى أوراق الشجر الذهبية اللون ويلصقها إلى جلد المريض . كذلك كان الأولون يعتقدون أنه إذا نظر الشخص المريض بالبرقان إلى الكروان الجبلى بحدة وبادله الطائر تلك النظرة فى الوقت نفسه شفى المريض من مرضه . ويقول بلو تارك Plutarch فى ذلك «هذه طبيعة ومزاج ذلك الطائر الذى يسحب المرض ببصره فيتدفق كالنهر من جسم المريض » . ولقد كان هواة الطيور يعرفون تلك الخاصية التى يتمتع بها كروان الجبل لدرجة أنه حين يخرج أحدهم لبيع إحداها كان يحرص على أخفائه وتغطيته خشية أن ينظر إليه شخص مصاب بالبرقان فيشفى من مرضه بدون مقابل . ولم تكن هذه الخاصية مرتبطة بلون الطائر ذاته بل بعينيه الذهبيتين الكبيرتين اللتين تجذبان الصفرة بسهولة ويسر . ويتكلم بلينى Pliny عن طائر آخر — ولعله هو الكروان الجبلى ذاته — كان الإغريق يطلقون عليه نفس الاسم المستعمل عندهم لمرض البرقان ، لأنه لو نظر إليه

شخص مصاب بذلك المرض فارقه مرضه فى الحال ومات الطائر ، كما أنه يتكلم عن نوع من الأحجار التى كان الناس يعتقدون فى قدرتها على شفاء البرقان لأن لونها كان يشبه لون جلد المريض به . (١)

ومن أكبر أفضال السحر التشاكلى أنه يسمح بممارسة العلاج على شخص المطيب نفسه بدلا من ممارسته على المريض الذى يعفى بذلك من كل المتاعب والمضايقات ، فى الوقت الذى يرى فيه طبيبه المداوى يتلوى من الألم أمام عينيه . من ذلك مثلا أن الفلاحين فى منطقة بيرش Berche بفرنسا يقاسون كثيراً من الفزع بسبب اعتقادهم أن استمرار القىء لمدة طويلة إنما ينشأ من أن معدة

(١) من الوسائل الشائعة شيوعا كبيرا فى المجتمعات « البدائية » والتى تستخدم بكثرة فى العلاج محاولة تخليص المريض من مرضه وازالة الاذى عن طريق المص ، بأن يضع الطبيب فمه ـ أو قد يستخدم لذلك أنبوبة من البوص أو غيره ـ على موضع الوجع ويأخذ فى المص بشدة متظاهرا بأنه يمتص المرض من الجسم ، ثم يلفظ من فمه قطعة من الحجر أو من العظام أو حتى بعض الرماد أو قطعة من الفراء أو ما الى ذلك ، علامة على انه أخرج المرض بالفعل من جسم المريض . كذلك تلجأ معظم المجتمعات فى طبها الشعبى الى علاج الأمراض والاوجاع بوسائل تحمل بعض الخصائص أو صفات المرض ذاته كما هو الحال فى قرى مصر مثلا وبين الفئات غير المتعلمة الذين يعالجون أمراض العيون واحمرارها بوضع قطعة من اللحم الاحمر النيىء على العين لكى (يلقط) ذلك الاحرار على ما يقولون ، وهذا هو السبب أيضا فى ارتداء المريض بالحصبة فى كثير من البلاد العربية ملابس حمراء . فهذه العلاقة بين المرض « والدواء » تعتبر فى نظر تلك الجماعات من أهم الاسباب التى تؤدى الى الشفاء .. وفى كثير من الاحيان تكون ندرة الدواء الشعبى أو ارتفاع ثمنه وصعوبة الحصول عليه هو السر الذى يكمن وراء ايمان الناس فى قدرته على الشفاء وعلى أى حال فالمسألة هنا تعتمد الى حد كبير على المصادفة البحتة (أ. ز) .

المريض تفلت أو تنفصل من « الخطاف » الذى تتعلق به — حسب تعبيرهم — وبالتالى تسقط إلى أسفل ، ولذا فإنهم يلجئون إلى أحد ممارسى التطبيب لاعادة تعليقها فى مكانها الصحيح . وبمجرد أن يستمع المطبب إلى أعراض المرض يأخذ فى التلوى والتثنى بعنف لكى تنفصل معدته هو نفسه عن خطافها . وحين يتم له ذلك يشرع فى العمل على ردها إلى موضعها الأصلى من جديد . ويقوم لذلك بمزيد من الحركات العنيفة ، وأثناء ذلك كله يداخل المريض شعور تدريجى بالراحة والهدوء والسكينة . والأجر على ذلك كله خمسة فرنكات فقط . وحين يلجأ المريض عند الداياك إلى أحد المطببين لعلاجه يلقى المطبب بنفسه على الأرض متظاهراً بالموت . ويعامله الناس بنفس الطريقة التى يعاملون بها الجسد الميت فيلفونه فى حصير ويحملونه إلى بيتـــه حيث يسجونه على الأرض . وبعـــد ساعة تقريباً يأتى مطبب ليخلصه من أساره ويرده إلى الحياة . والمفروض أنه بينما يسترد المطبب المتماوت حياته يسترد المريض صحته . ويصف لنا المدعو مارسيللوس من مدينة بوردو Marcellus of Bordeau — وكان طبيب البلاط أيام ثيودوسيوس الأول Theodosius I (١)

(١) ويعرف أيضا باسم ثيودوسيوس الاكبر . من أهم أباطرة الرومان فى القرن الرابع الميلادى (٣٤٦ – ٣٩٥ تقريبا) . وبعد حياة حربية حافلة عين امبراطورا للاقاليم الشرقية . ويطلق عليه لقب « الاكبر » للدور الذى لعبــه فى تاريخ الكنيســة المسيحية ونشرها ، وفى اضطهاد وابادة الوثنيين أو اجبارهم على الاختفاء والهرب . وحين مات قســمت الامبراطورية الرومانيـــة بين ولديه أركاديوس (أوجسطوس) وهونوريوس وكان ذلك مقدمة لانقســـام الامبراطورية انقساما تاما ودائما (أ.ن) .

فى كتابه العجيب عن الطب إحدى الوسائل التى كانت متبعة فى علاج الأورام باستخدام مبدأ السحر التشاكلى . وتتلخص هذه « الوصفة » فى أن يأخذ المريض أحد جذور نبات رجل الحمام vervain ، ويقطعه ويعلق أحد الجزئين حول عنق المريض بينما يعرض الجزء الآخر لدخان النار . وبينما يجف النبات فى الدخان يجف الورم إلى أن يختفى تماماً . ولكن إذا تنكر المريض بعد ذلك للطبيب فإن من السهل أن يثأر الطبيب لنفسه بكل براعة وسهولة ، إذ يكفى أن يلقى بجذر النبات فى الماء ، وبمجرد أن يمتص النبات الرطوبة يعود الورم إلى التضخم من جديد . ويوصى هذا الكاتب الحكيم بأنه إذا ظهرت فى الجسم بعض البثور فليس على المصاب إلا أن يترقب سقوط أحد النجوم من السماء فيمسح فى الحال على تلك البثور بقطعة من القماش أو بأى شيء آخر يكون فى متناول يده . فكما يهوى النجم من السماء كذلك سوف تتهاوى البثور عن الجسم . ولكنه يحذر من أن يمسح المريض على البثور بيده العارية وإلا انتقلت إليها .

وزيادة على ذلك فإن السحر التشاكلى بخاصة ، والسحر التعاطفى بعامة ، يلعبان دوراً كبيراً فى الإجراءات التى يتخذها قانصو الحيوانات وصيادو السمك عند الشعوب الهمجية لضمان الحصول على قدر وافر من الطعام . فتبعاً لمبدأ « الشبيه ينتج الشبيه » يقوم الصياد وأصدقاؤه بكثير من الأعمال التى تهدف عمداً إلى محاكاة

النتائج التى يريدون الوصول إليها ، بينما يتجنبون من الناحية الأخرى كثيراً من الأمور التى تشبه من بعض الوجوه الأشياء التى يعتقدون أنها ضارة ومؤذية (١) .

ولم تمارس نظرية السحر التعاطفى فى أى مكان بطريقة منهجية من أجل المحافظة على موارد الطعام بأكثر مما استخدمت فى المناطق المجدبة بوسط أستراليا . فى تلك البقاع تنقسم كل قبيلة إلى عدد من العشائر الطوطمية التى تأخذ كل منها على عاتقها العمل بواسطة الطقوس السحرية على تكاثر أفراد الطوطم ،(٢) الذى تتبعه من أجل

(١) هذا يفسر العادة التى كان يلجأ اليها الانسان المبكر فى عصور ما قبل التاريخ من رسم صور الحيوانات وقد انغرزت فى اجسامها الحراب أو السهام كما هو الحال فى كهوف العصر الحجرى القديم . اذ بمثل هذه الحيلة كان قانصو الحيوانات يتحكمون فيها مقدما بقصد التمكن من قتلها بالفعل أو على الاقل استدارجها اليهم — (أ.ا) .

(٢) تعتبر مشكلة الطوطمية من أهم وأطرف المشاكل التى عنى بها الانثربولوجيون ، وقد خصص لها فريزر نفسه كتابه المشهور عن « الطوطمية والزواج الاغترابى » . ولكن على الرغم من كثرة استخدام الكلمة فكثيرا ما يقع الكتاب فى الخطأ فى فهم مدلولها وخصائصها . وكلمة « طوطم Totem » نفسها مستمدة من كلمة شائعة عن هنود الاجبواى وان كان النظام الاجتماعى الذى يرتبط بها يختلف من مجتمع لآخر مع وجود بعض عناصر أساسية مشتركة . ومع ان الكلمة تشير الى وجود علاقة معينة بين الانسان والحيوان تستتبع قيام معتقدات وممارسات ذات طابع دينى فليس كل علاقة من هذا النوع تشير الى وجود النظام الطوطمى . وأهم خصائص الطوطمية هى : أ — ارتباط النظام الطوطمى بالتنظيم العشائرى الذى تنقسم فيه كل قبيلة الى عدد من العشائر المتمايزة ب — اعتقاد كل عشيرة بأن افرادها ينحدرون من صلب طوطم معين (هو فى الاغلب فصيلة معينة من الحيوانات ، وان تكن هناك طواطم نباتية وفى أحيان قليلة طواطم من الجمادات) يكون بمثابة السلف =

صالح الجماعة المحلية كلها . ومعظم الطواطم هناك عبارة عن حيوانات ونباتات صالحة للأكل . والنتيجة العامة المفروض تحقيقها بهذه الطقوس هى تزويد القبيلة بكل ما تحتاج إليه من طعام وضرورات العيش الأخرى . وتعتمد هذه الشعائر فى الأغلب على محاكاة النتيجة أو التأثير الذى يتمنى المرء تحقيقه . وبقول آخر فإن السحر الذى يمارسونه هنا هو من الضرب التشاكلى أو سحر المحاكاة . فعند قبيلة الوارامونجا Warramunga مثلا نجد أن زعيم طوطم طائر

= الاول والمؤسس الحقيقى للعشيرة وبذلك يصبح معبودا لهم ، ج ـ الاعتقاد بوجود روابط دم وقرابة بين جميع افراد الطوطم وهذا يفرض قيودا صارمة على الزواج بين افراد الطوطم الواحد الذين يحرم عليهم فى الواقع مثل هذا الزواج ، كما ان كل علاقة جنسية بين الذكور والاناث من أعضاء الجماعة الطوطمية تعتبر نوعا من الزنا بالمحارم . د ـ تحريم قتل الطوطم أو الاعتداء عليه بأى شكل من الاشكال والا أصاب العشيرة كلها ـ وليس الشخص الجانى وحده ـ الاذى والمرض والموت ، ولكن يحق لافراد العشيرة أن يتناولوا لحم الطوطم فى طعامهم فى مناسبات شعائرية معينة بالذات لاكتساب الخصائص المستحبة التى يتميز بها الطوطم . هـ ـ استحالة تغيير الشخص للطوطم الذى يتبعه نظرا لعلاقات الدم القوية بينه وبين طوطمه علاوة على العلاقة الشعائرية . و ـ العلاقة ليست قائمة بين فرد معين وحيوان معين بالذات (أسد معين او تمساح معين مثلا) وانما بين العشيرة ككل وجميع أفراد فصيلة معينة بالذات من الحيوانات (جميع الاسود أو جميع التماسيح) . ز ـ وقوع التزامات معينة على جميع أفراد الطوطم الواحد بضرورة التماسك والتضامن حتى وان لم يكن يعرف بعضهم بعضا . فكل شخص ينتمى لطوطم الاسد مثلا يعتبر أخا لجميع الاشخاص الذين ينتمون لذلك الطوطم حتى وان لم تكن بينهم علاقات قرابية فعلية ، كما أن هذه العضوية فى الطوطم تنتقل معه من مكان لآخر بحيث تعرف القبائل المختلفة نسب أى شخص والقبيلة التى ينتمى اليها من مجرد معرفتها للطوطم الذى يتبعه ـ (أ.أ) .

الككتوه الأبيض (وهو نوع من البغاوات) يعمل بكل جهده على الإكثار من هذه الطيور ، ولذا فإنه يمسك بيده تمثالا لإحداها ويصيح مقلداً صوتها الأجش الخشن . وعند الأرانتا Arunta يقوم أفراد إحدى العشائر التي تتسمى باسم دودة معينة ببعض الطقوس التي تهدف أيضاً إلى الإكثار من هذا النوع من الديدان التي يتغذى عليها بقية أفراد القبيلة . وتتلخص إحدى هذه الطقوس في تمثيل عملية خروج الحشرة المكتملة النمو من اليرقة ، ولذا يقام من فروع الشجر هيكل طويل وضيق بحيث يشبه غلاف يرقة هذه الحشرة ويقبع فيه عدد من الناس وهم يرددون بعض الأغاني التي تدور حول المراحل المختلفة التي تمر بها الدودة في نموها ، ثم يحاولون بعدها أن يشقوا طريقهم من هذا « الغلاف » مثلما تفعل اليفعة تماما ، ويرددون أثناء ذلك الأغاني المتعلقة بهذه العملية . والمفروض أن هذه الطقوس تساعد على توالد وتكاثر هذه الديدان . كذلك نجد أنه للإكثار من طائر الإيمو emu الذي يعتبر من أهم عناصر الطعام هناك يرسم أفراد العشيرة التي تتبع ذلك الطوطم المقدس صورة الإيمو على الأرض مع الاهتمام بابراز الأجزاء التي يفضلون أكلها كالشحم الأبيض ، ويجلسون حول هذه الرسوم وهم يغنون ، وقد وضعوا على رءوسهم بعض الأقنعة التي تمثل عنق الإيمو الطويل ورأسه الصغير كما يقومون بتقليد ومحاكاة هيئة الطائر وهو واقف يتلفت حوله في كل مكان بغير هدف واضح .

ويعتمد الهنود الحمر فى كلومبيا البريطانية إلى حد كبير فى معاشهم على السمك الذى يتوفر فى البحار والأنهار هناك. فإذا لم يأت السمك فى موسمه المعتاد وقاسى الهنود من الجوع قام أحد سحرة نوتكا Nootka بصنع تمثال على هيئة سمكة سابحة وألقى بها فى الماء فى الاتجاه الذى يأتى منه السمك فى العادة ، على أمل أن يجذب ذلك العمل الذى تصاحبه بعض الصلوات السمك فى الحال . ويصنع سكان جزر مضايق توريس نماذج السمك الأطوم dugong والسلاحف المائية ويتخذون منها تعاويذ سحرية لجذب هذه الأنواع من الأسماك ، كما أن التورادجا Toradjas الذين يعيشون فى سيليبيز الوسطى يعتقدون أن الأشياء التى من نفس النوع تجذب بعضها بعضاً بفعل الأرواح (أو الأثير الحيوى) التى تسكن فيهـا ، ولذا فإنهم يعلقون عظام فك الغزلان والخنازير البرية فى بيوتهم حتى تتمكن الأرواح التى تسكن تلك العظام من أن توجه الكائنات الحية المماثلة إلى الطريق الذى يسلكه الصيادون . وفى جزيرة نياس Nias حين يسقط خنزير برى فى الحفرة التى أعدت لقنصه فإن الناس يرفعونه من الحفرة ثم يحكون ظهره بتسع ورقات من أوراق الشجر المتساقطة على الأرض اعتقاداً منهم أن ذلك كفيل بأن يدفع تسعة خنازير برية أخرى للسقوط فى الحفرة ذاتها مثلما سقطت تلك الأوراق التسعة من الشجرة . وفى جزر ساباروبا Saparoia وهارويكوى Haroekoe ونويسا لاوت Noessa Laut ، وهى كلها من جزر الهند الشرقية ،

نجد أنه حين يشرع الصياد فى إلقاء شباكه لصيد السمك فى البحر يبحث أولاً عن شجرة تكون ثمـــارها قد تعرضت لنقر الطيور بكثرة فيقطع أحد أغصانها القوية ويصنع منه العمود الرئيسى لمصيدة السمك ، على أمل أن يجذب ذلك الغصن سمكاً كثيراً إلى المصيدة مثلما أفلحت الشجرة ذاتها فى جذب كل تلك الطيور إلى ثمارها .

وتستعين القبائل الغربية فى غينيا البريطانية الجديدة بتعويذة معينة فى صيد أسماك الأطوم والسلاحف البحرية بالحراب ، إذ يضعون إحدى الحشرات الطفيلية الصغيرة التى تغزو أشجار جوز الهند فى الثقب الذى يثبتون فيه رأس الحربة إلى القناة ، على زعم أن ذلك يساعد على اختراق رأس الحربة بقوة جسم الأطوم أو السلحفاة والتصاقها بها مثلما تلتصق تلك الحشرة الطفيلية بجلد الإنسان حين تعضه . وحين ينشر الصياد فى كمبوديا شباكه ويمر وقت طويل دون أن يقع فيها أى صيد فإنه ينضو عنه كل ملابسه ويبتعد بعض الشيء عن تلك الشباك ثم يأخذ فى القفز نحوها كما لو لم يكن يراها حتى يقع فيها فيصرخ : « ما هذا ؟ يبدو أننى قد وقعت فى المصيدة . » ومن المؤكد أن الشبكة سوف تمسك بعد ذلك بالصيد . وقد كان الأسكتلنديون فى المناطق المرتفعة يقومون بتمثيل هذه العمليات حتى عهد قريب جداً . ويذكر لنا الأب جيمس ماكدونالد James Macdonald الذى يعيش فى رياى Reay بمنطقة كيتنس

Caithness أنه حين كان يخرج فى صباه مع أصدقائه لصيد السمك فى منطقة لوخ آلين Loch Aline ويمر وقت طويل دون أن يحصلوا على شىء من الصيد فإنهم كانوا يتظاهرون بالقاء أحدهم من القارب فى الماء ثم ينتشلونه منه كما لو كان سمكة ، وأنه لم يكن يمر وقت طويل على ذلك حتى يأخذ السمك فى التهافت على الطعم ، سواء أكان القارب يسير فى النهر أو البحر . وحين كان الرجل عند هنود كاريير Carrier Indians يفكر فى الخروج لصيد الدلق أو السنسار (وهو حيوان من اللواحم) بالشباك فإنه كان ينام وحيداً منفرداً حوالى عشرة أيام بجوار النار وقد ثبّت قطعة صغيرة من الخشب حول عنقه بحيث تضغط عليه إيمانا منه بأن ذلك سيجعل لسان المصيدة الخشبى يطبق على عنق الفريسة . وعند الجاليلاريز Galelareese الذين يعيشون فى الجزء الشمالى من هالماهيرا Halmahera ، وهى جزيرة كبيرة تقع إلى الغرب من غينيا الجديدة ، يحرص الناس حين يضعون الرصاص فى بنادقهم استعداداً للخروج للقنص على أن يضعوا كل رصاصة فى أفواههم أولا ثم توضع فى البندقية بعد ذلك ، وبذلك يكونون قد ضمنوا من الناحية العملية أنهم سيأكلون لحم الفريسة التى سوف تصيبها تلك الرصاصة ، وبالتالى فلا يمكن للرصاصة أن تطيش أو تخطىء الهدف . كذلك

يحرص الرجل فى الملايو – بعد أن يضع الطعم فى الفخ لصيد التماسيح ويقف مترقباً النتيجة على أن يبدأ طعامه بابتلاع ثلاث حفنات من الأرز الواحدة تلو الأخرى قبل أن يشرع فى تناول « الكارى curry » ، لأن ذلك يساعد الطعم على الانزلاق بسهولة ويسر فى حلق التمساح . ويحذر الصياد أثناء طعامه من أن يتناول أية قطعة من العظام لأنه لو فعل ذلك فسوف تنفصل قطعة الخشب المدببة التى يثبت إليها الطعم مثلما يفصل العظم عن اللحم وبذلك يتمكن التمساح من الهرب بالطعم . ومن هنا كان الصياد يجد من الحكمة فى مثل هذه الأحوال أن يطلب إلى شخص آخر أن يرفع العظام من طعامه قبل أن يشرع هو نفسه فى الأكل حتى لايجد نفسه مضطراً فى لحظة من اللحظات إلى أن يختار بين أن يبتلع قطعة من العظم أو أن يفقد التمساح .

وهذه العادة الأخيرة مثال للأشياء التى يتجنب الصياد فعلها خشية أن تؤدى إلى الوقوع فى المحظور تبعاً لمبدأ « الشبيه ينتج الشبيه » . ولابد من أن نلاحظ هنا أن نسق السحر التعاطفى لا يتألف من قواعد إيجابية فقط وإنما يضم أيضاً عدداً كبيراً جداً من القواعد والتعاليم السلبية أو التحريمات. فهو لا يحدد للإنسان ما يفعله فحسب بل وأيضاً ما يتحتم عليه تركه أو اجتنابه . فالقواعد الإيجابية هى

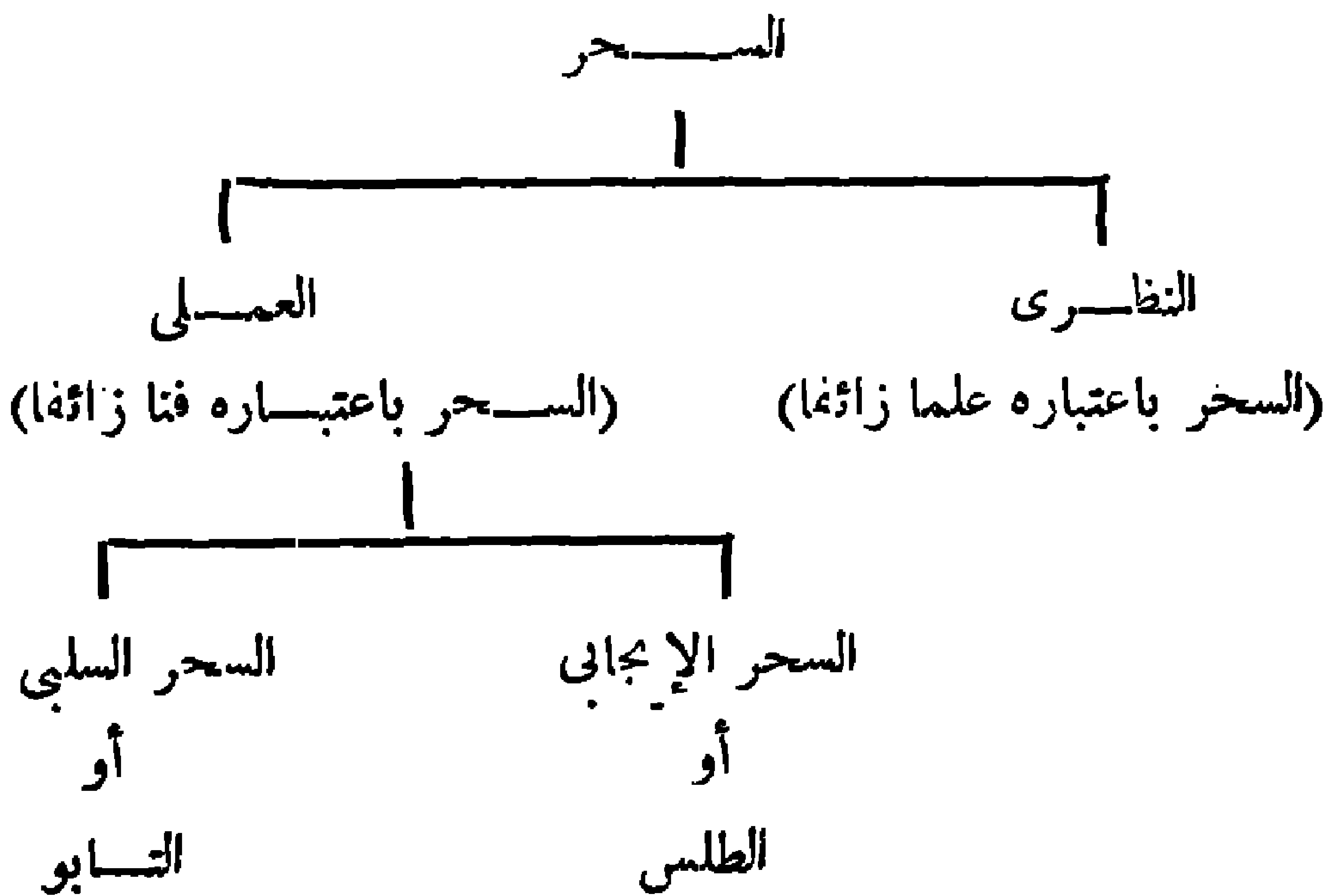
التعاويذ أو الطقوس ، والقواعد السلبية هى التحريمات أو التابو[1] . والواقع أن نظرية التابو ، أو جزءاً كبيراً منها على الأقل ، هى مجرد تطبيق خاص للسحر التعاطفى بقانونيه الرئيسيين ؛ : قانون التشابه وقانون الاتصال . ومع أن الرجل الهمجي لا يعبر عن هذين القانونين فى صيغ دقيقة محكمة أو حتى يتصورهما بطريقة مجردة فإنه يعتقد

---

(١) « التابو » كلمة بولينيزية اكتشفها لاول مرة الرحالة الشهير الكابتن جيمس كوك James Cook أثناء رحلته الثالثة حول العالم وذلك عام ١٧٧٧ . ونظرا لصعوبة ترجمتها ترجمة دقيقة فقد ادخلت الكلمة ذاتها فى الكتابات الانثربولوجية والاجتماعية واصبحت من المصطلحات العلمية المقبولة فى جميع اللغات . والمقصود بالتابو على العموم الاشياء المقدسة التى لا يخطر على الناس الاقتراب منها خشية تدنيسها مما يعرض الشخص نفسه للخطر وللدناسة الشعائرية . ويرى فرويد Freud فى كتاب عن « الطوطم والتابو » ان أقرب ترجمة للكلمة هى «الخوف المقدس» لانها تجمع بين خاصية القداسة التى تتمتع بها الاشياء التى تعتبر (تابو) وبين التحريمات والقيود التى تفرض على الناس ازاء هذه الاشياء ذاتها . وتختلف قيود التابو عن القيود الرتيبة فى انها لا تصدر عن أمر الهى ولكن الناس أنفسهم يفرضونها بأنفسهم على انفسهم ، كما تختلف عن النواهى الاخلاقية فى انها لا تدخل ضمن نظام متماسك يبرر لنا هذه التحريمات ويبين أسبابها واصلها ، ولذا فان قواعد التحريم فى التابو تقبل على علاتها كأمر لا مفر منه . ويعتقد بعض الانثربولوجيين أن التابو هو أقدم قانون غير مكتوب للجنس البشرى بل انه وجد قبل أن يعرف الانسان الدين والآلهة . وتحريمات التابو تحريمات قاطعة ولذا فان خرق التابو يستتبع بالضرورة توقيع العقوبة على كل من يخرقه . وكثيراً ما تتم العقوبة بطريقة آلية ، أى أن التابو يحمل العقوبة والجزاء ضمنياً ، وان كانت هناك حالات يتولى المجتمع ذاته توقيع العقوبة على المعتدى فيها ، على أعتبار ان خرق التابو يلحق الاذى ليس بالشخص المعتدى وحده وانما بالمجتمع ككل وجعله هو نفسه « تابو » أى مصدر للاذى لان للتابو القدرة على الانتقال من شيء لآخر أو من شخص لآخر (١٠١) .

مع ذلك – وبطريقة ضمنية – أنهما ينظمان سير الطبيعة بدون أى تدخل من جانب الإرادة الإنسانية . فهو يعتقد أنه إذا تصرف بطريقة معينة فسوف يترتب على عمله بالضرورة نتائج معينة بالذات تبعاً لأحد هذين القانونين . ولو خيل إليه أن النتائج المترتبة على فعل معين بالذات قد تؤدى إلى الإضرار به فإنه يحرص بالطبع على ألا يفعلها بتلك الطريقة حتى لا يتسبب فى ظهور تلك النتائج الضارة . وبقول آخر ، فإن الرجل الهمجى يمتنع عن فعل الأشياء التى يتصور خطأ – تبعا لتصوراته الخاطئة عن العلة والمعلول – أنها سوف تؤذيه ، وبذلك يُخضع نفسه للتابو . ومن هذه الناحية يُعتبر التابو تطبيقا سلبيا للسحر العملى. وبينما يقول السحر الإيجابى أو الطلس « افعل كذا لكى يحدث كذا » يقول السحر السلبى أو التابو « لا تفعل كذا حتى لا يحدث كذا » . وبينما يهدف السحر الإيجابى إلى تحقيق شىء مرغوب فيه يهدف السحر السلبى أو التابو إلى تجنب شىء مرغوب عنه . ومع ذلك فإن كلا النتيجتين – أى المرغوب فيها والمرغوب عنها – تحدثان تبعا لقانونى التشابه والاتصال. وكما أن النتيجة المرغوب فيها لا تتأثر فى الحقيقة والواقع بمراعاة الطقوس السحرية كذلك النتيجة المكروهة أو المرهوبة لا تنتج فى الحقيقة والواقع من خرق التابو . وإذا كان الشىء المفترض حدوثه ينتج بالضرورة من خرق التابو فإن التابو لا يصبح مجرد تحريم وإنما يصبح أحد القواعد الأخلاقية أو قواعد الإدراك السليمة . فليس من التابو أن نقول « لا تضع

يدك فى النار » وإنما هذه قاعدة من قواعد الإدراك السليم ، لأن الفعل المنهى عنه يؤدى إلى أذى متخيل أو متوهم . وبالجملة ، فإن هذه القواعد السلبية التى نسميها « تابو » أشياء عديمة النفع والجدوى تماما مثل القواعد الإيجابية التى نسميها طلوس . وكل ما فى الأمر هو أن الاثنين يمثلان ناحيتين متقابلتين أو قطبين لأغلوطة كبيرة مفجعة ، أو لتصور خاطىء لترابط المعانى . فالطلس هو القطب الموجب فى هذه الأغلوطة ، بينما يؤلف التابو القطب السالب . ولو أطلقنا كلمة « سحر » بشكل عام على ذلك النسق الخاطىء بجانبيه النظرى والعملى لأمكن تعريف التابو بأنه هو الجانب السلبى للسحر العملى . ويمكن التعبير عن ذلك فى الشكل التالى :



ولقد ذكرت هذه الملاحظات عن التابو وعلاقاته بالسحر لأننى سوف أضرب بعض الأمثلة عن القيود والتحريمات التى يراعيها قانصو الحيوانات أو صائدو السمك وغيرهم ، ولذا أردت أن أبين أنها تندرج كلها تحت عنوان « السحر التعاطفى » ، على اعتبار أنها تؤلف حالات من النظريات العامة . فالإسكيمو مثلا يحرمون على أطفالهم أن يلعبوا اللعبة المعروفة باسم« مهد القط »لأن ذلك سيؤدى بهم إلى أن تشتبك أصابعهم بخيط حربة صيد السمك حين يكبرون ويخرجون للصيد . وواضح أن التابو هنا ناشىء عن تطبيق التشابه الذى هو أساس السحر التشاكلى . فكما أن الطفل يشبك أصابعه بالخيط حين يلعب « مهد القط » كذلك سوف تشتبك أصابعه فى خيط الحربة حين يصبح رجلا ويخرج لصيد الحيتان . وعند الهوزل Huzul فى جبال كرابات تمتنع زوجة الصياد عن الغزل حين يخرج زوجها للقنص حتى لا تأخذ الفريسة فى اللف والدوران حول نفسها مثل المغزل فيعجز الصياد عن إصابتها . وهنا أيضاً نجد أن التابو مستمد من قانون التشابه . ولقد كان من المحرم على المرأة فى معظم أنحاء إيطاليا بحكم القانون أن تغزل وهى سائرة فى الطريق الرئيسى أو حتى أن تحمل مغزلها مكشوفاً للأبصار ، فقد كان مثل ذلك العمل خليقاً بإتلاف المحصولات . وربما كانت الفكرة وراء ذلك هى أن دوران المغزل قد يؤدى إلى التفاف سيقان الحنطة بعضها ببعض فلا تنمو مستقيمة . كذلك كانت المرأة الحامل عند الاينو

Ainos (١) فى سخالين تمتنع عن الغزل وعن لف الحبال لمدة شهرين قبل الولادة حتى لا تتشابك (مصارين) الطفل وتتعقد مثلما يتعقد الخيط . وهذا هو السبب أيضاً فى أنه حين يجتمع مجلس الرؤساء فى إحدى القرى بإقليم بيلاسبور Bilaspore فى الهند يمتنع الناس عن إدارة مغازلهم خشية أن تدور المناقشات مثلما يدور المغزل دون أن تنتهى إلى قرار أخير . وفى بعض جزر الهند الغربية يتحتم على المرء حين يأتى إلى بيت أحد قانصى الحيوانات أن يدخل مباشرة وهو منتصب القامة دون أن يتلكأ أمام الباب ، لأن التلكؤ والتردد كفيلان بجعل الفريسة تتردد بالمثل أمام فخاخ الصياد ثم تعود أدراجها بدلا من أن تقع فى الفخ . ولعل هذا أيضاً هو سبب تلك القاعدة السائدة عند التورادجا فى وسط سيليبيز والتى تحرم الوقوف أو حتى التمهل على سلم البيت الذى توجد فيه امرأة حامل ،

---

(١) الاينو هم السكان القدامى للنصف الشمالى - على الاقل - من اليابان . والكلمة ذاتها تعنى « الرجال » ، ولكن اليابانيين الحاليين يطلقون عليهم اسم ايبيسو أو يميشى . وعلى الرغم من كل ما بذله اليابانيون للقضاء على هذا العنصر الاصلى للسكان فقد أبدى الاينو كثيرا من المقاومة خلال السنوات الالف الماضية ولا تزال بعض سماتهم تظهر فى الخصائص الفيزيقية لبعض السكان . فالاينو على العموم أطول من اليابانيين كما ان ملامح وجوههم أكثر انتظاما . ويشتغل الاينو بصيد السمك وقنص الحيوان كما انهم لا يزالون يقدسون الدببة ويقيمون بعض الشعائر السنوية والاحتفالات الطقوسية لعبادته . ويؤلف الاينو على العموم أقلية ضئيلة الآن فى اليابان حيث يقل عددهم عن عشرين ألف نسمة - (أ.أ) .

لأن ذلك يؤخر ولادة الطفل ؛ كما أنه فى كثير من مناطق سومطرة يحرم على المرأة الحامل نفسها أن تقف عند الباب أو أعلى درجات السلم فى البيت خشية أن تقاسى من آلام الوضع نتيجة لسوء تصرفها وإغضائها عن هذا الإجراء الوقائى البسيط . وحين يشرع سكان الملايو فى جمع الكافور فإنهم يكتفــون بتناول الطعام الجاف ويحرصون أشد الحرص على الامتناع عن طحن الملح ناعماً وذلك لأن الكافور يظهر فى شكل حبيبات صغيرة داخل التشققات فى جذع شجر الكافور ، ومن هنا يبدو من المنطقى للملاويين أنهم إذا أكلوا الملح مطحوناً طحناً دقيقاً فلن يجدوا إلا ذرات دقيقة جداً من الكافور بينما تناول الملح فى شكل بلورات كبيرة يضمن لهم العثور على بلورات كبيرة أيضاً من الكافور . وفى بورنيو يستعمل الباحثون عن الكافور الغلاف السميك الذى يغطى فروع نخيل البينانج Penang كصحاف يتناولون عليها طعامهم ويمتنعون أثناء الرحلة كلها عن غسل هذه الصحاف خشية أن يذوب الكافور كله ويختفى من الفجوات والتشققات فى جذع الشجرة . والظاهر أنهم يعتقدون أن غسل الأطباق يؤدى إلى زوال بلورات الكافور من الأشجار التى تفرزه . ويعتبر « اللاك » المحصول الرئيسى فى بعض أجزاء لاوس ، وهى إحدى مقاطعات سيام . واللاك هو نوع من الصمغ الراتينجى الذى تفرزه حشرة حمراء على فروع الأشجار الصغيرة . ويقوم الناس أنفسهم بتثبيت تلك الحشرات

الصغيرة بأيديهم على الشجرة ، ويمتنع كل الذين يشتغلون فى جمع اللاك عن الاستحمام وبخاصة عن غسل رءوسهم وتنظيفها خشية أن تؤدى إزالة الطفيليات العالقة بشعرهم إلى انفصال تلك الحشرات الحمراء وسقوطها عن فروع الشجرة . وحين ينصب الرجل عند هنود البلاكفوت الشراك لصيد النسور ويقبع لمراقبتها فإنه يمتنع تماماً عن أكل براعم الورد لأنه لو فعل ذلك وحط النسر إلى جوار الشرك فإن البراعم داخل معدة الصياد سوف تجعل الطير يشعر بالأكال فى جسمه ، وبدلا من أن يقبل على الطعم يتوقف لكى يحك جسمه . وتبعاً لهذا النمط من التفكير يمتنع صائد النسور أيضاً عن استخدام المخراز أو المثقاب أثناء مراقبته للشراك لأنه يدرك أنه لو خدش جسمه فسوف ينال النسر منه ويجرحه بالمثل . بل إن ذلك خليق بأن يحدث إذا استعملت زوجته وأطفاله المخراز أثناء تعقبه هو للنسور ، ولذا يحرم عليهم جميعاً استخدام تلك الأداة أثناء غيابه حتى لا يتعرض للأذى والخطر .

وربما كان أكثر التابوات انتشاراً عند الجماعات الهمجية — وأهمها فى الوقت ذاته — هى تلك التحريمات التى تفرض على تناول أنواع معينة من الطعام . والواقع أن كثيراً من هذه التحريمات مستمد عملياً من قانون التشابه ، ولذا تعتبر أمثلة جيدة للسحر السلبى . فكما يقبل الرجل الهمجى على أكل كثير من الحيوانات والنباتات لكى يكتسب منها بعض الصفات المرغوبة التى يعتقد أنها متأصلة

فيها (٢) كذلك يتجنب تناول بعض الأنواع الأخرى من الحيوان والنبات لكيلا تنتقل إليه منها الخصائص غير المرغوبة التي يعتقد أنها كامنة أيضاً فيها . فحين يتناول الفئة الأولى من الطعام فإنه يمارس السحر الإيجابي ، بينما هو يمارس السحر السلبي حين يمتنع عن تناول الفئة الثانية من الطعام . وسوف نذكر كثيراً من الأمثلة عن السحر الإيجابي فيما بعد ، ولذا فإنني أكتفي هنا بالإشارة إلى بعض حالات السحر السلبي أو التابو . فمن المعلوم مثلا أنه يحرم على المحاربين في مدغشقر تناول أنواع معينة بالذات من الطعام خشية أن تنتقل إليهم - تبعاً للسحر التشاكلي - بعض الصفات الضارة أو المكروهة التي يعتقد الناس أنها متأصلة في تلك الأطعمة . فهم يحرمون عليهم مثلا أكل لحم القنافذ « لأن القنفذ يميل بطبيعته إلى الانطواء والالتفاف على نفسه على هيئة الكرة حين يداخله الرعب ، ولذا فإنهم يخشون أن ينقل إلى الجنود الذين يأكلون لحمه ذلك الميل إلى الانكماش والهلع » ، كما يحرمون عليهم أيضاً أكل ركبة الثور حتى لا تضعف ركبتا

(١) قد تلقى هذه الاعتقادات مزيداً من الضوء على النظام الطوطمى الذى سبقت الاشارة اليه (حاشية ٢ ص ١٢٣) . اذ الواقع ان اختيار العشيرة لنوع معين من الحيوانات مثلا ليكون طوطما لها تنتسب اليه وتعتقد انها انحدرت منه انما يتوقف الى حد كبير جدا على الخصائص الاصيلة لهذا الطوطم ومدى رغبة أفراد العشيرة فى اكتساب هذه الخصائص والصفات نظرا لانها تتلاءم مع الظروف العامة التى تحيط بالعشيرة بالاضافة الى وجود هذا الطوطم فى البيئة المحيطة بالمجتمع . ومن هنا كنا نجد القبائل التى تعيش على الحروب والاغارات والقنص تتخذ فى العادة طواطم لها من الاسود نظرا لشجاعتها وجراتها فى الهجوم ، أو من الثعالب نظرا لقدرتها على المراوغة وعلى مفاجأة فريستها (أ.أ) .

المحارب وتصبحان مثل ركبتى الثور فلا يقوى على المشى الطويل . ويمتنع الأبطال المحاربون أيضاً عن أكل لحم الديك الذى ينفق أثناء العراك مع ديك آخر أو لحم أى حيوان آخر يموت مطعوناً بالحراب ، كما يحرص الناس على عدم ذبح حيوان ذكر فى بيت المحاربين أثناء اشتراكهم فى الحرب ، إذ الواضح أن أكل لحم الديك الذى يموت وهو يتعارك مع غيره قد يؤدى إلى موت المحارب نفسه فى ميدان القتال ، كما أن أكل لحم الحيوان الذى يقتل مطعوناً قد يستتبع موت المحارب نفسه بالطريقة ذاتها ، بينما ذبح أى حيوان فى بيت المحارب أثناء غيابه قد يترتب عليه ذبحه هو بنفس الطريقة بل وربما فى نفس اللحظة . ومن ناحية أخرى فإنه يتحتم على الجنود فى مدغشقر أن يأكلوا الكلى لأن الكلمة المستخدمة للكلية فى لغتهم تستخدم أيضاً لطلقة الرصاص ، وعلى ذلك فإن المحارب يصبح قوياً قاتلا كالطلقة حين يأكل الكلى .

وربما يكون القارىء قد لاحظ أن بعض الأمثلة السابقة عن التابو تفترض أن مفعول السحر يسرى ويمتد إلى مسافات بعيدة ، (١)

(١) انتبه ايفانز بريتشارد فى كتابه عن « الشعوذة والكهانة والسحر عند الازاندى Witchcraft, *Oracles and Magic Among the Azande* » لهذه الخاصية ، ويعتبر ذلك الكتاب من افضل الكتابات الانثربولوجية الحديثة التى تعالج موضوع السحر فى مجتمع محدد بالذات . وقد تبين للمؤلف ان السحر يستطيع أن يتتبع فريسته حتى يؤذيه او يقتله بصرف النظر عن المسافة التى تفصل بين الساحر والضحية ، وحتى اذا لم يكن الشخص المقصود بالسحر معروفا للساحر معرفة شخصية ، اى ان للسحر القدرة على البحث عن فريسته ايضا . بل ان للعين الشريرة والشعوذة نفس الخاصية ونفس الاثر . وكثيرا ما يخفق السحر فى الوصول الى التعرف على هدفه =

وأن هذا هو السبب فى أن هنود البلاكفوت مثلا يحرمون على زوجات وأطفال صيادى النسور استخدام المثاقيب أثناء غيابهم حتى لا يجرح النسر الزوج أو الأب الغائب البعيد ، وأن الناس فى مدغشقر يحرمون ذبح الذكور من الحيوانات فى بيوت الجنود أثناء وجودهم فى الحرب حتى لا يترتب على قتل الحيوان قتل الرجل نفسه . ويعتبر هذا الاعتقاد فى انتقال التأثير من شخص لآخر أو من شىء لآخر رغم بعد المسافة من أهم مبادىء السحر التعاطفى . وإذا كان العلم يثير كثيراً من الشكوك حول إمكان التأثير من مسافة كبيرة فإن السحر لا يعرف مثل هذه الشكوك . فالإيمان بالتأثير عن بعد (التلباثى telepathy) يُعتبر أحد المبادىء العامة فى السحر . ولن نجد أى شخص فى مجتمعنا الحديث يؤمن بفكرة إمكان تأثير العقول بعضها فى بعض من بعد أية صعوبة فى إقناع الرجل الهمجى بهذه الفكرة ، لأن الرجل الهمجى نفسه يؤمن بها منذ عهد بعيد ، بل إنه يتصرف فعلا حسب ذلك الاعتقاد بنوع من الاطراد المنطقى لانجده — بقدر ما أعلم — فى سلوك الرجل المتحضر الذى يشاركه ذلك الاعتقاد . ذلك أن الرجل الهمجى لا يعتقد أن الطقوس السحرية تؤثر فى الأشخاص والأشياء من بعد فحسب ، بل إنه يذهب إلى حد القول بأن الأفعال البسيطة العادية التى تحدث فى الحياة اليومية كثيراً ما يكون لها نفس القوة ونفس المفعول ، ومن هنا كان سلوك وتصرفات الأصدقاء والأقارب

= نتيجة لخطأ الساحر نفسه وليس لقصور فى السحر ذاته ، وهنا يرتد السحر الى صدر الساحر فيقتله ، اذ لابد للسحر من أن يحقق هدفه بشكل ما (أ.أ) .

الذين يعيشون بعيداً بعضهم عن بعض تخضع فى أحيان كثيرة — وبخاصة فى المناسبات الهامة — لقوانين دقيقة محكمة وقواعد مفصلة بحيث إن اغفالها أو الخروج عليها من أى فريق من الأقارب يؤدى إلى إلحاق الأذى بالفريق الآخر الغائب أو حتى إلى موت أحد أفراده. ويتمثل هذا بوضوح فى حالة خروج جماعة من الرجال للقنص أو للحرب ، إذ ينتظر فى الأغلب من ذويهم فى القرية أن يقوموا بأداء أشياء معينة ويمتنعوا عن أشياء أخرى لتأمين سلامة الصيادين والمحاربين البعيدين ونجاحهم فى مهمتهم . وسوف أذكر هنا بعض الأمثلة الخاصة بهذا النوع من التلباثى فى مظهريه الإيجابى والسلبى .

فى لاوس ، حين يخرج الرجل لصيد الفيلة يحذر زوجته من أن تقص شعرها أو أن تدهن جسمها بالدهون أثناء غيابه ، لأن قص الشعر يساعد الفيل على تحطيم الشباك وهدم الفخاخ التى ينصبها له ، بينما يساعده دهن الجسم على الإفلات من الفخ بسهولة . كذلك حين يخرج الصيادون من إحدى قرى الداياك لصيد الخنازير البرية فى الأدغال يمتنع بقية سكان القرية عن لمس الزيت أو الماء بأيديهم أثناء تغيب زملائهم حتى لا تصبح أيدى الصيادين رخوة ولزجة فتفلت الفريسة منهم بسهولة .

ويعتقد صيادو الفيلة فى شرق إفريقيا أن خيانة الزوجة لزوجها الغائب يزود الفيل بقوة هائلة تمكنه من التغلب على الشخص الذى يطارده فيقتله أو على الأقل يصيبه بجراح خطيرة ، ولذا فإن الصياد هناك يترك الصيد إن سمع عن إعوجاج زوجته ويقفل راجعاً إلى

القرية . وحين يفشل الصياد عند الواجوجو Wagogo أو حين يهاجمه أسد مثلا فإنه يرد ذلك إلى سوء سلوك زوجته فى القرية فيعود إليها وهو فى أشد حالات الحنق والغضب . ولذا كانت المرأة هناك ترفض أن يمر رجل خلف ظهرها بعد أن يخرج زوجها للصيد ، أو حتى أن يقف أمامها بينما تكون هى جالسة ، كما تحرص على أن ترقد على وجهها حين تذهب للنوم . وكان هنود الماكسو فى بوليفيا يعتقدون أنه إذا خانت الزوجة زوجها أثناء غيابه فسوف يتعرض لعض الأفاعى والياغور Jaguar ، ولذا فإن وقوع مثل هذا الحادث له يؤدى بالضرورة إلى توقيع العقوبة على المرأة بصرف النظر عما إذا كانت بريئة أو مذنبة ، وغالباً ما تصل العقوبة إلى حد الموت . وأخيراً فإن الصيادين فى ألوسيا يعتقدون أنه من الصعب على الرجل أن يصطاد أحد قنادس الماء إذا خانته زوجته أو فقدت أخته عفتها أثناء غيابه .

وينظر هنود الهويتشول Huichol فى المكسيك بكثير من التقديس والاحترام إلى إحدى عائلات الصبار التى تسبب الغيبوبة لمن يأكلها . ولا ينمو هذا النوع من الصبار فى المنطقة التى يعيش فيها الهويتشول ، وإنما يخرج الرجال كل سنة لجلبه ، ويقطعون من أجل ذلك رحلة طويلة تستغرق ثلاثة وأربعين يوماً . وفى خلال هذه الفترة تعمل النساء كل ما فى وسعهن لتأمين سلامة أزواجهن الغائبين ، فيمتنعن مثلا عن المشى بسرعة فضلاً عن الجرى أثناء

سفر الرجال ، كما يقمن بأداء كثير من الأعمال التى تساعد على تحقيق الآمال والأمانى التى يرجون حدوثها بعد عودة البعثة المقدسة . وتتمثل تلك الآمال والأمانى فى سقوط الأمطار ووفرة المحصولات . وبناء على ذلك تخضع النساء أنفسهن لنفس القيود الصارمة التى تخضع لها الأزواج مثل الامتناع عن الاستحمام طيلة الفترة التى تنقضى قبل الاحتفال بعيد الصبار إلا فى بعض المناسبات المعينة . والاكتفاء فى هذه الحالة باستخدام الماء الذى يجلبه الرجال معهم من نفس المنطقة النائية التى ينمو فيها ذلك النبات المقدس ، والإكثار من الصيام والامتناع عن تناول الملح مع الطعام والتمسك بحياة الزهد والتقشف . ويستوى الرجل والمرأة فى ذلك كله معتقدين أن من يخرق هذا القانون سوف يلقى جزاءه فى شكل المرض ، فضلا عن تعريض الأهداف التى يعمل الجميع لتحقيقها إلى الفشل . فالصحة وحسن الطالع وطول الحياة إنما تكتسب جميعاً عن طريق جمع الصبار الذى يعتبر فى نظرهم الكأس الخاص بإله النار . وكما أنه لا يستطيع أن يفيد من النار الصافية إلا من صفت نفوسهم وسرائرهم كذلك يتعين على الناس من كلا الجنسين التمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة على العفة والشرف أثناء تلك الفترة المعينة بالذات ، بل ويتحتم عليهم أيضاً أن يطهروا أنفسهم من شوائب الذنوب التى ارتكبوها فى الماضى . ولتحقيق ذلك يتجمع النساء بعد سفر الرجال بأربعة أيام أمام النار التى تعتبر بمثابة الحد الأعلى للجميع وتعترف كل واحدة منهن لها بأسماء جميع

الرجال الذين وقعت فى حبهم منذ طفولتها حتى اللحظة الراهنة دون أن تغفل اسم أى شخص على الإطلاق حتى لا يفشل الرجال فى الحصول على الصبار . ولكى تحتفظ المرأة فى ذاكرتها بأسماء جميع عشاقها فإنها تحتفظ دائماً بخيط طويل تعقد فيه عقدة واحدة لكل عشيق وتحمل هذا الخيط معها إلى المعبد وتقف أمام النار وتعلن بصوت مرتفع عن أسماء الرجال الذين سجلتهم على ذلك الخيط واحداً بعد الآخر ، ثم تلقى بالخيط فى النار بعد أن تنتهى من ذلك الاعتراف . وحين يلتهم الإله الخيط فى لهيبه الصافى تكون ذنوبها قد غُسلت تماماً فتترك المكان فى أمن وسلام ودعة . ومنذ تلك اللحظة تأبى المرأة السماح لأى رجل حتى بمجرد المرور بالقرب منها. ويقوم الباحثون عن الصبار بشعائر مماثلة تهدف إلى غسل صدورهم من كل أسباب الضعف والوهن ، فيعقدون لكل هفوة أو معصية ارتكبوها عقدة فى خيط ، وبعد أن يدلوا باعترافهم إلى الرياح الخمسة يسلمون « مسبحة » ذنوبهم وآثامهم إلى قائد الرحلة فيحرقها فى النار .

وثمة اعتقاد راسخ عند كثير من قبائل ساروواك **Sarawak** فى أن ارتكاب الزوجة لجريمة الزنا أثناء انشغال زوجها بالبحث عن الكافور فى الغابة يؤدى إلى تبخر الكافور الذى يحصل الزوج عليه . ويستطيع الرجل أن يكتشف خيانة زوجته عن طريق بعض العقد التى تظهر على جذع الشجرة . ويقال إنه كثيراً ما كان

الرجال الغيورون يقتلون زوجاتهم فى الماضى دون أن يكون لديهم دليل على الخيانة أفضل من وجود تلك العقد . ومن ناحية أخرى ، فإن الزوجة تمتنع تماماً عن تمشيط شعرها أثناء قيام زوجها بجمع الكافور خشية أن تخلو الفجوات التى تتخلل ألياف الشجرة من بلورات الكافور الثمينة بدلا من أن تمتلىء بها ، مثلما توجد مسافات خالية تفصل بين أسنان المشط . وفى جزر كاى Kei الواقعة إلى الجنوب الغربى من غينيا الجديدة نجد أنه بمجرد أن يبدأ أحد القوارب فى الإبحار إلى إحدى الموانى البعيدة يغطى المكان الذى كان القارب يرسو فيه إلى الشاطىء بفروع النخيل ويعتبر مكاناً مقدساً(١) فلا يسمح لإنسان بعد ذلك بالمرور فيه حتى يعود القارب من رحلته وإلا تعرض القارب ذاته للدمار » والأكثر من ذلك أن الناس هناك يختارون ثلاث أو أربع فتيات صغيرات للقيام بعملية الاتصال التعاطفى مع بحارة القارب طيلة الفترة التى تستغرقها الرحلة ، ويعتبر سلوكهن ضماناً لسلامة الرحلة ونجاحها . وأثناء هذه الفترة لا يسمح لهن بمغادرة الحجرة التى تخصص لإقامتهن إلا لقضاء الحاجات

---

(١) يبدو ان فريزر يستخدم كلمة « مقدس » هنا بنفس المعنى السائد فى كتابات عدد كبير من علماء الاجتماع وبخاصة علماء الاجتماع الفرنسيين وعلماء الانثربولوجيا الذين تعرضوا فى كتاباتهم على الخصوص لفكرة التابو والتحريم المفروض على أشياء معينة لاسباب خاصة ، ويصف الانثربولوجيون هذه الاشياء بأنها تابو لانها مقدسة ، فالتقديس هنا لا يحمل بالضرورة المعنى الدينى كما نفهم نحن الدين وانما يحمل معنى الابتعاد والتحاشى خشية أيذاء الشىء المقدس للناس أو الحاق الاذى به هو نفسه (ا.ا) .

الضرورية جداً ، بل إنه يتحتم عليهن مادام القارب فى البحر أن يجلسن بغير حراك على قطعة من الحصير وقد شبكت كل منهن يديها بين ركبتيها فلا تتلفت يمنة أو يسرة ولا تصدر عنها أية حركة مهما صغرت حتى لا تؤدى حركتها إلى ارتجاج القارب واضطرابه فوق صفحة الماء ، كما يحرم عليهن تناول أى نوع من الطعام اللزج كالأرز المسلوق فى لبن جوز الهند مثلا ، لأن لزوجة الطعام تقلل من سرعة اختراق القارب للماء . وحين يعتقد الناس أن البحارة وصلوا إلى بر الأمان تخف حدة هذه القيود المفروضة عليهن بعض الشيء ، ولكن يحرم عليهن طيلة الفترة التى تستغرقها الرحلة كلها أن يأكلن الأسماك ذات الأشواك والزعانف الحادة مثل سمك الراى الوخاز Sting-Ray حتى لا يتعرض البحارة للمتاعب القاسية .

وحيث تنتشر مثل هذه الاعتقادات حول قيام الروابط والصلات التعاطفية بين الأصدقاء البعيدين ان يكون ثمة ما يدعو إلى العجب إذا وجدنا أن الحرب – التى تستصرخ أكثر من أى شيء آخر بندائها الصارم المشبوب أعمق وأرق العواطف الإنسانية – تستثير فيما تخلفه وراءها من قلق ولهفة الرغبة فى توجيه تلك الصلة التعاطفية إلى ما فيه خير الأشخاص الأعزاء الذين يشتركون فى القتال ويتعرضون فى كل لحظة للموت . ومن هنا يعمل أصدقاء المحاربين الذين يمكثون فى أرض الوطن على تحقيق تلك النتائج الطبيعية المرغوبة ، وذلك عن طريق أداء بعض الأفعال التى قد تثير فينا نحن الأسى أو السخرية

تبعاً لاختلاف نظرتنا إلى الهدف منها والوسائل التى يتبعونها لتحقيق هذا الهدف . مثال ذلك أنه فى بعض أنحاء بورنيو حين يخرج الرجل عند الداياك لقنص الرءوس تتقلد امرأته — أو أخته إن كان أعزبا سيفاً بالليل والنهار حتى يظل هو نفسه طيلة الوقت شاهراً سلاحه ، كما أنها تمتنع عن النوم أثناء النهار ولا تذهب إلى فراشها قبل الثانية صباحاً حتى لا يفاجىء الأعداء زوجها أو أخاها أثناء نومه . وحين يخرج الداياك البحريون فى بانتنج Panting بسراواك للحرب تخضع النساء لعدد من القواعد الصارمة ، بعضها سلبى والبعض الآخر إيجابى ، ولكنها كلها تقوم على مبادىء التشاكل السحرى وعلى التلباثى ؛ إذ يتعين عليهن — على سبيل المثال — الاستيقاظ فى الصباح الباكر جداً وفتح النوافذ بمجرد ظهور الضوء حتى لا يستمر الأزواج الغائبون يغطون فى نومهم أكثر مما يجب ، كما يتحتم عليهن الامتناع عن دهن شعرهن بالزيوت حتى لا ينزلق الرجال إلى الأرض ، وأن يتجنبن النوم أو حتى الإغفاء بالنهار حتى يكتسب الرجال مزيداً من خفة الحركة ، وأن يقمن بتنظيف وترتيب حجرات البيت بحيث تُرص الصناديق مثلا إلى جوار الجدران فلا يتعثر فيها شخص وذلك حتى لا يتعثر الأزواج الغائبون أنفسهم ويقعوا تحت رحمة الأعداء . كذلك تحرص المرأة على أن تترك قدراً صغيراً من الأرز فى الوعاء بعد كل وجبة وتضعه جانباً حتى يجد الغائبون دائماً شيئاً يأكلونه فلا يشعرون بالجوع أبداً . وتمتنع

النساء تماماً عن الجلوس طويلا أمام النول حتى لا تتخدر سيقانهن من طول الجلوس فيصاب الرجال بتصلب فى المفاصل يقعدهم عن الحركة السريعة لملاقاة أعدائهم أو الهرب من الخطر . ولذا كانت المرأة تحرص على أن تتوقف عن العمل على النول من حين لآخر وتتمشى فى الشرفات كى تحتفظ سيقان الرجال بليونتها ومرونتها . ومن ناحية أخرى تحرص المرأة أشد الحرص على عدم تغطية وجهها حتى لا يضل الرجل طريقه خلال الحشائش الطويلة وبين الأدغال ، كما تمتنع عن الحياكة واستعمال الإبرة حتى لا يطأ الرجل بقدمه الأشواك أو المسامير الحادة التى يبثها الأعداء فى الطريق . ويسود الاعتقاد هناك بأن خيانة الزوجة لزوجها أثناء غيابه سوف ترسله بالضرورة إلى حتفه فى بلاد الأعداء . ولقد ظلت النساء فى بانتنج يتمسكن بكل هذه القواعد وبغيرها ويراعينها بكل دقة إلى عهد قريب جدا حين ذهب رجالهم للقتال مع الإنجليز ضد الثوار . ولكن مما يؤسف له أن هذه الإجراءات الوقائية الطريفة الرقيقة لم تفدهم كثيراً ، فقد قتل كثير منهم رغم كل ما بذلته نساؤهم الوفيات المخلصات فى التمسك والمحافظة على هذه القواعد والعادات .

وفى جزيرة تيمور Timor يقيم رئيس الكهنة فى المعبد طيلة الحرب فلا يفارقه ، حتى أنهم يأتون بطعامه هناك أو قد يُطهى له الطعام فى المعبد ذاته . ويحرص فى الوقت نفسه على أن تظل النار مشتعلة باستمرار ، لأن انطفاءها يؤدى إلى نزول الكوارث بالأبطال

المحاربين الذين تحيط بهم الأخطار من كل جانب إذا خمدت النار فى الموقد . ويتحتم على ذلك الكاهن طيلة غياب المحاربين ألا يشرب سوى الماء الحار ، لأن كل رشفة من الماء البارد توهن من عزيمة الجيش فلا يعود قادراً على إبادة الأعداء . وفى جزيرة كاى Kei حين يرحل المحاربون تقر النساء فى بيوتهن ويشغلن أنفسهن بدهن أنواع معينة من السلال المليئة بالفواكه والأحجار بالزيت ثم يضعنها على لوح من الخشب وهن ينشدن « يا إله الشمس والقمر ، أبعد الرصاص عن أزواجنا وإخوتنا وأحبابنا وأقاربنا الآخرين ودعها تسقط بعيداً عنهم مثلما تتساقط قطرات المطر عن هذه الأشياء التى ندهنها بالزيت . » وبمجرد سماع صوت أول طلقة فى الحرب تترك النساء السلال ويمسكن بالمراوح فى أيديهن ويندفعن خارجات من البيوت إلى شوارع القرية وهن يلوحن بالمراوح تجاه الأعداء وينشدن « أيتها المراوح الذهبية اجعلى رصاصنا يصيب ورصاص أعدائنا يخيب » . وواضح من هذه العادة أن الطقوس الخاصة بدهن الأحجار بالزيت حتى يرتد الرصاص عن صدور الرجال مثلما تسقط قطرات المطر عن الأحجار المدهونة هو نوع من السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة الخالص ، بينما الصلاة والابتهال للشمس بأن تزيد من مفعول التعويذة وتأثيرها هما إضافة دينية يحتمل أن تكون

أدخلت على الطقوس السحرية فى وقت لاحق (١) ، كما أن التلويح بالمراوح يقصد به التدخل فى توجيه رصاص الأصدقاء نحو صدور الأعداء وتشتيت رصاص الأعداء أنفسهم .

ويذكر أحد المؤرخين الشيوخ فى مدغشقر أنه بمجرد أن يخرج الرجال للحرب تأخذ الفتيات والنساء فى الرقص بدون توقف ، كما يمتنعن عن النوم وعن تناول الطعام فى بيوتهن حتى يعود المحاربون. وعلى الرغم من ميل النساء هناك للخلاعة والتبذل فلن تستطيع أية قوة فى العالم أن تغرى إحداهن بالخروج مع رجل آخر أثناء وجود الزوج فى الحرب ، اعتقاداً منهن بأن مثل هذا الفعل يؤدى إلى فشل الزوج فى مهمته أو إصابته بجروح ، بعكس الرقص الذى يمده بكثير من القوة والشجاعة ويساعده على إنجاز مهمته بنجاح ، ولذا فإن المرأة لا تركن فى مثل هذه الظروف إلى الراحة بحال ، بل إنها تنظر إلى هذه العادات فى كثير من الخشوع والرهبة والإجلال .

---

(١) يتفق هذا الكلام مع رأى فريزر وكثيرين من علماء الانثربولوجيا فى القرن التاسع عشر فى ان السحر كان أسبق فى الظهور من الدين ، وان وجود بعض الشعائر او الطقوس الدينية ضمن الممارسات السحرية دليل على ان المجتمع الذى يجمع بين نوعى الممارسات انما مر بمرحلة السحر الخالص فى طريقه الى مرحلة الدين وبالتالى فان مثل هذا المجتمع يمثل نمطا أكثر تقدما وتطورا من النمط الاجتماعى والثقافى الذى يسود فى المجتمعات البدائية التى تمثل بدورها ــ عند التطوريين ــ أولى مراحل التطور الاجتماعى . وسوف يعود فريزر الى هذه النقطة أكثر من مرة وبخاصة الفصل الرابع من الكتاب (١٠١) .

وعند القبائل الناطقة بلغة التشى Tshi (١) التى تسكن ساحل الذهب تدهن زوجات المحاربين الغائبين أنفسهن باللون الأبيض ، ويزين أجسامهن بالخرز والأحجبة . وفى اليوم الذى يتوقعن فيه حدوث المعركة تجرى النساء هنا وهناك وقد تسلحت كل منهن بالبنادق أو العصى المصنوعة على شكل بنادق ، ثم يأخذن بعض ثمار « البوبو Paw-Paw (وهى نوع من الفاكهة يشبه الشمام) فيقطعنها بالسكين كما لو كن يحززن رءوس الأعداء . ويعتبر هذا التمثيل الصامت نوعا من التعاويذ والرقى السحرية التى تقوم على المحاكاة بقصد مساعدة الرجال على أن يفعلوا بأعدائهم مثل ما فعلت النساء بالبوبو . وأثناء حروب الأشانتى التى كانت لاتزال دائرة حتى سنوات قليلة مضت — شاهد فيتزجرالد ماريوت Fitzgerald Mariot فى بلدة فرامين Framin رقصة تقوم بها النسوة اللاتى ذهب أزواجهن إلى ميدان الحرب للعمل كحمالين ، وقد دهن النساء

---

(١) نظرا للصعوبات الكثيرة التى يصادفها علماء الانثربولوجيا فى تصنيفهم بطريقة قاطعة للجماعات القبلية المتخلفة أو لما يعرف على العموم باسم الجماعات « البدائية » على أساس السلالة أو الثقافة أو التنظيم الاجتماعى فانهم يلجئون الى تصنف هذه الجماعات على أساس المجموعات اللغوية التى ينتمون اليها ، وذلك على اعتبار ان القبائل المتجاورة — كما هو الحال مثلا فى شرق افريقيا — يتكلمون لهجات مختلفة تنتمى الى لغة واحدة تتميز عن اللغة التى تسود عند مجموعة أخرى من القبائل ، فالشعوب الناطقة بلغة الناندى Nandi-Speaking Peoples مثلا تضم قبائل الناندى والكبسجس Kipsigis والبوكوت Pokot وغيرها (أ.أ) .

أنفسهن باللون الأبيض ، ولم يكن يرتدين سوى تنورة قصيرة . وكانت تتزعمهن فى الرقص ساحرة عجوز واهنة كانت ترتدى هى أيضاً تنورة بيضاء بالغة القصر وتعقص شعرها الأسود على شكل قزن طويل بارز ، وقد نقشت على وجهها الأسود وثدييها وذراعيها وساقيها عدداً كبيراً جداً من الدوائر والأقواس البيضاء ، وكانت كل امرأة تحمل فى يدها مكنسة بيضاء طويلة من ذيول الجاموس أو الخيول ، وكان الجميع ينشدن أثناء الرقص « لقد ذهب أزواجنا إلى بلاد الأشانتى ، ألا فليكنسوا أعداءهم من فوق وجه الأرض ».

وحين يخرج الرجال من هنود طومسون فى كولومبيا البريطانية للحرب كانت النساء يقمن بأداء بعض الرقصات على فترات متقاربة ، على اعتبار أن ذلك يكفل للحملة النصر . وكانت الراقصات يلوحن بالسكاكين فى الهواء ويقذفن إلى الأمام بقطع من العصى الطويلة ذات الأطراف الحادة المدببة أو يدفعن إلى الأمام بعض العصى التى يثبت فيها خطاف معقوف ثم يسحبنها إلى الوراء . ويرمز قذف العصى إلى الأمام إلى طعن الأعداء وطردهم وردهم على أعقابهم ، بينما يرمز سحب هذه العصى إلى انسحاب جنود القبيلة ذاتها وابتعادهم عن مواطن الخطر . والواقع أن الخطاف المثبت بطرف العصا كان يوضع بطريقة خاصة توحى بأنه يصلح للقيام بمهمة انقاذ الحياة من الأخطار . ويلاحظ أن النساء كن يلوحن دائماً بأسلحتهن فى اتجاه بلاد الأعداء كما كن يصبغن وجوههن بالمساحيق الحمراء ويرددن

الأناشيد والأغانى أثناء الرقص ويضرعن إلى الأسلحة أن تحفظ حياة أزواجهن وتساعدهم على قتل أكبر عدد ممكن من الأعداء. فإذا ما انتهى الرقص عمدت النساء إلى إخفاء الأسلحة ، حتى إذا ما أخرجت إحداهن سلاحها من مخبئه وخيل إليها أنها ترى عليه بعض الشعر أو قطعة من فروة الرأس أدركت أن زوجها تمكن من قتل أحد الأعداء . أما إذا رأت عليه بقعة من الدم فإنها كانت تدرك أنه هو نفسه قد جرح أو مات . وحين كان رجال قبيلة يوكى Yuki فى كاليفورنيا يخرجون للحرب والقتال كانت النساء يحرصن على البقاء مستيقظات بغير نوم ، ولذا كن يعكفن على الرقص فى شكل حلقة وبدون توقف وهن يرددن الأغانى والأناشيد ويلوحن ببعض الفروع المورقة اعتقاداً منهن أن الرقص المستمر كفيل بإبعاد الإحساس بالتعب والضجر عن الرجال . كذلك الحال عند هنود الهايدا Haida فى جزر الملكة شارلوت Queen Charlott Islands حين يخرج الرجال للحرب . فقد كانت النساء يحرصن حينذاك على الاستيقاظ من النوم مبكرات ويقمن بتمثيل بعض مناظر الحرب مثل التظاهر بالهجوم على أطفالهن وأخذهم أسرى حرب وعبيداً على أمل أن يساعد ذلك التمثيل أزواجهن فى تحقيق نتائج مشابهة . أما إذا خانت الزوجة زوجها وهو فى طريقه إلى المعركة فمن المحتمل أن يؤدى ذلك إلى موته . كذلك كانت النساء يراعين أن تتجه رءوسهن أثناء النوم فى الاتجاه الذى سارت فيه الحملة ،

وبعد عشر ليال يتغير الوضع إلى الاتجاه الآخر المقابل على زعم أن المحاربين أصبحوا في طريق العودة عبر البحر إلى الوطن . وكذلك كانت نساء الهايدا فى ماسيت Masset يرقصن وينشدن أناشيد الحرب طيلة الفترة التى يمضيها الرجال فى ميدان القتال . ويحرصن فى الوقت ذاته على ترتيب أثاث البيت فى وضع خاص اعتقاداً منهن أن المرأة التى لا تراعى مثل هذه العادات والأمور إنما تقتل زوجها . وعند هنود الكاريب فى أورينوكو Orinoco حين كانت إحدى الجماعات تخرج للحرب كان أصدقاؤهم الذين يتخلفون وراءهم فى القرية يحسبون بقدر الإمكان اللحظة التى يعتقدون أنهم بدأوا فيها تقدمهم للهجوم على أعدائهم فيمسكون باثنين من الصبية ويرقدونهما على مقعد ثم ينهالون على ظهريهما العاريين فى قسوة ووحشية . وكان الصبيان يتقبلان هذا التعذيب دون أن يصدر عنهما أى صوت يدل على الألم ، فقد نشأ الصبية منذ الصغر على الاعتقاد الراسخ بأن تحمل هذا التعذيب القاسى بصبر وجلد يتوقف عليه ثبات رفاقهم ونجاحهم فى المعركة .

ومن بين الحالات الكثيرة التى أمكن فيها للبراعة الإنسانية أن تسخر فيها مبدأ « السحر التشاكلى » أو « سحر المحاكاة » لصالح الإنسان استخدام ذلك النوع من السحر فى العمل على زيادة خصوبة الأشجار والنباتات بحيث تؤتى أكلها فى المواسم المحددة تماما وبوفرة . ففى تورنجن Thuringen مثلا نجد أن الفلاح الذى يقوم ببذر

الكتان يحمل البذور فى كيس طويل يمتد من كتفيه حتى ركبتيه ثم يمشى بخطوات طويلة بحيث يتأرجح الكيس على ظهره اعتقاداً منه بأن ذلك يساعد النبات على النمو والارتفاع بحيث يموج ويهتز بفعل الهواء. وفى المناطق الداخلية فى سومطرة يقوم النساء ببذر الأرز وقد أسدلن شعرهن الطويل على ظهورهن عسى أن ينمو الأرز بسخاء ووفرة وتطول سيقانه. وبالمثل كان الناس فى بلاد المكسيك القديمة يقيمون عيداً للاحتفال بإلهة الذرة أو « الأم ذات الشعر الطويل » كما كانوا يسمونها ، وكان هذا الاحتفال يبدأ فى الوقت الذى يبلغ فيه النبات ذروة نموه بحيث تبرز الشعيرات من أطراف القناديل الخضراء دلالة على اكتمال نمو الحبة. كذلك كانت النساء يسدلن شعورهن أثناء هذه الاحتفالات فلا يقصصنه وذلك لكى يهتز ويتموج ويتناثر أثناء الرقص الذى كان يعتبر أهم عنصر فى الاحتفال ، عسى أن يساعد ذلك على كبر حجم القنديل ونمو الحبوب ذاتها مما يعود على الناس أنفسهم آخر الأمر بالرخاء والخير . وفى أجزاء كثيرة من أوربا يعتبر الرقص والقفز عالياً فى الهواء نمطاً مقبولا من السحر التشاكلى الذى يساعد على وفرة المحصول ونمو الزرع . ويعتقد الناس فى فرانش كونتيه Franche Conté مثلا أن الرقص فى الكرنفال كفيل بأن يساعد على نمو وارتفاع نبات القنب .

وتظهر فكرة قدرة الإنسان على التأثير فى النباتات تأثيراً سحرياً عن طريق سلوكه وتصرفاته من إحدى الملاحظات التى صدرت

عن امرأة ملايوية . فقد سئلت عن السبب فى أنها تكشف عن الجزء العلوى من جسمها وتعريه أثناء حصدها للأرز فذكرت أن ذلك يساعدعلى جعل قشرة الأرز رفيعة ورقيقة،وأنها لجأت إلى ذلك بعدأن نالها الضجر والتعب من دق سيقان الأرز الغليظة . وواضح من ذلك أنها كانت تعتقد أنه كلما قلت كمية الملابس التى تضعها على جسمها كلما قل سمك القشرة التى تغلف حبات الأرز . ويعترف الفلاحون فى باڤاريا والنمسا بقدرة المرأة الحامل على نقل الخصوبة إلى النبات بطريقة سحرية ، ويعتقدون أن إعطاء باكورة ثمار إحدى الأشجار للمرأة الحامل لتأكلها خليق بأن يؤدى إلى زيادة ثمار هذه الشجرة ووفرتها فى العام التالى . ويعتقد الباجندا Baganda من ناحية أخرى أن عقم الزوجة يمكن أن ينتقل إلى زراعة زوجها فلا تعود الأشجار قادرة على الإثمار ، ولذا فإنهم كانوا يطلقون الزوجة العاقر فى الحال (١) . ولقد كان اليونانيون والرومان يقدمون الأضحيات

---

(١) من الصعب قبول راى فريزر فى أن المرأة العاقر تطلق لمجرد الخوف من انتقال عقمها الى النباتات . وصحيح ان الباجندا — ومثلهم فى ذلك مثل معظم الجماعات القبلية فى افريقيا الشرقية والوسطى — يرون ان عقم المراة يؤدى عن طريق (العدوى) الى عقم النبات والحيوان وانهم يتجنبون الزواج من العائلات التى تشتهر نساؤها بقلة الخصوبة وضعف القدرة على انجاب الاطفال، الا أن السبب الرئيسى لذلك هو الرغبة فى انجاب الذرية فى المحل الاول ، والمرأة العاقر تمنع بحكم الواقع من تحقيق رغبة القبيلة — وليس الزوج وحده — فى انجاب الاطفال من كلا الجنسين . ولا تكاد هذه الجماعات القبلية تفرق بين الذكر والانثى من حيث أهميتهما لحياة القبيلة بل ولا تكاد تضع أولوية مطلقة لاحد الجنسين على الجنس الآخر . فاذا كان الذكر هو الذى =

والقرابين من الحيوانات الحبلى إلى إلهة الحنطة وإلهة الأرض حتى تزيد من خصوبة التربة فتمتلىء السنابل بالتالى بالحبوب الناضجة الممتلئة .

وحين انتقد أحد رجال الدين الكاثوليك مسلك هنود أورينوكو فى سماحهم لزوجاتهم بالقيام ببذر البذور فى الحقول تحت أشعة الشمس المحرقة وهن يرضعن أطفالهن فى الوقت نفسه كانت إجابة الرجال على ذلك النقد والاحتجاج : « أيها الأب ، إنك لا تفهم شيئاً فى هذه الأمور ولذا فهى تثير سخطك . ولكنك تعرف بلا شك أن للنساء قدرة على الحمل والوضع بعكس الرجال . وحين تبذر المرأة البذور فإن عود الذرة الواحد تحمل قنديلين أو ثلاثة قناديل، كما أن بذور اليوكا tucca تغل ما يكفى لملء سلتين أو ثلاث ، بل إن كل شيء يتضاعف بنفس النسبة فما سبب ذلك ؟ سببه ببساطة هو أن المرأة التى تعرف كيف تحمل وتلد تعرف بالتالى كيف تجعل البذرة التى تبذرها تحمل وتثمر . دع المرأة تبذر إذن لأننا معشر الرجال لا نعرف فى هذه الأمور مثلما تعرف النساء » .

وعلى ذلك ، فإنه تبعاً لنظرية السحر التشاكلى، يستطيع أى شخص

= يحمل اسم الجماعة القبلية ويقوم بالنشط الاقتصادية الاساسية كالرعى بالاضافة الى دوره المهم فى الحروب والاغارات ، فان الانثى تلعب دورا لا يقل أهمية عن ذلك وبخاصة فى المجال الاقتصـــادى ، ليس فقط لانها هى التى تضطلع بأعمال الزراعة وفلاحة الارض بل أيضا لانها مصدر هام جدا - حين تكبر - لتزويد العائلة بالماشية . فمهر العروس يدفع فى تلك المجتمعات من الابقار ، والمهر المثالى هو أربعون بقرة يقدمها أهل العريس الى أهل الفتاة . وتعتبر الابقار أهم عنصر فى الثروة هناك علاوة على أنها تحدد المكانة الاجتماعية للفرد والجماعة . وإذن فطلاق المرأة العاقر عند الباجندا أو غيرهم يرجع فى العادة الى أسـباب أهم بكثير من مجرد تأثيرها السحرى الضار فى النبات (١٠١) .

أن يؤثر فى الخضرة أو الزرع تأثيراً طيباً أو ضاراً حسب أفعاله وأحواله ومزاجه . فالمرأة الولود تساعد النبات على الإثمار ، بينما تجعل المرأة العاقر النبات عقيماً ومن هنا نشأ الاعتقاد فى أن الخصائص الضارة المؤذية التى تتصف بها بعض التصرفات أو الخصائص أو الأحداث الشخصية هى التى أدت إلى ظهور عدد من التحريمات وقواعد التحاشى avoidance . فالناس يمتنعون عن القيام بأشياء معينة خشية أن تؤثر أحوالهم وظروفهم السيئة فى ثمار الأرض عن طريق التشاكل . وكل هذه العادات المتعلقة بالتجنب أو قواعد التحاشى هى أصل السحر السلبي أو التابو . وعلى ذلك فإن جماعات الجاليلاريز مثلاً الذين يؤمنون بما يمكن تسميته بعدوى الأفعال أو التصرفات الشخصية يرون ضرورة الامتناع عن الرمى بالقوس والسهام تحت أشجار الفاكهة خشية أن تلقى الأشجار بكل ثمارها ويرون أن ذلك قد يحدث فى نفس اللحظة التى تسقط فيها السهام ذاتها على الأرض . ويحرص الجاليلاريز أيضا حين يأكلون البطيخ على عدم خلط اللب الذى يلفظه المرء من فمه باللب الذى يحتجزه جانباً ليستخدمه كبذور . إذ على الرغم من أن اللب الذى يلفظه من الفم ينمو ويزدهر فإن البراعم ذاتها سوف تسقط بالتأكيد أولاً بأول مثلما تساقط ذلك اللب نفسه من الفم ، وبالتالى فإنه لن يعطى أى ثمار على الإطلاق . وهذا النوع من التفكير ذاته هو الذى يدفع الفلاح فى باڤاريا إلى الاعتقاد بأن سقوط الطعم الذى يطعم به شجرة الفاكهة من يده على الأرض

يؤدى إلى سقوط تلك الثمار ذاتها من تلك الشجرة قبل اكتمال نضجها. كما أن هذا النمط من التفكير أيضاً هو الذى تجعل جماعات التشام Cham فى الصين يأكلون الأرز جافاً فى طعامهم حين يريدون بذر البذور لزراعة الأرز الجافة معتقدين أن ذلك يكفل منع المطر من السقوط وبالتالى إنقاذ الزرع من أن يفسد بفعل المطر .

والأمثلة السابقة كلها تبين قدرة الإنسان على التأثير فى الخضرة تأثيراً تشاكلياً وأن الفرد الذى يُفترض فيه وجود تلك القوة إنما يؤثر فى الأشجار والنبات تأثيراً نافعاً أو ضاراً تبعاً للأحوال والأحداث التى يمر بها هو نفسه والتى يستمد منها هذه التأثيرات ذاتها . إلا أن مبدأ السحر التشاكلى يقضى بأن يكون التأثير متبادلا . فالنبات يستطيع أن « ينقل العدوى » للإنسان بمثل ما يتقبل العدوى منه تماماً. فالفعل ورد الفعل فى السحر والفيزياء — على ما أعتقد — متساويان ومتقابلان . ولقد حصل هنود الشيروكى على درجة عالية جداً من المعرفة بخصائص النبات مكنت لهم استخدامها بطريقة المحاكاة والتشاكل فى كثير من أوجه حياتهم اليومية . فنبات « أمعاء القط » مثلا يتميز بجذور طويلة ورفيعة وبدرجة كبيرة من الصلابة والقوة تجعله يقاوم المحراث مقاومة شديدة ويكاد يمنعه تماماً عن حرث الأرض ، ولذا فإن النساء هناك يستعملنه فى غسل رءوسهن بعد غليه فى الماء حتى يكتسب الشعر صلابة وقوة مماثلتين ، كما أن لاعبى الكرة عندهم يغسلون أجسامهم به كى تقوى عضلاتهم وتشتد (١) .

(١) ترجمت بشىء من التصرف (أ.ا) .

ويعتقد الجاليلاريز أن المرأة التى تأكل إصبعين من أصابع الموز ينموان معاً داخل قشرة موز واحدة سوف تلد توأمين . وبالمثل يعتقد هنود الجورانى Guarani فى أمريكا الجنوبية أن المرأة سوف تلد توأمين إذا أكلت حبة مزدوجة من حبوب الذرة . ولقد كان هذا المبدأ نفسه يستخدم فى العصور الفيدية Vedic استخداماً غريباً فى عمل التعاويذ التى تساعد الأمراء المنفيين على استرداد عروشهم(١) فقد كان الأمير المخلوع يتناول طعاماً مطبوخاً على نار توقد من أخشاب أخذت من جذع شجرة كان قد سبق قطعها من قبل اعتقاداً منهم أن القوة النمائية التى أظهرتها تلك الشجرة فى استرداد قوتها سوف تنتقل فى الوقت المناسب عن طريق النار إلى الطعام ومنه إلى الأمير نفسه الذى أكل ذلك الطعام الذى تم طبخه على النار التى استخدم فى إشعالها ذلك الخشب الذى نما من تلك الشجرة . وتعتقد الشعوب السودانية أنه إذا تم بناء بيت من خشب بعض الأشجار الشوكية

(١) يقوم الدين الهندوكى أصلا على مجموعة من الكتب المقدسة التى تعرف باسم الفيدا Vedas ويسود الاعتقاد عند الهندوس ان براهما نفسه هو الذى وضع تلك الكتب التى تضم تعاليم الدين الاساسية وذلك منذ بدء الخلق ، ثم قام الحكيم فياسا Vyasa بترتيبها منذ حوالى خمسة آلاف سنة فى وضعها الحالى . وتبشر كتب الفيدا بوجود اله واحد هو براهما Brahma الذى تتمثل خصائصه وصفاته فى ثلاث قوى رئيسية متجسدة فى عمليات الخلق والاستمرار أو المحافظة على الكون ثم التدمير والفناء ، وتتجلى فى أسماء ثلاثة هى براهما نفسه وفيشنو Vishnu وسيفا Siva على التوالى ، وهم الآلهة الثلاثة الكبار أو الرئيسيون عند الهندوس . وهذا لا يمنع من وجود آلهة أقل أهمية مثل اندرا اله السماء والرعد والمطر (أ.أ) .

فإن حياة الناس الذين يسكنون فيه ستكون بالمثل شائكة ومليئة بالمتاعب.

ومن ضروب السحر التشاكلي التي لها فاعلية واضحة ذلك الضرب الذي يستعين بالموتى في تحقيق أهدافه. فكما أن الموتى لا يرون ولا يسمعون أو ينطقون كذلك يمكن – تبعاً للمبادئ التشاكلية – جعل الناس عمياناً وصما وبكماً باستخدام عظام رجل ميت أو أي شيء آخر يكون قد اتصل بالموت من قريب أو بعيد. مثال ذلك أنه حين يخرج شخص عند الجاليلاريز لمقابلة معشوقته بالليل فإنه يتناول حفنة من التراب من أحد القبور فيذروه على سطح بيتها فوق المكان الذي يرقد فيه أبواها متوهماً أن ذلك سوف يمنعهما من الاستيقاظ أثناء مناجاته لها، على أساس أن تراب القبر سيجعلهما ينامان نوماً عميقاً كنوم الموتى. وقد كان اللصوص في كل العصور وفي الكثير من البلاد يعتمدون على مساعدة هذا النوع من السحر المفيد في ممارسة مهنتهم، ولذا كان اللص في سلافونيا Slavonia مثلا حين يريد السطو على أحد المنازل يبدأ عمله أحياناً بأن يلقي بقطعة من عظام رجل ميت فوق البيت وهو يقول بسخرية لاذعة « كما أن هذه القطعة من العظام لا تستطيع أن تعود إلى الحياة كذلك لا يستطيع سكان هذا البيت أن يقوموا من رقادهم، » فلا يستطيع أي شخص في ذلك المنزل أن يفتح عينيه بعدها. وفي جاوا ينثر اللصوص تراب أحد القبور حول البيت الذي ينوون السطو عليه على اعتبار أن ذلك كفيل بأن يجعل النوم يدب إلى أجفان السكان. كذلك ينثر اللصوص عند الهندوس الرماد من المحرقة أمام البيت بينما ينثر الهنود الحمر

فى بيرو التراب المتخلف من عظام الموتى . أما اللصوص فى روتانيا Ruthania فإنهم يفرغون النخاع من عظمة ذقن الميت ويصبون فيها الشمع الأبيض ثم يشعلون فيها النار ويسيرون ثلاث مرات حول البيت الذى يريدون السطو عليه وهم يحملون ذلك المشعل الآدمى فيتغلب النوم على السكان ويروحون فى سبات عميق ، أو قد يصنعون مزماراً من عظمة ساق الميت ويعزفون عليه فيدب النعاس فى عيون جميع من يسمعونه . وكان الهنود الحمر فى المكسيك يستخدمون لتحقيق أهدافهم الشريرة عظمة الساعد الأيمن لامرأة ماتت أثناء أول ولادة لها ، ويشترطون أن تكون الذراع مسروقة ، فيدقون بها على الأرض قبل أن يتسللوا إلى البيت الذى يريدون السطو عليه ، فيفقد السكان القدرة على الكلام والحركة ويبدون ساكنين كالأموات بحيث يرون كل ما يدور حولهم فى البيت دون أن يستطيعوا التدخل ، بل إن بعضهم كان ينام بالفعل ويرتفع شخيره . وكان الناس فى أوربا يزعمون أن « ليد المجد Hand of Glory » مثل هذه الخصائص والقدرات . ويد المجد عبارة عن يد رجل مشنوق تؤخذ وتملح وتحفظ حتى إذا وضعت فيها شمعة مصنوعة من شحم مجرم تم شنقه أيضا ثم أضيئت مثلما تضاء الشموع فى الشمعدانات فقد جميع الحاضرين قدرتهم على الحركة وأصبحوا عاجزين تماماً حتى عن أن يحرك أحدهم أصبعه أكثر مما يستطيع الشخص المشنوق نفسه ؛ وفى بعض الأحيان كانت يد الميت كلها تستخدم كشمعة ، أو على الأصح كمجموعة من الشموع ، فكانت النار توقد فى كل الأصابع

الحافة الذابلة ، وكان عدم اشتعال النار فى أحد الأصابع يعنى وجود شخص مستيقظ فى البيت . ولم يكن يفلح فى إطفاء هذا الضوء البشع سوى اللبن . وكثيراً ما كان الأمر يقضى بأن تصنع شمعة اللص من إصبع طفل حديث الولادة أو طفل ولد ميتا ، وهو الأفضل . وفى أحيان أخرى كان اللصوص يفضلون أن يحملوا معهم شموع بعدد سكان البيت الذى يزمعون السطو عليه حتى لا تكون هناك فرصة لبقاء شخص مستيقظا فيلقى القبض عليهم . ولم يكن يفلح فى إطفاء هذه الشموع الصغيرة أيضا إلا اللبن . وقد كان اللصوص فى القرن السابع عشر يقتلون النساء الحوامل ليحصلوا من أرحامهم على تلك الشموع . كذلك كان اللصوص فى بلاد اليونان القديمة يعتقدون أن بإمكانهم إسكات أشد كلاب الحراسة وحشية وضراوة ، بل وحملها على الهرب بأن يحملوا معهم بعض الجمرات من إحدى المحارق الجنائزية ، كما كانت النساء فى بلاد الصرب وبلغاريا حين تشتد عليهن وطأة العمل المنزلى ينزعن قطع النقود البرونزية التى توضع على عيون الجسد الميت ويغسلنها بالنبيذ أو بالماء ثم يقدمن السائل بعد ذلك لأزواجهن ، وبمجرد أن يشرب الزوج من هذا الشراب يصبح أكثر ميلا إلى التساهل واللين مع زوجته ، فيتغاضى عن هفواتها ونزواتها ، بل إنه يعمى تماما عن إدراكها شأنه فى ذلك شأن الشخص الميت الذى كانت تلك النقود تغطى عينيه . ومن ناحية أخرى فإن كثيراً من الناس يتصورون أن الحيوانات تملك بعض الخصائص والصفات المفيدة النافعة التى يمكن أن تنتقل إليهم بشكل

أو بآخر عن طريق السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة . من ذلك مثلا أن بعض البتشوانا **Bechuanas** يلبسون جلد ابن مقرض **Ferret** كتعويذة تبعد عنهم شر الموت غيلة ، نظراً لشدة تشبث هذا الحيوان بالحياة ، بينما يحاول البعض الآخر تحقيق نفس النتيجة عن طريق تغطية أجسامهم بأنواع معينة من الحشرات المشوهة التى تظل متمسكة بالحياة رغم تشوهاتها . وكثيراً ما يلبس المحاربون عندهم أيضاً شعر ثور بغير قرون فوق شعرهم هم أنفسهم أو يضعون جلود الضفادع فوق مآزرهم نظراً لقدرة الضفدعة على الإفلات والهرب وصعوبة الإمساك بالثور المنزوع القرنين من الناحية الأخرى . فحمل مثل هذه التعاويذ يجعل من الصعب الإيقاع بصاحبها ، بنفس الطريقة التى يصعب بها الإمساك بالثور المنزوع القرنين أو بالضفدعة . وبالمثل فإنه يبدو واضحاً أن المحارب فى جنوب أفريقيا الذى يعقص شعره الأسود المجعد على بعض خصلات من شعر فأر سيكون له من القدرة على الإفلات من حراب الأعداء مثل ما للفأر المرن من القدرة على الإفلات من الأشياء التى يُرمى بها . ومن هنا يشتد الطلب بكثرة على شعر الفيران فى تلك المناطق حين يتوقع الناس نشوب إحدى الحروب . وتذكر إحدى الكتب الهندية القديمة أنه حين يراد تقديم بعض القرابين من أجل النصر ، فإن التراب الذى يستخدم فى بناء المذبح يجب أن يؤخذ من المكان الذى يتمرغ فيه الخنزير البرى على اعتبار أن قوة ذلك الخنزير تنتقل إلى ذلك التراب . وحين يلعب

الشخص على المعزف ذى الوتر الواحد ويشعر بتصلب فى أحد أصابعه فإنه يتعين عليه أن يمسك بأحد عناكب الحقول التى تتميز بطول أرجلها فيشويه ثم يغزل الإصبع برماده ، لأن ذلك كفيل بأن يُكسب الإصبع الليونة والسرعة اللتين تتميز بهما أرجل العنكبوت ، حسب ما يعتقد الجاليلاريز على الأقل . وحين يحاول العرب اللحاق بالعبيد الذين يفرون من الرق فإنهم يرسمون دائرة سحرية على الأرض ويرشقون مسماراً فى وسطها ثم يربطون خنفساء فى الخيط إلى المسمار بحيث تكون الخنفساء من نفس جنس العبد الهارب . وكلما دارت الخنفساء حول المسمار التف الخيط حوله أيضا وقصر طوله بذلك واقتربت الخنفساء بالتالى من المركز (المسمار) بعد كل دورة وبفضل هذا النوع من السحر التشاكلى يعود العبد الهارب إلى سيده من جديد . وعند القبائل الغربية فى غينيا الجديدة البريطانية يحرص الرجل حين يقتل ثعبانا على أن يشويه فى النار ثم يدهن ساقيه بشىء من رماده كلما ذهب إلى الغابة فيجنبه ذلك شر التعرض لعض الثعابين لعدة أيام بعده. وحين يزمع أحد الأشخاص فى سلافونيا الجنوبية الاختلاس أو السرقة من أحد الأسواق فإنه يقوم أولا بحرق قط أعمى ثم يلقى بحفنة من رماده على الشخص الذى يريد خداعه ، وبذلك يتمكن من أن يأخذ ما يشاء من حانوته دون أن ينتبه المالك إلى ما يفعل ، لأنه أصبح يماثل فى العمى القط الميت الذى ألقى عليه شىء من رماده . بل إن الجرأة قد تصل بالسارق إلى حد أن يسأل التاجر « هل دفعت

لك الثمن ؟ » فيجيب التاجر المخدوع « طبعا ، بكل تأكيد » .
ومن الأمور التى تماثل ذلك فى البساطة وقوة التأثير ما يلجأ إليه أهالى وسط أستراليا حين يرغبون فى إطالة لحاهم فيتخسون الذقن فى كل المواضع بقطعة مدببة من العظام ، ثم يمسحون عليها فى عناية ورفق بقطعة من الخشب أو الحجر المسحور الذى حفر على هيئة نوع معين بالذات من الفئران المشهورة بطول شواربها ، على أمل أن تنتقل خاصية الشوارب الطويلة إلى قطعة العصا أو الحجر التى تشبه الفأر ومنها بالتالى — عن طريق النقلة البسيطة — إلى الذقن ذاتها التى لا تلبث أن تغطيها وتزينها لحية طويلة كثة . ولقد كان الإغريق يعتقدون أن أكل لحم « عصفور الليل » أو « للقبرة الساهرة » كفيل بطرد النوم عن الشخص ، وأن تكحيل عينى الشخص الأعشى بمرارة الصقر تزيد فى قوة إبصاره وحدته ، وأن بيض الغراب الأسود يكسب الشعر الأشيب الفضى سواداً كسواد الغراب نفسه . وكل ما يستلزمه الأمر من الشخص الذى يلجأ لهذه الوسيلة الأخيرة لإخفاء عاديات الزمن هو أن يظل فمه مليئا بالزيت طيلة الوقت الذى يضمخ فيه خصلات شعره الوقور بالبيض وذلك حتى لا تتلون أسنانه باللون الأسود الحالك الذى لا يفيد الحك أو الغسل فى إزالته واسترجاع الأسنان للونها الأبيض القديم . والواقع أن مفعول هذا العلاج لإعادة لون الشعر كان على درجة من القوة يتعرض الشخص معها لأخطار جسيمة لا تتناسب مع ما يطلبه منه .

وتثير النقوش والأشكال الجميلة التي تزين ظهور الأفاعي إعجاب هنود الهويتشول ، ولذا فحين تبدأ المرأة هناك في النسج والتطريز تمسك زوجها بأفعى كبيرة ويثبتها في عصى مشقوقة فتمر الزوجة بيدها على ظهرها كله من الرأس حتى الذيل ثم تلمس بعد ذلك جبينها وعينيها على أمل أن تكتسب من الحذق والمهارة ما يمكنها من أن تصنع في النسيج نقوشا ورسوما لها نفس جمال النقوش التي تزين ظهر الأفعى .

وتمشيا مع مبدأ السحر التشاكلي فإن الأشياء غير الحية وكذلك النباتات والحيوانات تستطيع أن تنشر النقمة أو النعمة فيما حولها تبعا لطبيعتها الذاتية من ناحية ، وقدرة الساحر على تفجير ينابيع الخير أو منع الكروب والويلات من ناحية أخرى حسب مقتضيات الموقف . ففي سمرقند مثلا تعطى الأم لطفلها بعض الحلوى لكي يمصها وتضع في كفه بعض الغراء حتى يشب عذب الحديث معسول اللفظ وحتى تلتصق الأشاء الثمينة بيده كما لو كانت مثبتة بالصمغ أو الغراء . وكان اليونانيون القدماء يعتقدون أن الثوب المصنوع من صوف أحد الأغنام التي مزقتها الذئاب يؤذى صاحبه ويسلط الأكال على جلده . كما كانوا يظنون أن وضع قطعة من الحصى في النبيذ بعد أن يكون قد لفظها كلب من فمه كفيل بإثارة الشقاق بين كل من يشرب من ذلك النبيذ . وكثيراً ما تستعير المرأة العاقر عند عرب مؤاب رداء امرأة أخرى ذات أطفال كثيرين أملا في

أن يساعدها ذلك على اكتساب شيء من خصوبة صاحبته الأصلية .
وكان الكافير فى سوفالا Sofala بشرق إفريقيا يرتاعون أشد الارتياع إذا ضربهم شخص بأى شيء مجوف كالبوص أو القش ويفضلون على ذلك أن يُضربوا بهراوة غليظة مثلا أو حتى بقضيب من الحديد رغم ما قد يلحقه بهم من أذى ، وذلك نظراً لاعتقادهم بأن ضرب الشخص بأداة مجوفة يؤدى إلى تسرب جوفه هى حتى يذوى ويموت . ويوجد فى البحار الشرقية Eastern Seas نوع معين من الأصداف تطلق عليه جماعات البوجنيس Buginese الذين يعيشون فى سيليبيز اسم « الرجل الشيخ » (كادجاوو Kadjawo) ، وفى يوم الجمعة من كل أسبوع يضع الناس هناك هؤلاء « الرجال الشيوخ » على ظهورهم أمام عتبات بيوتهم اعتقاداً منهم أنه ما من شخص يمر فوق عتبة هذا البيت إلا ويعيش حتى يبلغ أرذل العمر . ويحرص الصبى عند البراهمة أثناء حفلات تكريسه (1) على أن يطأ

(1) المقصود بحفلات التكريس الحفلات التى تقام لتأهيل الفتيان لحياة الرجولة وتعدهم لتحمل المسئوليات الخاصة بتلك المرحلة من حياتهم الاجتماعية . وتكاد حفلات التكريس تكون عنصرا ثقافيا عاما في المجتمع الانسانى على اختلاف درجات تقدمه وان كانت تتخذ مظاهر مختلفة كما انها أوضح عند الشعوب البسيطة . والعادة أن يعزل الفتيان أثناء مراسيم التكريس عن بقية المجتمع فيعيشون فى الغابة مثلا كما يخضعون للكثير من القيود والتحريمات القاسية ويتعرضون لانواع مختلفة من التعذيب كما يتلقون تدريبات خاصة تتعلق بالقواعد الخلقية السائدة فى الجماعة القبلية التى ينتمون اليها .

ويجب أن نفرق نوعين من شعائر التكريس : الشعائر الجماعية والشعائر الفردية ومعظم شعائر التكريس هى من النوع الجماعى بينما لا تسود الشعائر =

بقدمه اليمنى قطعة من الحجر بينما يردد الناس قائلين « قف فوق الحجر وكن ثابتا راسخا مثله » وهذه الطقوس ذاتها تمارس على العروس يوم زفافها . وفى مدغشقر يدفن الناس قطعة من الحجر تحت العمود الضخم الرئيسى الذى يقوم عليه البيت كله وبذلك

= الفردية الا عند عدد قليل من القبائل فى استراليا وافريقيا وعند بعض الهنود الحمر . ويعتبر الختان أهم عنصر فى الشعائر الجماعية عند معظم الشعوب والقبائل البسيطة . ولكن هناك كثيرا من الشعائر الاخرى التى تحل محل الختان مثل اجراء بعض العمليات الجراحية البسيطة فى أجزاء مختلفة من الجسم كما هو الحال فى تشليخ الجبهة أو الخدود الذى يمارسه كثير من الشعوب الافريقية والسودانية ، أو خلع بعض الاسنان على ما سوف يذكر فريزر نفسه فى الصفحات التالية . وقد يتعرض الشبان فى بعض المجتمعات الى أنواع من التعذيب أقل قسوة من هذه العمليات الجراحية كالجلد بالسياط مثلا أو الوخز بالاشواك أو الشجيرات الشوكية او اجبارهم على تناول طعام ساخن ملتهب او على العكس من ذلك حرمانهم من الطعام لفترات طويلة يختلف طولها من مجتمع لآخر حسب العرف والتقاليد . وعلى أى حال فان الهدف من كل هذه الاساليب المختلفة فى المعاملة القاسية هو اختبار قوة احتمال الشبان على ملاقاة الصعاب التى سوف يصادفونها فى حياتهم وبخاصة حين يخرجون للحرب أو القنص ، كما ان بعضها كالختان - يعتبر خطوة هامة فى سبيل ممارستهم لوظائفهم الجنسية فى المجتمع .

أما شعائر التكريس الفردية فالاغلب انها لا تنطوى على مثل هذه العناصر العنيفة وانما يكتفى فيها بمطالبة الفتى بطعن احد الثيران القوية بشرط أن يقتله من الطعنة الاولى والا سقط الفتى كمحارب شجاع فى نظر المجتمع . وهذه أيضا وسيلة لاعداد الشبان للحرب والقنص .

وعلى أية حال فان شعائر التكريس تعتبر بمثابة الرخصة التى بمقتضاها يصبح الفرد لاول مرة فى حياته عضوا كاملا فى المجتمع ، فينفصل من مجتمع النساء الذى كان ينتمى اليه أو يلتصق به التصاقا شديدا أو يلحق بمجتمع الرجال ويحتل بذلك مركزا اجتماعيا محددا ، له التزاماته ومسئولياته (أ.أ) .

يدفنون الحظ العاثر أو سوء الطالع الذى يلازم صاحبه . ويمكن إلى حد ما رد العادة الشائعة عند كثير من الشعوب عن حلف اليمين على قطعة من حجر إلى الاعتقاد فى أن صلابة الحجر أو قوته تعطى مزيداً من التوكيد والتعزيز للقسم . وفى هذا الصدد يذكر المؤرخ الدانماركى القديم ساكسو جراماتيكوس Saxo Grammaticus أنه حين كان القدماء يختارون ملوكهم فإنهم كانوا يحرصون على أن يعتلوا بعض الأحجار التى كانوا يغرسونها فى الأرض غرسا للإدلاء بأصواتهم من فوقها ، مشيرين بذلك إلى قوة ورسوخ وثبات رأيهم فيمن يختارون .

ولكن فى الوقت الذى تزعم فيه أن جميع الأحجار تتمتع بخاصية سحرية عامة نظراً لما تتميز به كلها من صفات الثقل والصلابة ، فإن هناك من الحجارة ما ينفرد ببعض مميزات وصفات سحرية خاصة بها تتفق وخواصها الذاتية من حيث الشكل واللون . مثال ذلك أن هنود بيرو كانوا يستخدمون أنواعا معينة من الحجارة لزيادة محصول الذرة وأحجاراً أخرى لزيادة محصول البطاطس ونوعا ثالثا لزيادة الماشية وهكذا . وكانت الأحجار المستخدمة لزيادة نمو الذرة تبدو على شكل قناديل الذرة بعكس الأحجار المستخدمة فى تكاثر الماشية فقد كانت تبدو على هيئة الأغنام .

ويعتقد الناس فى كثير من أنحاء ميلانيزيا أن بعض الأحجار المقدسة تتمتع بنوع من القوى الإعجازية التى تتوافق فى طبيعتها

مع شكل تلك الأحجار . مثال ذلك أن أحجار المرجان الملقاة على الشاطىء كثيراً ما تتشكل بفعل الماء بحيث تشبه فاكهة الخبز bread fruit شبها قويا ، وعلى ذلك فحين يعثر الرجال هناك على بعض هذه الأحجار المرجانية فإنه يدفنها تحت أشجار فاكهة الخبز على أمل أن يؤدى ذلك إلى زيادة ثمار الشجرة . فإذا جاءت النتيجة محققة لآماله وتوقعاته فإنه يأخذ من جيرانه قطع المرجان التى لم تحقق مثل هذه هذه الفاعلية ويدفنها بجوار أحجاره هو عسى أن تستمد منها شيئا من الخاصية السحرية الكامنة فيها ، وبذلك يوفر لجيرانه أيضا ما يكفيهم من العيش . كذلك تعتبر قطع الحجارة التى تظهر عليها رسوم على شكل حلقات ودوائر صغيرة وسيلة الحصول على النقود. فإذا عثر شخص على قطعة كبيرة منها وتحتها قطع أخرى صغيرة بحيث تبدو جميعها كأنثى الخنزير بين صغارها فإنه يستبشر بأن بيعها لغيره نظير أى مبلغ من المال سوف يعود إليه أخيراً فى شكل خنازير. ولا يعزو الميلانيزيون تلك القوة الخارقة إلى الحجر ذاته وإنما إلى الروح التى تسكن فيه ، ولذا فكثيراً ما يحاول الرجل على ما رأينا من قبل أن يسترضى تلك الروح ويستميلها إليه عن طريق تقديم القرابين والأضاحى فوق تلك الأحجار . بيد أن فكرة استرضاء الأرواح واستعطافها تقع خارج دائرة السحر الذى نناقشه هنا وتدخل فى دائرة الدين . ومن الحالات التى ترتبط فيها هذه الفكرة بالأفكار والممارسات السحرية الخالصة كما هو الشأن هنا فإنه يمكن ببساطة اعتبار هذه

الأفكار والممارسات السحرية هى الأصل الأول وأن فكرة الدين إنما طرأت عليها فى فترة لاحقة من الزمن . والواقع أن هناك أسسا قوية للاعتقاد بأن السحر يمثل مرحلة سابقة على الدين فى التطور الفكرى . وسوف نعود إلى هذه النقطة فيما بعد .

ولقد كان العلماء يعلقون أهمية كبرى على الخصائص السحرية التى تتمتع بها الأحجار النفيسة . والحقيقة أن هناك ما يدل على أن هذه الأحجار كانت تستخدم كتعاويذ وأحجبة قبل أن تستخدم فى الزينة بوقت طويل . فقد كان اليونانيون يطلقون اسم شجرة العقيق على نوع من هذه الأحجار التى تظهر عليها رسوم ونقوش تشبه تلك الشجرة . كما كانوا يعتقدون أنه إذا ربطت قطعتان من هذه الأحجار إلى قرنى وعنق الثور أثناء الحرث فسوف يؤدى ذلك إلى تحقيق وفرة هائلة فى المحصول . كذلك كانوا يستخدمون « حجر اللبن » لزيادة إدرار اللبن إذ شربته المرأة مذابا فى شراب العسل المتخمر . ولا تزال أحجار اللبن تستخدم للآن عند النساء اليونانيات فى كريت وميلوس ، كما أن الأمهات المرضعات فى ألبانيا يلبسن تلك الأحجار لزيادة إدرار اللبن عندهن . كذلك كان اليونانيون يعتقدون فى وجود حجر يشفى من عضة الثعبان ولذا كانوا يسمونه « حجر الثعبان » . ولكى يختبر المرء مفعوله كان يكفى أن يطحنه على شكل مسحوق ثم يرشه على الجرح . وقد استمد « الجمشت » النبيذى اللون اسمه — الذى يعنى حرفيا غير سكران — من الاعتقاد الشائع بأنه يساعد حامله

على الاحتفاظ باتزانه ،كما كانوا ينصحون الأخوين اللذين يريدان العيش معا فى اتفاق ووئام بأن يحملا معهما دائما قطعتين من المغنطيس تمنعانهما بلاشك من التنازع والانفصال نتيجة لانجذاب القطبين أحدهما نحو الآخر .

وتشير كتب الهندوس القديمة إلى إحدى القواعد الهامة التى تحتم على الرجل أن يجلس ليلة زواجه صامتا مع زوجته إلى أن تبدأ النجوم تتلألأ فى السماء ، حتى إذا ما ظهرت « نجمة القطب » كان عليه أن يلفت نظر زوجته إليها ثم يخاطب النجم قائلا «أيها النجم الثابت ، إننى أراك ثابتا قويا فى مكانك ، فلتقف إلى جانبى إذن أيها النجم اللامع الوضاء » . ثم يلتفت بعد ذلك إلى زوجته ويقول لها « لقد منحنى بريهاسباتى Brihaspati إياك حتى تحصلى عن طريق أنا زوجك على الذرية والنسل . ألا فلتعيشى معى لمائة خريف ». وواضح أن هذه الطقوس تهدف إلى الاحتياط ضد تقلبات الحظ وعدم الاستقرار بفضل التأثير القوى المستمر المستمد من ذلك النجم الدائم . وتعبر قصيدة كيتس Keats الغزلية الأخيرة عن هذه الأمنية ذاتها حين تقول :

« أيها النجم المتلألىء . ألا ليت لى مثل ثباتك وقوتك ورسوخك
وأنت تطل من علياء مجدك وعزلتك وانفرادك طيلة الليل » .

وليس من شك فى أن الأقوام الذين يعيشون قريبا من البحر يتأثرون بحركة المد والجزر المستمرة وأن ذلك خليق — تبعا لمبادىء تلك

الفلسفة الفجة الساذجة عن التعاطف والمشابهة التى نناقشها هنا — بأن يجعلهم يكتشفون نوعا من العلاقة المستورة والتوافق الخفى بين الجزر والمد من ناحيةوحياة الإنسان والحيوانات والنباتات من الناحية الأخرى . فارتفاع المد بالنسبة لهم ليس مجرد رمز ، وإنما هو سبب وعلة للوفرة والحياة والنجاح ، بينما هم يرون فى انحسار الماء عاملا حقيقيا من عوامل الفشل والضعف والموت ورمزا كئيبا لهذه الأشياء ويتصور الفلاح فى بريتانى أن البرسيم الذى يبذره أثناء ارتفاع المد سوف يجود نموه ، بعكس الحال بالنسبة للبرسيم الذى يُبذر أثناء انخفاض الماء وتراجع المد ، إذ لن يتم نضجه أبداً ،كما أن الماشية التى تغتذى عليه يكون مصيرها الموت . وتعتقد زوجة هذا الفلاح أن أفضل أنواع الزبد هى تلك التى تصنع وقت أن يبدأ المد فى فى الارتفاع ، وأنه إذا ظهرت الرغوة فوق سطح اللبن وهو داخل الممخضة فإنها لن تزول إلا بانتهاء فترة ارتفاع المد ،كما أن الماء الذى تسحبه من البئر وكذلك اللبن الذى تحلبه من البقرة أثناء ارتفاع المد سوف يغلى فى الإناء حتى يفيض منه على النار . وكان بعض القدماء يزعمون أن جلد الفقمة — حتى بعد سلخه — يشعر دائما بطريقة خفية بالحنين إلى البحر ، وأنه هذه الجلود كثيراً ما كانت تشاهد وهى تتلوى من الألم والحنين أثناء تراجع البحر وقت الجزر. ومن الاعتقادات القديمة التى تُعزى إلى أرسطو أنه لا يمكن لكائن أن يموت إلا عند انحسار المد . ولو صدقنا ما يقوله بلينى فى هذا

الشأن لوجدنا أن التجربة ذاتها تعزز ذلك الاعتقاد ، على الأقل فيما يتعلق بالجماعات التى كانت تعيش على شاطىء فرنسا . كذلك يؤكد لنا فيلوستراتوس Philostratus أنه حين كانت الوفاة تأتى الناس فى قادش فإنهم لم يكونوا يسلمون الروح أبداً مادام الماء مرتفعا . ولا تزال مثل هذه الأوهام تساور الناس فى بعض أنحاء أوربا ، إذ يعتقد سكان الساحل الكانتابرى أن الشخص الذى يموت نتيجة لأحد الأمراض المزمنة أو الحادة إنما يلفظ أنفاسه الأخيرة فى اللحظة التى يبدأ المد فيها فى التراجع . كما أن الكثيرين من الناس فى البرتغال وعلى طول ساحل ويلز وفى بعض أجزاء ساحل بريتانى يعتقدون أن المرء إنما يولد لحظة أن يبدأ المد فى الارتفاع ويموت لحظة أن يبدأ فى التراجع والانحسار . ويؤكد لنا ديكنز Dickens أن هذه الخرافة ذاتها توجد فى انجلترا ، كما أن السيد بيجوتى Mr. Peggotty يذكر أن سكان الساحل لا يموتون أبداً إلا حين يشرف المد على الانحسار تماما وأنهم لا يولدون إلا بعد ارتفاعه بشكل ملحوظ ، وأن عملية الولادة ذاتها لا تتم إلا بعد اكتمال الفيضان . والظاهر أن الاعتقاد فى أن معظم حالات الوفاة تحدث وقت انخفاض البحر يسود بالمثل على طول الساحل الشرقى لانجلترا من نورثمبرلند حتى كنت Kent . وليس من شك فى أن شيكسبير كان على علم تام بهذا الاعتقاد لأنه يجعل فولستاف Fulstaff يموت بالضبط بين الساعة الثانية عشرة والساعة الواحدة وهو وقت تراجع المد . كذلك يوجد ذلك الاعتقاد

على الساحل الباسفيكى لأمريكا الشمالية عند الهايدا . فحين يشرف أحد الرجال الطيبين هناك على الوفاة يخيل إليه أنه يرى أمامه قاربا يحمل عدداً من أصدقائه الموتى وهم يقبلون عليه مع المد لدعوته وللترحيب به فى عالم الروح ، فيقولون له « قم معنا الآن ، فالمد على وشك التراجع . لابد لنا من أن نعود » . ولقد كان الأهالى الوطنيون فى بورت ستيفنس Port Stephens بويلز الجنوبية الجديدة يدفنون موتاهم دائما حين يكتمل المد ويتحاشون القيام بهذه المهمة أثناء الجزر ، وذلك لكيلا يحمل الماء معه فى انحساره روح الميت إلى بلد آخر بعيد .

ولقد كان الصينيون يستعينون ببعض التعاويذ المعقدة لكى يضمنوا لأنفسهم الحياة الطويلة . وتهدف هذه التعاويذ إلى استيعاب الجوهر السحرى وتركيزه فى أنفسهم ، وكانوا يعتقدون أن ذلك الجوهر السحرى يفيض — تبعا للمبادىء التشاكلية — من الأزمنة والفصول ومن الأشخاص والأشياء الجامدة على السواء . وكانت الوسيلة الوحيدة لنقل هذه التأثيرات الطيبة هى « رداء القبر » الذى كان كثير من الأهالى يحرصون على إعداده أثناء حياتهم ويراعون أن يعهدوا بأمر تفصيله وخياطته إلى الفتيات غير المتزوجات أو إلى امرأة متزوجة صغيرة فى السن ، نظراً لأن هناك فرصة مؤكدة لأن تعيش مثل هذه الفتاة أو المرأة لسنوات طويلة مقبلة ، وأن جانبا من قابليتها للحياة الطويلة سوف تنتقل بغير شك إلى تلك الملابس التى تخيطها مما سوف

يؤجل بالتالى لعدة سنوات اللحظة التى يستخدم فيها ذلك الرداء . وكان الناس هناك يفضلون صنع « رداء القبر » فى السنوات الكبيسة . فقد كان يبدو من البديهى للعقل الصينى أن رداء القبر الذى يصنع فى سنة ذات طول غير عادى يكون أقدر على إطالة حياة صاحبه بدرجة غير عادية . ومن بين هذه الملابس كان يوجد بوجه خاص رداء كانوا يبذلون فى إعداده الكثير من الجهد والصبر كى تسرى إليه هذه الخاصية الثمينة . وهو عبارة عن عباءة طويلة من الحرير الأزرق القاتم يطرز عليه كلمتا « الحياة الطويلة » بخيوط من الذهب . وكان الصينيون يعتبرون إهداء هذه العباءة الثمينة الفاخرة التى تعرف باسم « ثوب الحياة الطويلة » عملاً من أعمال البر بالوالدين ورمزا رقيقاً إلى الاهتمام والعناية بأمرهما . ولما كان الهدف من هذا الثوب هو إطالة الحياة فإن صاحبه كان يكثر من ارتدائه وبخاصة فى المناسبات والاحتفالات ، كى يتيح لتأثير إطالة الحياة الذى يشع من الحروف الذهبية الكبيرة التى طرز بها هذا الرداء أن يسرى فى جسمه ويتغلغل إلى أعماقه . وأهم من هذا كله أن الرجل كان يحرص أشد الحرص على أن يرتدى تلك العباءة يوم عيد ميلاده . فالحكمة والتفكير السليم يفرضان على المرء أن يحصل فى ذلك اليوم على أكبر قدر ممكن من النشاط الحيوى الذى يتمثل فى مظاهر الصحة والقوة البادية على صاحبها وأن يختزن منها رصيداً ينفق منه خلال بقية العام . ولذا كان المالك السعيد المحظوظ لمثل هذا الثوب يتقبل بسرور

وانشراح تهانى أصدقائه وأقاربه الذين يعبرون بحرارة عن إعجابهم بتلك الملابس الفخمة الرائعة وبالبنوة الطيبة التى دفعت أبناءه إلى أن يقدموا مثل هذه العباءة الجميلة المفيدة لمن كان السبب فى وجودهم ، بينما يلف هو جسمه بعناية وحرص فى ذلك الكفن الرائع الفاخر كى يمتص مفعوله الطيب المبارك بكل مسامه .

كذلك يظهر مبدأ التشابه « الشبيه ينتج مشبيه » فى الاعتقاد السائد فى الصين من أن مصير أى مدينة من المدن وقدرها يتأثران تأثراً عميقاً بشكلها العام . ومن هنا كانت مصائر المدن وحظوظها تختلف باختلاف الأشياء التى تقاربها فى الشبه . ولذا يقال أن مدينة تسوين شيوفو Tsuen-cheu-fu العتيقة والتى يشبه هيكلها العام سمك الشبوط كانت تتعرض فى كثير جداً من الأحيان للنهب والسلب والإغارات من مدينة يونج شون Yung-chun المجاورة والتى كانت تشبه فى تخطيطها العام شبكة صيد السمك . وقد ظل الحال كذلك حتى وضع سكان المدينة الأولى خطة جديدة أقيم بمقتضاها معبدان مرتفعان فى وسط المدينة لا يزالان موجودين للآن ، فكان لهما تأثير عجيب جداً فى تغيير مصيرها لأنهما كانا يعترضان تلك الشبكة الوهمية قبل أن تهبط وتُطبق بعيونها وفتحاتها الكثيرة على سمكة الشبوط المتخيلة . ومنذ حوالى أربعين سنة تقريباً بذل الحكماء من سكان شنغهاى جهوداً جبارة للكشف عن سبب اندلاع الاضطرابات المحلية بكثرة فى المدينة . وقد هداهم البحث الدقيق إلى أن السبب

فى حركات التمرد يكمن فى نفس شكل أحد المعابد الجديدة الكبيرة الذى كان قد بنى لسوء الحظ على شكل السلحفاة المائية ،وهى حيوان سىء الخلق والسلوك إلى أبعد الحدود . ولقد كانت المشكلة التى تواجه المدينة صعبة للغاية بقدر ما كان الخطر داهماً . فقد كان هدم المعبد يعتبر عملا معادياً للدين واعتداء عليه ، بينما كان الإبقاء عليه بصورته الراهنة يعنى استمرار الاضطرابات والمخاطر التى قد تؤدى إلى أسوأ النتائج . وعلى أية حال فقد تمكنت عبقرية أساتذة ضاربى الرمل الذين حفزتهم خطورة الموقف إلى العمل من أن يتغلبوا على تلك العقبة ويتفادوا بالتالى الأخطار المترتبة عليها وذلك عن طريق ردم بئرين فى المعبد كانا يمثلان عينى السلحفاة . واستطاعوا بذلك إلحاق العمى بذلك الحيوان الشرس المزعج ، فلم يعد قادراً على إثارة الشغب والمتاعب .

وقد يلجأ الناس فى بعض الأحوال إلى السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة للتغلب على الفأل السىء وإبطال مفعوله ، وذلك عن طريق المحاكاة وتقليد النتائج المتوقعة ، على أمل أن تخدع هذه العملية القدر المحتوم فيتم استبدال الكارثة الوهمية بالنكبة الحقيقية . وهذا الأسلوب فى خداع الأقدار يستخدم بطريقة منهجية منظمة فى مدغشقر ، حيث يعتقد الناس أن حظ المرء فى الحياة يتأثر بيوم وساعة مولده . فإذا صادف مولده ساعة نحس مثلا كان النحس هو قدره المحتوم إلا إذا أمكن ابعاد الشر — أو نزعه كما يقولون —

عن طريق إيجاد بديل له . وثمة طرق كثيرة متنوعة لتحقيق ذلك . فإذا كان مولد الشخص فى اليوم الأول من الشهر الثانى من السنة (فبراير مثلا) فإن ذلك يعتبر نذيراً بشبوب حريق فى بيته حين يشب هو عن الطوق . ولكى يسبق الزمن فى ذلك ويتجنب هذه الكارثة فإن أصدقاء الطفل يقيمون كوخاً فى أحد الحقول أو مرابض الماشية ويحرقونه ، ويراعون أن تكون الأم وطفلها أثناء ذلك فى الداخل فيقومون بإنقاذهما من الكوخ المحترق بصعوبة قبل أن تأتى عليهما النيران ، وذلك إمعاناً منهم فى أن يكون لتلك التمثيلية تأثير أقرب إلى الحقيقة والواقع . كذلك يعتبر شهر نوفمبر الذى تهطل فيه الأمطار بغزارة شهر الدموع . وعلى ذلك فإن الطفل الذى يولد فى ذلك الشهر إنما يولد للحزن والأسى . ولكى تنقشع الغيوم التى تتجمع فوق مستقبل حياته يتحتم عليه أن يرفع بيديه الغطاء عن إناء به ماء يغلى وأن يحركه حول جسمه حتى تحقق القطرات المتساقطة من الغطاء مصيره وقدره لأنها تحل محل الدموع التى كان مقدراً أن تنهمر من عينيه حين يكبر . وإذا كان القدر يضمر لإحدى الفتيات الصغيرات التى لم تتزوج بعد أن تقوم فى المستقبل بتشييع أبنائها — الذين لم يولدوا بعد أيضا — إلى القبر وأن تراهم يُدفنون أمام عينيها وقد تملكها الحزن والأسى ، فإنها تستطيع أن تُبعد عنها هذه المصيبة بأن تقتل إحدى حشرات النطاط ثم تقوم بتكفينها فى قطعة من القماش وتأخذ فى البكاء عليها مثلما كانت راشيل تبكى أولادها وتنشد لنفسها

السلوى والعزاء ، ثم تتناول عدداً من تلك الحشرات ذاتها فتنزع عنها بعض أطرافها وأجنحتها الزائدة وترصها حول جسد النطاط الميت الملفوف فى الكفن . ويعتبر الطنين الصادر من تلك الحشرات نتيجة للألم والعذاب . وكذلك اختلاجات أعضائها المشوهة بمثابة الصرخات وحركات التوجع التى تصدر من أهل الميت أثناء الجنازة على الميت . وبعد أن يتم دفن النطاط الميت تترك الفتاة تلك الحشرات الأخرى تواصل بكاءها ونحيبها حتى يخلصها الموت من آلامها ، ثم تعقص من جديد شعرها الأشعث المتناثر وتعود أدراجها إلى البيت من القبر بخطوات متثاقلة كما لو كان الحزن قد هدها . إلا أنها تستطيع منذ تلك اللحظة أن تنظر إلى المستقبل فى بهجة وسرور وأمل لترى أبناءها يعيشون من بعدها ، لأنه من غير المعقول أن يدفن المرء أولاده مرتين ويحزن عليهم . وإذا عبس القدر لشخص ما عند مولده واختاره للفقر حليفا له فإنه يستطيع بسهولة أن يبعد عنه شبح الفاقة ، وذلك بأن يشترى اثنتين من اللآلىء الرخيصة التافهة ويدفنهما فى التراب . فالأثرياء وحدهم هم الذين يستطيعون فى هذا العالم الاستغناء عن اللآلىء ورميها .

٣ ـ السحر الاتصالى :

كانت دراستنا قاصرة فى معظمها حتى الآن على ذلك الفرع من السحر التعاطفى الذى أطلقنا عليه اسم السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة . ولقد رأينا أن المبدأ الرئيسى فيه هو أن « الشبيه ينتج

الشبيه » ، وهذا معناه بقول آخر أن المعلول يشبه علته . والفرع الكبير الثانى للسحر التعاطفى هو ما أسميناه بالسحر الاتصالى وهو يقوم على فكرة أن الأشياء المتصلة تظل – حتى بعد أن تنفصل تماما أحدها عن الآخر – فى علاقة تعاطف بحيث إن ما يطرأ على أحدها يؤثر بالضرورة تأثيراً مباشراً على الآخر . وعلى ذلك فالأساس المنطقى للسحر الاتصالى هو وجود نوع من الترابط الخاطىء بين الأفكار كما هو الحال بالنسبة للسحر التشاكلى أيضا . أما الأساس المادى له – إذا أمكن الكلام عن مثل هذا الشيء – فإنه يشبه تماما الأساس المادى للسحر التشاكلى ، وهو وجود وسيط مادى من نوع ما نزعم أنه يقوم بتوحيد وربط الأشياء البعيدة ونقل الانطباعات والتأثيرات من أحدها للاخر على ما يفعل الأثير مثلا فى الفيزياء الحديثة . وربما كان أشهر مثل للسحر الاتصالى هو التعاطف السحرى الذى يُفترض وجوده بين الإنسان وأجزاء جسمه كالشعر والأظافر حتى بعد أن تنفصل هذه الأجزاء عنه بحيث أن وقوع شعر شخص ما أو أظافره فى يد شخص آخر يجعله خاضعا لإرادته مهما بعدت المسافة بينهما . وتشيع هذه الخرافة فى العالم كله ، ولذا فسوف نذكر كثيراً من الأمثلة عنها فيما بعد .

ونحن نعرف أن القبائل الأسترالية تلجأ أثناء حفلات التكريس التى يمر بها أفراد القبيلة من الذكور إلى خلع سن أو أكثر من أسنان الفرد منهم قبل أن يُسمح له بالتمتع بحقوق ومزايا الرجل البالغ

المكتمل الرجولة . وسبب هذا الاجراء غامض وغير مفهوم (١) . ولكن الذى يهمنا هنا هو الاعتقاد باستمرار وجود علاقة التعاطف بين ذلك الصبي وأسنانه بعد خلعها من لثته . ولذا نجد أن بعض القبائل التى تعيش حول نهر دالنج فى نيوساوث ويلز يضعون السن المنزوعة فى لحاء إحدى الأشجار القريبة من النهر أو من إحدى عيون الماء . فإذا نما اللحاء فوق السن أو إذا وقعت السن ذاتها فى فى الماء فإن ذلك يعنى أن الأمور سوف تسير على ما يرام . أما إذا انكشف اللحاء عنها وهاجمتها أسراب النمل فإن الأهالى يعتقدون أن ذلك الصبى سوف يقاسى الشيء الكثير من أمراض الفم . كذلك نجد عند المورينج Murring وغيرهم من القبائل التى تعيش فى المنطقة ذاتها أن السن المنزوعة كانت تسلم فى بداية الأمر لأحد الشيوخ فيحيطها بكثير من العناية والرعاية ويحتفظ بها لبعض الوقت ثم يعيطها لزعيم آخر من زعماء القبيلة ؛ وتظل السن تتنقل من زعيم لآخر إلى أن تمر على

---

(١) تشيع عادة خلع أسنان الذكور المراهقين أثناء حفلات تكريسهم في كثير من الشعوب والقبائل « البدائية » وبخاصة فى افريقيا وفى السودان الجنوبى بالذات كما هو الحال عند النوير Nuer وقد تعرض عالم الانثربولوجيا البريطانى الاستاذ ايفانز بريتشارد E.E. Evans-Pritchard لهذه العادة أثناء دراسته لنظام طبقات العمر عند النوير مع غيرها من العادات والممارسات التى تؤلف فى مجموعها شعائر التأهيل والتكريس هناك . ويذكر ايفانز بريتشارد من ضمن الاسباب التى يتذرع بها النوير لخلع أسنان الشاب أثناء تكريسه الرغبة فى أن يبدو فمه مثل فم الضبع ، علامة على انه أصبح من من المحاربين الذين يحق لهم أن يقوموا بالهجمات والاغارات على القبائل المعادية المجاورة (أ.ز) .

المجتمع المحلى كله وتصل إلى والد الصبى ومنه إلى الصبى نفسه فى آخر الأمر . ولكن مهما تعددت الأيدى التى تتناولها بهذه الطريقة فقد كانوا جميعا يحرصون أشد الحرص على ألا توضع فى مكان به أى مادة من المواد التى يستعين بها الأهالى هناك فى السحر حتى لا يتعرض الصبى لكثير من الأخطار . ولقد حدث أن عهدت هذه القبيلة للدكتور هاويت Howitt ببعض الأسنان التى اقتلعت من عدد من الفتيان أثناء إحدى حفلات التكريس وطلب إليه شيوخ تلك القبيلة فى حزم وتوكيد أن يحفظها فى مكان آمن ، وألا يضعها فى كيس كانوا يعرفون أنه يحتفظ فيه ببعض بلورات الكوارتز وذلك حتى لا ينتقل سحر تلك البلورات إلى الأسنان فيصيب الصبية أنفسهم الأذى . وبعد مرور ما يقرب من عام على عودة الدكتور هاويت من الاحتفال زاره أحد رؤساء القبيلة بعد أن قطع فى رحلته ما يقرب من مائتين وخمسين ميلا لكى يسترد منه تلك الأسنان ، وذكر له أنه أوفد فى تلك المهمة لأن أحد الفتية وقع فريسة للمرض فاعتقد الناس أن الأسنان ذاتها قد لحقها بعض الأذى الذى انتقل إلى الفتى نفسه . ومع أن هاويت أكد له أنها محفوظة فى أمان فى صندوق خاص وأنها بعيدة بذلك عن التعرض لتأثير أى جوهر سحرى مثل بلورات الكوارتز فقد رفض الرجل أن يعود إلى موطن قبيلته إلا بعد أن استعاد الأسنان ولفها فى حرص وعناية لكى يخفيها تماما .

كذلك يحرص الباسوتو Basutos على إخفاء أسنانهم المنزوعة حتى لا تقع

فى أيدى بعض الكائنات الأسطورية التى تحوم بين القبور والتى تستطيع أن تلحق الأذى بصاحب تلك الأسنان عن طريق التأثير السحرى. ولقد حدث منذ خمسين سنة تقريبا أن اعترضت إحدى الخادمات فى سسكس Sussex على إلقاء أسنان أحد الأطفال بعد نزعها على أساس أنه لو عثر عليها أحد الحيوانات أو عض عليها بأنيابه فسوف تشبه أسنان الطفل الجديدة أنياب ذلك الحيوان. وقد استشهدت على صدق ذلك بما حدث لسيدها السابق وكان يدعى سيموند. فقد كانت تبرز من فكه العلوى سن كبيرة جدا تشبه سن الخنزير، وكان هو نفسه يؤكد أن أمه هى المسئولة عن ذلك التشويه لأنها ألقت إحدى أسنانه حين سقطت فى زريبة الخنازير بدون تفكير أو روية. وقد أدت هذه الاعتقادات وأمثالها إلى ظهور بعض الممارسات التى تهدف – تبعاً لمبادىء السحر التشاكلى – إلى تعويض الأسنان القديمة بأسنان أخرى أفضل. وعلى ذلك نجد أن الناس فى كثير من أنحاء العالم يميلون إلى وضع أسنان الطفل حين تسقط فى مكان ما بحيث يسهل أن يعثر عليها فأر، على أمل أن تكتسب الأسنان الجديدة – بفضل التعاطف الذى يستمر قائماً بين الأسنان وصاحبها القديم – نفس القوة والصلابة اللتين تتمتع بهما أسنان القوارض. ويقال إن معظم الناس فى ألمانيا مثلا يعتقدون بأنه ينبغى على المرء حين تسقط إحدى أسنانه أن يضعها فى جحر فأر، وأن وضع أسنان اللبن بالذات فى ذلك المكان يجنب الطفل وجع الأسنان حين يكبر.

كذلك يضع الألمان الأسنان المنزوعة خلف الموقد أو يقذفون بها من فوق رؤوسهم وراء ظهورهم يقولون « أيها الفأر ، أعطنى سنك الحديدية الصلبة وخذ بدلا منها سنى المصنوعة من عظم » . ويعتقدون أن ذلك كفيل بأن يحافظ على أسنان الشخص على الدوام . وتوجد مثل هذه الممارسات خارج أوربا أيضاً بل وفى أماكن بعيدة جدا عنها مثلما يحدث فى راراتونجا Rara-tonga فى المحيط الهادى حين يردد الناس فى العادة الدعاء التالى :

« أيها الفأر الكبير .. أيها الفأر الصغير
هذه سنى القديمة .. خذاهـــــــــــــا
وأعطيانى بدلا منها سناً أخرى جديـــــــدة »

ثم يلقى بالسن بعد ذلك فوق سطوح البيت المغطى بالقش حيث تقيم الفئران فى العادة جحورها فى تلك الأماكن المهجورة . وليس من شك فى أن السبب فى توجههم بذلك الدعاء إلى الفئران بالذات هو أن أسنان الفئران هى أقوى أنواع الأسنان التى يعرفها الأهالى هناك .

ومن الأجزاء الأخرى التى يعتقد كثير من الناس باستمرار وجود الصلة التعاطفية بينها وبين الجسم بعد أن تنقطع كل الروابط الفيزيقية بينهما حبل السرة وكل ما ينزل من جوف المرأة بعد الولادة بما فى ذلك المشيمة . والواقع أن الناس يرون أن هذه الصلة تتمتع

بدرجة من القوة والمكانة بحيث تحدد أقدار الأفراد وحظوظهم فى الحياة ونصيبهم من الخير أو الشر . ومن هنا كان الاعتقاد بأن المحافظة على الحبل السرى والمشيمة والعناية بهما تؤثران تأثيراً مباشراً فى نجاح الشخص فى حياته ، بينما تعريضهما للتلف أو الضياع يكون له تأثير مماثل على صاحبهما . ومن هنا أيضاً كان الاعتقاد الشائع عند بعض قبائل غرب استراليا من أن إجادة الرجل للسباحة أو فشله فيها يتوقف على إذا ما كانت أمه قد ألقت بحبله السرى فى الماء بعد الولادة أو لم تفعل . ويعتقد الأهالى الوطنيون الذين يقيمون على ضفاف نهر بنيفـــاذر Pennefather فى كوينزلاند بأن جزءا من روح الطفل تظل ساكنة فى المشيمة ، ولذا فإن جدة الطفل تأخذ المشيمة بعد الولادة وتدفنها فى الرمال وتضع على مكان الدفن علامة تميزه كأن تغرز فى الأرض بعض الفروع فى شكل دائرى ثم تربط أطرافها العلوية بعضها إلى بعض بحيث تكون فى نهاية الأمر على شكل مخروط ، حتى إذا جاء آنجيا Anjea — وهو الكائن الذى يسبب الحمل عند النساء عن طريق وضع أطفال من الطين فى أرحامهن — أمكن التعرف على موضع الدفن بسهولة فينقل الروح إلى أحد الأماكن التى يكثر التردد عليها أو التى يسكنها مثل الأشجار أو الفجوات التى تتخلل الصخور أو إحدى البحيرات فتظل الروح هناك لمدة سنوات حتى يعود إليها مرة أخرى ليضعها فى جسم طفل آخر لكى تولد من جديد فى هذا العالم . وفى بوناب Ponape وهى إحدى

جزر الكارولين ، يوضع الحبل السرى فى إحدى الأصداف ويعامل بطريقة تهدف إلى إعداد الطفل ذاته وتهيئته على أكمل وجه للتكيف مع الحرفة التى اختارها له أبواه . فإذا كانا يريدان مثلا أن يشتغل ابنهما متسلقاً للأشجار فإنهما يلقان الحبل السرى فى أعلى الشجرة وهكذا . ويعتبر سكان جزر كاى Kei الحبل السرى أخا أو أختا للطفل،ولذا فإنهم يعلقونه على فروع إحدى الأشجارحتى يستطيع أن يرعى من مكانه شئون الطفل . وعند الباتاك Bataks فى سومطرة — وكذلك عند كثير من الشعوب الأخرى فى نفس المنطقة — تعتبر المشيمة هى الأخ الأصغر أو الأخت الصغرى للطفل تبعاً لجنس الطفل ذاته ولذا فإنها تدفن أسفل البيت . ويرى الناس للمشيمة صلة قوية بسعادة الطفل أو شقائه ، وأنها فى حقيقة الأمر مركز الروح المفارقة (١) القابلة للانتقال والتجول والتى سوف نعود للكلام عنها فيما بعد . ويؤكد باتاك الكارو أن للرجل روحين وأن تلك

---

(١) «الروح المفارقة» اصطلاح كثير الشيوع فى الكتابات الانثربولوجية القديمة وبخاصة كتابات القرن التاسع عشر التى يتبع أصحابها نظرية الانيميزم Animism أو النظرية الحيوية التى نرى أن كل مافى الوجود يتمتع بنصيب من الحياة بشكل أو بآخر . ويذهب أصحاب هذه النظرية الى ان الرجل البدائى يعتقد بوجود «أنواع» كثيرة من الارواح وان الانسان يملك أكثر من روح واحدة لكل منها خصائصها ووظائفها ، وان الروح المفارقة مثلا لها القدرة على مفارقة الجسد وهو نائم والتجول والاتصال بغيرها من الارواح وأن هذا النشاط الذى تقوم به أثناء نوم صاحبها هو الذى يبدو له على شكل احلام . انظر فى ذلك كتابنا عن «تايلور» — المرجع السابق ذكره (أ . ز)

الروح التي تعيش مع المشيمة أسفل البيت هي روحه الحقيقية أي الروح التي تنجب الأطفال .

ويعتقد الباجاندا أن كل شخص له قرين double يولد معه ، ويربطون ربطاً قوياً بين هذا القرين والمشيمة التي يعتبرونها طفلا آخر. وتقوم الأم بدفن المشيمة عند جذور إحدى أشجار الطلح التي تصبح بذلك شجرة مقدسة إلى أن يتم نضج ثمارها فتقطعها ويقام عليها ولمية مقدسة للعائلة . وعند الشيروكي Cherokees يدفن الحبل السرى للطفل الأنثى أسفل الهاون الذى تدق فيه الحنطة لكى تصبح الفتاة خبازة ماهرة حين تكبر ، بينما على العكس من ذلك يعلق الحبل السرى للطفل الذكر فوق إحدى الأشجار فى الغابة لكى يصبح الطفل صيادا . ولقد كان الإنكا (١) فى بيرو يحفظون الحبل السرى للطفل

---

(١) الانكا فى الاصل هم حكام بيرو القدماء ، وكانت امبراطوريتهم تعتبر من اكبر الامبراطوريات ، التى كونها الهنود الحمر وارتبطت بها حضارة متقدمة فى المرتفعات المغربية من أمريكا الشمالية . وقد ظهرت تلك الامبراطورية حوالى القرن الحادى عشر حتى سقطت عام ١٥٣٣ على أيدى الغزاة الاسبان ، ويبدو أنها امتدت الى ماوراء حدود بيرو وحتى شملت أجزاء من اكوادور وشيلى وبوليفيا والارجنتين ولم يلبث اسم الانكا أن أطلق على كل القبائل التى دخلت فى تلك الامبراطورية وليس على العائلة الحاكمة وحدها . وكانت لهم لغـــة تعـرف باسـم كيشوا Quechua ولاتزال هى اللغة الوطنية . وكان للمملكة زعيم يعرف باسم سابا Sapa ولها قضاة متخصصون يعينهم الرئيس نفسه . وكان مجتمع الانكا مجتمعا اشتراكيا تحرم فيه ملكية الارض ولذا كان الناس يمنحون مساحات من الارض تزيد أو تنقص حسب حاجتهم . وتشتهر حضارة الانكا بمبانيها الضخمة التى تبنى من كتل حجرية صماء كما هو الحال على الخصوص فى معابد الشمس عندهم . (ا .)

الذكر بعناية فائقة ثم يعطونه للطفل حين يمرض لكى يمصه . كذلك كان سكان المكسيك الأقدمون يعطون حبل الولد السرى لجنودهم ومحاربيهم ليدفنوه فى ميدان المعركة حتى يشب الولد شجاعاً ومحباً للحرب . بينما كانوا يدفنون حبل البنت السرى بجوار الموقد فى البيت على أمل أن يساعد ذلك على تقوية الميل عندها لأداء الأعمال المنزلية وإتقان الطبخ والخبز .

وحتى فى أوربا نفسها لا يزال كثير من الناس يعتقدون أن مصير الشخص مرتبط إلى حد ما بحبله السرى أو بمشميته . ومن هنا كان الناس فى المناطق المتاخمة من بافاريا لنهر الرين يلفون الحبل السرى فى قطعة قماش من التيل القديم ويحفظونه لفترة معينة من الزمن يقطعونه بعدها إلى أجزاء صغيرة أو يخزونه عدة مرات تبعاً لما إذا كان الطفل ذكرا أو أنثى حتى يشب الطفل صانعاً ماهراً أو خياطة حاذقة . وفى برلين تقوم القابلة (الداية) فى العادة بتسليم الحبل السرى بعد تجفيفه إلى والد الطفل مع توكيد التنبيه عليه بضرورة المحافظة عليه والاعتناء به كى ينمو الطفل ويكبر وينجو من الأمراض . كذلك يحرص الناس فى بوس وبيرش Beauce & Perche على عدم إلقاء الحبل السرى فى الماء أو النار حتى لا يموت الطفل غريقا أو محروقا .

وبناء على ذلك كله فإنه كثيراً ما ينظر إلى الحبل السرى أو إلى المشيمة على العموم كما لو كان حيا ، ويعتبر بذلك أخا أو أختا للوليد،

أو قد يعتبر بمثابة شيء مادى تسكن فيه الروح الحارسة للطفل أو حتى جزء من روح الطفل نفسه . وزيادة على ذلك فإن العلاقة التعاطفية التي يفترض وجودها بين الشخص ومشيمته أو حبله السرى تظهر بوضوح وجلاء فى العادة الشائعة لدى كثير من الشعوب والتى تتمثل فى معالجة المشيمة أو الحبل السرى بطرق وأساليب يعتقد أنها تؤثر فى خلق الشخص وعمله وحياته كلها ، كأن تساعده على السرعة والمرونة إن كان متسلقا للأشجار ، أو تمنحه القوة إن كان سباحا ، أو تكسبه المهارة والدقة إن كان صياداً أو تهبه الشجاعة إن كان جنديا ، كما تمنح المرأة الحذق والمهارة فى أعمال الحياكة والخبز وهلم جرا . وعلى ذلك فإن المعتقدات والممارسات المتعلقة بالمشيمة ، وإلى درجة أقل بالحبل السرى ، تشبه إلى حد كبير جداً النظرية الشائعة عن الروح المفارقة أو الروح الخارجية والعادات التى تقوم عليها تلك النظرية . وعلى ذلك فليس من الإسراف فى شيء أن نذهب إلى القول بأن التشابه ليس مجرد عملية من عمليات الصدفة العابرة ، لأن المشيمة تقدم لنا أساسا فيزيقيا (وإن لم يكن بالضرورة هو الأساس الوحيد) لنظرية الروح الخارجية والممارسات المتعلقة بها . ولكننا نرجىء الكلام عن هذا الموضوع إلى موضع آخر من الكتاب .

ويتمثل أحد التطبيقات الغريبة لنظرية السحر الاتصالى فيما يتصوره كثير من الناس من وجود علاقة قوية بين الشخص الجريح ومصدر الجرح بحيث أن كل ما يطرأ على ذلك المصدر أو ينشأ عنه يكون له

بالضرورة تأثير مماثل فى الشخص المريض نفسه ، سواء أكان ذلك التأثير مفيداً أو ضاراً . ويذكر لنا بليني Pliny أنه لو أصاب شخص ما شخصا آخر بجراح ثم شعر بالأسى لما فعل فما عليه إلا أن يتفل على اليد التى سببت الجرح فيزول الألم فى الحال.

وفى ميلانيزيا يبذل أصدقاء الرجل الجريح جهدهم ليحصلوا على السهم الذى أصابه ثم يضعونه فى مكان رطب أو يدفنونه بين أوراق الشجر الندية فيخفف ذلك من التهاب الجرح ويبرأ بعد فترة وجيزة من الزمن ، وذلك فى الوقت الذى يعمل فيه العدو الذى أطلق السهم كل ما فى وسعه لكى يزيد الجرح سوءاً كأن يشرب هو وأصدقاؤه السوائل والأشربة الساخنة الملتهبة أو يمضغوا الأوراق الحريفة ، أملا فى أن يزيد ذلك من التهاب الجرح وتهيجه . بل إنهم يضعون القوس أيضا بالقرب من النار لكى يحققوا نفس الغاية . كذلك يحرص الناس على جعل وتر القوس مشدوداً ويقرعون عليه من حين لآخر فيزداد ألم المصاب من توتر الأعصاب وتقلصات التتانوس . ويقول بيكون Bacon إنه كثيراً ما يقال إن تزييت السلاح الذى تسبب فى الجرح أو دهنه يساعد على التئام الجروح ذاتها. ولكن أهل الخبرة يقولون — وإن كنت أنا نفسى لا أميل إلى تصديق ما يقولون — إنه فى إجراء هذه التجربة لابد من مراعاة بعض الأمور الهامة . وأول هذه الأمور أن يصنع الدهان ذاته من عدد من العناصر المختلفة لعل أغربها وأندرها هو الطحالب أو العفن الذى يظهر على جمجمة شخص مات ولم يدفن

بعد موته . وكذلك الدهون المستخلصة من أنثى خنزير وأنثى دب ماتا أثناء الولادة . ولم يكن ذلك الدهان الثمين المركب من هذه العناصر وغيرها يوضع - كما يقول ذلك الفيلسوف - على الجرح نفسه بل على السلاح ، وأن هذا هو ما كان يحدث حتى فى الحالات التى يوجد المصاب فيها فى مكان بعيد جداً ولا يعرف عنه شيء . كذلك يذكر لنا أنه أثناء إجراء إحدى هذه التجارب حاول البعض إزالة الدهن عن السلاح بدون علم المصاب فكانت النتيجة أن شعر المريض فى الحال بموجة عنيفة من الألم لم تلبث أن اختفت بعد أن أعيد دهن السلاح من جديد . ويؤكد الناس من ناحية أخرى أنه إذا استحال الوصول إلى السلاح الذى أحدث الجرح أو الإصابة فإنه يمكن أن يوضع فى الجرح أى أداة أخرى من الحديد أو الخشب تشبه السلاح ذاته بحيث يدمى الجرح ثم تدهن تلك الأداة بذلك الدهان فيكون له نفس الأثر والمفعول . ولا تزال هذه الأنواع من الأدوية التى يرى بيكون أنها تستحق الاهتمام شائعة للآن فى المقاطعات الشرقية من انجلترا . ففى سفولك Suffolk مثلا إذا جرح شخص نفسه بالمطواة المعقوفة أو المنجل فإنه يحرص على أن يحتفظ بالسلاح لامعا ، كما يدهنه بالزيت من حين لآخر حتى يحفظ الجرح من التقيح . كذلك إذا دخلت شوكة أو « شجيرة » - كما يقول - فى يده فإنه يدهن تلك الشوكة بعد إخراجها بالزيت أو الدهن . وقد زار رجل ما أحد الأطباء ليعرض عليه يده الملتهبة نتيجة لدخول شوكة فيها بينما كان

يصلح سياج مزرعته . فلما ذكر له الطبيب أن يده متقيحة قال له الرجل : « لم يكن ينبغي أن يحدث ذلك لأنني قمت بتزييت الشوكة جيدا بعد أن أخرجتها من الجرح » . وحين تجرح قدم الحصان نتيجة لدخول مسمار فيها ، فالعادة أن يحتفظ السائس في سفولك بالمسمار ويعكف على تنظيفه وتزييته كل يوم حتى لا يتقرح الجرح . وبالمثل فإن العمال في مقاطعة كمبردج يعتقدون أنه إذا دخل مسمار في قدم حصان فإن الأمر يستلزم دهن المسمار بالشحم أو الزيت ووضعه في مكان آمن وإلا استحال شفاء الحصان . ولقد حدث منذ سنوات أن استدعى أحد الجراحين البيطريين لعلاج حصان أصيب ببعض تمزقات في جسمه نتيجة لاحتكاكه بمفصلات بوابة إحدى المزارع . وحين وصل الطبيب إلى المزرعة وجد أن الناس لم يفعلوا أى شيء على الإطلاق للحصان المجروح ، بينما كان أحد الرجال يعمل بجد ومثابرة في نزع المفصلات من عامود البوابة لكي يقوم بدهنها وتزييتها ثم الاحتفاظ بها في مكان آمن ، وذلك تبعا لإيمان حكماء كمبردج من أن ذلك العمل يؤدى إلى سرعة شفاء الحصان . كذلك يعتقد القرويون في اسكس Essex أنه إذا طُعن رجل بسكين فإنه يجب لشفائه تشحيم السكين ووضعها على السرير الذى يرقد عليه المريض . وينصح الناس في بافاريا بأن تغمس قطعة من التيل في الشحم ثم تربط إلى حد الفأس الذى تسبب في الجرح مع مراعاة أن يتجه الجانب الحاد إلى أعلى ، وسوف يلتئم الجرح بمجرد أن يجف

الشحم على السلاح ، وبالمثل فإن الناس فى جبال هارتز Harz يقولون إنه حين يجرح شخص نفسه فإنه يجب عليه أن يدهن السكين أو المقص بالدهن و أن يضعه بعد ذلك فى مكان جاف باسم الأب والابن والروح القدس ، وسوف يلتئم الجرح حين يجف الدهن أيضا . وعلى أية حال فإن الكثيرين من الناس فى ألمانيا يرون أنه يتعين على المرء أن يضع السلاح الذى يجرحه فى مكان رطب من الأرض ، على أساس أن الجرح يلتئم حين يصدأ السلاح ، بينما ينصح آخرون فى بافاريا بدهن الفأس أو أى سلاح آخر بالدم ثم وضعه تحت طنف البيت لنفس الغاية .

هذا النوع من التفكير الذى يشترك فيه أهل الريف فى انجلترا وألمانيا من ناحية والشعوب الهمجية فى مالينيزيا وأمريكا من ناحية أخرى (١) يذهب خطوة أبعد من ذلك عندالسكان الأصليين فى وسط

---

(١) يظهر هنا بوضوح منهج فريزر فى المقارنة من ناحية وفكرته عن تطور المجتمع البشرى من ناحية أخرى ، فالمقارنة عنده كما هى عند غيره من علماء الانتربولوجيا فى القرن التاسع عشر تعنى جمع المعلومات المتشابهة من مختلف المجتمعات والشعوب بصرف النظر عن اختلافات الزمان والمكان والانماط الثقافية والابنية الاجتماعية ، بينما كانت النظرة التطورية السائدة بين علماء ذلك القرن ترى أن المجتمعات الانسانية المختلفة القائمة حينذاك تمثل مختلف المراحل التطورية التى مر بها المجتمع الانسانى فى عمومه خلال تاريخه الطويل . ومن هنا فان فريزر يربط بين أهل الريف فى المانيا وبريطانيا من ناحية والشعوب الهمجية فى مالينيزيا على اعتبار انهم يمثلون – من بعض الوجوه على الاقل – مرحلة تطورية واحدة ، وهى مرحلة ارقى من تلك التى يمثلها اهالى وسط =

أستراليا الذين يعتقدون أنه يتعين على أقارب الجريح الأقربين تحت ظروف معينة أن يغطوا أجسامهم تماما بالشحم ويفرضوا قيوداً معينة على طعامهم وأن يتصرفوا بطريقة معينة أيضا فى مختلف المناسبات حتى يضمنوا شفاء المريض . وعلى هذا الأساس، فحين يتم ختان أحد الصبية فإن الأم تمتنع عن أكل لحم الأوبسوم opossum (١) ولحم نوع معين بالذات من العظايا (السحالى) والثعابين والدهون بمختلف أنواعها لكى يلتئم الجرح بسرعة ولا يتأخر شفاء ابنها . كذلك تقوم الأم بتزييت عصا الحفر (٢) التى تستخدمها ولا تدعها تغيب عن بصرها قط ، لدرجة أنها تضعها بجانب رأسها بالليل حين تنام ولا تسمح لأحد غيرها حتى بأن يلمسها . يضاف إلى ذلك أنها تدلك جسمها كل يوم بتلك الدهون رجاء أن يساعد ذلك بشكل أو بآخر على التئام الجرح . ويتخذ هذا المبدأ صورة أكثر تهذيبا وتطوراً عند الفلاحين الألمان ؛ إذ يقال إنه حين يكسر ساق

= استراليا الاصليون الذين يذهبون فى تصوراتهم الخاطئة للعلاقات بين الاشياء الى أبعاد لا نجدها عند الملانيزيين أو فلاحى أوربا ، وذلك على اساس انه كلما تقدم المجتمع الانسانى خضع الفكر البشرى لمحكات ومعايير ومقاييس منطقية أكثر دقة ، كما ان ترابط الافكار وتداعى المعانى أصبح أقرب الى الصحة والصدق والواقع . (أ . أ) .

(١) الاوبوسوم أحد الحيوانات الثديية الكيسية .

(٢) المقصود بعصا الحفر Digging stick العصا التى يستخدمها اهالى استراليا الاصليون وكثير من الشعوب البدائية فى افريقيا وغيرها فى نبش الارض لاستخراج الدرنات والجذور المدفونة فى باطنها ، وتعتبر هناك الاداة الوحيدة لتفليح الارض . (.)

أحد الخنازير أو أحد الأغنام فإن الفلاح فى المناطق المتاخمة للراين من بافاريا يربط ساق أحد الكراسى بالضمادات والأربطة بنفس الطريقة التى تتبع فى تجبير الكسور ويمتنع عن الجلوس عليه أو نقله من موضعه أو حتى لمسه لبضعة أيام خشية أن يتسبب ذلك فى زيادة آلام الحيوان المصاب وتأخر شفائه . وواضح فى هذه الحالة الأخيرة أننا قد خرجنا تماما من نطاق السحر الاتصالى إلى مجال السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة . فساق الكرسى التى تعالج بدلا من ساق الحيوان لا تنتمى بأى حال إلى ذلك الحيوان كما أن ربطها بالأربطة والضمادات هو مجرد تمويه لطريقة العلاج التى قد تتبعها الجراحة العلمية فى علاج المريض الحقيقى .

وربما كانت العلاقة التعاطفية المفروض وجودها بين الرجل والسلاح الذى جرحه ناشئة من فكرة أن الدم الذى يلوث السلاح يستمر فى الإحساس والتجاوب مع الدم الذى يسرى فى جسم الجريح . ولمثل هذا السبب تحرص جماعات البابوان Papuans فى توملیو Tumleo — وهى إحدى الجزر القريبة من غينيا الجديدة — على أن يلقوا فى البحر بالضمادات الملوثة بالدماء بعد أن تكون قد استخدمت فى تضميد الجروح وذلك حتى لا تقع فى أيدى أعدائهم فيستخدموها فى ممارسة السحر للإضرار بهم وإيذائهم . ولقد حدث ذات مرة أن جاء رجل إلى مقر إحدى الإرساليات التبشيرية هناك والدم ينزف من فمه بينما كانت زوجته تتبع خطواته وتبذل كثيراً من الجهود المضنية

لكى تجمع كل الدم الذى نزف منه لإلقائه فى البحر . وعلى الرغم من كل ما يبدو من شذوذ هذه الفكرة وغرابتها بالنسبة لنا فقد تكون أقل غرابة من الاعتقاد فى استمرار التعاطف السحرى بين الشخص وملابسه بحيث أن ما يحدث للملابس ينعكس بالضرورة على صاحبها مهما كان بعيداً عنها فى ذلك الوقت . مثال ذلك أن الساحر فى قبيلة وتجوبالوك Wotjobaluk فى فيكتوريا قد يحصل على قطعة من فراء الأوبسوم التى يستخدمها أحد الأشخاص ويشويها ببطء على النار فيشعر صاحبها بالمرض بداخله أثناء ذلك . فإذا أمكن إقناع الساحر بأن يوقف مفعول سحره فإنه يسلم قطعة الفراء إلى أصدقاء المريض ويطلب إليهم أن يضعوها فى الماء كما لو كانوا يطفئون النار . وبمجرد أن يتم ذلك يشعر المريض بالراحة والهدوء حتى يشفى تماما . وفى جزيرة تانـّا Tanna – وهى إحدى جزر الهبريد الجديدة New Heprides يحاول الرجل الذى يحمل ضغنا لآخر ويتمنى موته أن يحصل على أى قطعة من القماش تكون قد لامست جسم غريمه وعلق بها شىء من العرق . فإذا أفلح فى ذلك فإنه يحكها جيداً بأوراق وفروع شجرة معينة بالذات ثم يلفها كلها معا على شكل لفافة أسطوانية ويضعها فى النار لكى تحترق ببطء . وحين تبدأ النار تلتهم تلك اللفافة يقع ذلك الغريم فريسة للمرض ثم يموت بمجرد أن تتحول اللفافة إلى رماد . ومهما يكن من شىء فإن التعاطف السحرى فى هذا النوع الأخير من الممارسات لا يقوم بين الرجل وقطعة

القماش بقدر ما يقوم بينه وبين العرق الذى يفرزه جسمه ، وإن كانت هناك حالات أخرى مماثلة يتبين منها أن الملابس قد تكفى وحدها لتمكين الساحر من النيل من ضحيته .فالساحرة فى ثيوكريتوس Theocritus (١) مثلا تصهر تمثالا أو قطعةمن الشمع لكى(يذوب) فى حبها حبيبها الغادر ، ولا تنسى فى الوقت نفسه أن تلقى فى النار بعض الخيوط التى سقطت من عباءته أثناء وجوده فى منزلها . ويقول الناس فى بروسيا أنه إذا أفلح اللص فى الافلات والهرب فإن أفضل ما يمكن عمله هو الحصول على أى شىء يكون قد سقط من ملابسه أثناء فراره و (ضرب) ذلك الشىء بقسوة وعنف فيقع اللص نفسه فريسة للمرض . ويبدو أن هذه مسألة شائعة واعتقاد راسخ فى أذهان عامة الناس هناك . فمنذ ما يقرب من ثمانين أو تسعين سنة اكتشف الناس فى منطقة قريبة من برند Perend رجلا يحاول سرقة بعض عسل النحل ولكنه أفلت تاركا معطفه وراءه . وحين سمع اللص أن صاحب العسل ينوى أن يمزق المعطف إربا للانتقام منه استولى عليه الرعب الذى أفقده الحركة حتى مات .

---

(١) من اهم الشعراء اليونان الذين ارتبطوا بما يعرف باسم « شعر الرعاة » . ظهر فى القرن الثالث قبل الميلاد ، وهو فى الاصل من صقلية وقد عاش بعد ذلك فى الاسكندرية وكان شاعر البلاط فى عهد بطليموس الثانى (فيلادلفوس) . ويعتبره كثير من مؤرخى الآداب القديمة منشىء الشعر الرعوى كفرع متميز فى الادب اليونانى القديم وان الشعراء الذين جاءوا من بعده وتغنوا بالاناشيد الرعوية من امثال فرجيل فى الادب اللاتينى كانوا مجرد مقلدين . من اهم اناشيده الرعوية انشودة ، يصور فيها الحياة فى الاسكندرية على ايامه . (٠)

وليس من الضرورى أن يتم السحر التعاطفى فى كل الحالات عن طريق الملابس أو بعض أجزاء الجسم بعد انفصالها عنه ، إذ كثيراً ما يستعان فيه بالآثار التى يطبعها الجسم على الرمل أو التراب . ويتمثل هذا بوضوح فى الخرافة الشائعة فى كل أنحاء العالم من أنه يمكن إلحاق الأذى بأقدام الشخص عن طريق الأثر الذى تتركه قدماه فى الأرض. فأهالى جنوب شرق استراليا مثلا يعتقدون بأنه فى الإمكان إصابة الشخص بالعرج إذا غرزت بعض الشظايا الحادة من الكوارتز أو الزجاج أو العظم أو الفحم الحجرى فى آثار قدميه. وكثيراً ما تنسب الآلام الروماتيزمية عندهم إلى هذا السبب . ولقد سأل الدكتور هاويت ذات مرة رجلا يعرج بشكل ملحوظ فى تاتونجولانج Tatungolung عما أصابه فأجابه بأن شخصا ما قد وضع (قارورة) فى قدمه . وكان الرجل يعانى فى حقيقة الأمر من الروماتيزم ولكنه كان يتصور أن أحد أعدائه تعرف على آثار قدميه فى الأرض فغرز فيها قطعة زجاج من قارورة مكسورة فانتقل مفعولها السحرى بالتالى إلى أقدامه .

والواقع أن هذه الممارسات تشيع فى كثير من أنحاء أوربا ذاتها. ففى مكلنبرج Mecklenburg مثلا يسود الاعتقاد بأن غرز مسمار فى الأثر الذى تتركه القدم يصيب صاحبها نفسه بالعرج ، وإن كان البعض يشترطون لذلك أن يكون المسمار ذاته منزوعا من نعش شخص ميت . وكثيراً ما يلجأ الناس فى بعض أنحاء فرنسا إلى هذه

الطريقة لإيذاء أعدائهم . ويروى عن إحدى العجائز التى كانت تتردد على ستو Stow فى سفولك حيث كانت تمارس السحر والشعوذة أنه حين كان شخص ما يسير خلفها ثم يغرز مسمارا أو سكينا فى آثار قدميها فى التراب فإنها كانت تقف فى الحال فى مكانها فلا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة حتى ينزع المسمار أو السكين . وعند السلاف الجنوبيين تحاول الفتاة أن تجمع التراب الذى انطبعت فيه آثار أقدام الرجل الذى تعشقه ثم تضعه فى آنية الزهور وتزرع فيه إحدى أزهار القطيفة الذهبية (المارجولد marigold) — وهى من الزهور التى لا تذبل أبداً — أملا فى أن ينمو حبها دائما فى قلبه فلا يذبل أبداً مثلما تنمو القطيفة الذهبية وتزدهر . وينتقل مفعول هذه التعويذة الغرامية إلى الرجل عن طريق التراب الذى داس عليه . ولقد كان الديماركيون القدامى حين يريدون إبرام أحد الاتفاقات أو المعاهدات يلجئون إلى طريقة ترتكز فى أساسها على نفس فكرة العلاقة التعاطفية بين الرجل وآثار قدميه . فكان الأطراف المعنيون يسكبون بعض قطرات من دمائهم على آثار أقدام بعضهم بعضا كضمان للإخلاص والولاء . ويبدو أن مثل هذه الخرافات كانت تشيع عند الإغريق القدماء الذين كانوا يعتقدون أنه لو داس حصان على الآثار التى تتركها أقدام الذئب فى الأرض تخدرت أقدام الذئب نفسه ، كما كان يعزى إلى فيثاغورس أنه كان ينهى الناس عن غرز المسامير أو السكاكين فى الآثار التى تتركها أقدام الآخرين فى التراب .

ولقد كان الصيادون فى كثير من أنحاء العالم يأخذون هذه الخرافة ذاتها فى اعتبارهم ويستغلونها فى التغلب على القنيصة ، فكان الصياد الجرمانى مثلا يغرز مسماراً منزوعا من نعش فى الأثر الذى يتركه الحيوان الذى يطارده ، اعتقاداً منه أن ذلك سوف يعطل الحيوان عن الهرب . كذلك يلقى أهالى ڤيكتوريا الأصليون بعض الجمرات الملتهبة فى الطرق والمسارب التى تسالكها الحيوانات حين يطاردونها ، بينما يلقى الصيادون عند الهوتنتوت (١) Hottentot فى الهواء بقبضة من الرمال يأخذونها من مواطىء أقدام الحيوانات اعتقاداً منهم أن ذلك سوف يقيد حركتها ويمنعها من الهرب . ولقد كان من عادة هنود [طومسون أن يضعوا التعاويذ السحرية فى طريق الغزلان الجريحة ويرون أنه ليس ثمة ما يدعوهم بعد ذلك إلى متابعة الحيوان فى ذلك اليوم على الأقل ، لأن التعويذة سوف تمنعه من الهرب أو حتى الابتعاد ، وأنه لن يلبث أن يموت . وبالمثل كان هنود الأوجبواى يضعون « الدواء – على حد تعبيرهم – فى طريق

(١) من الشعوب الهامة فى جنوب افريقيا ، وينتمون مع البوشمن الى نفس السلالة ونفس الثقافة وان كانت ثقافتهم خضعت لكثير من التغيير بعد اتصالهم بعدد من الشعوب الاخرى . ويمثل الهوتنتوت على العموم احدى المراحل الدنيا من التطور الاجتماعى .. فهم يعتمدون فى معاشهم فى الاغلب على قنص الحيوان ، ولذا ينقسمون الى عدد من الزمر الصغير حتى يسهل عليهم التنقل والحركة وراء الصيد . ومع ان لكل زمرة من هذه الزمر رئيساً ينظم لهم رحلات القنص فانه لا يتمتع في حقيقة الامر بأى سلطة سياسية حقيقية بحيث ان الكثيرين من علماء الانثربولوجيا يميلون الى ان ينكروا عليهم وجود اى تنظيم سياسى بالمعنى الدقيق للكلمة . ويرتكز النظام الدينى عند الهوتنتوت على عبادة الاسلاف .

أول دب يصادفونه معتقدين أن ذلك سوف يجعل الحيوان يبدو قريبا منهم بحيث يصبح على مرمى البصر ، حتى ولو كان يبعد عنهم فى واقع الأمر مسيرة يومين أو ثلاثة ، لأن من خصائص تلك التعويذة أنها تختزل الرحلة التى تستغرق بضعة أيام إلى عدة ساعات فقط . ويطعن الصيادون فى قبيلة الإيوا Ewe بغرب إفريقيا آثار أقدام الحيوان بعصا ذات طرف مدبب لكى يقعدوه عن الحركة ويتمكنوا بذلك من اللحاق به .

ومع أن آثار الأقدام هى أوضح الآثار التى يمكن للجسم أن يتركها وراءه فإنها ليست الشىء الوحيد الذى يمكن الاستعانة به فى التأثير السحرى على الإنسان . فالأهالى الوطنيون فى جنوب غرب استراليا يعتقدون أنه من السهل إلحاق الأذى بأى شخص عن طريق دفن بعض شظايا الكوارتز أو الزجاج أو غير ذلك من الأجسام الحادة فى الأثر الذى يطبعه جسمه أثناء الاسترخاء فتسرى الخاصية السحرية التى تكمن فى تلك الأجسام الحادة إلى جسم الضحية وتسبب له آلاما مبرحة يردها الأوربيون (الجهلة) إلى الروماتيز . وهذا يفسر لنا السبب فى أن الفيثاغورثيين كانوا يعتبرون من أهم المبادىء التى يجب على المرء التمسك بها أن يقوم بترتيب فراشه بمجرد الاستيقاظ من النوم حتى تختفى تماما كل الآثار التى طبعها جسمه على الفراش . فليست هذه القاعدة — بكل بساطة — سوى إجراء وقائى ضد السحر ، وهى بذلك جزء من قانون كلى عام يصدق على جميع القواعد

والمبادىء الخرافية التى كان القدماء ينسبونها إلى فيثاغورس ، وإن لم يكن ثمة أدنى شك فى أنها كانت معروفة لدى الأسلاف الهمج الذين انحدر منهم اليونانيون القدماء قبل أن يولد الفيلسوف بعهد طويل.

٤ ـ تقدم الساحر :

ونقف عند هذا الحد فى دراستنا للمبادىء العامة التى يقوم عليها السحر التعاطفى . ولقد استمددت الأمثلة الموضحة لهذه المبادىء فى الأغلب مما قد يمكن تسميته بالسحر الخاص Private Magic . وهو الطقوس والتعازيم التى تمارس إما لصالح أفراد معينين بالذات وإما لإلحاق الأذى بأشخاص آخرين معينين أيضا . ولكن يوجد فى العادة بالإضافة إلى ذلك فى المجتمع الهمجى ما يمكن تسميته بالسحر العام أو السحر العمومى Public Magic وهو السحر الذى يمارس من أجل المجتمع كله . فحيث تمارس الطقوس التى من هذا النوع الذى يهدف إلى تحقيق الخير أو الصالح العام يكون من الصعب اعتبار الساحر ذاته مجرد ممارس خاص ، وإنما يصبح إلى حد ما « موظفا » أو ممارسا عاما . ويعتبر ظهور هذه الفئة من « الممارسين » أو « الموظفين » خطوة هامة جداً فى التطور السياسى والدينى للمجتمع (١) فحيث يتوقف خير القبيلة وصالحها مثلا على أداء

---

(١) الواقع ان الفرق بين الساحر العمومى وبين رجل الدين ليس واضحا تماما فى كثير من المجتمعات «البدائية» وبالتالى فى كثير من الكتابات الانثربولوجية والاجتماعية . وقد ادى هذا الغموض الى تضارب الاراء حول ما يمكن اعتباره =

هذه الممارسات السحرية فإن الساحر نفسه يحتل مركزاً عاليا ويحظى بقدر هائل من النفوذ وحسن السمعة ، بل إنه قد يرقى إلى مرتبة الرئيس أو الملك ويتمتع بسلطاته . ومن هنا كانت هذه المهنة تجذب إلى صفوفها عدداً من أكفأ رجال القبيلة وأكثرهم طموحا لأنها تفتح لهم باب الأمل في تحقيق المجد والثروة والسلطة بشكل لا يتوفر فى أى مهنة أخرى . ويدرك أصحاب العقول الناضجة الذكية كيف يستطيعون أن يخدعوا بسهولة زملاءهم الذين يقلون عنهم ذكاء

= سحراً وما يصح ادخاله ضمن دائرة الدين . وقد يكفى للتدليل على ذلك ان تقارن بين موقف فريزر نفسه وموقف عالم الاجتماع الفرنسى اميل دوركايم . فبينما يذهب فريزر الى ان الدين يشترط الاعتقاد فى الكائنات الروحية او الآلهة وان السحر يتألف من الاعمال والممارسات التى تتصل بالكائنات الاخرى ، يرى دوركايم ان الطقوس التى تتعلق بالاشياء المقدسة ، أيا كانت هذه الاشياء والتى تمارس على المستوى الجماعى تعتبر دنيا ، وذلك بعكس الشعائر والطقوس والممارسات الفردية فانها تدخل فى باب السحر . ويبدو عمق هذا التضارب حين ننظر الى بعض الطقوس والشعائر المحددة بالذات . وربما كان أفضل مثل لذلك هو الاجتماعات الدورية التى تقيمها العشائر الطوطمية وتمارس فيها بعض الطقوس التى تهدف الى ارضاء الطوطم والتقرب اليه ثم ذبحه وأكل لحمه لاكتساب صفاته وخصائصه . فمثل هذه الممارسات تعتبر فى نظر فريزر اقرب الى الممارسات والطقوس السحرية (العامة) وهى تخرج بذلك عن مجال الدين لانها لا تتعلق بالكائنات الروحية نظراً لان الطوطم ليس الا الحيوان الذى يعتقد أفراد العشيرة انهم انحدروا منه كما ان الغرض من تلك الطقوس هو تقوية الروابط التى تربطهم به . اما دوركايم فيرى الممارسات الطوطمية ممارسات دينية لانها تتعلق بالكائنات مقدسة (الطواطم) حتى وان لم تكن كائنات روحية كما أنها تمارس على المستوى الجماعى نظراً لان جميع أفراد العشيرة يشتركون فيها ، علاوة على انها تهدف فى آخر الامر الى صالح الجماعة ككل . انظر فى ذلك كتابنا « البناء الاجتماعى – الجزء الثانى – الانسان » ، صفحات ٥٣٠ وما بعدها . (أ . أ)

وفطنة ، وأن يستغلوا نزعتهم لتصديق الخرافات فى تحقيق أغراضهم ومصالحهم الخاصة . ولا يعنى هذا أن الساحر شخص كذاب ومخادع دائما وبالضرورة ، إذ غالبا ما يكون مخلصا فى اعتقاده بأنه يمتلك بالفعل تلك القوى العجيبة التى يعزوها إليه أتباعه السذج فى المجتمع . ولكن كلما كان الساحر أكثر حكمة وفطنة وذكاء كان أقدر بالتالى على أن ينفذ ببصيرته خلال المغالطات والأباطيل التى ترزح تحتها الأذهان الكليلة الواهنة . وعلى ذلك فليس ثمة شك فى أن أفراد المهنة الأكثر ذكاء ودهاء يميلون بشكل أو بآخر إلى الغش والخداع عن قصد وعمد ، وأن هؤلاء الأفراد أنفسهم هم الذين يستطيعون بفضل قدراتهم الفائقة أن يبلغوا القمة ويحتلوا أعلى مناصب السلطة والقيادة . ويعترض طريق الساحر المحترف كثير من المزالق بحيث لا يستطيع أن يشق طريقه بسلام فى العادة سوى الشخص الذى يتمتع بنصيب وافر جداً من القدرة على ضبط النفس وتمالك الأعصاب ونفاذ البصيرة .

إن مهنة السحر ، بل كل ما يقدمه الساحر للناس من أعمال وممارسات ليست سوى ادعاءات باطلة لا يمكنه التدليل عليها والاستمرار فيها إلا بالخداع المتعمد أو غير المتعمد . ومن هنا فإن الساحر الذى يؤمن بإخلاص فى صدق أعماله وممارساته الشاذة الغريبة يكون دائماً عرضة للخطر من الساحر المخادع الذى يلجأ إلى الغش والاحتيال عن عمد ، كما أن استمراره فى ممارسته للمهنة لن يدوم طويلا ه

فالساحر الشريف يتوقع دائماً أن تؤدى تعاويذه إلى النتائج المفروض حلوثها . وحين تفشل هذه التعاويذ والتعازيم فى تحقيق النتائج المرجوة يتملكه الارتباك والحيرة ليس فقط نتيجة لفشله بل وأيضاً للنتائج الخطيرة التى سوف تترتب على ذلك الفشل . فهو على العكس من زميله المخادع المحتال لا تحضره المعاذير الجاهزة التى يبرر بها فشله . وقبل أن يعثر على عذر ملائم يكون عملاؤه قد انقلبوا عليه وهم فى غمرة اليأس والغضب وفتكوا به .

والنتيجة الهامة من هذا كله هى أنه فى هذه المرحلة من التطور الاجتماعى تميل السلطة العليا إلى التركز فى أيدى أشد الناس ذكاء وأبعدهم عن استقامة الخلق . ولو استطعنا أن نوازن بين الأضرار الناشئة عن التجائهم إلى الغش والفوائد التى يجنيها المجتمع من الاستعانة بخبراتهم وذكائهم فقد نجد آخر الأمر أن كفة الخير ترجح بكثير على كفة الشر . فليس ثمة شك فى أن الشرفاء الأغبياء الذين يشغلون مناصب عليا قد جلبوا على الدنيا من الشرور والويلات أضعاف ما تسبب فيه الأشرار الأذكياء. فالأغلب أنه حين يفرغ المخادع الذكى من تحقيق مآربه بحيث لا تبقى له بعدها أية رغبات أو أهواء شخصية أخرى فإنه يسخر ملكاته وقدراته ومواهبه لخدمة الآخرين . وكثير من الناس الذين سلكوا من أجل الوصول إلى السلطة سبلا بعيدة كل البعد عن السلوك القويم أصبحوا من أكثر الناس نفعاً لغيرهم بصرف النظر عما إذا كانت السلطة التى يجرون وراءها وحصلوا عليها بالفعل

هى السلطة السياسية أو غيرها من السلطات. وفى ميدان السياسة بالذات كثيراً ما نجد أن الشخص الذى يجيد تدبير المؤامرات وحبك المكائد ولا تقف أية اعتبارات فى سبيل تحقيق أهدافه قد ينتهى بأن يصبح حاكماً عادلا كريماً فيحقق الكثير أثناء حياته ويبكيه الناس بعد مماته ويثير الإعجاب فى نفوس الأجيال التالية. ويكفى أن نذكر هنا اثنين من أفضل الأمثلة لهذه الفئة من الناس ونعنى بهما يوليوس قيصر وأغسطس. هذا فى الوقت الذى يظل الشخص الغبى على غباته طيلة حياته، وكلما ازداد تركيز السلطة فى يديه ازداد الاحتمال فى أن يستخدمها بطريقة تجلب الكوارث والنكبات. ومن المحتمل أن أفدح النكبات فى التاريخ الإنجليزى – ونعنى بها للصدام مع أمريكا – لم تكن لتحدث أبداً لو لم يكن جورج الثالث ملكا أمينا ومغفلا.

فتأثير مهنة السحر العمومى فى تكوين المجتمع الهمجى يتضح إذن فى محاولة تركيز السلطة والإشراف على شئون ذلك المجتمع فى أيدى أكثر الناس مهارة وقدرة، ونقل توازن القوى من الجماعة إلى الفرد ثم إحلال الملكية محل الديمقراطية أو على الأصح محل أوليجاركية الشيوخ وكبار السن (١)، لأن أمور الحكم فى المجتمع

---

(١) الاوليجاركية Oligarchy هى حكم القلة. وفى كثير من المجتمعات البدائية تنحصر السلطة وتصريف شئون الحكم فى أيدى شيوخ القبيلة وزعمائها او فى ايدى كبار السن الذين يؤلفون معا وحدة اجتماعية وسياسية متماسكة ومتمايزة عن غيرها من السكان وذلك على أساس عامل السن وحده =

الهمجي تنحصر في مجلس معين من الشيوخ وكبار السن وليس في جميع أفراد المجتمع من الذكور البالغين . وبصرف النظر عن الأسباب التي أدت إلى ذلك التغير وكذلك عن أخلاق الحكام الأوائل وسلوكهم فقد كان هذا التغير مفيداً في عمومه إلى أبعد حد . والظاهر أن نشأة النظام الملكي كانت من الظروف الأساسية التي لابست انتقال الإنسانية من مرحلة التوحش والهمجية . فليس هناك من هو أشد خضوعا للعادات والتقاليد القديمة من الشعوب الهمجية التي تزعم أنها شعوب ديمقراطية . ولذا كان تقدم هذه الشعوب يتم ببطء وصعوبة بالغين . فالفكرة القديمة الشائعة التي تصور الرجل الهمجي على أنه أكثر الناس حرية فكرة مخالفة للواقع تماما . صحيح أن الرجل الهمجي لا يخضع لاسترقاق سيد ظاهر محسوس ولكنه مع ذلك عبد للماضي ولأرواح الأسلاف الموتى الذين يترصدون خطاه منذ ولادته حتى مماته ويحكمونه بقضيب من حديد ؛ فأفعالهم وعاداتهم هي النمط الصحيح للسلوك القويم كما أنها هي القانون

= كما هو الحال في المجتمعات التي يخضع تنظيمها الاجتماعي والسياسي لما يعرف باسم طبقات أو فئات العمر age-set system وفي هذا النوع من التنظيم الاجتماعي ينقسم اعضاء المجتمع من الذكور الى عدد معين من الفئات التي تتمايز بعضها عن البعض على اساس التقارب في السن بحيث تتولى كل فئة منهـــا وظيفة اجتماعية محددة مثل الوظيفة الحربية التي يتولاها الشبان والرجال في مقتبل العمر حتى سن الثلاثين مثلا ، ثم الوظيفة السياسية التي يتولاها الرجال بين سن الثلاثين والخامسة والاربعين أو الخمسين ، ثم الوظيفة الدينية التي يتولاها الشيوخ حتى مماتهم . وينتقل أعضاء القبيلة بين هذه الوظائف المختلفة نتيجة لتقدمهم في العمر . (أ . أ) .

غير المكتوب الذى يخضع له خضوعا أعمى ويقبله بدون مناقشة . وعلى ذلك فلم يعد أمام المواهب الفذة التى كان يمكنها تغيير العادات القديمة إلى عادات أفضل وأحسن سوى مجال ضئيل للغاية . بل إن أكثر الرجال كفاءة ومهارة يقلل من قدرتهم على الانطلاق، الأغبياء والضعفاء من أفراد المجتمع الذين يحذدون الواقع المقاييس والمستويات . فهم أعجز عن أن ينطلقوا ويرتفعوا بأنفسهم ولكنهم قادرون مع ذلك على إسقاط الآخرين. ويكشف هذا النوع من المجتمعات فى مظهره الخارجى عن درجة عالية من الرقابة الحالية من الحياة لأنها تتجاهل التباين أو التفاوت الطبيعى بين الناس وتغفل الاختلافات الجوهرية الطبيعية بين القدرات والطبائع رغم اتساع هذه الاختلافات وتحاول أن تردها إلى نوع من التساوى الظاهرى المزيف . وخليق بالذين يحرصون على تحقيق خير البشر ومصالحهم أن يرحبوا بكل ما من شأنه أن ينتشل المجتمع من هذه الوهدة ويتيح الفرصة للمواهب والكفاءات ويعمل على توزيع السلطات حسب القدرات الطبيعية التى يتمتع بها مختلف الأشخاص ويرقى بالمجتمع عن ذلك المستوى الحقير الراكد الذى هلل له فى العصور التالية الغوغاء والحالمون واعتبروه الدولة المثلى بل والعصر الذهبى للإنسانية . وحين تبدأ هذه المؤثرات فى العمل للارتفاع بالمجتمع — وهى مؤثرات يصعب قمعها إلى الأبد — تزداد سرعة تقدم الحضارة نسبيا : فوصول رجل واحد صالح إلى السلطة العليا يساعد على إدخال كثير من التغيرات الهائلة التى لم يكن

يكفى لحدوثها عدة أجيال كاملة . فإذا كان ذلك الشخص على قدر غير مألوف من الذكاء والحيوية ، كما يحدث فى كثير من الأحيان ، فإنه يستغل تلك الفرصة إلى أبعد الحدود للتغيير . فحتى نزوات الطغاة وتقلب أهوائهم قد تكون ذات نفع كبير فى التحرر من إسار التقاليد التى تثقل كاهل الرجل الهمجى . وبمجرد أن تتمكن القبيلة من التخلص من سلطان مجالس الشيوخ الخائرة المنقسمة على ذاتها وتخضع لتوجيه عقل واحد قوى راسخ فإنها تعيش فى أمن وسلام مع جيرانها وتدخل فترة جديدة من حياتها تتميز بالرغبة فى الارتقاء والسمو . وتعتبر هذه الفترة ملائمة إلى حد كبير لإحراز وتحقيق التقدم الاجتماعى والصناعى والفكرى وبخاصة فى المراحل الأولى من تاريخ المجتمع . فامتداد النفوذ سواء عن طريق الغزو العسكرى أو نتيجة لاستسلام القبائل المستضعفة من تلقاء نفسها وبمحض اختيارها يجلب للمجتمع الثروة والعبيد مما يتيح الفرصة لبعض الطبقات لتتخلص من الصراع الدائب من أجل العيش ولتقف نفسها على طلب العلم ، وهو مطلب نزيه وشريف ، لأن المعرفة هى أنبل وأقوى وسيلة يمكن الاستعانة بها لتحسين حظ الإنسان ونصيبه من الحياة .

ومن الصعب فصل التقدم الفكرى الذى يتمثل فى ارتقاء الفنون والعلوم وانتشار الآراء والأفكار المتحررة عن التقدم الصناعى والاقتصادى الذى يحقق بعض الانتصارات فى فترات الغزو العسكرى وتكوين الامبراطوريات . وليس من المصادفة فى شىء أن تظهر

أعنف انتفاضات العقل الإنسانى فى أعقاب الانتصارات الحربية وأن تكون السلالات البشرية التى قامت بالغزو والفتوحات الكبرى فى العالم هى التى عملت أكثر من غيرها على تقدم الحضارة وانتشارها وبذلك تكون قد عالجت فى زمن السلم الجروح التى تسببت فيها أثناء الحرب . فالبابليون والإغريق والرومان والعرب هم أكبر الشواهد على صدق ذلك الماضى . وقد يقيض لنا أن نعيش حتى نرى انتفاضة مماثلة لها فى اليابان . كذلك ليس من الصدفة فى شىء أن نجد — إذا رجعنا خلال التاريخ إلى مراحله الأولى المبكرة — أن الخطوات الجبارة الأولى التى خطتها الإنسانية نحو الحضارة تمت كلها فى ظل حكومات استبدادية وثيوقراطية مثل حكومات مصر وبيرو ، حيث كان الحاكم الأعلى يطالب بالولاء الأعمى الذليل ويتقبله من رعيته باعتباره يجمع فى شخصيته المزدوجة خصائص الملك والإله . وليس من الإسراف فى شىء أيضا أن نقول إن الطغيان كان فى تلك الحقبة المبكرة أفضل صديق للإنسانية بل وللحرية على الرغم مما قد يبدو فى ذلك القول من تناقض . إذ يكمن تحت أعنف ألوان الاستبداد المطلق والطغيان الطاحن قدر من الحرية — بأنبل ما تعنيه هذه الكلمة وهى حرية التفكير وحرية الاختيار للمصير — أكبر بكثير وأنبل من تلك الحرية الظاهرية الزائفة التى نصادفها لدى الشعوب الهمجية ، حيث يفرغ مصير الفرد وقدره منذ أن يولد حتى يموت فى قالب حديدى من التقاليد والعادات الموروثة (١) .

---

(١) يجب ألا يؤخذ هذا الكلام على ان فريزر كان يناصر حكم الاستبداد او =

وعلى هذا الأساس فإنه يمكن القول بأنه بقدر ما تعتبر مهنة الساحر العمومي وسيلة من الوسائل التي تمكن الرجل الماهر الكفء من الوصول إلى السلطة العليا في المجتمع فإنها تسهم في خلاص البشرية من استعباد وذل التقاليد والارتقاء بها إلى حياة أرحب وأكثر حرية تستطيع منها أن تنظر إلى العالم نظرة أوسع وأشمل . وليست هذه بالخدمة الصغيرة التي تسدى إلى الإنسانية . فإذا تذكرنا بعد ذلك أن السحر استطاع من ناحية أخرى أن يمهد الطريق لظهور العلم ، فسوف نجد أنفسنا مضطرين للاعتراف بأنه إذا كان الفن الأسود قد تسبب في كثير من الشر والأذى فإنه كان مصدر كثير من الخير أيضاً، وأنه إذا كان السحر هو وليد الخطأ فقد أفلح بعد ذلك في أن ينجب الحرية والحق .

= نظام الحكم الديكتاتورى ، وانما ينبغى ان ينظر اليه فى ضوء نظرية التطورالتى كانت تشيع فى القرن التاسع عشر والتى تأثر بها فريزر الى حد كبير والتى كانت ترى ان المجتمع البدائي او الهمجى عاجز بحكم الواقع وطبيعة المرحلة التى يمثلها في تاريخ البشرية عن ان يباشر شئونه ويصرف أموره بنفسه ، وانه لابد لذلك من ان يخضع لسيطرة المجتمعات التى بلغت درجة عالية من التقدم والحضارة . كذلك الرجل العادى فى ذلك المجتمع لايستطيع ان يشارك فى الحكم مشاركة فعالة مجدية وانما يجب ان تتركز شئون الحكم والسياسة فى أيدى الصفوة الممتازة من ابناء القبيلة أو حتى فى ايدى الفرد الواحد الذى يتميز على بقية افراد المجتمع بكفاءات وقدرات وملكات غير عادية » وواضح ان هذه النظرة تختلف عن نظرة الانثربولوجيين المعاصرين الذين يعتبرون التنظيم القبلى فى كثير من المجتمعات البدائية مثالا رائعا للحكم الديمقراطى الصحيح .

الفصل الرابع

السحر والدين

وقد تكفى الأمثلة التى ذكرناها فى الفصل السابق لتبيين المبادىء العامة التى يقوم عليها السحر التعاطفى بفرعية اللذين أسميناهما السحر التشاكلى ، والسحر الاتصالى على التوالى. ولقد رأينا أن بعض حالات السحر التى ذكرناها تفترض تدخل الأرواح ، ولذا تبذل كثير من الجهود لكسب رضاها عن طريق الصلوات وتقديم القرابين. ولكن هذه على العموم حالات استثنائية .يظهر فيها السحر ممزوجاً بالدين . والسحر الانعطافى فى صورته النقية الخالصة يفترض تتابع أحداث الطبيعة بالضرورة وباطراد وبدون تدخل أى عامل بسيط روحى أو مشخص . وعلى هذا الأساس فإن التصور الأساسى للسحر يشبه تصور العلم الحديث ، إذ يرتكز النسق كله على الإيمان بانتظام الطبيعة واطرادها ، وهو إيمان ضمنى ولكنه راسخ وثابت . فالساحر لا يشك إطلاقاً فى أن نفس العلل سوف تنتج دائماً نفس المعلولات ، وأن ممارسة الطقوس المناسبة وإشفاعها بالتعاويذ والطلاسم الملائمة يؤديان بالضرورة وبغير استثناء إلى النتائج المرجوة ، إلا إذا حدث بالطبع أن تعرضت هذه الطقوس لتأثير تعاويذ مناوئه تكون أقوى منها مفعولا فتنهزم أمامها . ولكن العادة أن الساحر لا يستعين بأى قوة أخرى أعلى منه ولا يطلب العون من أى كائن

* السحر والدين : ترجمة د . احمد ابو زيد .

آخر لا يأمن تقلباته أو عناده ، ولا يذل نفسه لسطوة الآلهة والأرباب ، ومع ذلك فإن قواه ليست بالقوى التعسفية أو المطلقة التى لا تحدها أية حدود على الرغم من إيمانه هو بعظمتها وشدة بأسها . فهو لا يستطيع استخدامها إلا إذا توافق سلوكه مع أصول فنه أو مع ما يمكن تسميته بقوانين الطبيعة حسب تصوره هو لهذه القوانين . وإغفال هذه الأصول والقواعد وكذلك الخروج على هذه القوانين ولو فى أبسط تفاصيلها يجلب الفشل بل وقد يعرض الساحر غير الماهر نفسه إلى أشد أنواع المخاطر . فإذا كان يزعم لنفسه السيادة على الطبيعة فإن هذه السيادة تحدها فى الواقع حدود وقيود صارمة ، كما أنها تمارس بحيث لا تتعارض مع الأوضاع القائمة بالفعل . وعلى ذلك فإن المماثلة بين التصورات السحرية والعلمية للعالم مماثلة قوية ومحكمة . ففى كلا التصورين يسير تتابع الأحداث بطريقة منتظمة ومؤكدة إلى أبعد حد ، إذ تحكمه قوانين ثابتة بحيث يمكن التنبؤ بنتائجها وحسابها بدقة ، كما أن عناصر المفاجأة والصدفة والعرَض تكون مستبعدة تماماً من مجرى الطبيعة وأحداثها . كذلك يفتح كلا التصورين مجالات واسعة من الإمكانيات تبدو لا متناهية أمام الشخص الذى يعرف علل الأشياء ، والذى يستطيع أن يلمس اللوالب الخفية التى تحرك ميكانيزم العالم الواسع المعقد . ومن هنا كان ذلك التأثير القوى الذى يمارسه السحر والدين كلاهما على العقل الإنسانى ؛ ومن هنا أيضاً كانت تلك الاستثارة القوية التى يثيرها كل منهما لطلب المعرفة . فهما ينيران السبيل أمام

الباحث الذى أنهكه طول البحث وينتشلانه من ظلمة اليأس فى الحاضر بما يثيران فى نفسه من وعود وآمال عن المستقبل ، ويرتفعان به إلى أعالى القمم الشامخة حيث يستطيع أن يرى تحت قدميه من خلال الغيوم الكثيفة والضباب المتراكم المدينة السماوية ، التى قد تكون بعيدة جداً عنه ، ولكنها تبدو لناظريه سابحة فى ضوء الأحلام وقد أحاط بها الجلال السماوى من كل جانب .

ويكمن الخطأ الذى يتردى فيه السحر ليس فى تسليمه العام بخضوع تتابع الأحداث لقانون معين ، بل فى فكرته الخاطئة تماماً عن طبيعة القوانين الخاصة التى تحكم عملية التتابع ذاتها . فإذا حللنا الحالات المختلفة للسحر التعاطفى التى عرضنا لها فى الصفحات السابقة والتى يمكن اعتبارها عينات ممثلة للكل تمثيلا صحيحاً ، فسوف نجد كما ذكرت من قبل أنها كلها تطبيقات خاطئة لأحد القانونين الأساسيين للفكر ، وهما تداعى المعانى عن طريق التشابه وتداعى المعانى عن طريق التجاور أو الاتصال فى المكان أو الزمان . فالتداعى الخاطىء للمعانى والأفكار المتشابهة يؤدى إلى السحر التشاكلى أو سحر المحاكاة ، والتداعى الخاطىء للمعانى أو الأفكار المتصلة يؤدى إلى السحر الاتصالى . وليس ثمة ما يعيب مبادىء التداعى فى ذاتها . فالواقع أنها مبادىء جوهرية وأساسية تماماً للتفكير الإنسانى . وإذا تم تطبيقها بطريقة سليمة فإنها تؤدى إلى العلم بينما تطبيقها بطريقة غير سليمة و « غير مشروعة » يؤدى إلى السحر ، وهو الأخ غير الشرعى للعلم .

ولذا فإن من البديهى — بل إنه قد يكون مجرد تكرار للمعانى — أن نقول إن السحر بأشكاله المختلفة هو بالضرورة علم زائف عقيم لأنه لو حدث أن صدق وأثمر لخرج عن دائرة السحر ودخل فى دائرة العلم . ولقد اهتم الإنسان منذ أقدم العصور بالبحث عن القواعد العامة التى يستطيع بها أن يخضع نظام الظواهر الطبيعية لصالحه الخاص ، واستطاع خلال بحثه الطويل أن يقوم بتجميع عدد كبير من تلك القواعد التى تتفاوت فى الأهمية والقيمة . فأما القواعد الصحيحة أو الذهبية فإنها تؤلف مجموعة العلوم التطبيقية التى نسميها بالفنون ، وأما القواعد الزائفة فإنها تؤلف السحر .

وعلى ذلك فإذا كان السحر يعتبر من هذه الناحية أقرب أقرباء العلم فإنه يبقى علينا أن نبحث عن درجة قرابته للدين . ، وليس من شك فى أن نظرتنا إلى هذه القرابة سوف تتأثر بفكرتنا عن طبيعة الدين نفسه . ولذا كان لابد لنا من أن نعرف ونحدد هذه الفكرة قبل أن نشرع فى بحث العلاقة بين الدين والسحر . وأغلب الظن أنه لا يوجد موضوع فى العالم اختلفت فيه الآراء مثلما اختلفت حول طبيعة الدين ، وعلى ذلك فقد يستحيل علينا الوصول إلى وضع تعريف يكون مقبولا من الجميع . ولذا فإنه يتعين علينا أولاً أن نبين بوضوح ماذا نقصد بالدين ثم نستخدم الكلمة بهذا المعنى طيلة الوقت وبدون تغيير خلال الكتاب كله . والدين فى نظرى هو التزلف والتقرب إلى القوى العليا التى تفوق الإنسان والتى يعتقد أنها توجه

سر الطبيعة والحياة البشرية وتتحكم فيهما . وعلى أساس هذا التعريف يتألف الدين من عنصرين أحدهما نظرى وهو الإيمان فى وجود قوى أعلى وأسمى من الإنسان ، والآخر عملى وهو محاولة استمالة هذه القوى وارضائها . وواضح أن عنصر الإيمان هو أسبق العنصرين، إذ لا بد من أن نؤمن بوجود كائن إلهى قبل أن نشرع فى إرضائه والتقرب إليه . ولكن إذا لم يترتب على هذا الإيمان قيام شعائر وممارسات متعلقة فإنه لايكون ديناً بل يكون مجرد لاهوت Theology وفى ذلك يقول سانت چيمس Saint James « إن العقيدة التى لا تدور حولها أى شعائر أوطقوس تموت لأنها تكون وحيدة ومنعزلة » ويقول آخر ، فإن المرء لا يكون متديناً إن لم يكن سلوكه خاضعاً — بشكل ما — للخوف من الله أو حب الله . ومن ناحية أخرى فإن الشعائر والطقوس المجردة من كل اعتقاد دينى لا تعتبر ديناً ، فقد يتصرف شخصان بطريقة واحدة تماماً ومع ذلك يعتبر أحدهما متديناً والآخر غير متدين ، فأما الذى ينبع سلوكه من حب الله أو الخوف منه فإنه يكون متديناً ، وأما الذى ينبع سلوكه من حب الناس أو أو خشيتهم فإنه يعتبر شخصاً أخلاقياً أو لا أخلاقى تبعاً لكون سلوكه متفقاً مع الخير العام أو متعارضاً معه . ومن هنا كان الإيمان والممارسة ، أو بالتعبير اللاهوتى ، العقيدة والشريعة ، على درجة واحدة من الأهمية بالنسبة للدين، إذ لا يمكن له أن يقوم بدونهما معاً . ولكن ليس من الضرورى أن تتخذ الممارسات الدينية دائماً شكل الشعائر ،

أى أنه ليس من الضرورى أن تتألف من تقديم القرابين وتلاوة الصلوات وما إلى ذلك من الطقوس الظاهرة الملموسة . فالهدف من الشعائر هو إرضاء الرب ، والرب نفسه كائن يجد الغبطة فى الإحسان والرحمة والتطهر أكثر مما يجدها فى إراقة دم الأضحيات وترتيل الترانيم وحرق البخور ، وعلى ذلك فإن العبّاد لا يستجلبون رضا الرب بالتذلل والاسترحام أو بالتسبيح بحمده وتقديم الهدايا والقرابين الغالية الثمينة فى معابده بقدر ما يرضونه عن طريق التطهر والرحمة والإحسان للآخرين ، لأنهم بذلك إنما يحاكون كمال الطبيعة الإلهية بقدر ما يسمح لهم به ضعفهم البشرى . ولقد كان هذا الجانب الأخلاقى من الدين هو الذى جعل أنبياء اليهود الذين استهواهم المثال النبيل لخير الله وقدسيته — لا يملّون أبداً من الوعظ والإرشاد ، ولقد قال ميخا : « قد أخبرك أيها الإنسان ما هو صالح ، وماذا يطلبه منك الرب إلا أن تضع الحق وتحب الرحمة وتسلك متواضعا مع إلهك »(1) وفى الأزمان التالية كان جانب كبير من القوة التى استطاعت بها المسيحية أن تغزو العالم مستمداً من نفس هذه الفكرة السامية عن طبيعة الله الخلقية وعن واجب الإنسان للتواؤم معها ، ولقد قال سانت جيمس أيضاً « إن الدين الخالص الذى لا تشوبه شائبة قبل الاعتراف بالله والآب هو أن تزور اليتامى والأرامل وتواسيهم فى محنتهم وأن تطهر نفسك من أدران الدنيا » .

(1) سفر ميخا الاصحاح السادس .

ولكن إذا كان الدين يعنى من ناحية الاعتقاد فى وجود كائنات أسمى من البشر تتحكم فى هذا العالم وتسيطر عليه كما يعنى من الناحية الأخرى محاولة استرضاء هذه الكائنات فإن ذلك يتضمن بغير شك الاعتراف بأن أحداث الطبيعة مرنة إلى حد ما وقابلة للتغيير ، وأن باستطاعتنا أن نُقنع أو نحث هذه الكائنات القوية التى تحكم الطبيعة على أن تغير سير الأحداث من مجراها الأصلى بما يحقق صالحنا الخاص. إلا أن هذه المرونة أو القدرة على التغير التى ننسبها إلى الطبيعة تتعارض بشكل صريح مع مبادىء السحر كما تتعارض مع مبادىء العلم ، نظراً لأنهما يفترضان أن عمليات الطبيعة جامدة وثابتة ومنتظمة ، وأن من الصعب تحويلها من اتجاهها عن طريق الإقناع والرجاء أو حتى عن طريق التهديد والإرهاب. والتمييز بين هاتين النظريتين المتعارضتين للكون يقوم على أساس إجابة كل منهما على السؤال التالى ، وهو سؤال دقيق للغاية : هل القوى التى تحكم العالم قوى عاقلة مدركة وشخصية أو هل هى قوى غير مدركة ولا شخصية ؟ والدين باعتباره نوعاً من استمالة واسترضاء القوى فوق البشرية يفترض الاحتمال الأول ، وذلك لأن عملية الاستمالة أو الاسترضاء تعنى ضمناً أن الكائن الذى يحاول الإنسان كسب رضاه هو كائن مدرك وعاقل وله وجود مشخص وإن كان سلوكه وتصرفاته غير مضمونة إلى حد ما على الأقل ، وإن كان يمكن إقناعه بتغيير تلك التصرفات وتحويلها إلى الاتجاه المطلوب عن طريق التقرب والابتهال اللذين يتفقان تماماً

مع مصالحه ورغباته وعواطفه . والمرء لا يستعطف أبداً الأشياء غير الحية . أو الأشخاص الذين يعرف عنهم أن سلوكهم وتصرفاتهم فى المواقف المعينة إنما تحكمها الثقة البالغة واليقين المطلق . ومن هنا كان الدين الذى يفترض خضوع العالم لعوامل وقوى مدركة يمكن إقناعها بتغيير أهدافها وأغراضها يقف موقف العداء الصريح من السحر وكذلك من العلم ، لأن الاثنين يسلمان بأن أحداث الطبيعة تتحدد ليس تبعاً لرغبات أو نزوات الكائنات الشخصية بل تبعاً للقوانين الثابتة الصارمة التى تعمل بطريقة آلية ؛ وإن كان هذا المبدأ يوجد بطريقة ضمنية فقط فى السحر بينما هو صريح وواضح فى العلم . صحيح أن السحر يتعامل فى كثير من الأحيان مع الأرواح ، وهى قوى شخصية من النوع الذى يفترض الدين وجوده ، ولكن يلاحظ أنه حين يفعل السحر ذلك بطريقته المعتادة المألوفة الصحيحة فإنه يعامل هذه الأرواح بنفس الطريقة التى يعامل بها القوى غير الحية ، بمعنى أنه يجبرها أو يقهرها بدلاً من أن يعمل على إرضائها أو استمالتها كما يفعل الدين . وعلى ذلك فالسحر يفترض أن كل الكائنات الشخصية سواء أكانت كائنات بشرية أو إلهية تخضع فى آخر الأمر لتلك القوى اللاشخصية التى تسيطر على جميع الموجودات والتى يمكن مع ذلك لأى شخص أن يستميلها إلى صفه إذا عرف كيف يخضعها بالطقوس والتعاويذ الملائمة . ففى مصر القديمة مثلاً كان السحرة يدعون لأنفسهم القدرة على إخضاع أعظم الآلهة لرغباتهم ، بل إنهم كانوا يهددون

الآلهة فعلا بالدمار إذا لم يستجيبوا لهم ، كما كانوا يهددون فى كثير من الأحيان ببعثرة عظام « أوزيريس » والكشف عن قضيته المقدسة إذا أظهر الإله شيئاً من العناد أو التمرد ، ولكنهم لم ينفذوا ذلك التهديد أبداً ، وفى الهند نجد أن الثالوث الهندوكى الأعظم الذى يتألف من براهما وفيشنو وسيفا لا يزال خاضعاً لقوة السحرة الذين يتمتعون بفضل تعاويذهم بنوع من الشعور بالاستعلاء على أقوى الأرباب مما يضطر هذه الأرباب ذاتها للخضوع لهم والاستجابة لكل ما يأمرها به سادتها السحرة وتحقيق مطالبهم فى الأرض أو فى السماوات . وثمة قول شائع فى كل أنحاء الهند من أن « الكون كله خاضع للآلهة ، وأن الآلهة خاضعة للتعاويذ ، وأن التعاويذ خاضعة للبراهمة ، فالبراهمة إذن هم آلهتنا » .

هذا الصراع الأساسى بين السحر والدين حول المبدأ يفسر تفسيراً كافياً العداء العنيف الذى كان رجل الدين يبديه خلال التاريخ نحو الساحر ومطاردته له . فشعور الساحر بالاستعلاء والاستكفاء وموقفه الأحمق المتعجرف من القوى العليا وادعاؤه الوقح بقدرته على السيطرة والتسلط فكلها أمور من شأنها أن تثير رجل الدين الذى يحس بالخشية وبالرهبة نحو الجلالة الإلهية ويشعر بالذلة أمامها ، مما يجعله ينظر إلى دعاوى الساحر وتصرفاته على أنها نوع من الجحود والكفر والتطاول على الحقوق والامتيازات الخاصة بالإله وحده . وربما كانت هناك دوافع غير سامية تكمن وراء عداء رجل الدين

للساحر ، كأن يعتقد مثلا أنه هو الشفيع الوحيد الملائم والوسيط الحقيقى بين العبد وربه وبذلك كانت مصالحه الخاصة تتعرض للخطر كما كانت مشاعره ذاتها يلحقها الكثير من الأذى والمهانة أمام منافسه الذى كان يلجأ لتحقيق مآربه إلى وسائل وأساليب مضمونة أكثر من طريق الحب الإلهى الذى لا يخلو من الوعورة والزلل .

ولكن هذا العداء الذى يعتبر أمراً مألوفاً فى نظرنا لم يظهر فى الحقيقة إلا فى فترة متأخرة نسبياً من تاريخ الدين . فكثيراً ما كانت وظيفة الكاهن ووظيفة الساحر ترتبطان معاً فى المراحل المبكرة ، أو بقول أصح ، لم تكن هاتان الوظيفتان قد انفصلتا تماماً إحداهما عن الأخرى فى تلك المراحل . ولكى يحقق الرجل أهدافه الخاصة فإنه كان يتقرب إلى الآلهة والأرواح بالصلاة وتقديم القرابين حتى يضمن حسن رضاها وفى الوقت نفسه يلجأ إلى الطقوس والتعازيم التى يعتقد أنها كفيلة بأن تحقق له بذاتها تلك النتائج المرجوة ، بدون أى تدخل من الله أو من الشيطان . وبالاختصار فإنه كان يمارس الشعائر الدينية والسحرية فى وقت واحد ويردد الصلوات والتعازيم فى نفس واحد تقريبا دون أن يدرك أو ينتبه إلى ما فى هذه السلوك من تناقض نظرى ، ما دام ذلك السلوك يكفل له فى آخر الأمر تحقيق مآربه . ولقد رأينا كثيراً من أمثلة هذا التداخل أو الخلط بين السحر والدين حين تكلمنا عن طقوس وممارسات الميلانيزيين وغيرهم من الشعوب .

ولقد ظل هذا الخلط بين السحر والدين قائماً حتى بين الشعوب التى وصلت إلى مستوى عال ورفيع من الثقافة . فهو يظهر بوضوح وجلاء فى الهند ومصر فى الأزمان الغابرة ، كما أنه لم يختف تماماً عند الفلاحين الأوروبيين حتى فى وقتنا الحالى . وفيما يتعلق بالهند القديمة فقد ذكر أحد كبار العلماء المتخصصين فى السنسكريتية أن الشعائر الخاصة بتقديم القرابين فى أقدم فترات التاريخ التى لدينا عنها معلومات تفصيلية كانت تشوبها ممارسات أخرى تنم عن وجود السحر فى صورة بدائية جداً . ولقد حذر الأستاذ ماسبيرو **Maspero** وهو يتكلم عن أهمية السحر فى الشرق وبخاصة فى مصر من أن تلحق بكلمة السحر تلك الفكرة المهينة التى تثيرها هذه الكلمة بالضرورة فى ذهن الرجل الحديث . فلقد كان السحر القديم يؤلف الأساس الأول للدين ، ولم يكن أمام الإنسان المؤمن لكى يضمن لنفسه شيئاً من رضا إلهه إلا أن يضع يديه على ذلك الرب ، والوسيلة الوحيدة لذلك هى ممارسة بعض الشعائر المعينة وتقديم القرابين والصلوات والأدعية والترانيم التى أوحى بها ذلك الإله نفسه والتى تلزمه بأن يجيب دعوة الداعين .

كذلك لايزال هذا الخلط بين الأفكار أو المزج بين الدين والسحر يظهر فى أشكال مختلفة بين الطبقات الجاهلة فى أوروبا الحديثة . ويقال إن معظم الفلاحين فى فرنسا لا يزالون يعتقدون أن القسيس يملك على العناصر قوة خفية لا تقاوم ، وأنه حين يتلو بعض الصلوات

المعينة بالذات التي لا يعرفها سواه والتي لا يحق لغيره أن يرتلها فإنه يستطيع في حالة الخطر الداهم أن يبطل لفترة معينة فعل القوانين الأبدية للعالم الفيزيقي أو حتى يقلبها تماما ، ولكن يتعين عليه بعد أداء هذه الصلوات أن يطلب الغفران . فالرياح والعواصف والبرد والمطر تخضع لسلطانه وإرادته ، وكذلك النار . بل إن ألسنة اللهب تخمد بكلمة واحدة منه . ولقد كان الفلاحون الفرنسيون أيضا يؤمنون ، ولعلهم لا يزالون يؤمنون، بأن في استطاعة القساوسة أن يقيموا قداس الروح المقدس الذي يمارسون فيه بعض الشعائر الخاصة التي تصل فعاليتها حداً من الإعجاز لا تجلى معه أية معارضة من الإرادة الإلهية ، وإنما يجد الله نفسه مضطراً لأن يعطى كل ما يُطلب إليه بهذه الطريقة مهما بلغ الطلب من الإسفاف والمبالغة . ولم يكن الناس يرون في ممارسة هذه الشعائر خروجا على أصول الدين أو قواعد السلوك ، خاصة وأنهم لم يكونوا يلجئون إليها إلا حين تصل قسوة الحياة عليهم حداً بالغا لا يملكون معه إلا هذه الوسيلة الغريبة لنيل ما يريدون من مملكة السماء . ولقد كان القساوسة العاديون يرفضون في العادة أداء قداس روح القدس بعكس الرهبان الذين كانوا ستجيبون بلون كثير من الحرج لنصرة المهمومين والمأزومين . ونستطيع أن نجد شبها قوياً جداً بين هذا الضغط الذي يعتقد الفلاحون الكاثوليك أن القساوسة يمارسونه على الله والسلطة التي كان المصريون القدماء ينسبونها إلى السحرة عندهم . ومن الأمثلة الأخرى على ذلك

أيضا الاعتقاد الشائع فى كثير من قرى بروفانس Provence بأن القسيس يملك القدرة على تشتيت العواصف ، وإن لم يكن لكل القساوسة مثل هذه الملكة ، ولذا فإنه حين يتغير راعى الكنيسة فى بعض تلك القرى يبدى أتباع الأبراشية كثيراً من التلهف لمعرفة إذا ما كان الراعى الجديد يتمتع بهذه « السلطة » كما يسمونها. وعلى ذلك فبمجرد أن تظهر أدنى بادرة بهبوب إحدى العواصف الشديدة فإنهم يخضعونه للاختبار فيطلبون إليه القيام ببعض الشعائر والتراتيل ضد الغيوم المتكاثفة ، فإذا جاءت النتائج محققة لآمالهم ضمن الراعى الجديد لنفسه عطف أتباع الكنيسة واحترامهم . ولو تصادف أن بلغت سمعة الخورى فى بعض الأبراشيات مستوى أعلى من سمعة القسيس فى هذا الصدد فإن العلاقة بين الاثنين تسوء وقد تصل إلى درجة من التوتر يجد الأسقف معها نفسه مضطراً إلى أن ينقل القسيس إلى وظيفة أخرى . ويعتقد الفلاحون فى غسقونيا أن الرجل الخبيث الذى يريد أن يثأر لنفسه من أحد أعدائه يغرى أحد القساوسة باقامة قداس معين يعرف بقداس Mass of Saint Sécaire ، وهو قداس لا يعرفه إلا عدد قليل من القساوسة ، بل إن غالبية الذين يعرفونه يرفضون إقامته بأى ثمن . والواقع أنه لا يقوم بأداء هذه الطقوس البشعة سوى القساوسة الأشرار ، وليس ثمة شك فى أنهم سوف يدفعون ثمن ذلك غالياً يوم القيامة (١) ، إذ لا يجرؤ أى رجل من رجال

---

(١) تكشف هذه العبارة وكثير غيرها عن مدى تدين فريزر وتأثره حتى أواخر ايامه بتربيته الدينية المبكرة . ومع ان مثل هذه العبارات تؤخذ على كتاباته لانها أحكام تقويمية يترفع عن اطلاقها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا الا انها تكشف عن فريزر «الانسان» الذى يختفى وراء فريزر «العالم الانثروبولوجى» (أ . أ)

الدين حتى ولو كان أسقف آوخ Archbishop of Auch نفسه، أن يغفر لهم ذلك الإثم ، لأن غفران مثل هذا الذنب هو من حق بابا روما وحده . ولا يقام هذا القداس إلا فى كنيسة متهدمة أو مهجورة حيث تنعق البوم وتمرق الخفافيش وقت الغسق وتأوى إليها جماعات الغجر فى الليل ، وحيث تقبع الضفادع البرية تحت مذبحها المدنس . فهناك يأتى ذلك القس الشرير بالليل ومعه عشيقته الفاجرة الخليعة ، وحين ترسل الساعة أولى دقاتها معلنة الحادية عشرة يبدأ يهمهم فى تلاوة القداس ابتداء من آخره إلى أوله بحيث يفرغ منه حين تبدأ دقات الساعة تعلن منتصف الليل ، وتقوم عشيقته بمساعدته فى ذلك . أما القربان الذى يباركه فلابد أن يكون أسود اللون ، كما أنه لا يتناول النبيذ ولكنه يشرب بدلا منه بعض الماء من بئر سبق أن ألقيت فيها جثة طفل مات قبل تعميده . ثم يرسم علامة الصليب ولكن على الأرض وبقدمه اليسرى ، ويقوم بأداء كثير من الأعمال الأخرى التى لا يستطيع أى مسيحى أن يراها دون أن يصيبه العمى والصمم والبكم بقية حياته . أما الشخص الذى يقام القداس ضده فإنه يذوى شيئاً فشيئاً دون أن يدرك أحد ما أصابه ، بل إن الأطباء أنفسهم يعجزون عن فهم سر مرضه وإدراك أنه يموت ببطء نتيجة لذلك القداس .

ولكن على الرغم من امتزاج السحر بالدين بهذه الطريقة فى كثير من العصور وكثير من البلاد فهناك من الأسباب ما يدعو إلى الاعتقاد بأن هذا الامتزاج ليس بدائيا . وأن الإنسان مر بعصر كان يعتمد

فيه على السحر وحده فى إشباع تلك الحاجات التى تسمو فوق شهواته الحيوانية المباشرة . والواقع أن دراسة الأفكار الأساسية فى السحر والدين تبين فى المحل الأول أن السحر أقدم من الدين فى تاريخ الإنسانية . ولقد سبق أن رأينا أن السحر من ناحية ليس إلا تطبيقا خاطئا لأبسط وأسهل عمليات الفكر ، ونعنى بها تداعى الأفكار عن طريق التشابه أو التجاور ، كما أن الدين من الناحية الأخرى يفترض وجود كائنات مدركة واعية وشخصية أسمى من الإنسان وتعمل من وراء ستار الطبيعة الظاهر المرئى . ومن الواضح أن فكرة القوى أو الكائنات الشخصية مسألة أكثر تعقيداً من مجرد إدراك التشابه أو الاتصال بين الأفكار ، كما أن النظرية التى ترى أن أحداث الطبيعة تتحدد بفعل قوى مدركة واعية هى نظرية أكثر عمقا وغموضا وتتطلب لفهمها من الذكاء والقدرة على التفكير درجة أعلى مما يتطلبه الاعتقاد فى أن تتابع الأحداث ناشىء من تجاورها أو تشابهها فحسب . فالحيوانات ذاتها تملك القدرة على الربط بين الأفكار المتعلقة بالأشياء المتشابهة أو الأشياء التى اعتادت أن تراها معا ، ولو عجزت عن ذلك لما استطاعت أن تعيش يوما واحداً . ومع ذلك فلا يمكن القول بأن الحيوانات تعتقد أن ظواهر الطبيعة تحدث نتيجة لتدخل عدد كبير من الحيوانات اللامرئية أو بفعل حيوان واحد ضخم له قوة هائلة تختفى وراء هذه الظواهر . ولن نبخس هذه الحيوانات قدرها إذا قصرنا شرف إقامة مثل هذه النظرية الأخيرة

على العقل البشرى وحده . وعلى ذلك فإذا كان من الميسور الاستدلال على السحر من عمليات التفكير الأولية مباشرة ، وإذا كان السحر كما هو الأمر فى الواقع – نوعا من الخطأ الذى يقع فيه العقل بشكل تلقائى تقريبا بينما يرتكز الدين على أفكار لا يمكن الزعم بأن الذكاء الحيوانى توصل إليها ، فإنه يصبح من المحتمل أن يكون السحر أسبق فى الظهور على الدين فى تطور الجنس البشرى ، وأن الإنسان عمد إلى إخضاع الطبيعة لرغباته باستخدام التعاويذ والطلاسم وحدها قبل أن يعمل على التقرب من الإله الحى الخجول المتقلب الغضوب ومحاولة استرضائه عن طريق السلوك الهادىء الدقيق الذى يتمثل فى الصلاة وتقديم القرابين .

وهذه النتيجة التى وصلنا إليها بهذه الطريقة الاستدلالية من دراستنا للأفكار الأساسية فى الدين والسحر يؤكدها ويعززها – بشكل استقراء – ما نعرفه من أن السحر يشيع عند جميع أهالى أستراليا الأصليين الذين يُعتبرون أشد الشعوب همجية وتأخراً ، ولكن تتوفر لدينا عنهم معلومات كثيرة دقيقة ، بينما لا يكادون يعرفون الدين من حيث هو استرضاء وتزلف للقوى العليا . ويمكن القول بوجه عام إن جميع الرجال فى أستراليا هم من السحرة ولكن ليس بينهم قسيس واحد ؛ وكلهم يتصورون أن فى إمكانهم التأثير فى الآخرين أو فى أحداث الطبيعة عن طريق السحر التعاطفى ولكن ليس منهم من يفكر فى استرضاء الآلهة بالصلاة أو القرابين .

ولكن إذا كان السحر قد وجدبكل هذا الوضوح فى أشد مراحل المجتمع الإنسانى المعروف لنا الآن تأخراً بينما لم يكن للدين مثل هذا الوجود ، أفلا يحق لنـــا أن نقول إن الشعوب المتحضرة فى العالم مرت فى فترة من تاريخها بمرحلة فكرية مماثلة ، وأنها حاولت أن تخضع قوى الطبيعة الجبارة لإرادتها هى قبل أن تفكر فى التقرب إليها لنيل رضاها عن طريق القرابين والصلاة ؟ وباختصار ألا يمكن لنا القول إنه مثلما كان هناك «عصر حجرى» للجانب المادى من الثقافة الإنسانية فى كل مكان ، كان يوجـــد « عصر سحرى » للجانب الفكرى من تلك الثقافة فى كل مكان أيضاً ؟ إن ثمة أسبابا تجعلنا نجيب على هذا السؤال بالإيجاب . فحين نستعرض السلالات البشرية الموجودة فى العالم الآن من جرينلد إلى تيرا أيلفويجو ومن اسكتلنده إلى سنغافورة ، فإننا نلاحظ أنها تتميز بعضها عن بعض بتنوع أديانها تنوعاً شديداً ، وأن هذه الفوارق لا تتلازم مع الاختلافات السلالية أو العرفية فحسب ، وإنما تمتد إلى أصغر الأقسام فى الدول ، وتوجد حتى فى المدن والقرى بل والعائلات ذاتها بحيث أن وجه المجتمع فى كل أنحاء العالم يتشقق ويتكسر ويتصدع بالتمزقات والتشققات والأخاديد الواسعة التى تنجم عن النزاع الدينى الذى يؤدى إلى التفكك والانحلال . ولكن إذا تعمقنا فى دراسة تلك الاختلافات التى تؤثر بوجه خاص فى الفئة الذكية المفكرة من أعضاء المجتمع لوجدنا تحته كلها طبقة صلبة من التشابه الفكرى يشترك فيها الأغبياء والضعفاء

والجهلة والخرافيون الذين يؤلفون لسوء الحظ الأغلبية العظمى من الجنس البشرى . ولقد كان أحد الانجازات الكبرى التى حققها القرن التاسع عشر هو التغلغل فى أعماق هذه الطبقة الذهنية الدنيا فى كثير من أنحاء العالم واكتشاف ما بينها من تماثل حقيقى فى كل مكان. والواقع أن هذا التماثل موجود بيننا نحن هنا فى أوربا فى الوقت الحاضر ، كما أنه يظهر واضحاً فى مجاهل استراليا وفى كل المناطق التى لم تستطع الحضارة الأكثر رقياً أن تدفنه بعد فى باطن الأرض. وهذا الإيمان العام هو فى حقيقة الأمر اعتقاد عميق بفاعلية السحر ؛ فبينما تختلف الأنساق الدينية ليس فقط من بلد لآخر بل وأيضاً داخل البلد الواحد فى مختلف العصور فإن نسق السحر التعاطفى يظل محتفظا إلى حد كبير بمبادئه وممارسته فى كل مكان وكل زمان . فالسحر السائد بين الطبقات الجاهلة التى تؤمن بالخرافات فى أوربا الحديثة يشبه إلى حد كبير جداً ما كان عليه منذ آلاف السنين فى مصر والهند كما يشبه أيضا السحر الموجود عند أدنى الشعوب الهمجية الموجودة فى الوقت الحاضر فى أقصى أرجاء العالم . وإذا كان الانتشار والذيوع يدلان على الصدق لكان نسق السحر أقرب من الكنيسة الكاثوليكية نفسها إلى القول السائد : من أن « ما هو موجود دائما فى كل وقت وعند جميع الناس » هو دليل وشهادة مؤكدة على منعته وعصمته وتنزهه عن الخطأ (١) .

(١) ترجمت بشيء من التصرف . (ا . ا)

وليس من شأننا أن ندرس هنا النتائج التى قد تترتب على وجود واستمرار تلك الطبقة الصلبة من الهمجية التى تكمن تحت سطح المجتمع وعدم تأثرها بالتغيرات السطحية التى تحدث فى مجالات الدين والثقافة ، وأثر ذلك فى مستقبل الإنسانية . ومن الصعب على الباحث المحايد الذى تمكنه دراساته من التغلغل فى أعماقها أن يعتبرها شيئاً آخر سوى نوع من التهديد الدائم للحضارة . والظاهر أننا نتحرك فوق قشرة رقيقة معرضة لأن تتكسر فى أى وقت بفعل تلك القوى الجوفية الراقدة تحتها . وقد نسمع من حين لآخر همهمة جوفاء تتصاعد من جوف الأرض أو قد يندفع فجأة نحو الفضاء لسان من اللهب نستدل منه على ما يدور تحت أقدامنا . ومن حين لآخر أيضا يصدم شعور العالم المهذب بخبر فى إحدى الصحف عن العثور فى اسكتلندة مثلا على تمثال رشقت الدبابيس فى كل أجزائه بقصد قتل أحد ملاك الأراضى أو أحد الوزراء المكروهين ، أو قد نقرأ عن موت امرأة على أيدى إحدى الساحرات فى ايرلندة نتيجة لتعريضها للنار بحيث تشوى ببطء ، أو عن مقتل إحدى الفتيات فى روسيا وتقطيع جسمها إربا ليصنع من شحمها بعض الشموع التى يستخدمها اللصوص أثناء ممارستهم لمهنتهم فى الخفاء وبعد أن يتقدم الليل . ولكن هل ستكون الغلبة فى آخر الأمر يا ترى للقوى التى تؤدى إلى تحقيق مزيد من التقدم أو لتلك التى تهدد بتدمير كل ما تم إنجازه بالفعل ؟ وهل ستكون اليد الطولى للطاقة العارمة المتدفقة

من الأقلية التى تستطيع أن تدفعنا إلى آفاق أعلى وأسمى ، أو للأغلبية الساحقة الخاملة من الناس قد تشدنا بكل ثقلها إلى أسفل وتهوى بنا إلى أعماق بعيدة الغور ؟ هذه أسئلة يجب أن توجه إلى الفيلسوف الحكيم وإلى عالم الأخلاق وإلى رجال الدولة والسياسة الذين تستطيع نظراتهم الثاقبة أن تنفذ إلى المستقبل ، وليس إلى الباحث المتواضع الذى يقف نفسه على دراسة الحاضر والماضى . إن كل ما يهمنا هنا هو أن نسأل إلى أى حد نستطيع أن نزعم – عن طريق مقارنة ما يتصف به الاعتقاد فى السحر من اطراد وعمومية من ناحية والأشكال المختلفة المتنوعة التى تتخذها العقائد الدينية بكل خصائصها المتميزة من الناحية الأخرى – أن السحر يمثل إحدى المراحل الدنيا السابقة فى التفكير الإنسانى ، وأن جميع السلالات والأجناس البشرية مرت بتلك المرحلة أو لا تزال تمر بها فى تقدمها نحو الدين ثم العلم ! ؟ .

ولو صدق ما أذهب إليه من أن « عصر الدين » سبقه دائما وفى كل مكان « عصر للسحر » فإنه يصبح من الطبيعى أن نتساءل عن الأسباب التى دفعت الجنس البشرى – أو بالأحرى جانبا منه – إلى نبذ السحر كمبدأ للإيمان والسلوك والالتجاء إلى الدين بدلا منه ؟ ولكن حين ننظر إلى كثرة الأمور التى يجب تفسيرها وتنوعها وتعقدها وإلى قلة ما نعرفه عنها ، فإننا نستطيع حينئذ أن نعترف بأنه لا يكاد يكون هناك أمل فى الوصول إلى حل كامل مقنع لمثل هذه المشكلة العميقة ، وأن كل ما قد يمكن عمله فى حالتنا الراهنة

من المعرفة هو أن نجازف بإبداء بعض التخمينات المقبولة . وعلى ذلك فإنه رغم عدم شعورى بالثقة التامة فيما أقول فقد أستطيع أن أزعم بأنه على الرغم من أن الإنسان لم يدرك زيف السحر وعقمه إلا فى وقت متأخر فقد دفع ذلك الإدراك الفئة القادرة على التفكير السليم من الناس إلى البحث عن نظرية عن الطبيعة تكون أكثر صدقا ، وعن وسيلة أفضل لفهم خباياها وكنوزها . وليس ثمة شك فى أن الأذكياء من البشر استطاعوا فى وقت معين أن يدركوا أن الطقوس والتعازيم السحرية لا تحقق فى حقيقة الأمر النتائج التى وضعت من أجلها والتى لا يزال أغلب البسطاء من الناس يعتقدون أنها تحققها بالفعل . ولابد أن هذا الاكتشاف العظيم لعدم فاعلية السحر قد أحدث ثورة جذرية – وإن كانت بطيئة – فى عقول الأشخاص الذين هداهم تفكيرهم الصائب إلى ذلك الاكتشاف . والواقع أن ذلك الاكتشاف لم يكن يعنى فقط أن الإنسان أدرك لأول مرة عجزه عن تسخير بعض القوى الطبيعية لإرادته ومشيئته بعد أن كان يظنها خاضعة تماما لسيطرته بل كان أيضا اعترافا صريحا منه بجهله وعجزه . فلقد رأى أن بعض ما كان يعتبره أسبابا وعللا كان بعيداً عن ذلك تماما وأن كل جهوده للإفادة من هذه العلل الوهمية كان مجرد سراب ، وبذلك ضاع عليه كل ما تحمله من مشقة وعناء كما فشلت مهارته وقدرته الفائقة فى أن تحقق أهدافه وأغراضه . لقد كان يجذب خيوطا لا يتعلق بها أى شىء . لقد كان يظن أنه يسير قدما نحو هدف محدد بالذات

بينما هو يدور فى حقيقة الأمر فى دائرة ضيقة . ولا يعنى ذلك أن النتائج التى كان يعمل جاهداً للوصول إليها توقفت عن أن تكشف عن ذاتها ، إذ الواقع أنها استمرت فى الحدوث دون أن يرتبط حدوثها بعمله وسحره . فلقد استمر المطر فى السقوط على الأرض الأسيانة واستمرت الشمس تقوم برحلتها النهارية والقمر برحلته الليلية عبر السماء ، كما استمر موكب الفصول فى سيره الصامت بين الظل والنور والغمام وضوء الشمس عبر الأرض ؛ وظل الناس يولدون للضنى والحسرة لكى يلحقوا بعد فترة إقامة قصيرة فى هذا العالم بآبائهم فى العالم الآخر الأبدى . ولقد ظلت كل الأمور الأخرى تسير كالعهد بها من قبل . ومع ذلك فقد بدا كل شىء غريبا أمام الشخص الذى اختلت الموازين القديمة فى نظره . ذلك أنه لم يعد يستطيع أن ينعم بوهمه اللذيذ من أنه هو الذى يوجه الأرض والسماء فى مجراهما وأنهما سوف يتوقفان عن دورانهما العظيم إذا رفع يديه الواهنتين عن عجلة القيادة . ولم يعد يرى فى موت أعدائه وأصدقائه برهانا ودليلا على القدرة الكاسحة التى تتمتع بها تعازيمه هو أو تعازيم خصومه ، بل أصبح يعرف أن أصدقاءه وأعداءه على السواء خاضعون لقوة أعلى من أى قوة يستطيع أن يخضعها لإرادته وأنهم جميعاً يستجيبون لمصير يعجز هو تماماً عن التحكم فيه .

ولقد وجد الفيلسوف البدائى نفسه بذلك وسط بحر من الشك وعدم اليقين وقد انقطعت الحبال التى كانت تربطه إلى مرساته القديمة

فتزعزعت ثقته القديمة الهانئة فى نفسه واهتزت قواه من أساسها . ووقع نتيجة لهذا كله فريسة للحيرة والاضطراب وعدم الاستقرار إلى أن وجد راحته واطمئنانه آخر الأمر فى نسق جديد من الإيمان والعمل شأنه فى ذلك شأن المسافر حين يصل إلى مرفأ هادىء بعد رحلة مضطربة عاصفة . ويبدو أن هذا النسق الدينى الجديد كان قادراً على أن يقدم له حلولا لشكوكه المزعجة وبديلا لتلك السيادة التى كان يفرضها على الطبيعة والتى كان عليه أن يتنازل عنها مرغماً ، وإن كان بديلا غير ثابت ، فإذا كان العالم العظيم يسير فى طريقه بدون أى عون منه أو من أتباعه فإن ذلك إنما يتم بفعل بعض الكائنات الأخرى التى تفوقه فى القوة ، وهى كائنات غير مرئية تتحكم فى سير العالم ويصدر عنها كل ما به من أحداث . كان يعتقد حتى تلك اللحظة أنها تحدث بفعل سحره هو . وبذلك أخذ يؤمن بأن تلك الكائنات — وليس هو — هى التى تسبب هبوب الرياح والأعاصير ولمعان البرق وهزيم الرعد ، وأنها هى التى أرست قواعد الأرض الصلبة . وحددت للبحر المائج سواحل لايتعداها ، وهى التى تجعل كل تلك الأضواء الرائعة فى السماء تشع بنورها ، كما أنها هى التى ترسل الصيد إلى جوارح الطير ووحوش الصحراء ، وتمنح الأرض خصوبتها كى تثمر بوفرة وتكسو التلال العالية ثوباً من الغابات وتفجر الينابيع من تحت الصخور لتجرى فى الوديان وتجعل المراعى الخضر تنمو وتزدهر على المياه الراكدة ، وهى التى تنفخت فى خياشيم الإنسان

فبعثت فيه الحياة ، كما أنها هى التى تسلط عليه المجاعات والأوبئة والحروب فتهلكه . وبذلك بدأ الإنسان يقدم نفسه فى تواضع إلى تلك الكائنات القوية التى شهد قوتها المبدعة فى كل مظاهر الطبيعة الفخمة الرائعة ويعترف فى خشوع باعتماده على قواها غير المرئية ويضرع إليها أن تشمله برحمتها وأن تسبغ عليه من نعم الحياة وتحميه من الأذى والأخطار التى تتعرض لها حياته الفانية فى كل لحظة ، وأن ترسل أخيراً روحه الخالدة بعد أن تتخلص من عبء الجسد إلى عالم أسعد لا ينالها فيه هم ولا حزن ، حيث يتاح له أن يهدأ مع تلك الكائنات ومع أرواح الناس الطيبين فى سرور وسعادة ونعيم مقيم .

وبهذه الطريقة – أو بطريقة أخرى تشبهها – يمكن أن نتصور أن العقول الأكثر قدرة على التفكير العميق استطاعت أن تحقق تلك النقلة الجبارة من السحر إلى الدين . إلا أن ذلك التغيير لم يكن ليتم حتى بالنسبة لتلك العقول الجبارة فجأة ، بل إنه حدث ببطء شديد واحتاج لعصور طويلة كى يصل بشكل أو بآخر إلى غايته . إذ لابد أن يكون إدراك الإنسان بعجزه عن التأثير فى مجرى الطبيعة على نطاق واسع قد تم بالتدريج ، وأنه كان من الصعب تجريده من كل سلطانه المتوهم بضربة واحدة . ولابد أن يكون تراجعه عن موقفه المتغطرس حدث خطوة فخطوة ، وأنه أخذ يتنازل شبراً بشبر عن الأرض التى كان يعتبرها ملكاً له وقد ملأته الحسرة والأسى ، فيعترف تباعا وعلى مرات متتالية بعجزه عن أن يخضع لإرادته الرياح

أو الأمطار أو ضوء الشمس أو الرعد وهكذا . وبينما كانت « أقاليم » و « مقاطعات » الطبيعة تفلت من يده واحدة تلو الأخرى بحيث أن ما كان يبدو له من قبل بمثابة مملكته الخاصة أصبحت آيلة للانكماش لتغدو بمثابة السجن له ، كان إحساسه بالعجز إزاء الكائنات غير المرئية التى تحيط به يزداد قوة وعمقاً . وهكذا فإن الدين الذى بدأ كنوع من الاعتراف السطحى والجزئى بوجود قوى أسمى وأعلى من الإنسان أخذ يزداد عمقاً ويتحول إلى اعتراف الإنسان صراحة باعتماده الكلى والمطلق على ما هو إلهى نتيجة لاتساع المعرفة الإنسانية ، وقد استبدل بسلوكه الحر القديم موقف التذلل والخضوع أمام القوى الخفية التى تعمر العالم غير المرىء ، وأصبحت الفضيلة المثلى فى نظره هى أن يُخضع إرادته لارادة تلك القوى الخفية لأن فى اردتها يكمن الأمن والسلام له . بيد أن هذا الإحساس العميق بالدين وهذا الخضوع الكامل للإرادة الإلهية كانا وقفاً على أصحاب العقول الذكية والنظرة الواسعة التى تدرك مدى عظمة الكون وضآلة الإنسان . فالعقول الكليلة تعجز عن إدراك المعانى الكبيرة ، إذ أنها ــ بفضل ضيق أفقها وقصر نظرها ــ تتصور نفسها أكبر وأهم ما فى هذا الوجود . ومثل هذه العقول لا تكاد ترتفع إلى مستوى الدين على الاطلاق . صحيح أنها تنجذب بتأثير العقول الأقوى منها إلى نوع من التواؤم الخارجى مع قوانين الدين وشرائعه وتمارس متطلباته بطريقة لفظية ، ولكنها فى أعماقها تظل متشبثة بخرافاتها

السحرية القديمة التى تلقى كثيراً من الاعتراض بل والتحريم ، وإن لم يفلح هذا كله فى القضاء عليها تماماً وازالتها من طريق الدين ، لأن جذورها تتغلغل إلى الأعماق داخل الإطار الذهنى والتكوين العقلى للغالبية العظمى من الناس . وقد يتساءل القارىء كيف عجز الأذكياء من الناس عن أن يكتشفوا فى وقت أكثر تبكيراً ما فى السحر من زيف وأغاليط ، وكيف ظلوا يتمنون حدوث بعض الأمور التى كان مقدراً لها دائماً الفشل والخيبة ، وكيف ظلوا يمارسون مهازل يكسبونها طابع الوقار دون أن تؤدى إلى شىء ، ويرددون كثيراً من السخف والهراء الذى لا طائل تحته ، وكيف كانــوا يجسرون على أن يكرروا التجارب التى أثبتت فشلها فشلا ذريعاً ؟ والجواب على ذلك هو أن الزيف لم يكن من السهل اكتشافه ، وأن الخطأ لم يكن واضحاً تماماً ، لأنه فى كثير من الحالات – بل وربما فى معظم الحالات – كانت النتيجة المرجوة تحدث فعلا بعد فترة قصيرة أو طويلة من ممارسة الشعائر التى كانت ترمى إلى حدوثها ، وأن الأمر كان يحتاج لعقل يتمتع بدرجة غير عادية من الفطنة حتى يدرك أن تلك الشعائر لم تكن بالضرورة – حتى فى الحالات الناجحة – هى علة تلك الأحداث . فالطقوس التى كانت تمارس من أجل هبوب الريح مثلا أو سقوط المطر أو موت أحد الناس كان يعقبها دائماً بوقت قصير أو طويل حدوث ذلك الحادث الذى تهدف إليه . وقد يكون للرجل البدائى بعض العذر فى أن يعتبر وقوع الحادث

نتيجة مباشرة لتلك الطقوس ، بل وأن يرى فيه أفضل برهان ودليل على فاعلية تلك الطقوس . وبالمثل فإن الشعائر التى تمارس فى الصباح من أجل شروق الشمس وتلك التى تقام فى الربيع لإيقاظ الأرض الحالمة من نومها الشتوى كان يبدو أنها تكلل دائماً بالنجاح ، على الأقل فى المناطق المعتدلة حيث تضيء الشمس مصباحها الذهبى كل صباح فى الشرق ، وتزين الأرض نفسها من جديد سنةً بعد سنة فى كل ربيع وتكسو نفسها حلة خضراء غنية . فلا غرابة إذن إذا كان الرجل الهمجى ذو النزعة العملية المحـــافظة يسد أذنيه عن آراء المتشككين والنظريين والراديكاليين المتفلسفين الذين قد يلمحون بأن الشمس والربيع قد لا يكونان بعد كل شيء نتائج مباشرة لممارسة بعض الطقوس اليومية أو السنوية بدقة وانتظام ، وأن الشمس قد تستمر فى الشروق كما قد تستمر الأشجار فى الإثمار إذا أهمل الناس أداءها من حين لآخر أو حتى أغفلوها تماماً . وليس من شك فى أن هذه الشكوك والريب كانت تقابل بالرفض والاحتقار والسخط من الآخرين الذين كانوا يعتبرونها مجرد تأملات خيالية موجهة ضد الإيمان وتدحضها التجربة والواقع . وقد يقول الرجل الهمجى : « هل ثمة ما هو أوضح وأبسط من أننى أضيء شمعتى الرخيصة على الأرض فتتوقد الشمس بعدها نارها الهائلة فى السماء ؟ سوف يسعدنى أن أعرف إذا ما كانت الأشجار لا تلبس أرديتها الخضراء بعد أن ألبس أنا نفسى ثوبى الأخضر فى الربيع . إن هذه حقائق

جلية واضحة لكل ذى عينين ، ولذا فإننى أستند إليها . إننى رجل بسيط وعملى ولست واحداً من أصحاب تلك النظريات الدقيقة أو من الذين يتلاعبون بالألفاظ . وقد تكون النظريات والتأملات وما إليها صالحة وصادقة فى ذاتها وليس لى أدنى اعتراض على اشتغالكم بها . واغراقكم فيها ما دمتم لا تحاولون تجربتها فى الواقع ، وكل ما أطلبه هو أن تتركونى وشأنى فى تمسكى بالوقائع ، لأننى حينئذ أعرف مكانى بالضبط » . والمغالطة فى هذا النوع من التفكير واضحة لنا لأنها تدور حول أمور انتهينا نحن فيها إلى آراء ثابتة منذ وقت طويل . ولكن لو أننا طبقنا هذا النوع من الجدل على بعض الأمور التى لا تزال موضع مناقشة وتساؤل فمن المحتمل أن يتقبله الرجل البريطانى نفسه على أنه موقف سليم ، ويعتبر صاحبه إنساناً حصيفاً . صحيح أنه قد لا يكون رجلا لامعاً أو ميالا للتفاخر وحب الظهور ولكنه امرؤ على درجة عالية من الوعى والإدراك والفهم . فإذا كانت مثل هذه الأساليب من التدليل تجد صدى قوياً بيننا نحن أنفسنا فهل هناك ما يدعو إلى العجب إذا كان الرجل الهمجى أخفق فى أن يكشف زيفها لفترة طويلة من الزمن ؟

الفصل الخامس



التحكم فى الطقس عن طريق السحر

١ ـ الساحر العمومي :

قد يذكر القارىء أننا انسقنا إلى الدخول فى متاهات السحر بدراسة نوعين مختلفين من الآلهة البشر . وكان هذا هو الدليل الذى قاد خطواتنا المتعرجة فى دروب المتاهة إلى أن وصل بنا فى آخر الأمر إلى أرض عالية حيث نستطيع أن نستريح قليلا ، ونلقى نظرة إلى الوراء على الطريق الذى قطعناه وأخرى إلى الأمام على الطريق الأكثر طولا والأشد وعورة والذى ما زال يتعين علينا أن نتسلقه .

ونتيجة للمناقشة السابقة يمكننا تيسيراً للأمور أن نميز بين نوعين من الآلهة البشر ، وهما على التوالى الإله البشرى الدينى والإله البشرى السحرى . ففى النوع الأول يسود الاعتقاد بأن كائناً مختلفاً عن الإنسان وأكثر منه سمواً ورفعة يتجسد لفترة قصيرة أو طويلة فى صورة آدمية ويظهر قوته ومعرفته اللتين تفوقان قوة وعلم الإنسان بإتيان المعجزات والنطق بالنبوءات من خلال الجسد الآدمى الذى تنازل واتخذه سكناً له . ويمكن أيضاً أن يسمى هذا النوع بالإله البشرى الملهم أو المتجسد ، وهى تسمية مناسبة نظراً لأن جسم الإنسان يكون فى هذه الحالة مجرد وعاء دنيوى رقيق امتلأ

* التحكم فى الطقس عن طريق السحر : ترجمة د. نور شريف .

بروح الهية خالدة . أما الإله البشرى السحرى فليس إلا رجلا يمتلك بدرجة غير عادية القدرات التى يزعم بقية الناس أنها توجد فيهم — ولكن بدرجة أقل وعلى نطاق أضيق ؛ إذ لا يكاد يوجد فى المجتمع البدائى رجل واحد لا يمارس السحر . ومن ثم فبينما يستمد الإله البشرى الملهم ألوهيته من إله تواضع فأخفى بهاءه السماوى وراء قناع بشرى معتم يستمد الإله البشرى من النوع الثانى أو السحرى قوته الخارقة من تعاطف جسمانى مع الطبيعة . فهو ليس مجرد وعاء يتلقى روحاً الهية بل ان كيانه بأكمله ، بكل جسده وروحه يوجد فى حالة توافق تام مع العالم إلى درجة أن لمسة واحدة من يده أو حركة من رأسه قد تبعث تموجات يهتز لها أساس الكون إلا أن كيانه يتمتع مع ذلك ، من الناحية الأخرى بدرجة من الحساسية الحادة تجعله يتأثر بأقل التغيرات التى تحدث فى البيئة المحيطة به والتى لاتترك أدنى أثر فى الإنسان العادى . ولكن مهما وضح الخط الفاصل بين هذين النوعين من الالهة — البشر من الناحية النظرية فإن من الصعب — من الناحية العملية — تتبعه بدقة ولذا فلن أتمسك بهذه المسألة فى الصفحات التالية .

ولقد رأينا أنه يمكن من الناحية العملية — استخدام السحر إما لصالح الأفراد وإما لصالح الجماعة بأسرها — وبذلك يمكن وصف السحر بأنه سحر خاص أو سحر عام أو عمومى وفقاً للهدف الذى يرمى إليه ، كما أننى أوضحت أن الساحر العمومى يحتل مكانة

ذات شأن كبير يمكنه عن طريقها – لو كان رجلا حكيما قديراً – أن يتقدم خطوة بخطوة حتى يصل إلى مرتبة الرئيس أو الملك . وعلى ذلك فإن دراسة السحر العمومي تساعدنا على فهم الملكية في أيامها الأولى ، إذ يبدو أن الكثيرين من الرؤساء والملوك في المجتمع الهمجي والبربري (١) كانوا يدينون بسلطتهم إلى حد كبير إلى شهرتهم كسحرة .

ويعتبر الحصول على كمية كافية من الغذاء أهم الأهداف المرتبطة بالصالح العام والتي يمكن استخدام السحر في تحقيقها . وتثبت الأمثلة التي ذكرناها في الصفحات السابقة أن جميع من يزودون المجتمع بالطعام كصيادي الحيوانات والسمك وكذلك الزراع كانوا يلجأون إلى السحر في مزاولة أعمالهم ، ولكنهم كانوا يفعلون ذلك بصفتهم أفراداً عاديين يعملون لمصلحتهم ومصلحة عائلاتهم وليس بصفتهم موظفين عموميين يعملون من أجل الصالح العام . ولكن الوضع يختلف حين تقام الطقوس ليس على أيدي الصيادين والزراع أنفسهم وإنما تقام من أجلهم على أيدي السحرة المحترفين . ففي المجتمع البدائي حيث يكون العمل الموحد هو القاعدة . وحيث

---

(١) يتبع فريزر هنا التقسيم الذى وضعه العالم الانثربولوجي لويس مورجان للمراحل التى مرت بها الانسانية فى تطورها والذى بمقتضاه يمر المجتمع الانسانى فى عمومه وكذلك كل مجتمع على حده – بمرحلة الهمجية ثم مرحلة البربرية قبل ان يصل مرحلة الحضارة .

لم ينقسم المجتمع بعد إلى فئات مختلفة من العمال فإن كان كل فرد يلعب دور الساحر بالنسبة لنفسه فيعمل التعاويذ والرقى التى تحقق مصلحته وتنزل الأذى بأعدائه . ولكن حدث تقدم كبير حين ظهرت طبقة خاصة ومتميزة من السحرة ، أو بقول آخر عندما انفردت فئة من الرجال بممارسة الأعمال التى تهدف إلى صالح الجماعة بأسرها عن طريق مواهبها ، سواء استخدمت هذه المواهب فى علاج الأمراض أو التنبؤ بالمستقبل أو فى التحكم فى الطقس أو فى أى غرض آخر يعود بالنفع على الجميع . ويجب ألا يعمينا فشل الوسائل التى استخدمها غالبية هؤلاء السحرة لتحقيق أغراضهم عن الأهمية الكبرى للنظام نفسه فهذه مجموعة من الرجال أزيح من فوق عاتقهم - على الأقل فى المراحل الأكثر تقدماً من الحياة الهمجية — مهمة الحصول على قوتهم عن طريق العمل اليدوى الشاق وسمح لهم ، بل والأكثر من ذلك أن كان ينتظر منهم بل وكانوا يشجعون فعلا ، على البحث فى أسرار الظواهر الطبيعية ، فكان من واجبهم بل ومن مصلحتهم فى الوقت نفسه أن يعرفوا أكثر مما يعرف أخوانهم وأن يحيطوا علماً بكل ما قد يساعد الإنسان على صراعه المرير مع الطبيعة وكل ما قد يخفف من آلامه ويطيل حياته . فخواص العقاقير والمعادن وأسباب سقوط المطر والرعد والبرق ، وتغير الفصول ، وأوجه القمر ومدار الشمس اليومى والسنوى وحركة النجوم ، وسر الحياة وسر الموت ،

كلها أشياء استثارت ولاشك دهشة هؤلاء الفلاسفة الأولين (١) وعجبهم وحفزتهم على إيجاد حلول للمشاكل التى كان عملاؤهم يضعونها فى كثير من الأحيان تحت أنظارهم بطريقة عملية إلى حد بعيد جدا ، وهم يتوقعون منهم ليس فقط فهم عمليات الطبيعة الكبيرة بل ويطالبونهم بالتحكم فيها لصالح الإنسان . ولم يكن ثمة مفر من أن تفشل محاولاتهم الأولى فشلا ذريعاً . فالتقدم البطىء المطرد نحو الحقيقة يأتى عن طريق وضع الفروض واختبار صحتها ثم قبول تلك التى يبدو فى حينها أنها تتفق مع الحقائق ورفض الأخرى . ولاشك فى أن الآراء التى اعتنقها الساحر الهمجى عن العلل الطبيعية تبدو لنا الآن كاذبة وسخيفة ، ومع ذلك فقدكانت فى حينها افتراضات معترفاً بها ، على الرغم من أنها تصمد أمام التجربة . إن السخرية واللوم هما الجزاء الذى يستحقه الأوائل الذين صاغوا هذه النظريات البدائية ، وإنما أوائل الذين تعلقوا بها بإصرار وعناد بعد أن قامت نظريات أخرى أفضل منها . ومن المؤكد أن أحداً

---

(١) يستخدم فريزر هنا كلمة « فلاسفة » لوصف المشتغلين بالسحر فى المجتمع البدائى على اعتبار ان مهنة الساحر تقتضى منه فى الوقت ذاته النظر فى طبائع الاشياء ومحاولة وضع نظام عقلى يمكن عن طريقه فهم الكون ، وان كانت الاسس التى يقوم عليها هذا النظام تختلف بالضرورة عن الاسس التى تقوم عليها المذاهب الفلسفية بالمعنى الدقيق للكلمة نتيجة لاختلاف الخبرات أيضا بل انهم يرون ان جانبا كبيرا من التفكير البدائى يصل الى ــ درجة معينة من التجريد لم يتنبه اليها الانثربولوجيون الاوائل . وربما كان أهم من عالج مشاكل « الفلسفة البدائية » العالم الانثربولوجى الامريكى بول رادين :

لم تكن لديه حوافز للبحث عن الحقيقة أقوى من هؤلاء السحرة الهمج . فقد كان من الضرورى جداً على الأقل أن يدعوا شيئاً من المعرفة فاكتشاف خطأ واحد قد كان كفيلا بأن يودى بحياتهم . وقد دفعهم ذلك ولا شك إلى الخداع من أجل اخفاء جهلهم ، ولكن زودهم أيضاً بدافع قوى جداً لاستبدال معرفة حقيقية بمعرفة زائفة ، إذ أن أفضل طريقة تساعد المرء على الظهور بمظهر من يعرف شيئاً هو أن يعرفه بالفعل . ومن ثم ، فعلى الرغم من أننا نكون على حق فى رفضنا ادعاءات السحرة المبالغ فيها وفى اداتنا لوسائل الخداع التى اتبعوها مع الناس ، فإن وجود هذه الطبقة من الرجال فى أول الأمر كان بوجه عام فائدة لا تقدر بالنسبة للانسانية فهم السلف المباشر ليس لأطبائنا وجراحينا فحسب بل وأيضاً لباحثينا ومكتشفينا فى كل فرع من فروع العلوم الطبيعية. لقد بدءوا العمل الذى استمر فيه خلفاؤهم فى العصور التالية ، ووصلوا إلى نتائج باهرة نافعة . وإذا كانت المرحلة الأولى ضعيفة واهنة ، فإن ذلك يرجع إلى الصعوبات الحتمية التى تقف حجر عثرة فى طريق المعرفة أكثر مما يرجع إلى العجز الطبيعى للرجال أنفسهم أو إلى احتيالهم المتعمد .

٢ ــ التحكم فى المطر عن طريق السحر :

من أهم الأشياء التى يقف الساحر العمومى نفسه لتحقيقها من أجل صالح القبيلة التحكم فى الجو ، وبوجه خاص ضمان توفير مقادير

كافية من المطر ، على اعتبار أن الماء هو إحدى ضروريات الحياة فإن معظم البلاد تعتمد على الأمطار لسد حاجاتها منه ، وبدون المطر فإن النبات يذبل كما يضعف الحيوان والإنسان حتى الموت . ومن هنا كان صانع المطر (١) يعتبر من أهم الشخصيات في المجتمعات البدائية ، وكثيراً ما توجد طبقة خاصة من السحرة يتولى أفرادها مهمة تنظيم الأمطار التي تسقط من السماء ويستخدمون في محاولتهم القيام بمهام وظيفتهم في العادة — وإن لم يكن دائماً — نفس الطرق والأساليب التي تستند إلى مبدأ السحر التشاكلي المحاكاة . فإذا أرادوا مثلا أن يسقط المطر قاموا بمحاكاة سقوطه عن طريق رش بعض الماء أو محاكاة عملية تجمع الغيوم والسحب ، أما إذا كانوا يريدون إيقافه

---

(١) على الرغم من وجود نظام صنع المطر او الاستسقاء فى كثير من الشعوب والقبائل المتخلفة فان النظام يرتبط فى الكتابات الانثربولوجية بالقبائل الافريقية وبخاصة فى السودان الجنوبى ويوغنده . ويشغل صانع المطر كما يقول فريزر مركزا ممتازا فى المجتمع القبلى البدائى لانه يجمع فى كثير من الاحوال بين ما يمكن تسميته بالسلطتين الزمنية والروحية فى القبيلة . وفى اغلب الأحيان ينتمى صانعو المطر الى عشيرة معينة فى القبيلة وان كان هذا لا يعنى أن « الوظيفة » وراثية لأنها تحتاج الى توفر خصائص معينة فيمن يشغلها كما انها تقتضى منه أن يخضع لكثير من القيود والى خبرات طويلة ومعرفة دقيقة بأحوال المنطقة الى تعيش فيها القبيلة ، وان كان هناك ميل واضح فى كثير من القبائل الى أن ينقل صانع المطر علمه وخبرته الى احد ابنائه لكى يتولى من بعده اداء هذه الطقوس والممارسات العامة . راجع فى ذلك على العموم ماذكره الزوجان شلجمان فى مواضع متفرقة من كتابهما الضخم :

Seligman, C.G. and Breuda Z. ; *Pagan Tribes of the Nilotic Sudan*, Routledge, London 1932.

واحداث الحدب فإنهم يتفادون الاقتراب من الماء ويعمدون إلى الدفء وإلى النار كى تجف الرطوبة الزائدة عن الحد . ولا تقتصر هذه المحاولات – كما قد يتصور القارىء المثقف – على الأهالى العرايا فى البلاد الحارة الرطبة مثل أواسط استراليا وبعض المناطق فى شرق افريقيا وجنوبها حيث تسطع الشمس المحرقة المرهقة فى سماء زرقاء صافية فتلفح الأرض اليابسة المتشققة لشهور طويلة ، بل إنها تشيع أيضاً ، أو كانت تشيع ، بين الأهالى المتمدينين – ظاهرياً – فى البلاد الأوربية الممطرة . وسوف أضرب الآن عددا من الأمثلة المستقاه من عمليات السحر الخاص والسحر العام لكى أبين بها هذه المحاولات .

مثال ذلك أنه حين كانت الحاجة للمطر تشتد فى إحدى القرى القريبة من دوريات Dorpat فى روسيا كان ثلاثة رجال يتسلقون أشجار الشربين فى إحدى الغابات القديمة المقدسة ، فيضرب أحدهم بمطرقة على إبريق أو على صندوق مقلداً صوت الرعد ، ويحك الثانى قطعتين من الخشب إحداهما بالأخرى ، فيتطاير منهما الشرر محاكياً بذلك البرق ، بينما يأخذ الثالث ، وكان يعرف باسم « صانع المطر » فى رش الماء حوله من إحدى الأوانى مستخدماً فى ذلك حزمة من أغصان الشجر . وكانت النساء والفتيات فى قرية بولسكا Polska يخرجن فى أثناء الليل ويسرن عاريات تماماً حتى مشارف القرية حيث يصببن الماء على الأرض

فيسقط المطر وينتهى الجدب . وفى هالماهيرا Halmahera أو جيلولو Gilolo وهى جزيرة كبيرة تقع غربى غينيا الجديدة ، يغمس الساحر غصن شجرة من نوع معين بالذات فى الماء ثم ينثر الماء بعد ذلك على الأرض فيسقط المطر — ، بينما كان صانع المطر فى بريطانيا الجديدة New Britain يلف بعض أوراق أحد النباتات المتسلقة المخططة باللونين الأحمر والأخضر فى ورقة من شجر الموز ، ويرطب اللفة بالماء ويدفنها فى الأرض ثم يخرج من فمه بعض الأصوات التى يقلد بها صوت سقوط المطر . وعند هنود الأوماها Omaha فى أمريكا الشمالية حين تذبل الحنطة نتيجة لامتناع المطر يملأ أعضاء جمعية الجاموس Buffalo Society المقدسة إناء كبيراً بالماء ويرقصون حوله أربع مرات ، ثم يتناول أحدهم قليلا من ذلك الماء فى فمه وينفثه فى الهواء على شكل رذاذ خفيف يشبه الضباب أو قطرات المطر ، ثم يقلب الاناء فينسكب الماء ويلقى الراقصون بأنفسهم على الأرض ، يشربون بأفواههم الماء عن آخره ويلطخون وجوههم بالطين ، ثم يلقطون الماء فى آخر الأمر فى الهواء على شكل ضباب خفيف وبذلك ينقذون الحنطة من الخطر . ولقد كانت قبائل الناتشيز Natchez فى أمريكا تشترك معاً فى فصل الربيع « لشراء » الطقس المناسب لمحصولاتهم من السحرة . فإذا كانوا فى حاجة إلى المطر ، عكف السحرة على الصوم والرقص وقد وضعوا فى أفواههم أنابيب مليئة بالماء وبها

ثقوب كتلك التى توجد فى فوهة إناء الرش . و من خلال هذه الثقوب كان صانع المطر ينفث الماء فى اتجاه تلك الناحية من السماء التى تتكاثف فيها السحب أكثر من غيرها أما إذا كان المطلوب هو الجو الصحو فإنه كان يصعد إلى سطح كوخه ثم ينفخ بكل ما أوتى من قوة وهو يلوح بذراعيه كى تنقشع السحب . وفى أنجونيلاند الوسطى Central Angoniland يذهب الناس حين تمتنع الأمطار عن السقوط فى موسمها إلى ما يسمى بمعبد المطر فينظفون الأرض هناك من الحشائش والأعشاب ويدفن رئيسهم فى الأرض إناء مملوءاً بالجعة وهو يقول « أيها الرب تشاوتا Chauta لقد قسا قلبك علينا . ماذا تريد منا أن نصنع ؟ لابد وأننا سنغنى . امنح أبناءك المطر مثلما نقدم لك هذه الجعة » . ثم يتناول كل منهم — حتى الأطفال — بعض ما تبقى من الجعة ، ثم يأخذون فى الغناء والرقص من أجل المطر وقد حملوا أغصان الشجر فى أيديهم — فإذا ما عادوا إلى القرية وجدوا عند المدخل إناء من الماء وضعته لهم امرأة عجوز فيغمسون أغصانهم فى الماء وأخذوا يلوحون بها فى الهواء حتى تتناثر قطرات الماء . ولا مفر من أن تأتى الأمطار بعد ذلك فى ثنايا السحب الكثيفة . ويمكننا أن نجد فى هذه الممارسات مزيجاً من الدين والسحر ، إذ بينما تعتبر عملية توزيع قطرات الماء بواسطة الأغصان طقساً سحرياً بحتاً ، تعتبر الصلاة من أجل نزول المطر وتقديم الجعة شعيرة دينية خالصة .

أما عند المارا Mara وهى قبيلة تعيش فى شمال استراليا ،

فإن صانع المطر يتوجه إلى إحدى البحيرات ويقف هناك لكى يرتل تراتيله السحرية ، ثم يغترف بيديه شيئاً من مائها يضعه فى فمه ثم يلفظه ثانية فى كل الاتجاهات ، وبعدها يلقى بماء كثير على جسمه ومن حوله ثم يعود فى هدوء إلى مخيمه . والمفروض أن يسقط المطر بعد ذلك . ويذكر لنا المؤرخ العربى المقريزى طريقة لمنع سقوط المطر كان يقال إنها كانت شائعة بين إحدى قبائل البدو فى حضرموت وهى قبيلة « القمر » فقد كان الناس هناك يقطعون غصن شجرة معينة فى الصحراء ويشعلون فيه النار ثم يرشون الماء بعد ذلك على الخشب المشتعل فيقل هطول المطر حتى يتوقف تماماً مثلما تختفى المياه التى ترش على الخشب المتوهج . ويقال أن بعض قبائل الأنجام Angamis الشرقيين فى مانيبور Manipur يمارسون طقوساً مماثلة إلى حد ما ولكن لتحقيق هدف مناقض تماماً أى اسقاط المطر ، فقد كان رئيس القرية يثبت قطعة من الخشب المشتعل على قبر رجل مات نتيجة لاصابته ببعض الحروق ، ثم يطفىء تلك النار بالماء وهو يصلى أثناء ذلك كى يسقط المطر . ويلعب الرجل الميت نفسه دوراً فى زيادة فاعلية الماء — الذى يرمز إلى المطر — فى إطفاء النار ، إذ من الطبيعى أنه هو نفسه ينتظر سقوط المطر بفارغ الصبر كى يرطب ويبلل جسمه المحروق فتخفف آلامه .

وفيما عدا العرب فإن كثيراً من الشعوب الأخرى كانت تستخدم النار كوسيلة لمنع سقوط المطر . من ذلك مثلا أن قبائل السولكا

Sulka في بريطانيا الجديدة يضعون بعض الحصى في النار حتى يحمر فيخرجوه للمطر ، أو قد يذرون الرماد الساخن في الهواء اعتقاداً منهم أن المطر لابد أن ينقطع لأنه يكره أن تحرقه الحجارة الملتهبة أو يلفحه الرماد الساخن . أما قبائل التلوجو Telugus فإنهم يرسلون إحدى فتياتهم الصغيرات إلى المطر وهي عارية تماماً وقد حملت في يدها قطعة من الخشب المشتعل لكي تبرزها للمطر ويعتقدون أن ذلك كفيل بأن يتوقف المطر الغزير تماماً . كذلك كان السحرة في بورت ستيفنز Port Stephens في نيوساوث ويلز يعملون على إبعاد المطر عنهم عن طريق إلقاء أعواد مشتعلة في الهواء وهم ينفخون ويصيحون في الوقت ذاته، بينما نجد أن بامكان الشخص العادى عند قبيلة الأنولا Anula في شمال استراليا أن يمنع سقوط المطر بأن يضع فرعاً أخضر في النار حتى يدفأ ثم يضرب به الهواء .

وحين يشتد الجدب عند قبائل الديرى Dieri في أواسط أستراليا يقوم الرجال ، وقد استبد بهم الحزن والأسى على ما آلت إليه أحوال البلاد من فقر وشدة وعلى ما وصلت إليه أحوالهم هم أنفسهم نتيجة للجوع الضارى، فيتوسلون إلى أرواح أسلافهم القدامى الذين يطلقون عليهم اسم موراموا Mura-Mura أن يهبوهم القدرة على إسقاط الأمطار الغزيرة ، وذلك نظراً للاعتقاد السائد عندهم أن السحب عبارة عن أجسام تتولد فيها الأمطار بفضل الطقوس التي يمارسونها هم أنفسهم أو القبائل المجاورة وكذلك بفضل تأثير

المورامورا . ولكى يحصل الديرى على تلك الأمطار من السحب فإنهم يحفرون فى الأرض حفرة طولها أثنا عشر قدماً تقريباً ويتراوح عرضها من ثمانية إلى عشرة أقدام ويقيمون فوقها كوخاً مخروطى الشكل من كتل الخشب وأغصان الأشجار ، ثم يقوم أحد شيوخ القبيلة من ذوى النفوذ والسلطان باجراء بعض العمليات الجراحية لاثنين من السحرة يعتقد الناس أنهما يتلقيان نوعاً خاصاً من الالهام أو الوحى من المورامورا ، ويستخدم فى هذه العملية قطعة حادة من حجر الصوان بحيث تسيل الدماء من سواعدهما إلى أسفل المرفقين ، ويستخدم بقية رجال القبيلة الذين يحتشدون فى الكوخ تلك الدماء السائلة فى تخضيب أجسامهم . وفى الوقت نفسه يقوم هذان الساحران بنثر بعض الزغب فيتطاير فى الهواء ويلتصق بعضه بأجسام الرجال المختضبة بالدماء . ويرمز الدم عندهم إلى المطر بينما يرمز الزغب إلى السحب . وتوضع أثناء ممارسة هذه الطقوس قطعتان كبيرتان من حجر الصوان فى وسط الكوخ لكى تمثلا السحب المتكاثفة والأمطار العزيرة التى ستسقط وشيكاً . ثم يحمل الساحران هاتين القطعتين من الصخر بعد ذلك إلى مكان بعيد حيث يثبتانهما فى أعلى مكان يمكنهما الوصول إليه مثل قمة إحدى الأشجار . وخلال ذلك يجمع بقية رجال القبيلة أحجار الجبس فيدقونها حتى تصبح ناعمة ويلقونها فى إحدى الآبار ويرى المورامورا هذا كله فيعملون

من جانبهم على ظهور السحب فى السماء . وفى النهاية يحيط جميع الرجال - على اختلاف أعمارهم - بالكوخ وقد أحنوا قاماتهم ثم ينطحون الكوخ برءوسهم مثل الكباش حتى يخترقوه بالقوة ويخرجوا من الجانب الآخر ، ويكررون هذه العملية مراراً حتى يتداعى الكوخ تماماً، ولا يسمح لهم باستخدام أيديهم أو أذرعهم فى ذلك وإن كان يحق لهم أن يسحبوا الكتل الخشبية وفروع الأشجار بأيديهم بعد أن تنفصل تماماً من الكوخ . ويمثل اختراق الرجال للكوخ برؤسهم هجوم السحب على المنطقة كما أن سقوط الكوخ ذاته يرمز إلى سقوط المطر . ومن الواضح أن وضع قطعتى الصوان اللتين تشيران إلى السحب فوق إحدى الأشجار هو وسيلة للتأثير فى السحب الحقيقية حتى تتراكم فى السماء . كذلك تعتقد قبائل الديرى أن للغشاء الرقيق الذى ينزع من الصبية أثناء عملية الختان قدرة هائلة على إسقاط المطر ، ولذا فإن مجلس القبيلة يحتفظ دائماً ببعض هذه الأغشية لاستخدامها عند الحاجة ، ويخفونها بعناية داخل لفافة يصنعونها من الريش المخلوط بكمية من دهن الكلب البرى أو الثعبان الاسترالى ، ولا يجوز للنساء رؤية هذه اللفافة بحال . وعندما تنتهى الشعائر الخاصة بصنع المطر يدفن الغشاء الذى استنفذت قواه . ومن هنا أيضاً كنا نجد أنه بعد أن تسقط الأمطار تجرى لبعض أفراد القبيلة عملية جراحية تتلخص فى انتزاع مساحات من جلد الصدر والذراعين بقطعة حادة من الصوان ثم يدق على الجرح

بقطعة مسطحة من الخشب حتى تتدفق الدماء بغزارة ويدعك الجرح بالكحل الأحمر فتنشأ عن ذلك بعض الندوب . ويزعم الناس أن ثمة علاقة بين المطر وتلك الندوب . والظاهر أن العملية ذاتها غير مؤلمة لأن الرجال الذين تجرى عليهم يضحكون ويمزحون أثناء إجرائها ، بل أن الأطفال الصغار يتزاحمون حول الشخص الذى يمارس هذه العملية منتظرين دورهم بصبر فارغ ثم ينطلقون بعد العملية إلى الخارج باسطين صدورهم الصغيرة وهم يغنون للمطر لكى ينزل عليها . ولكن هذه الفرحة لا تلبث أن تتلاشى فى اليوم التالى عندما يشعرون بحدة الآلام المنبعثة من جراحهم . وحين تشتد الحاجة للمطر فى جاوة يقوم الرجال بضرب بعضهم بعضاً بالعصى المرنة إلى أن تسيل الدماء من ظهورهم . ويرمز الدم السائل إلى المطر المنهمر ولذا فإنهم يعتقدون أن هذه العملية تساعد على سقوط المطر. وكان أهالى قرى ايغيو Egghion — وهى مقاطعة فى الحبشة — يشتبكون معاً فى بعض المعارك الدموية لمدة أسبوع كامل خلال شهر يناير من كل سنة بقصد استنزال المطر ، وظلت الحال كذلك حتى حرم الامبراطور مينليل هذه العادة منذ بضع سنين ، ولكن اضطر إلى السماح باقامتها لمدة يومين فقط فى السنة حين ارتفعت أصوات الاحتجاج القوية من الشعب بعد أن نقصت كمية الأمطار فى العام التالى. وقد ذهب الكاتب الذى ذكر هذه الواقعة إلى أن الدم الذى يسيل فى هذه المناسبات هو نوع من القربان الذى يقدمه الأهالى لترضية الأرواح التى

تتحكم فى المطر : ولكن من المحتمل أن الهدف من هذه العادة هو محاكاة سقوط الأمطار على ما هو الحال فى الطقوس والشعائر الاسترالية . كذلك من المحتمل أن يكون كهنة بعل Baal متأثرين بهذا المبدأ نفسه حين محاولتهم الحصول على المطر عن طريق تمزيق أجسامهم بالسكاكين

وثمة اعتقاد شائع بأن الأطفال التوائم يتمتعون بقوى سحرية على الطبيعة وبخاصة المطر والطقس . وتسود هذه الخرافة الغريبة عند بعض قبائل الهنود الحمر فى كولومبيا البريطانية وكثيراً ما تدفعهم إلى فرض بعض القيود الشاذة أو التحريمات على والدى التوائم ، وإن كان المعنى الحقيقى لهذه القيود غير واضح تماماً فهنود التسيمش Tsimshian مثلا فى كولومبيا البريطانية يعتقدون أن للتوائم قدرة على التحكم فى الطقس ولذا فإنهم يقولون فى صلواتهم للرياح والمطر « اهدئى يا أنفاس التوائم » كما أنهم يرون أن رغبات التوائم مجابة دائماً ولذا فإنهم يخشونهم أشد خشية اعتقاداً منهم بأنهم يستطيعون ايذاء الشخص الذى يكرهونه . كذلك يعتقد التسيمش أن للتوائم قدرة غريبة على جذب أسماك السالمون من البحر ولذا يطلقون عليهم اسم « صانعى الخير » ويعتقد هنود الكواكيوتل Kwakiutl أن التوائم كانوا فى الأصل من أسماك السالمون قبل أن يتحولوا إلى توائم ولذا كان يتعين عليهم الابتعاد عن الماء خشية أن ينقلبوا إلى سمك مرة أخرى كما يعتقدون أن فى استطاعة

الأطفال التوائم إثارة الرياح بتحريك أيديهم والتأثير فى الطقس ومعالجة الأمراض بتحريك شخشاخة كبيرة من الخشب . أما هنود النوتكا Nootka فإنهم يذهبون إلى أن للتوائم علاقة بالسمك السالمون أيضاً ولذا يحرمون عليهم صيد هذا النوع من السمك بالذات كما يحرمون عليهم أكل السمك الطازج أو حتى لمسه باليد ، ويذهبون إلى أن للتوائم القدرة على التأثير فى الطقس وانزال المطر إذا دهنوا وجوههم باللون الأسود ثم غسلوها بالماء ، رمزا للمطر المتساقط من السحب الدكناء . ويربط هنود الشوسواب Shuswap وهنود طومسون فى المنطقة ذاتها بين التوائم والدببة المفترسة ولذا فإنهم يسمونهم « الدببة المفترسة الصغيرة » كما يعتقدون أنهم يتمتعون طيلة حياتهم ببعض القوى الخارقة للطبيعة وبخاصة فيما يتعلق بالتحكم فى الطقس ، وأن فى استطاعتهم صنع المطر عن طريق سكب قدر من الماء من خلال سلة مثلا ، والتأثير فى الطقس عن طريق تثبيت قطعة صغيرة من الخشب المسطح بخيط إلى عصا قصيرة ثم هزها فى الهواء ، بينما يستطيعون إثارة العواصف عن طريق رش الماء فوق أغصان شجر الشربين ، وهكذا .

وينسب البارونجا Baronga وهى إحدى قبائل البانتو الذين يعيشون على شواطىء خليج ديلاجوا Delagoa فى جنوب شرق إفريقية ــ إلى التوائم قدرات مماثلة . ولذا فإنهن يسمون المرأة التى تلد توأمين « تيلو Tilo » أى السماء ، كما يسمون

أطفالها « أولاد السماء » . وحين يطول انتظار الناس — بغير جدوى — للأمطار العاصفة التي تنهمر هناك فى العادة فى شهرى سبتمبر واكتوبر ثم يهدد الجدب والمجاعات بعد ذلك حياتهم وتلهث الطبيعة كلها عطشا لأمطار الربيع فى جنوب افريقية بعد أن تكون قد اكتوت بنار الشمس المحرقة خلال الأشهر الستة التى تلمع فيها الشمس وسط السماء الصافية ، تقوم النساء ببعض الطقوس التى تهدف إلى سقوط المطر على الأرض الاسيانة ، فيخلعن عنهن جميع ملابسهن ويضعن بدلا منها أحزمة وأغطية للرأس مجدولة من الأعشاب أو يغطين أجسامهن بأردية قصيرة مصنوعة من أوراق نوع معين من النباتات المتسلقة ويتنقلن بين الآبار لتطهيرها من الطين والشوائب المتراكمة فيها وهن يطلقن أثناء ذلك أصواتاً غريبة ويرددن الأغانى الماجنة. والآبار هناك عبارة عن حفر ضحلة فى الرمال يركد فيها قليل من الماء العكر الآسن . ثم تحمل النساء بعض الماء فى عدد من الجرار الصغيرة ويتوجهن إلى دار امرأة تكون قد وضعت توأمين فيسكبن عليها الماء من تلك الجرار ثم يرجعن قافلات وهن يرددن تلك الأغانى الماجنة ويقمن ببعض الرقصات الخليعة . ولا يجوز لرجل أن يشاهدهن فى تلك الملابس المصنوعة من أوراق الشجر أو أن يتابعهن فى انتقالهن بين الآبار ، حتى إذا صادفن رجلا فى الطريق انهلن عليه بالضرب ثم ألقين به جانباً . وبعد أن يتم تطهير الآبار يتجه النساء إلى قبور الأسلاف فى الغابة المقدسة فيلقين ببعض الماء

عليها . وكثير ما يذهبن ، بأمر الساحر لإلقاء الماء على قبور التوائم الموتى نظر للاعتقاد بضرورة أن تظل تلك القبور فى حالة رطبة دائماً . وهذا هو السبب فى دفن التوائم هناك بالقرب من البحيرات. فإذا فشلت كل هذه المحاولات فى جلب المطر فإن ذلك يرد إلى وجود قبر أحد التوائم فى مكان جاف على سطح الجبل ، وحينئذ يقول الساحر انه « لا غرابة فى أن تظل السماء ملتهبة . ارفعوا جثته واحفروا لها قبرا على حافة البحيرة . » ولابد من أن تطاع أوامره فى الحال لأن هذه هى الوسيلة الوحيدة لاسقاط المطر .

وبعض هذه الحقائق يؤيد الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ أولدنبرج Oldenberg فى تفسيره للقواعد التى كان يتبعها البراهمة حين يريدون أن يتعلموا إحدى ترانيم المجموعة الهندية القديمة المعروفة باسم الساماڤيدا Samaveda وتعرف هذه الترنيمة باسم أغنية الساكڤارى Sakvari ، والمعتقد أنها تجسم قوة الصاعقة التى هى سلاح اندرا Indra ونظرا للقوة الرهيبة الخطيرة التى تكمن فى هذه الأغنية كان الطالب الجرىء الذى يريد أن يتعلمها يعزل تماماً عن رفاقه بأن يترك القرية ليعيش وحده فى الغابة مدة تتراوح — تبعاً لآراء الفقهاء المختلفين — من سنة واحدة إلى اثنتى عشرة سنة يخضع أثناءها لقواعد وتعاليم معينة كأن يلمس الماء بيديه ثلاث مرات كل يوم ويرتدى ملابس سوداء ويتناول طعاماً أسود اللون ، كما كان يحرم عليه الاحتماء من المطر وإنما يجب عليه بدلا من ذلك أن يجلس

تحت وابل الماء وهو يردد « إن الماء هو أغنية الساكڤارى » . وحين يومض البرق كان يقول : « إن وميض البرق يشبه أغنية الساكڤارى » وحين يقصف الرعد يقول « إن الموجود العظيم يحدث هذا الصوت العظيم » . كذلك كان يحرم عليه أن يعبر مجرى ماء دون أن يلمس الماء ذاته بيديه ، أو أن تطأ قدماه ظهر سفينة إلا إذا كانت حياته هو فى خطر ، وحتى فى هذه الحالة كان ينبغى عليه أن يلمس الماء قبل أن يصعد إلى السفينة فالمثل يقول « فى الماء تكمن قوة أغنية الساكڤارى وفاعليتها » (١) . وحين كان يسمح له فى آخر الأمر بأن يتعلم الأغنية ذاتها كان يغمس يديه فى وعاء به قدر من الماء وأنواع مختلفة من النباتات . وكان يقال إن إله المطر المدعو بارچانيا Parjunya لابد أن يستجيب لدعوة مثل هذا الشخص الذى اتبع كل هذه التعاليم إذا طلب إليه أن يرسل المطر على الناس . وواضح أن كل هذه التعاليم — كما يقول الأستاذ أولدنبرج — « تهدف إلى اتحاد البرهمى بالماء بحيث يصبح — تبعاً للقول السائد — حليفاً لقوى الماء وبذلك يأمن شرها وسطوتها . وتحمل الملابس والأطعمة السوداء معنى مماثلا . فليس ثمة أدنى شك فى أنها تشير إلى السحب الممطرة الداكنة ، خاصة إذا تذكرنا أنهم يقدمون أضحية سوداء

(١) تذكرنا كل هذه القيود والقواعد والتعاليم بما سبق ان اشرنا اليه فيما يتعلق بشائر التكريس التى تمارسها الشعوب والقبائل المختلفة على الصبية كخطوة اساسية تمهد لهم الطريق لاحتلال مركز اجتماعى معين فى التنظيم القبلى (أ . ا) .

اللون أيضاً لجلب المطر ، ويقولون فى ذلك إن الأضحية سوداء « لأن هذه هى طبيعة المطر. وثمة تعويذة أخرى للمطر تقول فى صراحة : إن المطر يلبس رداء أسود له حافة سوداء ... تلك هى طبيعة المطر » وعلى ذلك يحق لنا أن نقول إن الأفكار والطقوس السائدة فى المدارس القيدية لا تزال تحتفظ بكثير من التقاليد السحرية التى كانت سائدة فى العصور البعيدة فى القدم والتى كانت تهدف إلى إعداد صانع المطر للقيام بوظيفته وتكريس نفسه لها .

ومما هو جدير بالملاحظة أنه حين يكون العكس هو المطلوب فإن المنطق البدائى يفرض على ساحر الجو مراعاة قواعد للسلوك عكسية . ففى جزيرة جاوة حيث تشهد الثروة النباتية الوفيرة على غزارة الأمطار تندر إقامة الشعائر لاستنزال المطر بينما تمارس على العكس من ذلك الشعائر التى تمنع سقوطه . وقبل أن يقيم أى شخص هناك حفلا كبير أثناء الفصل المطير فإنه يذهب إلى الساحر المختص بالتحكم فى الطقس ويطلب إليه أن « يرفع السحب التى قد تكون آخذة فى التجمع » . فإذا وافق الساحر على تسخير كفاءته المهنية لذلك العمل فإنه يشرع فى الحال فى تعديل سلوكه وتصرفاته تبعاً لقواعد معينة بالذات كأن يصوم تماماً أو يمتنع على الأقل عن شرب الماء والاستحمام كما أنه لا يأكل إلا قليلا من الطعام الجاف ولا يسمح لنفسه أن يلمس الماء بحال . أما صاحب الدعوة فإنه يتجنب طوال الفترة التى يستغرقها الاحتفال غسل الملابس والاستحمام.

ويسرى ذلك نفسه على بقية من الرجال والنساء الذين يجب عليهم أن يراعوا الطهارة التامة خلال تلك الفترة . ويجلس الساحر على سجادة صغيرة جديدة فى حجرة نومه وقد وضع أمامه مصباحاً يضاء بالزيت ، وقبل أن يبدأ الحفل بقليل يؤدى الساحر صلواته ويتلو التعويذة التالية :

« أيها الجد وأيتها الجدة سروكل (ويبدو أنه يختار الاسم جزافاً لأن هناك أسماء أخرى تستعمل فى الحالات المختلفة) عوداً إلى بلد كما .. إن أخيمات هى بلد كما ... ألقيا بصندوق الماء جانباً وغطياه جيداً حتى لا تتسرب منه نقطة واحدة من الماء » . وبينما يتلو الساحر هذه الصلاة يشخص ببصره إلى السماء وهو يحرق البخور . كذلك الحال عند قبائل التوراجا يحرص ساحر المطر – ووظيفته الأساسية هى إبعاد المطر وليس اسقاطه – على أن يتناول طعامه الجاف دون أن يغسل يديه ، كما أنه لا يشرب إلا نبيذ النخل ، وان اضطر إلى عبور مجرى ماء فإنه يحرص على ألا تمس قدمه الماء وبعد أن يعد نفسه لمهمته فإنه يبنى لنفسه كوخاً صغيراً فى حقل أرز خارج – القرية ويشعل فيه ناراً خافتة يحرص على أن تظل مشتعلة طيلة الوقت وفيها يحرق أنواعاً مختلفة من الخشب يعتقد أن لها قدرة على إبعاد المطر ، كما ينفخ فى الاتجاه الذى ينذر بسقوط الأمطار ، بينما يحمل فى يديه لفافة من أوراق الشجر ولحائه يعتقد أن لها أيضاً القدرة على تشتيت السحب ليس بفضل تركيبها الكيميائى وإنما بفضل أسمائها التى تحمل

معانى تشير إلى الجفاف وسرعة التبخر . فإذا ظهرت السحب أثناء ممارسته هذه الطقوس فإنه يأخذ فى يده شيئاً من الحبر وينفخه فى اتجاهها ، ولما كان الحبر يتميز بشدة الجفاف فمن الواضح أنه يصلح تماماً – فى نظره – لتبديد السحب الرطبة ، وإذا دعت الحاجة إلى المطر فيما بعد فكل ما عليه أن يفعله هو أن يأتى ببعض الماء على النار المشتعلة فينزل المطر غزيراً فى الحال .

وسوف يلاحظ القارىء كيف أن شعائر الحاويين والتورادچا التى تقام لمنع سقوط المطر هى النقيض تماماً من الشعائر الهندية التى تهدف إلى إسقاطه . فبينما يراعى الحكيم الهندى أن يلمس الماء ثلاث مرات يومياً بانتظام وكذلك فى مناسبات خاصة أخرى عديدة يحرم على السحرة الحاويين وعند التورادچا لمس الماء بالمرة . وبينما يعيش الحكيم الهندى فى الغابة فى العراء ويحرم عليه الاحتماء من المطر يجلس الساحر فى جاوة وعند التورادچا داخل المنزل أو الكوخ . وبينما يعبر الهندى عن تعاطفه مع الماء عن طريق استقبال المطر على جسده والكلام عنه باحترام بالغ يوقد الحاويون والتورادچا المصابيح أو يشعلون النيران ويبذلون كل ما فى وسعهم لدفع المطر بعيداً . ومع ذلك فالمبدأ الذى يعمل الثلاثة بمقتضاه واحد : فكل منهم يربط نفسه تماماً بالظاهرة التى يرغب فى إيجادها عن طريق التظاهر الساذج بحدوث الشىء فعلا . وهذا هو المنطق القديم الخاطىء المبنى على الاعتقاد بأن المعلول يشبه علته . فإذا أراد المرء أن يسقط

المطر وجب عليه أن يكون هو نفسه مبتلا ، أما إذا أراد الطقس الجاف فيجب عليه أن يبتعد عن البلل تماماً .

ولا يزال الناس فى جنوب شرقى أوروبا يقيمون شعائر لانزال المطر ترتكز على نوع التفكير السابق ذكره ليس من حيث الفكرة العامة فقط بل وأيضاً من حيث التفاصيل التى تشبه إلى حد كبير الشعائر التى تقيمها قبائل البارونجا فى خليج ويلاجوا لنفس الغرض :: من عادة اليونانيين فى ثساليا ومقدونيا عندما تطول فترة الجدب أن يرسلوا موكباً من الأطفال يطوف بجميع آبار المنطقة المجاورة وينابيعها ، وتتقدم الموكب فتاة تغطى جسمها بالزهور ويسكب عليها زملاؤها كميات كبيرة من الماء فى كل مكان يتوقف عنده الموكب وهم يرتلون أثناء ذلك دعاء معيناً يقولون فى موضع منه :

بربريا ، أيتها النضرة المخضلة ،
أنعشى كل المنطقة من حولنا
صلى للاله عند مرورك
فى الطريق بالغابات .
يا إلهى ابعث على السهول
مطرا هادئاً خفيفاً
كى تثمر الحقول
وتزدهر الكروم

وتمتلىء حبوب الغلة وتنضج
ويثرى الأهالى من حولنا ..

وفى وقت الجدب يجرد الصربيون إحدى الفتيات من ملابسها تماماً ثم يغطونها من قمة الرأس حتى أخمص القدم بالحشائش والأعشاب والأزهار كما يخفون وجهها نفسه بخمار من الخضرة النضرة ويطلق على الفتاة وهى فى هذا التنكر اسم « دودولا Dodola » وتمر الدودولا وسط مجموعة من الفتيات بشوارع القرية وكل منازلها ، وتقوم أثناء ذلك بالرقص حول نفسها بينما تقف الفتيات الأخرى حولها فى شكل دائرة وهن يغنين إحدى أغانى الدودولا . وتصب ربة البيت الذى يقف الموكب أمامه داوا من الماء على الدودولا . وتقول إحدى هذه الأغانى :

« إننا نسير فى القرية
بينما تسير السحب فى السماء
إننا نسرع الخطى
مثلما تسرع السحب فى السماء
لقد لحقت بنا السحب
وبللت الحنطة والكروم » .

وحين تشتد الحاجة إلى المطر فى بونا Poona فى الهند يغطى الصبية أحدهم بأوراق الشجر ويطلقون عليه اسم « ملك المطر » ويسيرون فى شكل موكب يمر بكل بيوت القرية حيث يرش صاحب

الدار أو زوجته « ملك المطر » بالماء ويقدم لهم بعض أصناف الطعام . وبعد أن ينتهى الموكب من زيارة كل بيوت القرية يجردون « ملك المطر » من رحلته النباتى الأخضر ويستمتعون بتناول الطعام الذى جمعوه .

ويلجأ الناس فى بعض المناطق فى جنوب وغرب روسيا إلى الاستحمام كوسيلة سحرية لجلب المطر . وكثيراً ما كان الناس هناك يلقون راعى كنيستهم – وهو فى كامل ملابسه – على الأرض بعد الانتهاء من الصلاة ويغمرونه بالماء ، كما أن النساء يستحممن سنوياً فى عيد القديس يوحنا المعمدان دون أن يخلعن ملابسهن ويلقين فى الوقت ذاته فى الماء دمية مصنوعة من فروع الشجر والحشائش والأعشاب رمزاً لذلك القديس . وفى كورسك Kursk – وهى إحدى مقاطعات روسيا الجنوبية – يلقى النساء القبض على أى شخص غريب من المارة حين تشتد الحاجة إلى المطر ويلقين به فى النهر أو يغمرنه بالماء تماماً . وسنرى فيما بعد أن عابر السبيل كثيراً ما كان يعتبر إلها أو تجسيد الإحدى القوى الطبيعية هناك . وتسجل لنا الوثائق الرسمية أنه أثناء الجدب الذى حدث عام ١٧٩٠ جمع الفلاحون فى شيروتس Scheroutz وويربوتس Werboutz جميع النساء وأرغموهن على الاستحمام لكى تسقط الأمطار . وتقوم إحدى التعاويذ الأرمينية لنزول المطر على إلقاء زوجة أحد رجال الدين فى الماء وغمرها فيه ، كما أن العرب فى شمال إفريقيا

يلقون بأحد رجال الدين عندهم – سواء أرضي هو نفسه عن ذلك أم لم يرض فى أحد الينابيع كوسيلة للتغلب على الجدب . ؟ وفى ميناهاسا Minahassa ، وهى إحدى مقاطعات السيليبيز يستحم الكاهن لا نزال المطر ، بينما نجد الناس فى سيليبيز الوسطى – وبخاصة الشبان منهم – يتوجهون حين تنقطع الأمطار مدة طويلة وتبدأ أعواد الأرز فى الذبول إلى غدير ماء فى المنطقة المجاورة ويرشون بعضهم بعضاً بالماء وهم يصيحون بأصوات مرتفعة عالية ، أو ينفثون الماء من خلال أنابيب من البوص ويقلدون صوت سقوط المطر بأن يضربوا سطح الماء بأيديهم أو بأن يضعوا قشرة تعطينه مقلوبة فوق سطح الماء وينقروا عليها بأصابعهم .

وتعتقد بعض الشعوب فى قدرة النساء على إنزال المطر عن طريق الحرث ، أو التظاهر بذلك . ومن هنا كنا نجد عند قبائل البشو Pshau والتشوسور Cheusur فى القوقاز احتفالا يعرف باسم « حرث المطر » يقام فى أوقات الجدب ، وفيه تربط الفتيات أنفسهن إلى محراث يقمن بجره إلى وسط النهر ويخضن فى الماء حتى يصل إلى الخصر . وتفعل الفتيات فى أرمينا الشيء نفسه فى الظروف المماثلة ، كما ترتدى أكبر النساء سناً – أو زوجة الكاهن – رداء الكاهن نفسه بينما ترتدى بقية النساء زى الرجال ويقمن بجر محراث فى الماء فى عكس اتجاه التيار . وعندما يستمر الجدب فترة طويلة فى مقاطعة چورچيا بالقوقاز يقوم الأهالى بتقييد الفتيات اللاتى

بلغن سن الزواج – بالقيود التي تربط بها الثيران بحيث تقيد كل اثنتين منهما بقيد واحد من أكتافهن ويمسك رجل الدين بالعنان في يديه ويخوض الجميع على هذا النحو في الأنهار والوحل والمستنقعات وهم يصلون ويصيحون وينتحبون ويضحكون . أو في إحدى مقاطعات ترانسلفانيا عندما تجف الأرض بفعل الجدب تخلع بعض الفتيات جميع ملابسهن وتقتادهن إمرأة عجوز عارية أيضاً إلى حيث يسرقن مجرفة أو ممحاة فيحملنها عبر الحقول إلى أحد الغدران حيث يضعنها فوق صفحة الماء ويجلسن عليها وهي طافية ويوقدن ناراً خافتة في كل ركن منها لفترة من الزمن ثم يتركن الممحاة بعدها في الماء ويعدن إلى بيوتهن . وفي بعض مناطق الهند يلجأ الناس إلى تعويذة مشابهة إذ تجر النساء العاريات محراثاً عبر أحد الحقول أثناء الليل ويحرص الرجال أشد الحرص على الابتعاد عن ذلك المكان حتى لا يبطل وجودهم مفعول السحر .

وفي بعض الأحيان يتم مفعول تعويذة المطر عن طريق الموتى . ففي نيوكاليدونيا مثلا يدهن صانع المطر جسمه باللون الأسود ويخرج من أحد القبور جثة شخص ميت ويحمل العظام إلى أحد الكهوف حيث يثبتها بعضها ببعض ويعلق الهيكل العظمي كله فوق أوراق القلقاس ثم يصب عليه مقادير من الماء بحيث تسيل على أوراق النبات ذلك أنهم يعتقدون أن روح الميت تأخذ الماء فتحوله إلى مطر ينزل مرة ثانية من السماء . ولقد كان الفلاحون في روسيا حتى وقت

قريب – ان صحت الرواية الشائعة – يخرجون من القبر في المنطقة التي ينالها الجدب جثة شخص مات من الافراط في الشراب فيغرقونها في أقرب مستنقع أو بحيرة وهم مقتنعون تماماً إن ذلك سيؤدى إلى سقوط المطر الذى هم في أشد الحاجة إليه . ففي عام ١٨٦٨ حين توقع الناس سوء المحصول نتيجة لاستمرار الجدب قام أهالى إحدى القرى في مقاطعة تاراشانسك **Tarashchansk** باخراج جثة أحد « المنشقين » من جماعة الراسكولنيك **Raskolnik** (١) كان قد مات في شهر ديسمبر السابق وانهال بعضهم بالضرب على الجثة أو على ما بقى منها – حول الرأس – وهم يصيحون : « أعطنا مطراً » : بينما أخذ الباقون يصبون عليها الماء من خلال غربال . وواضح أن صب الماء من خلال ثقوب الغربال أو المنخل هو محاكاة لظاهرة سقوط المطر . وهذا يذكرنا بالطرقة التي كان زيوس يصنع بها المطر حسب تصور ستربسياديس **strepsiades** في مسرحية أرستوفانيس. وكثيراً ما تستعطف قبائل التورادجا الموتى من أجل الحصول على المطر . ولذا نجد أن الناس في قرية كالبنجوا حيث يوجد قبر أحد زعماء القبيلة المشهورين – وهو جد الحاكم الحالي – يذهبون إلى ذلك القبر حين تعاني الأرض من حدوث الجدب في غير أوانه فيصبون عليه الماء وهم يقولون : « أيها الجد ، ارحمنا .. إن كانت

---

(١) يرجع استخدام هذه الكلمة لأول مرة في الأغلب الى عام ١٧٩٩ ، والمقصود بها المنشقون أو الخارجون على الكنيسة الأرثوذكسية في روسيا (١٠١).

مشيئتك أن نطعم هذا العام فأعطنا المطر » ثم يثبتون فوق القبر عوداً من البوص مملوءاً بالماء وفى طرفه الأسفل ثقب صغير يسمح للقطرات بأن تتسرب منه إلى الأرض بغير انقطاع ويملئون العود باستمرار بالماء حتى تسقط الأمطار وتغمر الأرض . وفى هذا المثال نجد — كما هو الحال فى — نيوكاليدونيا — أن السحر يمتزج بالدين لأن الناس يقرنون الصلاة للزعيم المتوفى وهى شعيرة دينية خالصة بالمحاكاة السحرية لظاهرة سقوط المطر عند القبر. ولقد رأينا أن رجال قبائل البارونجا فى خليج ديلاجا يغمرون بالماء قبور أسلافهم وبخاصة قبور التوائم كوسيلة سحرية لجلب المطر . وقد كانت العادة عند بعض قبائل الهنود الحمر فى منطقة اورينوكو أن يخرج أقارب الميت عظامه من القبر بعد مرور سنة من دفنه فيحرقونها ويذرون الرماد فى الهواء اعتقاداً منهم أن الرماد يتحول إلى مطر يرسله الميت على الناس فى مقابل أدائهم لهذه الطقوس الجنائزية . ويعتقد الصينيون أنه إذا تركت جثة شخص ميت بدون دفن فإن روحه تنزعج من المطر بنفس الطريقة التى ينزعج بها الشخص الحى حين تفاجئه الأمطار الغزيرة فلا يجد مأوى يحتمى به من قسوة الجو ، ولذا فإن هذه الأرواح البائسة تعمل كل ما فى وسعها لكى تمنع المطر من السقوط . وكثيراً ما تسفر جهودها عن نجاح يفوق كل حدود التصور بحيث تؤدى إلى الجدب والقحط وهما أقسى النوائب التى يهلع لها الأهالى فى الصين ، نظراً لما يترتب عليهما من سوء المحصولات وحدوث

المجاعات . ومن هنا كانت السلطات الصينية تهتم أشد الاهتمام في أوقات الجدب بدفن العظام الجافة للموتى الذين لم يدفنوا من قبل لوضع حد للبلاء ولانزال المطر .

كذلك تلعب الحيوانات دوراً هاماً في تعاويذ الطقس في كثير من الحالات . فقبيلة أنولا Anula في شمال استراليا تربط بين الطائر المعروف بإسم طائر الدولار dollar-bird والمطر بل إنهم يطلقون عليه اسم « طائر المطر » . ويستطيع الشخص الذي يتخذ هذا الطائر طوطما له أن يسقط المطر بسهولة بأن يصطاد ثعباناً ويضعه حياً في بركة ماء بحيث يظل ممسكاً به تحت الماء برهة من الزمن ثم يقتله ويضعه إلى جانب الخور ، ثم يأخذ حزمة من أعواد الحشائش فيصنع منها شكلا مقوساً يرمز به إلى قوس قزح ويثبته فوق الثعبان ويبدأ في الغناء بعد ذلك لهما معاً فيسقط المطر بعد بعض الوقت . ويفسر الأهالي هذه العملية بأسطورة تقول إن ذلك الطائر كان يتخذ له رفيقاً في قديم الزمان ثعباناً كان يعش في تلك البركة ، وكان الثعبان يبصق نحو السماء فتظهر السحب ويتكون قوس قزح وتسقط الأمطار . وثمة طريقة لانزال المطر شائعة في كثير من أنحاء جاوة تتلخص في غسل قطة ، أو قط وقطة معاً ، بالماء وحملهما في بعض الأحيان في موكب تتقدمه الموسيقى . وحتى في باتافيا يسير الأطفال في حالات قليلة حاملين قطة إلى بركة ماء، وبعد أن يغطسوها في الماء لبعض الوقت يطلقون سبيلها فتنزل الأمطار .

وعندما يريد الساحر في قبيلة وامبوجوي Wambugue بشرق افريقيا استنزال المطر فإنه يحمل خروفاً أسود وعجلاً أسود اللون أيضاً إلى سطح أحد الأكواخ العامة التي يعيش فيها أفراد القبيلة معاً . وتحت أشعة الشمس المحرقة يشق الساحر بطني حيوانين وينثر محتويات المعدة في كل الأنحاء ، ثم يضع بعض الماء والعقاقير الطبية في إناء فيفور الماء من الغليان دلالة على نجاح سحره وينزل المطر . أما إذا أراد منع المطر من السقوط فإنه يدلف إلى داخل الكوخ حيث يسخن قطعة من الصخر البللوري في وعاء من الطين الجاف . وحين تريد قبائل الواجوجو Wagogo الحصول على المطر يقدمون لأرواح أسلافهم قرابين من الدجاج والغنم والماشية السوداء اللون كما يرتدي صانع المطر نفسه ملابس سوداء طيلة موسم المطر ، بينما تصنع قبائل الماتابلي تعاويذ المطر من صفراء أحد الثيران السوداء ودمائه . وفي بعض أقاليم سومطرة يذهب نساء القرية جميعاً إلى النهر وليس عليهن سوى قليل جداً من الملابس فيخضن في الماء ويرششن بعضهن البعض به ثم يلقين في النهر بقطة سوداء ويطاردنها بعض الوقت في الماء قبل أن يسمحن لها بالإفلات منهن والعودة إلى الشاطيء . أما قبائل الجارو Garo في أسام فإنهم يقدمون في وقت الجدب قرابين من الماعز السوداء اللون يذبحونها فوق قمم الجبال الشاهقة الارتفاع . وفي كل هذه الحالات يعتبر لون الحيوان جزءاً هاماً من التعويذة السحرية على اعتبار أن اللون الأسود سوف يساعد على تراكم

السحب الممطرة الداكنة فى السماء . وهذا هو السبب فى أن التبشوانا يحرقون معدة أحد الثيران عند حلول المساء لأن . الدخان الأسود يجمع السحب ويسبب سقوط المطر حسبما يقولون . وحين تريد قبائل التيمبو نزول المطر فإنهم ينحرون خنزيراً أسود كضحية يقدمونها لآلهة الأرض بينما ينحرون خنزيراً أبيض أو أحمر اللون قرباناً لإله الشمس للحصول على الدفء والضوء ، كذلك تقدم قبائل الانجون قرباناً للمطر يتألف من أحد الثيران السوداء بينما ينحرون ثوراً أبيض للحصول على الجو الصحو . وفى أحد أقاليم اليابان الواقعة فى الجبال الشاهقة تذهب جماعة من الأهالى حين ينقطع المطر عنهم لفترة طويلة من الزمن إلى أحد مساقط المياه الجبلية وهم فى هيئة موكب يتقدمه أحد رجال الدين وهو يقود أمامه كلباً أسود ، وحين يصل الموكب إلى المكان المختار يربطون الحيوان إلى حجر ضخم ويتخذون منه هدفاً لرصاصهم وسهامهم ، حتى إذاما غطت دماؤهم المتناثرة الحجر تماماً ألقى الفلاحون بأسلحتهم ورفعوا أصواتهم بالتضرع إلى التنين الإلهى للنهر متوسلين إليه أن يرسل عليهم فى الحال وابلا من المطر ليطهر المكان من الدنس الذى علق به . ويقضى العرف فى هذه المناسبات أن يكون لون الضحية أسودا رمزاً للسحب الممطرة التى يرغب الناس فى تراكمها وتجمعها . أما إذا كان المطلوب هو الطقس الصحو فان الضحية يجب أن تكون بيضاء لا يشوب بياضها أى لون آخر .

والارتباط الوثيق بين الضفادع والعلاجيم من ناحية والماء من ناحية أخرى أكسب تلك الكائنات صيتاً ذائعاً باعتبارها حامية ولذا فإنها كثيراً ما تلعب دوراً أساسياً فى التعاويذ والطلاسم السحرية التى تمارس بقصد الحصول على الأمطار اللازمة. وبعض الهنود الحمر فى ادرينوكو يعتبرون العلجوم إلهاً للمياه ولذا فإنهم يتجنبون قتله والمعروف عنهم أنهم يحتفظون على أية حال ببعض الضفادع تحت الأوانى وأنهم ينهالون عليها بالضرب بالعصى حين يشتد الجدب (١). ويقال إن هنود الايمارا **Aymara** كثيراً ما يصنعون تماثيل صغيرة للضفادع والحيوانات المائية الأخرى ويضعونها فوق قمم التلال كوسيلة سحرية لجلب الأمطار كذلك يعتقد هنود طومسون فى كولومبيا البريطانية ومثلهم فى ذلك مثل بعض الأوربيين - أن قتل الضفدعة يؤدى إلى سقوط المطر. وحين تريد بعض الطوائف الدنيا فى مقاطعات الهند الوسطى نزول المطر فإنهم يقيدون ضفدعاً إلى عصا مغطاة بأوراق الشجر الخضراء وفروع نوع معين من الشجر يعرف علمياً باسم **Azadirachta Indica** ، ويحملونها من باب إلى باب وهم يغنون :

---

(١) ليس هناك تناقض فى ذلك السلوك ، فهو أشبه بسلوك الجماعات والعشائر الطوطمية ازاء الحيوان الطوطمى الذى ينتمون اليه والذى يحرم عليهم قتله باعتباره الجد الاول للعشيرة الا فى مناسبات شعائر معينة يحق لهم قتله اثنائها لتوفير الخير والبركة للمجتمع ككل (أ.أ.) .

« أيها الضفدع ، أرسل إلينا المطر الغزير النادر بسرعة وانضج لنا القمح والدخن فى الحقول » .

وعندما تنقطع الأمطار عن المناطق التى يعيش فيها الكابو Kapu أو الريدى Reddi — وهم طائفة كبيرة من المزارعين وملاك الأراضى يعيشون فى مدراس — تصطاد نساؤهم أحد الضفادع ويربطنه حياً إلى ربطة جديدة من الخيزران يغطينها ببعض أوراق نبات المارجورزا Margorsa وينتقلن بها من باب إلى باب وهن ينشدن : « لابد من أن تستحم السيدة الضفدعة — يا إله السماء — أعطنا قليلا من الماء من أجلها على الأقل » . وبينما تردد نساء كابو هذه الأغنية تصب ربة البيت الماء على الضفدعة وتقدم بعض الصدقات اعتقاداً منها أن ذلك يساعد على سرعة سقوط الأمطار الغزيرة .

ولكن كثيراً ما يسقط الناس السحر التشاكلى من اعتبارهم تماماً حين تطول فترة الجدب أكثر من اللازم ، بل وقد يتملكهم الغضب ويصل بهم إلى الحد الذى يرفضون معه بذلك أى مجهود فى الصلاة والتوسل وإنما يعمدون بدلا من ذلك إلى التهديد والوعيد أو حتى استخدام العنف الفيزيقى لانتزاع مياه السماء عنوة واقتداراً من ذلك الكائن الخارق للطبيعة الذى قطع عنهم الماء عند المنبع الرئيسى ، على حد تعبيرهم . فى إحدى القرى اليابانية حين يأبى الإله الحارس الاستجابة إلى دعاء الفلاحين وتوسلاتهم من أجل المطر

فانهم يقذفون بصورته فى حقل أرز كريه الرائحة بحيث تنغرز الرأس أولا فى الطين وهم يلعنونه صائحين : « سوف تبقى أنت نفسك فى هذا المكان بعض الوقت حتى تحس بقسوة الشمس اللافحة التى تحرق الحياة نفسها فى حقولنا المتشققة » . كذلك الحال بالنسبة للأهالى فى قبائل الفيلوب Feloupe الذين يعيشون فى سينجامبيا Senegambia إذ يلقون بأصنامهم إلى الأرض ويسحبونها فى الحقول وهم يلعنونها حتى يسقط المطر .

ولقد بلغ الصينيون درجة عالية من الحذق والمهارة فى فن الهجوم العاصف على مملكة السموات ، فحين تشتد بهم الحاجة إلى المطر يصنعون تنيناً ضخماً من الورق والخشب يرمزون به إلى إله المطر ويسيرون به فى موكب حافل ، فاذا لم يسقط المطر بعد ذلك انهالوا باللعنات على ذلك التنين الزائف ومزقوه إرباً . بل إنهم قد يهددون الإله فى بعض الأحيان ويضربونه إذا لم يرسل إليهم المطر ، وقد يصل بهم الأمر إلى إعلان خلعه عن عرشه الإلهى . أما إذا استجاب الإله لرغبتهم وأنزل عليهم المطر فانه يرقى إلى مرتبة أعلى بمقتضى مرسوم امبراطورى خاص وفى ابريل من عام ١٨٨٨ قام كبار موظفى كانتون بأداء الصلوات إلى الإله لونج وونج Long-Wong لكى يضع حداً للأمطار الغزيرة التى ظلت تنهمر بغير توقف لفترة طويلة ، ولما لم يستجب الإله لتضرعاتهم ودعائهم وضعوه فى الحبس لخمسة أيام وكان لذلك أثر طيب إذ انقطع المطر فأعيد

للاله حريته . وقد حدث قبل ذلك ببضع سنين أن كبل الناس ذلك الإله نفسه أثناء الجدب بالسلاسل والأغلال وعرضوه لأشعة الشمس المناسبة لعدة أيام فى ساحة معبده حتى يحس بمدى حاجتهم إلى المطر. كذلك الحال بالنسبة للأهالى فى سيام ، فهم يتركون أوثانهم فى الشمس المحرقة حين يشعرون بالحاجة إلى المطر ، أما إذا أرادوا التخلص من المطر فانهم يزيلون سقف المعابد ويدعون بذلك المطر ينزل على أوثانهم ، اعتقاداً منهم أن ما يتعرض له آلهتهم من متاعب ومضايقات على هذا النحو سوف يدفعهم إلى الاستجابة إلى رغبات الناس ودعائهم .

وقد ينظر القارىء باستخفاف إلى هذه الطريقة المتبعة فى التنبؤ بتقلبات الجو فى الشرق الأقصى ، ولكن الناس فى أوربا المسيحية لا يزالون يلجئون إلى وسائل مشابهة تماماً من أجل الحصول على المطر. فنى أواخر شهر ابريل عام ١٨٩٣ كانت جزيرة صقلية تمر بمحنة رهيبة بسبب الجفاف ، وكان الجدب قد استمر ستة أشهر متصلة ، ولم تظهر سحابة واحدة أثناء ذلك فى السماء الزرقاء الصافية وأخذ الذبول يجد سبيله إلى حدائق كونكا دورو Conca Doro التى تحيط بالرمو بنطاق بديع من الخضرة الناضرة . وتناقصت كميات الطعام بسرعة وانتاب الناس ذعر شديد لذلك . كانوا قد جربوا جميع الطرق والوسائل المعترف بها للحصول على المطر ولكن بدون جدوى ، فقد سارت مواكبهم فى الطرق والحقول واستلقى الرجال والنساء

والأطفال ليالى كثيرة بطولها أمام الصور والتماثيل المقدسة وهم يرتلون الصلوات وقد أضاءوا الشموع فى الكنائس طيلة الليل والنهار وعلقوا على الأشجار سعف النخيل الذى سبق لهم أن باركوه فى أحد السعف Palm Sunday وفى ســولاپاروتا Solaparuta نثر الناس فى الحقول التراب الذى كنسوه من الكنائس يوم أحد السعف، وذلك تبعاً لإحدى العــادات القديمة المتوارثة. وكانت تلك الكناسة « المقدسة » تكفى فى السنين العادية لحماية المحصول أما فى تلك السنة — وأرجو أن يصدقنى القارىء فيما أقول — فلم يكن لها تأثير على الاطلاق. وفى نيقوسيا حمل الأهالى الصلبان على أكتافهم وساروا حفاة الأقدام عراة الرءوس فى كل أحياء المدينة كما جلد بعضهم بعضاً بسياط من الحديد ولكن دون جدوى، وحتى القديس فرنسيس نفسه — قديس باولو العظيم الذى يصنع كل عام معجزة المطر والذى يحمله الناس فى كل ربيع خلال الحدائق والأسواق لم يفلح فى تحريكه شيئا لا القداس ولا الصلوات التى كانت تقام كل مساء ولا الترانيم الموسيقية ولا الزينات ولا الألعاب النارية إما لأنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً وإما لأنه كان راغباً عن العمل. وبدأ الفلاحون يضيقون بالأمر ذرعاً، فنبذوا معظم القديسين. وفى بالبرمو ألقوا بالقديس يوسف فى إحدى الحدائق ليجرب بنفسه الحال التى وصل الناس إليها وأقسموا أن يتركوه هناك فى الشمس إلى أن يأتى إليهم بالمطر، وأداروا وجوه بعض القديسين نحو الحائط مثلما

يفعل المدرس مع التلاميذ الأشقياء ، وجردوا البعض الآخر من ملابسهم الفاخرة وأخرجوهم من ابروشياتهم وهددوهم ووجهوا إليهم أقذع الألفاظ والاهانات وغمروهم فى البرك التى تستخدم فيها الخيول . وفى كلتانسيتا Caltanisetta نزع الناس عن كتفى القديس ميخائيل – رئيس الملائكة – أجنحته الذهبية ومزقوها واستبدلوا بها أجنحة من الورق المقوى كما نزعوا عباءته الأرجوانية ولفوه بخرقة بالية بدلا منها . وفى ليكاتا Licata لقى القديس انجيلور قس البلدة معاملة أسوأ من ذلك بكثير . فقد تركه الناس بدون ملابس على الاطلاق ووجهوا اليه السباب ثم قيدوه فى الحديد وهددوه بالغرق او الشنق وكانوا يصيحون وهم يلوحون بغضب بأيديهم فى وجهه : « المطر أو حبل المشنقة ! » .

ولكن الناس يحاولون فى بعض الأحيان أن يستدروا عطف الآلهة عليهم فعند الزولو مثلا حينما تحرق الشمس محصول الحنطة يبحث الناس عن عصفور الجنة ويذبحونه ويلقون به فى بركة ماء ، فتذوب السماء عطفاً على الطائر المسكين وتبكى لموته . انها تنتحب لموته نحيبا جنائزيا يأخذ شكل المطر وقد تدفن النساء هناك اطفالهن حتى الأعناق ويبتعدن عن مكان الدفن وهن ينتحبن ويعولن فى حزن وفجيعة لفترة طويلة من الزمن ، اعتقادا منهن ان السماء سوف تذوب من الأسى لهذا المشهد وبعدها تخرج النساء الأطفال من الأرض وهن على ثقة ويقين من أن المطر

سوف يسقط وشيكا لأنهن قد توجهن بالنداء الى «الرب فى السموات» لكى ينزل عليهن المطر . فاذا استجاب الرب لندائهن قلن «ان الاسوندو Usondo يمطر» ، وفى أوقات الجدب كان الجوانش Guanches فى تينيريف Teneriffe يسوقون الأغنام الى احدى المناطق المقدسة وهناك ينتزعون الحملان الصغيرة من النعاج ويبعدونها عنها كى يرق قلب الرب عندما يسمع ثغاء الحملان الحزين . وحين يريد الناس فى كوماون Kumaon ايقاف المطر يصبون الزيت المغلى على الأذن اليسرى لكلب فيعوى من الألم ويسمع الإله أندرا عواءه فيوقف المطر اشفاقا على الكلب ليضع حدا لآلامه ، وفى بعض الاحيان حين يريد التوراجا نزول المطر يضعون أعوادا من أنواع معينة بالذات من النبات فى الماء ويقولون لها اذهبى لطلب المطر فلن أزرعك مرة أخرى وسأتركك تموتين فى مكانك ما لم ينزل المطر .

ثم يعلقون بعض القواقع التى يستخرجونها من المياه العذبة فى خيط الى شجرة ويخاطبونها بالمثل «اذهبى واطلبى نزول المطر ، فلن اعيدك ثانية الى الماء ما لم ينزل المطر». وتبكى القواقع فترق لها الأرباب وترسل المطر على الناس . ولكن كل هذه الممارسات أقرب الى الشعائر الدينية منها الى الطقوس السحرية لأنه يدخل فيها عنصر التضرع والتوسل لرحمة القوى العليا .

وكثيرا ما يعتقد الناس أن للاحجار قدرة على انزال المطر اذا

هي غمست فى الماء أو رشت به أو عومات بطريقة أخرى ملائمة . ففى احدى قرى ساموا Samoa كان الناس يحتفظون بحجر معين كرمز لإله المطر ، وكان رجال الدين يحملون ذلك الحجر أيام الجدب ويسيرون فى موكب الى النهر حيث يغمسون الحجر فى مائه . وعند قبائل التاتاثى Ta-Ta-Thi فى نيوساوث ويلز يكسو صانع المطر قطعة من حجر الكوارتز البلورى ويقذف بها نحو السماء بينما يلف بقية البلورة فى ريش النعام ويغمسها فى الماء ثم يخفيها فى حرص بالغ . وعند الكيرامين Keramin وهى احدى القبائل التى تعيش فى نيوساوث ويلز أيضا يخلو صانع المطر الى نفسة عند مجرى أحد النهيرات ويرش بعض الماء على حجر مستدير مسطح ثم يغطية ويخفية فى عناية . ويذهب صانع المطر فى بعض قبائل استراليا الشمالية الغربية الى بقعة من الأرض مخصصة لممارسة الطقوس الخاصة بصنع المطر ، وهناك يقيم كومة من الأحجار والرمال يثبت على قمتها حجره السحرى ، ثم يأخذ فى الرقص وهويدور حول الكومة مرتلا تعاويذه السحرية لعدة ساعات حتى ينال منة الاعياء — فيكف مضطرا عن الرقص لكى يحل مساعده محله . ويرش الماء على الحجر السحرى ثم تشعل نار كبيرة ولا يسمح لاى شخص عادى بالاقتراب من ذلك المكان المقدس اثناء إقامة هذة الممارسات الشعائرية . وعندما يرغب اعضاء قبيلة السولكا Sulka فى نيوبريتان فى الحصول على المطر فانهم يدهنون

بعض الأحجار برماد أنواع معينة من الفاكهة بعد حرقها ثم يضعونها في الشمس مع البراعم والنباتات ويغمسون حزمة من فروع الشجر في الماء ويغطونها بالحجارة وهم يتلون أثناء ذلك بعض التعاويذ ، معتقدين أن ذلك سوف يؤدى بالضرورة الى نزول المطر . وفى مانيبور Manipur التى تقع فوق تل مرتفع الى شرق العاصمة يوجد حجر كبير أشبه شيء بشكل المظلة . وحين تشتد حاجة الناس الى المطر يأتى الراجا ببعض الماء من نبع فى اسفل التل ويصبه على ذلك الحجر . وفى ساجامى فى اليابان يوجد حجر يقول الناس انه يسحب المطر من السماء عندما يصب فوقه الماء ، أما الواكونديو Wakoundyo وهى قبيلة تعيش فى افريقيا الوسطى ، فانهم يرسلون الى الواومبا Wawamba الذين يقيمون عند سفح بعض الجبال التى تغطيها الثلوج ويملكون «حجر المطر» ويقدمون لهم هدية مناسبة لكى ينزلوا عليهم المطر ، فيغسل الواومبا الحجر الثمين ويدهنونه بالزيت ثم يضعونه فى اناء مملوء بالماء فينزل المطر . ولقد كان الهنود الحمر فى صحراء اريزونا ونيومكسيكو يعملون على انزال المطر عن طريق حمل المياه من نبع معين بالذات وصبه على صخرة عالية توجد فى مكان معين أيضا ، ويعتقدون ان ذلك سيؤدى الى تجمع السحب وسقوط الأمطار بعد وقت قليل .

والواقع أن هذه العادات لا يقتصر وجودها على برارى افريقية

وآسيا أو على المناطق الصحراوية القاحلة فى استراليا والعالم الجديد، فقد كان السكان فى أوربا يمارسونها رغم أن بلادهم تقع فى المنطقة الممطرة التى تميل الى البرودة . ففى غابات بروشيلياندى Broceliandi الموحشة حيث توجد نافورة باريتون Barenton ذات الشهرة الرومانسية العالمية يعتقد الناس حتى الآن ان الساحر ميرلين Merlin لايزال غارقا فى سباته السحرى فى ظل الزعرور البرى . ويلجأ الفلاحون الى ذلك المكان حين تشتد حاجتهم الى المطر فيملئون أبريقا بماء النافورة ويصبونه فوق صخرة معينة بجوار النبع . وفى جبل سنودن Snowdon توجد بحيرة منعزلة اسمها دولين أو البحيرة السوداء وسط « واد صغير عميق موحش تحيط به الصخور المرتفعة الخطرة » ويؤدى الى البحيرة ذاتها صف من الأحجار تستخدم للعبور عليها . فاذا سار شخص فوق هذة الأحجار ثم القى بعض الماء على آخر حجر منها ويعرف باسم « المذبح الأحمر » فالأغلب أن يسقط المطر - إلا فى حالات نادرة ومن قبيل الصدفة فقط - قبل حلول المساء ، حتى ولو كان الجو حارا . ومن المحتمل أن الناس هنا - كما هو الحال فى ساموا تماما - يعتبرون الحجر شيئا مقدسا ، ويظهر هذا بوضوح من احدى العادات الشعبية التى يمارسها الناس فى بعض الأحيان والتى تقضى بوضع صليب فى نافورة باريتون للحصول على المطر إذ من الواضح أن هذا الفعل هو « بديل مسيحى » لعادة صب الماء على الحجر وهى عادة وثنية قديمة ، ولقد كان

من المتبع حتى وقت قريب جدا فى كثير من المناطق فى فرنسا غمس صورة أحد القديسين فى الماء كوسيلة لاسقاط المطر . ففى دير كومايني Commayny القديم مثلا حيث يوجد نبع القديس جرفيه يذهب الأهالى فى موكب الى النبع للمطالبة اما بالمطر واما بالطقس الصحو الجاف تبعا لاحتياجات المحصول ، وحين يشتد الجدب يلقون فى حوض النافورة بأحد تماثيل القديس القديمة المصنوعة من الحجر ، وهو تمثال يوضع فى العادة وسط الفتحة التى تتدفق منها النافورة ذاتهـــا . وفى كولوبريير Collobrières وكاربنتراس Carpentras توجد عادة مشابهة لذلك يتبعها الناس مع تماثيل القديس جنس ، كما أن الناس فى بعض قرى نافار Navarre يصلون للقديس بطرس من أجل المطر ويعززون صلواتهم بأن يحملوا تمثال القديس فى موكب يسير نحو النهر وهناك يدعون القديس ثلاث مرات أن يعيد النظر فى قراره وأن يستجيب لصلواتهم . فاذا ظل القديس بعد ذلك متمسكا بموقف العناد ألقوا به فى الماء غير عابئين باحتجاجات القساوسة التى كانت تصدر عن التقوى وتقوم على شىء من الحقيقة أيضا . اذ كانوا ينادون بأن التنبية او « لفت النظر » البسيط الذى يقدم بلطف لتمثال القديس كفيلة بأن تؤدى الى أطيب النتائج وعلى أى حال فان الأهالى أنفسهم كانو يعتقدون أن ذلك العمل من جانبهم كفيل بأن يؤدى الى سقوط المطر خلال أربع وعشرين ساعة . وليست عادة غمر التماثيل المقدسة بالماء من

أجل الحصول على المطر قاصرة على البلاد الكاثوليكية . ففى منجرليو Mingrelio عندما تعاني المحاصيل من قلة الأمطار يغمس الأهالى أحد التماثيل المقدسة فى الماء كل يوم حتى يأتى المطر كما أن قبائل الشانس Shans فى الشرق الأقصى تلقى بتماثيل بوذا فى المياه العذبة عندما تهلك زراعة الأرز بسبب الجفاف . ومهما يكن فى هذا التصرف من عقوبة او تهديد لبوذا فقد تكون هذه العادة فى أساسها نوعا من التعويذة او السحر التعاطفى .

ولقد كان الإغريق والرومان يسعون كغيرهم من الشعوب الى الحصول على المطر عن طريق السحر حين كانت الصلوات والمواكب تخفق فى تحقيق رغباتهم . ففى اركاديا مثلا عندما كانت الحنطة والأشجار تذبل نتيجة الجفاف والجدب كان كاهن زيوس يلقى غصنا من احدى أشجار البلوط فى منبع معين على جبل لوكايوس Lycaeus فيضطرب ماء النبع ويرسل الى السماء بعض السحب المعتمة التى يتساقط منها المطر بعد قليل . وثمة طريقة مماثلة لايزال الناس فى هيلماهير بغينيا الجديدة يتبعونها لإنزال المطر . ولقد كان لأهالى كرانون فى ثساليا عربة مصنوعة من البرونز كانوا يحتفظون بها فى أحد المعابد وكانوا يهزونها بعنف حين يشتد الجفاف فتسقط الأمطار وربما كان القصد من جلجلة العربة هو محاكاة هزيم الرعد . ولقد سبق أن رأينا أن تقليد البرق والرعد يؤلف جزءا من التعاويذ والطلاسم الخاصة بصنع المطر فى روسيا واليابان . ولقد كان

سالمونيوس Salmoneus ملك ايليس Elis الأسطورى ، يقلد قصف الرعد عن طريق جر بعض الأباريق من البرونز خلف عربيتة ، او قيادته للعربة فوق جسر مصنوع من البرونز ويقذف أثناء ذلك بالمشاعل المتوهجة التى ترمز الى البرق . وكان يهدف من هذة الطريقة الشيطانية الى تقليد عربة زيوس التى تقصف كالرعد عندما تعبر قبة السماء ، ووصل به الأمر أن ادعى أنة هو زيوس نفسة وطالب الناس بأن يقدموا لة القرابين على هذا الاعتبار كذلك كان يحتفظون بالقرب من معبد لإله الحرب مارس خارج أسوار روما بحجر معين يعرف باسم Lapis Manalis وكانوا يسحبونه أيام الجدب الى داخل المدينة اعتقادا منهم أن ذلك يساعد على سقوط المطر .

٣ ـ التحكم في الشمس عن طريق السحر

وكما يعتقد السحرة فى قدرتهم على صنع المطر يتصورون أن فى امكانهم العمل على شروق الشمس والتأثير فى موعد غروبها . فقبائل الاوجبواى يعتقدون أن كسوف الشمس يؤذن بقرب انطفائها فيطلقون نحو السماء سهاما ذات أطراف نارية أملا فى اعادة اشعال ضوئها المتضائل ؛ كذلك كانت قبائل السنسى Sencis فى بيرو يطلقون سهاما مشتعلة فى اتجاة الشمس عند الكسوف ، ولكن الظاهر أنهم لم يكونوا يفعلون ذلك لإشعال مصباحها من جديد بقدر ماكانوا يقصدون به طرد حيوان متوحش كانوا

يعتقدون أن الشمس تصارعه . وعلى العكس من ذلك فان بعض قبائل الهنود الحمر فى أورينوكو كانوا يدفنون فى الأرض بعض قطع الخشب المشتعل وقت خسوف القمر لاعتقادهم أنه اذا انطفأ نور القمر فسوف تنطفىء كل نار على الأرض ماعدا النار التى اخفيت عن ناظريه . أما قبائل — كمتشاتكيا Kamtchatkans فانهم يسارعون باحضار النار من أكواخهم حالما يحدث كسوف الشمس ويصلون مبتهلين الى الكوكب المضىء العظيم أن يتألق من جديد كما كان يفعل من قبل . وتكشف هذه الصلوات الموجهة الى الشمس أن هذه الطقوس لها صبغة دينية أكثر منها سحرية وذلك بعكس الطقوس التى يقيمها هنود الشلكوت مثلا فى المناسبات والظروف المماثلة فهى طقوس سحرية محضة ، ففيها يرفع الأهالى ثيابهم مثلما يفعلون عند السفر ويسيرون ببطء فى دائرة وهم يتكئون على العصى كما لوكانوا يحملون أثقالا على أكتافهم ويستمرون فى ذلك السير البطىء الى أن ينتهى الكسوف والظاهر أنهم يعتقدون أنهم بهذا التصرف يعينون الشمس فى سيرها الواهن البطىء وعلى أن تقطع طريقها المرهق عبر السماء. وبالمثل كان الملك فى مصر القديمة يسير فى هيبة وجلال بصفتة ممثلا للشمس حول جدران أحد المعابد لكى يضمن ان تتم الشمس رحلتها اليومية عبر السماء دون ان يعوقها عائق الكسوف أو أى حادث آخر كما كان المصريون القدماء ايضا يقيمون بعد الاعتدال الخريفى احتفالا

يعرف باسم مولد عصا سير الشمس لأنهم كانوا يعتقدون ان ازدياد ميل الكواكب المضيء يوميا فى السماء يؤدى الى ضعف نوره وحرارته بحيث يحتاج الى عصا يتوكأ عليها . وفى نيوكاليدونيا عندما يريد الساحر أن تسطع الشمس بنورها فانه يحمل بعض النباتات وفروع المرجان الى المدافن فيلفها فى حزمة واحدة بعد أن يضيف اليها بعض خصلات الشعر التى يقصها من رأس أحد الأطفال الأحياء من أسرته هو وعددا من أسنان أحد أسلافه الموتى أو حتى عظمة الفك كلها ثم يرتقى أحد الجبال التى تتلقى قمته أولى أشعة الشمس حين تشرق فى الصباح فيضع فوق حجر مسطح ثلاثة أنواع من النباتات التى حملها معه كما يضع إلى جانبها أحد فروع المرجان ويعلق حزمة التمائم كلها فوق الحجر . وفى صباح اليوم التالى يعود الى المكان ذاته ويشعل النار فى تلك الحزمة فى اللحظة التى تبزغ فيها الشمس من البحر . وبينما يتصاعد الدخان من الحزمة المحترقة يحك الساحر قطعة الحجر بفرع المرجان الجاف وهو يتضرع إلى أسلافه ثم يقول : « أيتها الشمس ، إننى أفعل ذلك حتى تزداد حرارتك وتبتلعى كل السحب فى السماء » ثم يكرر هذه العملية نفسها عند الغروب : كذلك يستطيع الأهالى هناك الحصول على الجو الجاف بأن يضعوا حجراً على شكل قرص مستدير به ثقب فى وسطه وفى اللحظة التى تشرق الشمس فيها يمسك الساحر بالحجر فى يده ويولج فى الثقب قطعة خشب متوهجة ويكرر ذلك مرات وهو يقول :

« إننى أشعل الشمس كى تبتلع السحب وتجفف أرضنا فلا تنتج أى شىء » وفى جزيرة بانكس يعمل الأهالى على تألق الشمس باستخدام شمس زائفة يصنعونها من حجر مستدير اسمه Vat Loa أو حجر الشمس يلفون حوله شريطاً مجدولا لونه أحمر يلصقون به بعض ريش البوم كرمز لأشعة الشمس ، ويرتلون أثناء ذلك بعض التعاويذ الملائمة فى صوت خفيض ، ثم يطلقون هذه الشمس الزائفة فى مكان مقدس فى قمة إحدى الأشجار العالية كشجرة التين البرتغالى أو شجرة الكازورينا .

ويعتقد البراهمة أن القرابين التى يقدمونها فى الصباح تساعد على ظهور الشمس ويؤمن الناس أن الشمس لا يمكن أن تشرق مالم تقدم تلك القرابين . ولقد كان المكسيكيون القدماء يعتبرون الشمس مصدراً لكل القوى الحيوية ولذا كانوا يسمونها إبا لنموهوانى I. Palnemohuan ومعناها « التى يحيا بها الناس » . ولكن إذا كانت الشمس تهب الحياة للعالم فإنها تحتاج هى أيضاً من ناحيتها إلى أن تتلقى الحياة منه ، ولما كان القلب هو مركز الحياة ورمزها كانت القرابين التى تقدم للشمس تتألف من قلوب الرجال والحيوانات وهى لا تزال تدمى حتى تحافظ على حيويتها وتتمكن من السير فى مجراها عبر السماء . ومن هنا كان تقديم القرابين للشمس عملية سحرية أكثر منها شعائر دينية لأنها لا ترمى إلى إرضاء الشمس واستمالتها بقدر ما ترمى إلى تجديد طاقاتها وقواها الحرارية والضوئية والحركية

وحتى يمكن اشباع حاجة الشمس المستمرة للاغتذاء من الضحايا البشرية ، كان المكسيكيون يشنون الحروب كل سنة على القبائل المجاورة ويعودون بأعداد كبيرة من الأسرى الذين كانوا يقدمون ضحايا وقرابين على المذبح فكانت حروب المكسيكيين المتواصلة ونظـام الضحايا البشرية القاسى ، وهو أبشع نظام سجله التاريخ — نشأت إلى حـد كبير نتيجة لنظرية خاطئة عن النظام الشمشى . ومن الصعب أن نعثر على مثال آخر يكون أكثر من هذا المثال إثارة للانتباه إلى النتائج المشئومةالتى قد تترتب — فى الحياة العملية — على خطأ فى التفكير النظرى الخالص .

ولقد كان الاغريق يعتقدون أن الشمس تعبر السماء فى عربة ولذا كان سكان جزيرة رودس الذين كانوا يعتبرون الشمس الاله الرئيسى عندهم يهبونها كل عام عربة وأربعة خيول يلقون بها فى البحر حتى يمكن للشمس أن تستخدمها ويبدو أنهم كانوا يظنون أن العربة بخيولها لابد أن تبلى بعد سنة من الاستعمال ،وربما كان هناك دوافع مماثلة تكمن وراء تقديم ملوك يهوذا الوثنيين العربات والخيول إلى الشمس وتقديم أهالى اسبرطة والفرس والميساجتيايون الخيول كضحايا وقرابين للشمس أيضاً . ولقد كان الاسبرطيون يقدمون تلك القرابين على قمة جبل تايجيتوس **Taygetus** الجميلة التى كانوا يعتقدون أن الشمس العظيمة تغرب وراءها كل ليلة . ولقد كان من الطبيعى أن يتصرف سـكان وادى اسبرطة بهذه

الطريقة كما كان من الطبيعى أيضاً أن يلقى أهالى جزيرة رودس العربة بخيولها فى البحر حيث كانت الشمس – فى نظرهم – تغطس كل مساء. إذ بهذه الطريقة كانت الخيول الممتلئة نشاطاً وقوة تنتظر الإله المتعب المكدود – سواء فوق قمة الجبل أو فى البحر – حيث تجد منه كل ترحيب فى نهاية رحلته اليومية .

وإذا كان بعض الشعوب يعتقدون أن فى استطاعتهم إشعال الشمس أو زيادة سرعة سيرها فى مجراها فإن هناك من الشعوب من يعتقد أيضاً أن فى استطاعتهم تأخير سيرها أو ايقافها عن السير تماماً . ففى أحد المرابت بجبال الأنديز فى بيرو توجد فوق بعض التلال المتقابلة أطلال برجين قديمين ثبت الأهالى فى جدرانهما خطافين من الحديد حتى يمكن مد الشباك بينهما لإلتقاط الشمس . وثمة قصص كثيرة واسعة الانتشار تروى عن رجال أمكنهم التقاط الشمس بهذا الشرك . وعندما تميل الشمس إلى الانحدار فى الخريف ويزيد ميلها التدريجى فى سماء القطب الشمالى يلعب الاسكيمو فى ايجلولك Iglulik لعبة « مهد القط » لكى يوقعوا بالشمس فى خيوط شباكهم ويمنعوها بذلك من الاختفاء وذلك بعكس الحال فى فصل الربيع عندما تبدأ حركة الشمس نحو الشمال فإنهم يلعبون فى هذه الحالة لعبة تعرف باسم « الفنجان والكرة » حتى تسرع الشمس فى العودة . وحين يود الأهالى الأصليون فى استراليا تأجيل غروب الشمس حتى يعودوا إلى بيوتهم فإنهم يضعون

قليلا من تربة الأرض على غصن شجرة فى اتجاه الشمس الغاربة أما إذا أرادوا التعجيل بغروبها فيذرون بعض الرمال فى الهواء وينفخون بأفواههم فى اتجاه الشمس لكى يدفعوا الكرة المتباطئة فى سيرها نحو الغرب ويدفنوها تحت الرمال التى يبدو أنها تغوص فيها أثناء الليل .

كذلك إذا كان بعض الناس يعتقدون أن فى استطاعتهم استعجال الشمس فإن البعض الآخـــر يعتقدون أن فى إمكانهم فعل الشيء نفسه بالنسبة للقمر المتباطيء فالسكان الأصليون فى غينيا الجديدة يحسبون الشهور بالقمر ، وكثيراً ما يقذفون القمر بالحجارة والسهام كى يسرع فى سيره ليعود أصدقاؤهم الذين يعملون لمدة سنة فى مزارع التبغ بعيداً عن ذويهم . ويعتقد الناس فى الملايو أن الوهج المتألق من الشمس عند الغروب قد يصيب الشخص الضعيف بالحمى ولذا يحاولون اطفاء ذلك الوهج بأن ينفثوا الماء ويلقوا الرماد فى اتجاهه . ويعتقد هنود الشوسووب أن فى استطاعتهم خلق الجو البارد عن طريق إحراق خشب إحدى الأشجار التى ضربتها الصواعق وربما كان ذلك الاعتقاد قائماً على ملاحظتهم آن البرد فى بلادهم يأتى فى العادة بعد الصواعق الرعدية . ولذا فعندما يسافر الناس هناك فى فصل الربيع عبر الثلوج فى المنـــاطق المرتفعة فإنهم يحرقون بعض الأخشاب من هذا النوع حتى لا تذوب الطبقة الخارجية للثلوج .

٤ ـ التحكم في الرياح بواسطة السحر

بالإضافة إلى كل ما ذكر فإن الرجل الهمجى يعتقد أن باستطاعته التحكم فى الرياح فتهب أو تسكن تبعاً لمشيئته فحين يريد الرجل عند قبائل الياكوت Yakut السفر فى رحلة طويلة فى يوم شديد الحرارة فإنه يأخذ حجراً يكون قد عثر عليه بطريق المصادفة داخل حيوان أو سمكة فيلف حوله شعر حصان عدة مرات ويربطه إلى عصا ، ويلوح بالعصا فى الهواء وهو يتلو بعض التعازيم فلا تلبث الرياح المعتدلة أن تهب فإذا أراد أن تستمر هذه الرياح لمدة تسعة أيام فإنه يغمس ذلك الحجر أولا فى فم طائر أو حيوان ويقدمه للشمس بينما يدور الساحر ثلاث دورات فى عكس اتجاه الشمس . (١) وعند الهوتنتوت حين يريد الرجل أن تسكن الريح وتكف عن الهبوب فإنه يعلق قربة ضخمة فى طرف عمود ويعمل على تفريغ الهواء منها اعتقاداً منه أن تسرب الهواء منها يساعد على استنفاد قوة الريح فتسكن فى النهاية . أما فى تيرا دلفويجو فإن السحرة يقذفون بالمحار فى عكس اتجاه الريح لتهدئتها ، بينما يعمل الأهالى فى جزر بيبلى Bibili بالقرب من غينيا الجديدة على هبوب الريح عن طريق النفخ بأفواههم ، ولذا نجد الناس

(١) ليس من الواضح هنا مايقصده فريزر تماما ، فهو لم يتكلم من قبل عن وجود ساحر فى مثل هذه الطقوس والمفهوم من كلامه السابق ان الرجل العادى يستطيع أن يقوم بهذه الممارسات بنفسه ، كذلك ليس من الواضح تماما مايقصده من دوران ـ الساحر فى عكس اتجاه الشمس ا ٠ ا .

فى بوجادجيم Bogadjim يقولون حين يكون الجو عاصفاً : « إن أهالى بيبيلى ينفخون ، كما هى عادتهم دائماً » ويتبع الأهالى فى غينيا الجديدة طريقة أخرى لمساعدة الرياح على الهبوب ، فهم يضربون « حجر الريح » بعصا ضرباً خفيفاً ، لأن الضرب الشديد يؤدى إلى هبوب الأعــاصير . ولقد كانت الساحرات فى اسكتلندة تعملن على هبوب الرياح عن طريق غمس خرقة فى الماء وطرقها ثلاث مرات على قطعة من الحجر وهن يرددن :

« إننى أطرق هذه الخرقة على هذا الحجر
كى تهب الرياح باسم الشيطان
فلا تهدأ حتى أسمح أنا بذلك » .

ويعتقد الناس فى جرينلند أن المرأة تتمتع أثناء الولادة وبعد الوضع بفترة معينة بالقدرة على تهدئة العواصف ، وكل ما عليها أن تفعله لذلك هو أن تخرج من منزلها فتملأ فمها بالهواء ثم تنفخه ثانية عند عودتها إلى المنزل ولقد اشتهرت إحدى العائلات فى كورنثا Corinth فى قديم الزمان بقدرتها على تهدئة الرياح الضارية ولكننا لا نعلم الطريقة التى كان أعضاء هذه الأسرة يمارسون بها وظيفتهم المفيدة التى يحتمل أن تكون قد عادت عليهم بفائدة أكبر من مجرد الصيت والشهرة بين سكان الخليج الذين يشتغلون بأعمال البحر . وحتى بعد ظهور المسيحية ، حكم بالموت على شخص

يدعى سوباتر Sopater فى القسطنطينية نتيجة لاتهامه بقييد الرياح باستخدام السحر ، وكان ذلك فى عصر قسطنطين ، وذلك بعد أن احتجزت السفن المحملة بالحنطة من مصر وسوريا فى عرض البحر بسبب سكون الريح أو هبوب الرياح المعاكسة مما أثار غضب رعاع بيزنطة الجياع . كذلك كان السحرة فى فلندة يبيعون الرياح للبحارة حين تهدأ الريح ويحتجزون فى البحر ، وكانت الرياح تحفظ عندهم فى ثلاث عقد ، فإذا فكوا العقدة الأولى هبت الرياح المعتدلة وإذا فكوا العقدة الثانية نشطت الرياح نصف العاصفة بينما يؤدى فك العقدة الثالثة إلى هبوب الأعاصير ، ولا يزال الناس فى أستونيا التى لا يفصلها عن فنلندة سوى لسان من البحر ، يؤمنون بأن جيرانهم الى الشمال يتمتعون بقدرات سحرية هائلة ، ولذا فان الفلاحين الاستونيين البسطاء ينسبون الرياح القادمة التى تهب فى الربيع من الشمال والشمال الشرقى والتى تحمل فى أعقابها نزلات البرد والالتهابات الروماتزمية إلى مكائد السحرة والساحرات فى فنلندة . ويرهب هؤلاء الفلاحون ثلاثة أيام بالذات خلال فصل الربيع ويطلقون عليها اسم « أيام الصليب » . ويقع أحد هذه الأيام فى ليلة « عيد الصعود » . كذلك يخشى الأهالى الذين يعيشون فى المناطق القريبة من فلين Fellin أن يخرجوا فى تلك الأيام خوفاً من أن تصرعهم الرياح القاسية التى تهب من لابلاند Lappland . وتقول إحدى الأغانى الشهيرة فى استونيا :

يارياح الصليب المندفعة الجامحة
إن أجنحتك تضرب بشدة وعنف وأنت تمرقين .
أيتها الرياح المتوحشة المولولة ، يا رياح الشؤم والأسى .
يا سحرة فنلندة امتطوا متنها العارم الجبار .

كذلك يقال إن البحارة الذين يصارعون الريح فى خليج فنلندة قد يرون شراعاً غريباً يعلو ويخفق خلفهم من مسافة بعيدة ولكنه لا يلبث أن يلحق بهم بسرعة هائلة ، وتتقدم المركب نحوهم وقد غطتها تماماً الأشرعة المنتفخة بالهواء وهى تجابه الرياح العاتية وتشق طريقها عبر الأمواج العالية مخترقة عباب البحر بينما يندفع رذاذ الماء عن مؤخرتها فى شكل موجات وقد انتفخت الأشرعة إلى حد الانفجار كما شدت الحبال إلى حد الانفصام . عندئذ يدرك البحارة أن هذه المركب قادمة من فنلندة (١) .

وينسب فن ربط الهواء فى ثلاث عقد ، بحيث تزداد قوة الريح كلما ازداد عدد العقد المفكوكة ، إلى سحرة لايلاند وساحرات شتلند **Shetland** ولويس **Lewis** وجزيرة مان **Isle of Man** ولا يزال البحارة فى شتلند يشترون الرياح على هيئة مناديل أو خيوط معقودة من العجائز اللائى يدعين أنهن يتحكمن

(١) ترجمت بقليل من التصرف ، والجملة الاصلية مليئة بالتشبيهات والتراكيب اللغوية والالفاظ الغريبة التى يميل فريزر الى استخدامها ليبين براعته وقدرته وامتلاكه ناصية اللغة الانجليزية ، ولكن هذه كلها تعتبر من اهم الصعوبات التى يواجهها قراء فريزر المحدثون فضلا عن المشتغلين بترجمة كتبه الى اللغات الاخرى (ا . ا) .

فى العواصف . ويقـــال إن بعض العجائز الشمطاوات فى لرويك Lerwick يكسبن للآن قوتهن عن طريق بيع الرياح . والمعروف أن يوليسيس Ulysses تسلم الرياح فى حقيبة جـــلدية من أيولوس Aeolus ملك الريـــاح (١) . وفى غينيا الجديدة تعتقد قبيلة موتوموتو Motumotu أن العواصف تثور بفعل أحد السحرة من قبيلة اويابو Oiabu ، وأن ذلك الساحر يحتفظ بكل ريح من الرياح فى عود من البوص على حدة يفتحه حين يشاء . ويوجد على قمة جبل آجو Agu فى توجو Togo وهى إحدى أقاليم أفريقيا الغربية، صنم اسمه باجبا Bagba يعتقد الناس أنه يتحكم فى الرياح والمطر ، ويقال ان الكاهن الذى يقوم على خدمته يحتفظ بالرياح فى عدد من الأوانى الكبيرة .

(١) الاشارة هنا الى بعض مخاطرات يوليسيس (أو اوديسيوس بطل الاوديسا) حين هبط الى جزيرة يحكمها هذا الملك الذى وكل اليه جوبيتر مهمة التحكم فى الرياح . وقد عامل الملك يوليسيس معاملة طيبة ثم اهداه عند رحيله حقيبة جلدية مغلقة باحكام بخيط من الفضة ووضعت فيها الرياح والزوابع والعواصف الخطرة وذلك لكى يضمن له سير رحلته البحرية فى جو لطيف معتدل حتى يعود الى وطنه . وقد سارت المراكب تسعة ايام متواصلة كان يوليسيس يدير أثناءها دفة المركب دون أن يغمض له طرف ، ولـكن التعب نال منـه فى آخر الامر واضطره الى النوم ، وفى اثناء نومه تآمر بحارته على فتح الحقيبة الغامضة التى كانوا يعتقدون انها تضم كثيرا من الهدايا والكنوز الثمينة التى اهداها أيولوس له ، وما ان فتحوها حتى هاجت الزوابع والعواصف فى عكس اتجاه المراكب والقت بها مرة اخرى الى جزيرة ايولوس نفسه الذى استشاط غضبا ورفض ان يساعدهم مرة اخرى فاضطروا الى ان يقطعوا الرحلة كلها وهم يستخدمون المجاديف (١٠ . ١) م

وكثيراً ما تعتبر الرياح كائنات شريرة يمكن تخويفها أو ابعادها أو حتى قتلها . فعند اسكيمو المناطق الوسطى حين تستمر العواصف والأحوال الجوية الرديئة فترة طويلة من الزمن ويقل الطعام نتيجة لذلك يحاول الناس وضع حد للعاصفة باستخدام السحر فيضعون سوطاً طويلا من الطحالب البحرية ويذهبون إلى الشاطىء حيث يضربون به الهواء وهم يصيحون «تابا» أى كفى . وقد حدث ذات مرة حين تسببت الرياح الشمالية الغربية الباردة فى بقاء الثلوج على الساحل لمدة طويلة ونقص الطعام بشكل خطير أن أقام الاسكيمو حفلا لتهدئة الرياح ، فأشعلوا النار على الساحل والتف الرجال حولها وهم يغنون . ثم تقدم رجل شيخ من النار وأخذ يدعو شيطان الريح بصوت عذب لطيف أن يقترب من النار لكى يستدفىء . وعندما ظن الناس أن الشيطان قد وصل بالفعل إلى النار ألقى أحد الشيوخ على اللهب ملء إناء من الماء كان جميع الرجال قد أسهموا فى ملئه ثم انطلقت فى اللحظة نفسها عدد من السهام نحو البقعة التى كانت فيها النـــار . ولقد كان الناس يعتقدون أن الشيطان لا يمكن أن يبقى فى مكان أسيئت فيه معاملته إلى هذا الحد ولكى يتم التأثير المطلوب أطلقت المدافع فى كل الاتجاهات كما دعى قبطان إحدى السفن الأوربية الموجودة فى المنطقة إلى أن يطلق قذائف مدفعيته على الرياح أيضاً . ولقد أقام اسكيمو بوينت بارو Point Barrow فى ألاسكا حفلا مشابهاً لذلك فى اليوم الحادى والعشرين

من شهر فبراير عام ١٨٨٣ لقتل روح الرياح الشريرة . وفى ذلك اليوم قامت النساء أولا بمطاردة الشيطان من المنازل بالعصى والسكاكين التى كن يستخدمنها فى طعن الهواء ، بينما التف الرجال حول نار أشعلوها ثم أطلقوا على الشيطان بنادقهم وسحقوه تحت حجر ثقيل فى اللحظة التى شاهدوا فيها تصاعد البخار على هيئة سحابة من بعض الجمرات المحترقة حين صبوا عليها دلواً من الماء .

ويرد هنود اللنجوا Lengua من قبائل جران شاكو Gran Chaco هبوب الزوابع والأعاصير إلى مرور إحدى الأرواح الشريرة ولذا فإنهم يقذفونها بالعصى ليدخلوا عليها الرعب . وحين تهدم الرياح الشديدة أكواخ البایاجوا Payaguas فى أمريكا الجنوبية يرفع بعض الأهالى فى أيديهم بعض العصى المشتعلة ويجرون فى مواجهة الريح وهم يهددونها بالحرق بلهب عصيهم ، بينما يضرب البعض الآخر الهواء بقبضات أيديهم ليخيفوا العاصفة . وعندما تنذر زوبعة شديدة بالهبوب عند الجوايكورو Guaycurus يخرج الرجال إليها وقد تسلحوا بأسلحتهم بينما يصيح النساء و الأطفال بأعلى أصواتهم لإخافة الشيطان . وقد شوهد أهالى إحدى قرى الباتاك بسومطرة ذات مرة وهم يندفعون من منازلهم وقد شرعوا سيوفهم ورماحهم أثناء هبوب العاصفة . وكان الراجا يقود الأهالى بنفسه وهم يصرخون فى وجه العدو الخفى ويصيحون به ويحاولون طعنه وتقطيعه . وقد لوحظ أثناء ذلك وبوجه خاص امرأة مسنة وهى

تعمل بكل مافى وسعها للذود عن منزلها فكانت تشق الهواء ذات اليمين وذات اليسار بسيف طويل . وقد رأى بعض شهود العيان أعضـــاء قبيلة كايان Kayans فى بورينو وقد استلو سيوفهم فى وجه أرواح العاصفة الشريرة كأنما يريدون إخافتها . وقد حدث ذلك أثناء هبوب عاصفة رعدية هوجاء كان صوت الرعد يدوى أثناءها بشدة وقوة . ويعتقد أهالى استراليا الأصليون أن كثبان الرمل الحمراء الضخمة التى تتحرك بسرعة عـــبر مساحات شاسعة من الصحراء ليست سوى أرواح شريرة . ولقد حدث ذات مرة أن جرى أحد الشبان الرياضيين من هؤلاء الأهالى وراء كثيب رملى متحرك محاولا قتله بالمقلاع ، وقد عاد بعد ساعتين أو ثلاث وهو منهوك القوى تماماً وزعم أنه قتل كوتشى Koochee (الشيطان) إلا أن الشيطان كشر له أثناء ذلك عن أنيابه وهذا معناه أنه قد قضى عليه هو أيضاً بالموت . ويقال عن جماعات البدو الذين يعيشون فى شرق افريقية أنه « لا يمكن أن تمر بهم إحدى الزوابع دون أن يطاردها عشرة من رجـــالهم بخناجرهم المشرعة التى يطعنون بها قلب العامود الترابى المرتفع فى الجو وذلك بقصد إبعاد الروح الشريرة التى يعتقدون أنها تمتطى متن العاصفة » .

وفى ضوء هذه الأمثلة يمكن القول بأن القصة التى رواها هيرودوت والتى اعتبرها نقاده الحديثون من وحى الخيال معقولة تمـــاماً . وقد قال هيرودوت دون أن يجزم بصحة الرواية أنه حدث فى بسيلى

Psylli — وهى مدينـــة طرابلس الحديثة — أن جففت الرياح الآتية من الصحراء جميع الآبـــار ، فتشاور الناس فيما بينهم ماذا يصنعون ، ثم زحفوا كتلة واحدة يشنون الحرب على الرياح الجنوبية ؛ ولكن عندما وصلوا إلى الصحراء اكتسحتهم رياح السموم ودفنتهم جميعاً تحت الرمال . ومن الجائز أن تكون هذه الرواية جاءت على لسان شخص شاهد هؤلاء الرجال فى زى المعركة وقد ابتلعتهم سحابة الرمل الأحمر وهم يدقون طبول الحرب ويقرعون لها الصنوج .

الفصل السادس



السحرة ملوكا

يتبين لنا من الأمثلة السابقة كيف يزعم السحرة فى كثير من البلاد وعند كثير من الشعوب أن لديهم القدرة على التحكم فى قوى الطبيعة الكبرى وتسخيرها لصالح الإنسان . ولو صح ذلك الزعم لكان معناه أن المشتغلين بهذا الفن أشخاص يتمتعون بدرجة عالية جداً من الأهمية والنفوذ فى أى مجتمع يقبل هذه الادعاءات المسرفة ويسلم بها . ولن يكون من المستغرب على الإطلاق أن يبلغ بعضهم — بفضل ما اكتسبوه من شهرة وما يثيرونه فى نفوس الغير من رهبة — أعلى مراكز السلطة بالنسبة للسذج من أفراد المجتمع . وثمة ما يدل على أن السحرة قد أمكنهم أن يصلوا بالفعل وفى كثير من الحالات إلى مناصب الزعامة والملك .

ولنبدأ بدراسة أحط شعوب الجنس البشرى الذين تتوافر لدينا عنهم معلومات وافية ودقيقة ، ونعنى بذلك أهالى استراليا الأصليين. فالمعروف أن هذه الجماعات الهمجية لا تعرف نظام الرئاسة أو الملك وأن تركيبها السياسى (١) — إلى الحد الذى يمكن فيه استخدام

* السحرة ملوكا : ترجمة د . احمد ابو زيد .

(١) تستخدم كلمة « سياسة » بالنسبة للمجتمع البدائى استخداما فضفاضا به كثير من الغموض ، فلم يتفق علماء الانثربولوجيا فيما بينهم على ما يمكن وصفه بأنه «سياسي» فى النظم والعلاقات الاجتماعية فى هذا النوع من المجتمعات . ويعرف عالم الانثربولوجيا البريطانى الشهير الاستاذ راد كليف براون=

هذا التعبير — تركيب ديمقراطى ، أو على الأصح أوليجاركى يقوم على التسليم بسلطة كبار السن من أعضاء القبيلة الذين يجتمعون على هيئة مجلس له وحدة سلطة اتخاذ القرارات فى كل الأمور الهامة دون الرجوع إلى بقية الأعضاء من الرجال الأصغر سناً . وهذا المجلس يقابل مجلس الشيوخ « فى الأزمنة الأكثر حداثة » . وإذا كان علينا أن نصف هذا الشكل من الحكومة فإننا نستطيع أن نطلق عليه إسم Gerontocracy (١) ويبدو أن الشيوخ الذين يجتمعون على هذا النحو عند أهالى أستراليا الأصليين للنظر فى أمور القبيلة هم فى الأغلب رؤساء العشائر الطوطمية التى تنقسم إليها قبيلتهم . وفى استراليا الوسطى حيث أدت طبيعة الأرض الصحراوية من ناحية والعزلة التى تكاد تكون تامة عن كل التأثيرات الأجنبية من ناحية أخرى إلى عرقلة التقدم وبقاء الأهالى بالتالى فى حالة البداءة الفجة يضطلع رؤساء العشائر الطوطمية بأعباء ومهام إقامة

= Radicliffe Brown التنظيم السياسى بأنه « ذلك الجزء من التنظيم الكلى الذى يهتم بحفظ وتوكيد النظام الاجتماعى ضمن اطار اقليمى محدد ، وذلك بفضل الممارسة المنظمة لسلطة القهر عن طريق اللجوء الى القوة الفيزيقية» كما يقول فى موضع آخر : « التنظيم السياسى فى مجتمع من المجتمعات هو ذلك المظهر من مظاهر التنظيم الكلى الذى يهتم بمسألة الضبط وترتيب استخدام القوة الفيزيقية » . — انظر فى ذلك كتابنا : البناء الاجتماعى ، الجزء الثانى « الانسان » — المرجع السابق ذكره . صفحة ٤٦ . — (أ . أ) .

(١) الكلمة تعنى حكومة الشيوخ او كبار السن ومع ان الكلمة كانت معروفة قبل تأليف كتاب الغصن الذهبى فالظاهر ان فريزر كان اول من ادخلها الى الكتابات الإنثروبولوجية وقد اصبحت منذ ذلك الحين من المصطلحات الشائعة — (أ . أ) .

الطقوس السحرية التى تهدف إلى إكثار أفراد الطوطم الذى يتبعونه. ولما كانت الغالبية العظمى من الطوطم تتألف من حيوانات أو نباتات صالحة للأكل كان يتعين على هؤلاء الرجال ان يوفروا الطعام لأفراد عشائرهم وأن يستخدموا السحر فى ذلك، كما يتعين فى الوقت ذاته أن يضطلع غيرهم من أفراد العشيرة بمهمة صنع المطر وبغير ذلك من الخدمات التى يحتاج إليها مجتمعهم المحلى. وهذا معناه أن الرؤساء فى قبائل استراليا الوسطى يقومون بدور السحرة العموميين بل إن أهم وظيفة يضطلعون بها فى الواقع هى الإشراف على «المخزن المقدس»، وهو فى العادة مغارة فى الصخر أو حفرة فى الأرض تحفظ فيها الأحجار والعصى المقدسة والشورنجا التى يفترض أن أرواح الناس — أحياء كانوا أم أمواتاً — ترتبط بها ارتباطاً وثيقاً. وعلى ذلك، فبينما يقوم الرؤساء بأداء ما يمكن تسميته بالواجبات المدنية مثل توقيع العقوبات على من يخرق العادات والتقاليد القبلية فإن وظيفتهم الأساسية هى وظيفة مقدسة أو بالأحرى وظيفة سحرية (١).

(١) هذا الكلام معناه فى الواقع ان رؤساء العشائر الطوطمية عند قبائل استراليا الاصلية يجمعون بين ما يمكن تسميته بالسلطة الزمنية والسلطة الروحية، وان كانوا يستمدون سلطانهم وسطوتهم من قدرتهم على التحكم فى مظاهر الطبيعة وممارسة السحر ويتخذون من ذلك وسيلة لاقرار النظام فى المجتمع، خاصة وانهم يفتقرون الى الاجهزة التشريعية والتنفيذية التى توجد فى المجتمع الحديث. ومن هذه الناحية يعتبر السحر عاملا هاما من عوامل الضبط الاجتماعى أى انه يلعب دورا «سياسيا» ان صح هذا التعبير. فالدين بتعاليمه وأوامره ونواهيه يعتبر من اقوى عوامل تحقيق التوازن فى السلوك الاجتماعى. كما ان فكرة العقاب والعذاب التى تؤلف ركنا هاما فى الدين من =

فإذا ما انتقلنا من استراليا إلى غينيا الجديدة فإننا نجد أنه على الرغم من أن الأهالى هناك بلغوا مستوى من الثقافة أعلى مما بلغه الاستراليون الأصليون بكثير فإن تكوين المجتمع عندهم لا يزال يحتفظ فى جوهره بالطابع الديمقراطى أو الأوليجاركى ، وأن نظام الرئاسة لا يزال فى مرحلته التكوينية الأولى . وفى هذا الصدد يخبرنا سير وليام ماك جريجور Sir William MacGregor بأنه لم يظهر فى غينيا الجديدة البريطانية قط شخص له من الحكمة والشجاعة والقوة ما يساعده على الانفراد بالحكم فى أى إقليم من أقاليمها . « وربما كان أقرب شيء من هذا القبيل هو أن يصبح شخص ما ساحراً مشهوراً ، وإن كانت المشابهة هنا بعيدة جداً كما أن الساحر لا يصل إلى تلك المكانة إلا عن طريق الابتزاز . » .

= ناحية ، والخوف من استخدام السحر فى الحاق الاذى والضرر بالشخص الذى يخرج عن القواعد العامة للسلوك تلعب كلها دورا هاما أيضا فى تحقيق ذلك التوازن ، وبالتالى اقرار النظام فى المجتمع . ومع أن النسق الشعائرى الذى يضم الممارسات الدينية والسحرية اقل وضوحا فى مجال الضبط الاجتماعى من تأثير النسق السياسى الذى يستند الى اجهزة وهيئات متخصصة ، فانه يعتبر فى حقيقة الامر مكملا له ومتكاملا معه بل ويؤدى الوظيفة نفسها فى الحالات التى يخفق فيها النسق السياسى بكل أجهزته فى اقرار النظام ، فاذا كان نظام الرؤساء ومجالس الشيوخ وكبار السن يفشل فى بعض الاحيان فى الوصول الى نتيجة او حكم نهائى فى بعض حالات النزاع نتيجة لعدم توافر الادلة مثلا ، فان القوى الغيبية او الاعجازية التى يستعين بها الساحر (او رجل الدين) تستطيع ان تصل دائما بوسائلها الخاصة الى اكتشاف المعتدى وانزال العقوبة به . راجع فى هذا كله كتابنا البناء الاجتماعى ، (الجزء الثانى الانسان) صفحات ٥٣٨ ـ ٥٤٠ (أ . أ) .

وفى إحدى الروايات الوطنية الشائعة فى ميلانيزيا أن أصل سلطة الرؤساء هناك مستمد من اعتقاد الناس فى أن للرؤساء علاقة ببعض الأطياف القوية وأنهم يستخدمون قواهم الإعجازية فى تسخير تلك الأشباح لصالحهم . فإذا فرض أحد الرؤساء إتاوة مثلا على بعض أتباعه فإنهم يرضخون لحكمه خشية أن يستخدم تلك الأطياف ضدهم من ناحية ولأنهم يعتقدون اعتقاداً راسخاً من الناحية الأخرى بأنه سوف يسلط عليهم المصائب والويلات والأوبئة إن هم عارضوه فى ذلك . ولكن حين يبدأ الشك بداخل نفوس أتباعه حول مدى صلته بتلك الأطياف والأشباح ونفوذه عليها يأخذ سلطانه فى فرض الإتاوات ينهار . كذلك يخبرنا الدكتور جورج براون أنه فى بريطانيا الجديدة « كان المفروض دائماً فى الحاكم أنه يمارس بعض الوظائف الدينية وهذا يقتضى منه أن يكون على صلة دائمة بالأرواح التى يستطيع بفضل تأثيرها أن يجلب المطر أو ضوء الشمس ، الرياح المعتدلة أو العاصفة ، المرض أو الصحة ، النصر أو الهزيمة فى الحرب . وعلى العموم فإنه يستطيع أن يستنزل البركات أو اللعنات مادام هناك من يدفع الثمن المطلوب . » .

وإذا واصلنا الصعود فى سلم الثقافة فإننا نصل إلى إفريقيا حيث يبلغ نظام الرئاسة والنظام الملكى درجة عالية من النضوج والتقدم . وثمة شواهد كثيرة تدل على أن نظام الرياسة عندهم نشأ وتطور عن ممارسة السحر وعن صنع المطر بالذات . فعند قبيلة

وامبوجوى Wambugwe مثلا – وهى إحدى قبائل البانتو فى شرق افريقيا – كان الشكل الأصلى للحكومة هو « الجمهورية العائلية »(١) ولكن السلطة الهائلة التى يتمتع بها السحرة والتى تنتقل عن طريق الوراثة رفعت من شأنهم ومكانتهم بحيث وصلوا إلى مرتبة الرؤساء أو الزعماء الصغار . ففى عام ١٨٩٤ كان أثنان من رؤساء القبيلة الثلاثة يتمتعان بكثير من الهيبة والاجلال لاشتغالهما بالسحر كما أن ثروتهما الطائلة من الماشية (٢) جاءت كلها

---

(١) لم يعد هذا الاصطلاح مستخدما فى الكتابات الانثربولوجية على الرغم من انه يدل بوضوح على شكل النظام السياسى ونظام السلطة فى تلك المجتمعات. فالسلطة السياسية تتركز هناك فى عائلة معينة بالذات او على الاصح فى بدنة معينة Lineage (وفى القبائل الكبرى فى عشيرة معينة) تعرف باسم البدنة او العشيرة الرئيسية او المتسلطة ويقصد بها البدنة او العشيرة التى يختار منها الرؤساء القبليون ولا تنتقل السلطة عن طريق الوراثة وانما يجتمع أفراد هذه العشيرة لانتخاب الزعماء الجدد تبعا للخصائص والميزات الشخصية التى يتمتعون بها والتى تعطيها القبيلة اعتبارا خاصا . (أ ٠ أ) .

(٢) تقع قبائل البانتو ضمن المنطقة المعروفة باسم منطقة مركب الماشية وهى منطقة شاسعة تشمل أجزاء كبيرة من شرق افريقيا (فى يوغنده وكينيا وتنجانيقا على الخصوص) وجنوب ووسط القارة .وجنوب السودان . والسمة الثقافية المميزة لشعوب هذه المنطقة وقبائلها هى الاهتمام بامتلاك الابقار والاعتماد فى معيشتهم على رعيها بحيث اصبح اعداد الابقار فى معظم المناطق هناك أكثر بكثير جدا من امكانات المراعى مما ادى الى هزال الماشية الشديد وضعفها نتيجة لقلة الحشائش والاعشاب . وقد بلغ من اهمية الماشية فى حياة الناس أن منزلة الرجل الاجتماعية تقاس عندهم بعدد الابقار التى يملكها – وانهم ينظرون باحتقار الى الشخص الذى لا يملك شيئا منها ، بل انهم لا يعتبرونهم عضوا فى المجتمع وتلعب الماشية دورا هاما فى الحياة الاجتماعية عند هذه القبائل =

تقريباً من الهدايا التى كانت تهدى إليهما نظير الخدمات التى كانا يقدمانها للناس فى هذا المجال بالذات ، وكان الفن الرئيسى الذى يمارسانه هو صنع المطر . وهذا هو الوضع تماماً بالنسبة للواتاتورو Wataturu ، وهم شعب آخر من شعوب شرق افريقية يقال عنهم انهم مجرد سحرة يفتقرون إلى وجود أى نوع من السلطة السياسية المباشرة . كذلك يستمد الرؤساء عند الواجوجو Wagogo فى شرق افريقية معظم نفوذهم وسلطانهم من ممارستهم صنع المطر لدرجة أن الرئيس الذى لا يملك القدرة على ممارسة هذا الفن بنفسه يعمل للحصول على شخص آخر يقوم عنه بهذه المهمة .

وعند القبائل التى تعيش فى أعالى النيل يعتبر المطيبون Medicine men رؤساء بوجه عام ، وتتركز سلطتهم ونفوذهم قبل كل شىء على قدرتهم المزعومة على صنع المطر . « فالمطر هو الشىء الوحيد الذى يهم الناس فى تلك المناطق إذ يترتب على عدم سقوطة فى الوقت المناسب متاعب للمجتمع لا يمكن تصورها . فلا غرابة إذن إذا كان الرجال الأكثر حذقاً ودهاء من غيرهم ينسبون إلى أنفسهم القدرة على صنعه ، وحين يحققون لأنفسهم الشهرة فى هذا المجال

= بحيث يمكن القول ان لها وظيفة اجتماعية رئيسية تتمثل فى انها هى أداة دفع المهر ودفع الدية كما ان القرابين تقدم من انواع معينة بالذات من الابقار لها لون معين . ومن هنا فان اول عمل جدى يمارسه الشبان بعد البلوغ هو الاشتراك فى الاغارة على مخيمات القبائل المعادية لسرقة الابقار ، ويتخذون من ذلك وسيلة للتدليل على شجاعتهم من ناحية والتقرب للفتيات من ناحية اخرى . (أ ١٠٠ آ) .

يستغلون سذاجة الآخرين وسرعة تصديقهم » . ومن هنا « فإن معظم الرؤساء فى تلك القبائل يمارسون صنع المطر ويحظون بدرجة من الشعبية تتفق وقدراتهم على إسقاط المطر على أرض أتباعهم فى الوقت المناسب ... ويبنى الرؤساء صانعى المطر قراهم دائماً على سفوح التلال المرتفعة ، فهم يعرفون تماماً أن المرتفعات تجذب إليها السحب ، وهذا يعطيهم كثيراً من الثقة فى تنبؤاتهم عن حالة الطقس والاطمئنان إلى دقة هذه التنبؤات . » ويحتفظ صانع المطر ببعض « أحجار المطر » كالبللورات الصخرية وحجر الجمشت فى وعاء خاص ، حتى إذا أراد اسقاط المطر غمسها فى الماء ثم أمسك بيده عصا من الغاب المقشور وأخذ يشقها من قمتها وهو يشير بها إلى السحب كى تدنو منه ، أو يلوح بها نحوها كى تذهب إلى الناحية التى يريدها ويتمتم أثناء ذلك ببعض التعازيم . أو قد يصب بعض الماء فى حفرة فى قطعة من الحجر بها أمعاء خروف أو ماعز ثم يقذف بعد ذلك بالماء نحو السماء . ومع أن الرؤساء يحصلون على ثروات طائلة نتيجة استخدامهم القوى السحرية المزعومة فكثيراً — بل وعادة — ما تنتهى حياتهم نهاية عنيفة لأن الجموع الغفيرة الغاضبة تتجمع فى أوقات القحط ويقتلون رئيسهم اعتقاداً منهم أنه هو الذى يمنع المطر من السقوط . ومع ذلك فالوظيفة وراثية تنتقل من الأب إلى الابن فى العادة . ومن بين القبائل التى تعتنق هذه المعتقدات وتراعى تلك العادات قبائل اللاتوكا Latuka والبارى Bari

واللابولا Labula واللوكويا Lokoiya .

وفى أفريقيا الوسطى نجد أن قبيلة اللندو Lendu التى تعيش إلى الغرب من بحيرة البرت تؤمن إيماناً راسخاً بامتلاك بعض الناس القدرة على صنع المطر . والعادة أن يكون صانع المطر عندهم أحد الرؤساء ، ولكن كثيراً ما يصبح صانع المطر رئيساً . كذلك يحمل البانيورو Banyoro كثيراً من الاحترام نحو « موزع الأمطار » ويغرقونه بالهدايا . أما الموزع الأعظم الذى يتمتع بقوى مطلقة لا تحد على المطر فهو الملك ، ولكنه يستطيع أن يفوض غيره فى استخدام هذه القوة حتى يعم الخير الناس جميعاً ويسقط ماء السماء على مختلف أنحاء المملكة .

وفى افريقية الغربية ، تماماً كما هو الشأن فى افريقية الشرقية وافريقة الوسطى يصادفنا هذا الارتباط ذاته بين الوظيفتين : الرئاسية والسحرية . فقبيلة الفان Fan مثلا لاتضع أى تمييز قاطع بين الرئيس والمطبب . فالرئيس يشتغل فى الوقت ذاته بالتطبيب وكذلك بالحدادة التى يقدرونها كل التقدير ويتعبرونها من المهن المقدسة التى لا يصح لغير الرؤساء امتهانها .

أما عن العلاقة بين وظيفة الرئيس ووظيفة صانع المطر فى جنوب افريقية فقد لاحظ أحد الكتاب المطلعين أن « الرئيس كان فى الأزمنة الغابرة هو صانع المطر الأكبر فى القبيلة . وكان بعض الرؤساء لا يسمحون لأى شخص آخر بأن ينافسهم فى هذا المضمار خشية

أن يصل مثل هذا الشخص إلى منصب الرئاسة بدلا منهم . وثمة سبب آخر وهو أن صانع المطر كان يجمع فى العادة ثروة طائلة حين يتسع نطاق شهرته ؛ ومن الطبيعى ألا يسمح الرئيس لشخص آخر بأن يصل إلى درجة كبيرة من الغنى والثراء . ويتمتع صانع المطر بنفوذ هائل على الناس ولذا كان من أهم الأمور أن ترتبط هذه الوظيفة بالملك . والواقع أن كل الروايات القديمة تجعل القدرة على صنع المطر من أهم الأمجاد الرئيسية التى يمكن أن تنسب إلى الرؤساء والأبطال القدامى ، ومن الجائز أنها كانت هى أصل نظام الرياسة ، وأنه كان من الطبيعى أن يصبح صانع المطر رئيساً للقبيلة . وهذا هو السبب فى أن شاكا Chaka (الطاغية – الشهير عند الزولو)(١) كان يحرص على ان يعلن أنه هو الشخص الوحيد القادر

(١) على الرغم من ان شاكا يلقب دائما بالطاغية والمستبد والديكتاتور فى الكتابات الانجليزية عن الزولو فانه كان من أهم الزعماء او الملوك الافريقيين الذين حاربوا استعمار الرجل الاوربى لافريقيا وعمـــل على تحرير بلاده . ومملكة الزولو ذاتها تعكس كثيرا من ملامح التنظيم السياسى السائد فى « الممالك الافريقية الاخرى مثل الميل إلى الحكم الفردى والتوسع عن طريق الحروب وتركيز السلطة فى يد زعيم وحيد يفرض سيطرته على جميع أقاليم المملكة والنزاع على السلطة بين أعضاء العائلة المالكة . ولقد أفلح شاكا بفضل قوة شخصيته ومقدرته الحربية على السـيطرة على كل ما يعرف الآن باسم بلاد الزولو وناتال ، وهى ارض واسعة لا تقل مساحتها عن ٨٠٫٠٠٠ ميل مربع ولم يستغرق ذلك منه سوى عشرة أعوام . وقد اقام مملكته على اساس التنظيم الحربى الدقيق فكان له جيش نظامى يرتكز على الفرق العسكرية من رجال من سن واحدة بحيث يعيشـون معظم السنة فى ثكنات خاصة أقيمت فى انحاء متفرقة من بلاد الزولو حيث كانوا يتلقون تدريباتهم العسكرية والحربية بصورة منتظمة ويرعون ماشية الملك =

على التنبؤ فى المملكة كلها ، لأنه لو سمح بقيام منافسين له فى هذا المجال لتعرضت حياته للخطر » . وبالمثل يقول الدكتور موفات Dr. Moffat عن قبائل جنوب افريقية بوجه عام إن «صانع المطر يعتبر فى تقدير الناس شخصية لها أهميتها ووزنها نظراً لما تتمتع به من تأثير على عقول الناس يفوق نفوذ الملك نفسه الذى كثيراً ما يجد نفسه مضطراً لقبول ما يأمر به ذلك « الموظف الأعظم » .

كل هذه الشواهد تكشف عن احتمال نشأة وظيفة الملك من ممارسة السحر العام وبخاصة صنع المطر . فالخوف الخارف الذى يثيره الساحر فى نفوس الناس والثروة الطائلة التى يجمعها من ممارسة مهنته من المحتمل أن يكون لها دخل كبير فى وصوله إلى ذلك المنصب . ولكن إذا كانت حرفة الساحر ، وبخاصة صانع المطر ، تعود بفوائد جليلة على من يمارس هذا الفن بنجاح ، فإنها فى الوقت ذاته حرفة محفوفة بالمخاطر والمزالق التى قد يقع فيها الممارس الأخرق أو السيء الحظ. والواقع أن مركز الساحر العمومى مركز دقيق وخطر للغاية . فحيث يعتقد الناس ان فى إمكان الساحر العمومى وقدرته أن يجعل المطر يسقط والشمس تسطع وثمار الأرض تنمو ، يكون من الطبيعى أن ينسبوا الجدب والقحط إلى اهماله الآثم أو إلى عناده المتعمد ،

= ويزرعون حقوله كما كان يحرم عليهم الزواج الا باذن من الملك نفسه الذى كان يفرض عليهم الزواج بفتيات من سن معينة ايضا وقد انتهى حكم شاكا بقتله على يدى أخيه الذى تولى الملك . » (أ . أ) .

وبذلك يحق عليه العقاب . ومن هنا كان الناس فى افريقية يحكمون بالنفى أو حتى بالقتل على الرئيس الذى يخفق فى جلب المطر إليهم : فنى بعض أنحاء غرب افريقية حين تخفق الصلوات والقرابين التى يقدمها الناس للملك من أجل المطر فإنهم ينقلبون عليه فيقيدونه بالحبال ويسحبونه بالقوة إلى قبور أسلافه كى يحصل منهم على المطر الذى يحتاجون إليه . ويعتقد البانجار Banjars فى غرب افريقية أن فى أمكان الملك أن يجلب لهم المطر أو الطقس المعتدل حين يشاء ولذا يغرقونه بالهدايا من الماشية والحبوب طالما بقى الطقس لطيفاً ، أما إذا هدد الجدب أو المطر الشديد الزراعات بالتلف فإنهم ينهالون عليه بالسب والضرب إلى أن يتغير الطقس ثانية . وحين يتلف المحصول عند اللوانجو Loango أو حين ترتفع الأمواج على الساحل ويتعذر بذلك الصيد يتهم الناس ملكهم بقسوة القلب ويعزلونه من منصبه . وفى ساحل الجنوب يعتبر الكاهن الأكبر ، أو ملك البدود (١) Fetish King الذى يحمل لقب « بوديو Bodio » مسئولا

---

(١) المقصـــود بالبد Fetich أو Fetish اى شيء مادى يعتقد الناس انه يملك قوة فائقة للطبيعة نتيجة لارتباطه بكائن روحى بشكل او بآخر ، والاغلب ان الاسم مستمد من الاجسام السحرية التى كان يستخدمها سكان الساحل الغربى لافريقيا ثم أصبحت الكلمة تطلق على التماثيل والصور الصغيرة التى ينحتها الناس هناك بأيديهم من الحجر أو الخشب ويعبدونهـــا على اعتبار أن بعض الارواح القوية تسكن فيها مؤقتا والكلمة ذاتها من أصـــل برتغالى Feitigo يقصـــــد به التعويذة التى تجلب الحـــظ . وقـــد استخدمت كلمة الفتيشيه Fetishism فى الـــكتابات الانثربولوجية فى =

عن سلامة المجتمع وأمنه وعن خصوبة التربة وتوافر السمك والبحر والأنهار ، فإذا تعرض المجتمع لبعض المتاعب أو لشيء من النقص فى هذه النواحى أعفى البوديو من منصبه . وفى أوسوكوما Ussukuma وهو أحد الأقاليم الكبرى الواقعة على الشاطىء الجنوبى لبحيرة فيكتوريا « يعتبر المطر والجراد من مهام حكومة السلطان . بل إنه يجب على السلطان نفسه أن يعرف كيف يصنع المطر ويطرد الجراد فإذا عجز هو ومطببوه عن ذلك أصبح وجوده كله عرضة للخطر فى وقت الأزمات . وفى إحدى المناسبات التى انقطع فيها المطر تماماً رغم شدة الحاجة إليه طرد الناس (فى أتوتوا Ututwa) بالقرب من نياسا Nyassa بكل بساطة سلطانهم : فالناس يعتقدون أن التحكم فى الطبيعة ومظاهرها المختلفة من أهم واجبات الحكام » . ويقال إن الأهالى فى منطقة نيانزا Nyanza عموماً يؤمنون « بأن المطر لا يسقط إلا بممارسة سحر ، وأن مسئولية صنع المطر تقع على عاتق رئيس القبيلة . وقد تم نفى أكثر من واحد من صغار الملوك من المنطقة بسبب الجدب والقحط » . وعند اللاتوكا فى أعالى النيل حين تذبل المزروعات وتفشل كل جهود الرئيس فى جلب المطر يهجم الناس فى العادة عليه أثناء الليل فيجردونه من كل ممتلكاته ويطردونه من الأرض وكثيراً ما يقتلونه .

= القرن الثامن عشر للاشارة الى أبسط العبادات البدائية الى ان جاء تايلور فى القرن التاسع عشر واستخدم كلمة الانيميزم Animism التى سبقت الاشارة اليها . (أ . أ) .

ويطالب الناس فى كثير من أنحاء العالم ملوكهم بتنظيم أحداث الطبيعة وسيرها بما يتفق وصالح شعوبهم ويوقعون عليهم العقاب حين يخفقون فى ذلك . ويبدو أن الاسقوثيين Scythians كانوا يسجنون ملوكهم حين يقل الطعام كما كان المصريون القدماء ينحون باللائمة على ملوكهم المقدسين حين تتلف المحصولات وإن كانوا يعتبرون الحيوانات المقدسة مسئولة أيضاً عن سير الطبيعة ، ولذا كان الكهنة يأخذون تلك الحيوانات أثناء الليل ويهددونها بالويل حين تنتشر الأوبئة وتتوالى الكوارث بعد حدوث قحط طويل قاس ، فإن لم يتوقف الشر ويرتفع الأذى كانوا يذبحونها . وفى جزيرة نيوى Niué أو جزيرة سافيدج Savage Island المرجانية الواقعة فى جنوب المحيط الهادى تولى الحكم فى الماضى سلسلة طويلة من الملوك الذين كانوا يجمعون فى أيديهم بين السلطتين الزمنية والدينية : وكان الناس يعتبرونهم مسئولين عن حالة الطعام فى الجزيرة ولذا كانوا ينقلبون عليهم فى أوقات المجاعات فيقتلونهم . وقد انتهى الأمر بعد مقتل هؤلاء الملوك واحداً بعد الآخر أن لم يعد هناك من يطمع فى منصب الملك وبذلك انتهت الملكية من الجزيرة . ويذكر لنا الكتاب القدامى فى الصين أن الناس فى كوريا كانوا يوجهون اللوم إلى الملك حين تتلف المزروعات نتيجة لسقوط كميات من المطر أكثر — أو أقل — من اللازم ، وأن الآراء كانت تختلف عندئذ حول إذا ما كان يجب عزل الملك أو قتله .

ولقد بلغ التقدم الحضارى عند الهنود الحمر فى أمريكا أقصى مداه تحت الحكم الملكى والثيوقراطى فى كل من المكسيك وبيرو. ولكن معلوماتنا عن المراحل المبكرة لتاريخ تلك المجتمعات قابلة بلدرجة لا تسمح لنا بالقول إذا ما كان ملوكهم المؤلهون الأوائل يشتغلون بالتطبيب فى الوقت ذاته. وربما نستطيع أن نجد بقايا هذا النظام فى القسم الذى كان الملوك المكسيكيون يقسمونه حين يعتلون العرش ويتعهدون فيه بالعمل على أن تسطع الشمس وتمطر السحب وتفيض الأنهار وتثمر الأرض بكثرة وسخاء. ومن المؤكد أن الساحر أو المطبب عند السكان الأصليين فى أمريكا كان يحوطه هالة من الغموض وجو من الرهبة باعتباره شخصية ذات نفوذ عظيم وأهمية بالغة يحتمل أن تتولى منصب الرياسة أو الملك فى كثير من القبائل وإن كانت تنقصنا الأدلة والشواهد الصريحة التى تؤيد هذا القول. وفى ذلك يقول كاتلين Catlin : لقد كان المطببون فى أمريكا الشمالية « يجدون التقدير والإكبار باعتبارهم من أشراف القبيلة، كما كانوا يقابلون بالاحترام البالغ من جميع أفراد المجتمع ليس فقط لإتقانهم فنون الطب بل أيضاً — وبوجه خاص لمهارتهم فى السحر والغيبيات التى يهتمون إلى حد كبير جداً بممارستها. ويشتغل المطببون فى كل القبائل بالأمور الغيبية، فهم سحرة وعرافون؛ وأكاد أقول رجال دين نظرا لأنهم يشرفون على كل الشعائر الدينية كما يعتبرون فى نظر الجميع بمثابة الحكماء أو الأنبياء فى المجتمع ككل، وذلك

بالاضافة إلى أنهم يحضرون مع الرؤساء جميع مجالس الحرب والسلام ، كما يؤخذ رأيهم بشكل منتظم قبل اتخاذ أى قرار عام ويعطى لذلك الرأى أكبر قدر من الاعتبار والاحترام » . وفى « كاليفورنيا » كان الشامان — ولا يزال — أهم شخصية عند الميدو Maidu الذين يقيمون لرأيه وزناً كبيراً خاصة وأنه لا يوجد عندهم أى نظام حكومى محدد . وينظر الميدو إلى الشامانيين — كطبقة — بكثير من الإجلال ، بل إن كلمتهم مسموعة فى العادة أكثر من كلمة الرئيس نفسه .

ويبدو أن السحرة والمطببين فى جنوب أمريكا كانوا دائماً على الطريق المؤدية إلى الرياسة أو الملك . وقد ذكر لنا أحد المستوطنين الأوائل لساحل البرازيل وهو الفرنسى تيفيه Thevet أن الهنود الحمر كانوا ينظرون إلى هؤلاء المطببين بعين التقدير والإجلال الذى يصل إلى حد التقديس ، بل العبادة . ومن السهل على المرء أن يشاهد جموع الناس الفقيرة وهم يتجهون نحوهم ويتوسلون إليهم فى ذلة ومسكنة أن يبعدوا عنهم الرصد ويرفعوا عنهم وعن أبنائهم شر الموت وما إلى ذلك من ألوان الدعاء ، فيجيبهم الساحر بأنهم لن يموتوا أو لن يمرضوا ، وما إلى ذلك . أما إذا أخفق هؤلاء المطببون فى ذكر الحقيقة للناس أو إذا أتت الأمور على عكس ما كان الناس يتوقعون فإنهم لا يترددون فى قتلهم لأنهم لا يستحقون أن يحملوا لقب المطبب بكل ما يتصف به من هيبة وجلال .

«ولكل عشيرة من العشائر عند هنود لنجوا Lengua فى جران شاكوا رئيسها الخاص الذى يطلق عليه اسم Cazique ، ولكنه لا يتمتع إلا بنفوذ ضئيل كما أن واجبات وظيفته تملى عليه أن يقدم الكثير من العطايا والهبات ولذا فقليلا ما يكون هؤلاء الرؤساء من الأغنياء ، بل إنهم يقيدون فى العادة فى مظهر أكثر رثاثة من معظم رعاياهم » . والواقع أن الساحر هو الرجل الذى يجمع فى يديه معظم السلطة ، كما تأتيه من الهدايا أكثر مما يهب هو للآخرين . « ومن أهم واجبات الساحر أن يسلط الأوبئة والكوارث على أعداء قبيلته وأن يحمى قومه أنفسهم من سحر الأعداء ويتناول فى مقابل هذه الخدمات أجوراً مرتفعة ، وهذا نفسه يساعده على أن يصل إلى مركز السلطة والنفوذ . » .

وفى الملايو بوجه عام ينظر الناس إلى الراجا أو الملك بكثير من الإجلال الخرافى لأنه يمتلك بعض القوى الاعجازية أو الفائقة للطبيعة . وهناك من الأسباب مايدعو إلى الاعتقاد بأن منصب الملك — ومثله فى ذلك مثل منصب الكثيرين من الزعماء الافريقيين — نشأ وتطور عن وظيفة الساحر . ولايزال الملايويون حتى الآن يعتقدون أن للملك نفوذاً شخصياً قوياً على بعض آثار الطبيعة مثل نمو المحصولات وإثمار أشجار الفاكهة ، كما يعتقد البعض أن هذه الخاصية ذاتها المتعلقة بالخصوبة توجد — ولكن بدرجة أقل — فى نواب الملك بل وفى بعض الأوربيين الذين تولوا مناصب السلطة والمسئولية

فى الأقاليم . وعلى ذلك ، ففى سيلانجور Selangor وهى إحدى مقاطعات شبه جزيرة الملايو ، كثيراً ما يعزى نجاح محصول الأرز أو تلفه إلى تغير الحكام هناك . ويرى التوارتيا Toorateyas الذين يعيشون فى جنوب سيليبيز أن نجاح زراعة الأرز متوقف على سلوك أمرائهم ، وأن نظام الحكم السيء – ويقصدون بذلك انحراف الحكومة عن التقاليد القديمة – يؤدى إلى تلف المحصولات.

وكان الداياك فى سراواك يعتقدون أن حاكمهم الانجليزى المشهور الراجا بروك Rajah Brooke كان يتمتع بكثير من الخصائص السحرية التى تكفل – إذا أحسن استخدامها – فى زراعة الأرز ووفرة المحصول . ولذا فحين كان يزور إحدى القبائل كان الناس يأتون إليه بالحبوب التى ينوون بذرها فى السنة التالية فيمنحها الخصوبة بأن يهز فوقها عدداً من عقود النساء بعد أن يغمسها فى محلول خاص . وحين يدخل إحدى القرى كانت النساء يقمن بغسل قدميه بالماء ثم بلبن إحدى ثمار جوز الهند الغضة ثم بالماء مرة أخرى ويحفظون كل هذه السوائل التى لمست جسمه ليقوموا بتوزيعها فيما بعد على جميع المزارع حتى تحقق زيادة ووفرة فى المحصول. أما القبائل البعيدة التى كان يصعب عليه زيارتها فكانت ترسل إليه قطعاً صغيرة من القماش الأبيض وبعض الذهب والفضة لكى يمنحها شيئاً من قواه الاخصابية ثم يدفنونها بعد ذلك فى حقولهم وكلهم ثقة بنجاح المحصول ووفرته . وقد حدث ذات

مرة أن لاحظ أحد الأوربيين ضآلة محصول الأرز فى قبيلة سامبا ، فقال له الرئيس فى الحال إن الأمر لا يمكن أن يكون غير ذلك لأن الراجابروك لم يزرهم على الاطلاق . ثم طلب منه أن يقنع مستر بروك بزيارتهم حتى يمحو العقم عن أرض القبيلة .

ويبدو أن الاعتقاد فى امتلاك الملوك بعض القوى السحرية أو الاعجازية التى يستطيعون بها إخصاب الأرض ومنح البركات والخير لبقية الأشياء كان شائعاً بين أسلاف الشعوب الأوربية كلها من الهند إلى ايرلنده ، فإنه خلف وراءه بعض الآثار التى تظهر فى بريطانيا ذاتها فى العصور الحديثة . فكتاب القانون الهندوكى القديم المعروف باسم « قوانين مانو The laws of Manu » يصف الآثار المترتبة على حكم الملوك الصالحين على النحو التالى : « فى تلك الدولة حيث يتحاشى الملك أن يغتصب ممتلكات البشر الفانين يولد الرجال فى الوقت المناسب ويعيشون طويلا وتنمو المحصولات مثلما أراد لها الزراع وقت البذرة ويعيش الأطفال لأمهاتهم ، ولا يولد أطفال مشوهون . » وكان الملوك والرؤساء فى العهود الهوميروسية يوصفون بأنهم مقدسون أو ربانيون كما كانت منازلهم ومركباتهم مقدسة أيضاً . وكان المظنون أن حكم الملك الصالح يساعد التربة السوداء الخصبة على أن تنبت القمح والشعير . ويساعد الأشجار على أن تحمل مزيداً من الفواكه والثمار ، ويساعد القطعان على التكاثر والبحار على أن تمتلىء بالسمك .

وفى العصور الوسطى حين سافر الملك فالدمار Waldimar الأول ملك الدنمارك إلى ألمانيا أتت النساء إليه بأطفالهن وأتى الزراع بالحبوب كى يلمسها بيده ، اعتقادا منهن أن هذه اللمسة الملكية ستجعل الأطفال يشبون ويترعرعون . وهذا نفسه هو ما حدا بالزراع إلى أن يطلبوا من الملك أن يتولى عنهم بذر البذور . كذلك كان الايرلنديون يعتقدون أنه طالما كان ملوكهم يتمسكون بتقاليد الأجداد ظل الطقس معتدلا لطيفاً على مدار السنة . وازدادت المحصولات وتوالدت الماشية وامتلأت البحار والأنهار بالسمك وزادت الثمار والفواكه فوق أغصان الأشجار زيادة هائلة بحيث كان الأمر يستدعى وضع دعائم تحت الأشجار لكى تسندها وتمنعها من السقوط . وثمة قانون كنسى ينسب إلى القديس باتريك St. Patrick يذكر من بين النعم التى يجىء بها حكم الملك الصالح . « الطقس المعتدل والبحار الهادئة والمحصولات الوفيرة والأشجار المثقلة بالثمار . ومن ناحية أخرى فإن القحط وجفاف اللبن فى ضروع الأبقار وإصابة الفاكهة بالآفات وقلة الحنطة كانت تعتبر دلائل قاطعة على فساد الحكم » .

وربما كان آخر الآثار التى خلفتها هذه الخرافات وراءها عن الملوك الانجليز هو الاعتقاد بأن فى استطاعة هؤلاء الملوك أن يشفوا الدرن الخنزيرى Scrofula بلمسة منهم ، ولذا كان هذا المرض يعرف باسم « داء الملك » .

وفى يوم منتصف الصيف من عام ١٦٣٣ تمكن الملك شارل الأول من أن يشفى مائه مريض باشارة واحدة فى الكنيسة الملكية فى هوليروود Holyrood ولكن يبدو أن هذه العملية بلغت الذروة فى حكم ابن شارل الثانى الذى يقال إنه لمس أثناء فترة حكمه ما يقرب من مائة ألف مريض بهذا الداء ، وكان ضغط الجماهير للاقتراب منه يصل فى بعض الأحيان حداً مخيفاً لدرجة أن ستة أو سبعة من المرضى الذى جاءوا طلباً للشفاء ماتوا فى إحدى المرات تحت أقدام الآخرين . أما الملك وليام الثالث الذى كان يتصف بالحكمة والرصانة فكان - يرفض بازدراء الاستجابة لهذه الشعوذة . وحين كانت الجماهير الجاهلة تحيط بقصره كما كانت العادة كان يأمر بابعادهم وهو فى منتهى الحزن والأسى لحالهم . وفى المرةالوحيدة التى اضطر فيها إلى أن يضع يده على رأس مريض قال له : « فليمنحك الله صحة أوفر وعقلا أرسخ » . وعلى أية حال فقد ظلت هذه العادة — كما هو المتوقع — تمارس على أيدى الملك جيمس الثانى المتطرف الغبي وابنته الغبية الملكة آن .

كذلك كان ملوك فرنسا يزعمون لأنفسهم القدرة على الشفاء عن طريق اللمس ويقال إنهم استمدوا هذه القدرة من كلوفيس Clovis أو من القديس لويس ، بينما ورثها ملوك بريطانيا من ادوارد المعترف . وتعتقد قبائل التونجا أن لرؤسائهم القدرة على الشفاء من الدرن الخنزيرى وتصلب الكبد عن طريق لمس

الأقدام . واضح أن الشفاء هنا يتم عن طريق السحر الاتصالى البحت إذ المعتقد أن المرض – وكذلك العلاج – ينشأ عن الاتصال بشخص الملك أو بأى شيء آخر ينتمى إليه .

فهناك إذن ما يبرر القول بأن الملك كان يعتبر فى كثير من جهات العالم خليفة مباشراً للساحر أو المطبب القديم . فإذا كان المجتمع يفصل عن بقية أعضائه فئة معينة من السحرة ويسند إليهم تصريف الأمور التى يتوقف عليها أمن الجماعة كلها وسعادتها ، فإن هذه الفئة كانت تحقق لنفسها وبالتدريج الثروة والسلطة ثم لا تلبث أن يصل زعماؤها إلى مرتبة الملوك المقدسين . بيد أن الثورة الاجتماعية الكبرى التى تبدأ بالديمقراطية وتنهى الطغيان والاستبداد كان يصاحبها فى الوقت ذاته ثورة عقلية أثرت تأثيراً قوياً فى فكرة الملكية ذاتها وفى وظائفها . فقد أخذت أباطيل السحر تنكشف بمرور الزمن أمام العقول الأكثر فطنة وذكاء، وبذلك بدأ الدين يحل ببطء محل السحر . وبقول آخر بدأ الساحر يتراجع أمام الكاهن الذى كان يربأ بنفسه عن أن يحاول التحكم، وبشكل مباشر ، فى أحداث الطبيعة من أجل خير الناس وصالحهم، وإن كان يعمل مع ذلك على تحقيق هذا الهدف نفسه بوسائل غير مباشرة عن طريق الالتجاء إلى الآلهة كى تحقق له مالم يعد يجد فى نفسه القدرة على انجازه بنفسه ، وعلى ذلك فإن الملك الذى بدأ بممارسة السحر أخذ يستبدل بالممارسات السحرية الوظائف الكهنوتية التى تتمثل فى الصلاة وتقديم القرابين . وحين

يكون من الصعب التمييز بشكل قاطع بين ما هو بشرى وماهو إلهى يسود الاعتقاد فى قدرة البشر على أن يصلوا إلى مرتبة الألوهية ليس فقط بعد مماتهم بل وأيضاً أثناء حياتهم عن طريق تقمص بعض الأرواح القوية الكبرى فى أجسامهم بشكل مؤقت أو دائم . ولم يستفد من هذا الاعتقاد فى إمكان تجسيد الإله فى صورة بشرية أحد مثلما أفاد الملوك . ولذا فسوف نخصص الفصل التالى لدراسة نظريق التقمص أو التجسد من ناحية ونظرية الملوك المؤلهين بالمعنى الدقيق للكلمة من الناحية الأخرى .

الفصل السابع



تجسد الآلهة فى البشر

قد تكفي الأمثلة التي ضربتها في الفصول السابقة لمعتقدات الشعوب المتأخرة وعاداتها في مختلف أنحاء العالم للتدليل على اخفاق الرجل الهمجي في إدراك قصوره وعجزه عن السيطرة والتحكم في الطبيعة، وهو الأمر الذي يبدو لنا واضحاً تمام الوضوح، فمن الجلي أنه في المجتمعات التي يفترض أن الشخص فيها يتمتع – إلى حد ما على الأقل – ببعض القوى التي يمكن وصفها بأنها قوى خارقة للطبيعة، يكون التمييز بين الآلهة والبشر مسألة صعبة يكتنفها كثير من الغموض، أو بالأحرى مسألة لم تكن تظهر إلى حيز الوجود. فتصور الآلهة على أنها كائنات تسمو على البشر وتتمتع بقوى هائلة لا يمكن أن تقارن بها قوى الإنسان سواء من حيث الدرجة أو النوع، هي فكرة تطورت ببطء شديد خلال التاريخ. فالشعوب البدائية لا تنظر لهذه الكائنات الخارقة للطبيعة على أنها أسمى بكثير جداً من الإنسان – إن كانت أعلى منه على الاطلاق – فهو يستطيع أن يخيفها ويرهبها ويقهرها على الخضوع لإرادته.

وفي هذه المرحلة من مراحل التفكير يبدو العالم على درجة كبيرة من الديمقراطية، إذ تعتبر الكائنات جميعاً سواء الطبيعي منها أو الخارق للطبيعة، واقفة مع بعض التجاوز على قدم المساواة.

---

* تجسد الإله في البشر : ترجمة د. محمد احمد غالي.

إلا أن الإنسان لا يلبث مع نمو واتساع معرفته ومعلوماته أن يتعلم كيف يدرك بمزيد من الوضوح مدى امتداد الطبيعة واتساعها ، ومدى ضآلته هو وضعفه أمامها ، ومع ذلك فإن إدراكه لعجزه لا يحمل فى طياته على آية حال اعتقاداً مماثلا فى ضعف وعجز تلك الكائنات الخارقة للطبيعة التى عمر بها خياله الكون كله ، بل إنه يعمل على العكس من ذلك على معاضدة وتوكيد فكرته عن قوة هذه الآلهة ، ذلك أن تصور العالم على أنه نسق من القوى المشخصة التى تعمل وفقاً لقوانين ثابتة لا تتغير لم يكن قد تمثل بعد فى ذهنه بكل وضوح . صحيح أن البذرة الأولى لهذا التصور موجودة لديه وأنه يتصرف بمقتضاها ليس فقط فى مجال فنون السحر ، بل وأيضاً فى كثير من شئون حياته اليومية . ولكن الفكرة ذاتها تظل على ما هى عليه بدون تطور ، وكلما حاول أن يفسر العالم الذى يعيش فيه ، فإنه يتصوره على أنه مظهر من مظاهر الارادة الشعورية والرغبة الشخصية إذا أحس بعد ذلك بمدى ضعفه ووهنه وضآلته أصبح قادراً على إدراك مدى رحابة وقوة تلك الكائنات التى تتحكم فى جهاز الطبيعة الهائل وتسييره . وعلى ذلك فإنه فى الوقت الذى تضاءل فيه بالتدريج وببطء احساسه بالتساوى مع الآلهة ، فإنه يفقد أمله فى أن يتحكم فى سير مجرى الطبيعة وتوجيهها بامكانياته وقدراته وحدها دون عون خارجى ، أى عن طريق السحر ، ويبدأ شيئاً فشيئاً فى النظر إلى الآلهة على أنها هى المعين الوحيد لتلك

القوى الخارقة للطبيعة التى كان يدعى فى وقت من الأوقات أنه يشاركها فيها . وبتقدم المعرفة تبدأ الصلاة وتقديم الأضحيات والقرابين فى احتلال مركز الصدارة فى الشعائر الدينية ، بينما يأخذ السحر — الذى كان يحتل معهما فى يوم من الأيام نفس المركز المرموق — فى التراجع بالتدريج حتى يصبح فى المؤخرة ، ثم يهوى بعد ذلك إلى مستوى « الفن الأسود Black art » . ويعتبر السحر الآن عملا ضاراً عديم الفائدة وبعيداً عن الدين فى وقت واحد ، ومن هذه الناحية فإنه يواجه معارضة دائمة من الكهنة ورجال الدين الذين يعلو صيتهم ويزداد تأثيرهم فى الناس أو يضمحل تبعاً لعلو أو اضمحلال صيت آلهتهم وتأثيرها ومن هنا كنا نجد أنه عندما اتضح الفرق بين الدين والخرافة فيما بعد ، أصبح تقديم القرابين والصلاة ملاذاً للفئة المتدينة الصالحة المستنيرة من المجتمع ، بينما أصبح السحر ملاذاً للجهلة الذين يؤمنون بالخرافات ، ولكن عندما تنهزم الفكرة القائلة بأن القوى الأولية هى العوامل والوسائط الشخصية وتتراجع فى فترات تالية بعد ذلك أمام الاعتراف بالقانون الطبيعى ، يعاود السحر الظهور من ذلك الغموض والعار اللذين سبق أى هوى إليهما . ذلك أن السحر يرتكز ضمنياً على فكرة وجود علاقة تتابع ضرورية وثابتة بين العلة والمعلول ، وهى علاقة مستقلة تماماً عن الارادة الشخصية . وعن طريق دراسة علاقات التتابع العلى فى

الطبيعة يمهد السحر الطريق بشكل مباشر لظهور العلم ومن هنا أدت الخيميا (١) إلى ظهور علم الكيمياء :

ترجع فكرة (الإنسان الإله) أو الكائن البشرى الذى يتمتع بقوى إلهية أو خارقة للطبيعة – فى جوهرها – إلى تلك الحقبة الأولى من التاريخ الدينى التى كان ينظر فيها إلى الآلهة والبشر على أنهم كائنات من نوع واحد تقريباً ، وذلك قبل أن يفصل بين الفئتين تلك الهوة الواسعة السحيقة التى ظلت قائمة بينهما فى مراحل التفكير التالية . وعلى ذلك فبينما تبدو فكرة تجسد الآلهة فى صورة بشرية فكرة غريبة بالنسبة لنا ، فلم يكن فيها ما يدعو للعجب أو الدهشة بالنسبة للإنسان المبكر الذى لم يكن يعتبر « الإنسان الإله » أو « الاله الإنسان » سوى درجة أعلى وأسمى من نفس تلك القوى الفائقة للطبيعة التى ينسبها بكل صدق وإيمان إلى نفسه هو . بل إنه لم يكن يميز تمييزاً قاطعاً بين الاله والساحر القوى . فلم تكن آلهته فى كثير من الأحيان سوى مجرد سحرة غير مرئية تمارس من وراء حجاب الطبيعة نفس التعاويذ والرقى التى يقوم بها الساحر البشرى ولكن بصورة مجسدة مرئية بين أقرانه وقومه . وكما أن ثمة اعتقاداً بأن الآلهة تفصح عن نفسها بعبادها ومريديها على هيئة البشر ، فإنه

(١) تسمى احيانا السيمياء او الكيمياء التى تستعمل فى تحويل المعادن الى ذهب (المترجم) .

من السهل على الساحر أن يكتسب بفضل قواه الاعجازية التى ينسبها الناس إليه شهرة واسعة بأنه اله متجسد فى صورة إنسان . وهكذا نجد أن المطبب أو الساحر الذى لا يكون فى أول الأمر شيئاً أكبر بكثير من مجرد مشعوذ بسيط يأخذ فى الازدهار حتى يصبح فى آخر الأمر إلهاً وملكاً فى وقت واحد . إلا أنه يجب علينا حين نتحدث عنه كإله فقط أن نحذر من أن ندخل على هذه الفكرة الوحشية عن الإله كل تلك الأفكار المجردة الشديدة التعقيد التى ننسبها الآن إلى كلمة « إله » فأفكارنا عن هذا الموضوع العميق ليست سوى ثمرة للتطور الذهنى والأخلاقى الطويل ، وهى بذلك بعيدة كل البعد عن أن يشاركنا فيها الإنسان الهمجى المرجة أنه لا يستطيع أن يفهمها حتى ولو شرحت له . وكثير من الجدل والمناقشات التى احتدمت حول ديانة الشعوب الدنيا إنما نشأت عن سوء الفهم المتبادل . فالرجل الهمجى لا يفهم أفكار الرجل المتحضر ، كما أن عددا قليلا فقط من المتحضرين هم الذين يستطيعون أن يفهموا أفكار ذلك الرجل الهمجى. فحين يستخدم الرجل الهمجى الكلمة التى تعنى فى لغته « الإله » يستحضر فى ذهنه كائناً من نوع معين بالذات يختلف كل الاختلاف عن الكائن الذى يقصده الرجل المتحضر حين يستخدم الكلمة التى تشير فى لغته هو إلى « الإله » وإذا كان من الصعب أن يضع كل من الرجلين نفسه مكان الآخر ، وينظر إلى الأمر من وجهة نظر زميله — وهذا هو ما يحدث عادة —

فلن تؤدى مناقشتهما إلى شيء سوى الخلط والخطأ . فإذا كنا نحن الشعوب المتحضرة نصر على أن نقصر استخدام كلمة «إله » على تلك الفكرة المحددة الخاصة بالطبيعة الإلهية التى قمنا نحن أنفسنا بصياغتها ووضعها ، — فلابد من أن نعترف إذن بعدم وجود الإله عند الشعوب الهمجية ولكننا أقرب إلى حقائق التاريخ وأكثر تمسكاً إذا نحن سمحنا لأغلب الشعوب التى تعيش فى مرحلة الوحشية العليا (١) بأن تكون لديها فكرة أولية عن كائنات معينة خارقة للطبيعة ، يمكن بالتقريب أن نطلق عليها اسم « آلهة » ، وإن كان هذا الاسم لا يحمل نفس المعنى الذى نستعمل نحن به هذه الكلمة . هذه الفكرة الأولية البدائية تمثل فى الأغلب البذرة الأولى التى تمكنت الشعوب المتحضرة أن تطور منها بالتدريج أفكارها وتصوراتها العليا عن الآلهة والأرباب . وإذا أمكننا أن نتتبع كل الطريق الذى سلكه الدين فى تطوره وارتقائه فقد نجد أن ذلك الرباط الذى يربط فكرتنا عن الألوهية بفكرة الرجل الهمجى إنما هو سلسلة واحدة متصلة الحلقات فى ضوء هذه التفسيرات والاحتياطات أستطيع

---

(١) يتبع فريزر هنا على ما يبدو التقسيم الذى وضعه العلماء المتطورون فى القرن التاسع عشر ، وبخاصة لويس مرجان Lewis Morgan لتاريخ الجنس البشرى والحضارة . وبمقتضى هذا التقسيم مرت الانسانية بمرحلتين كبيرتين هما مرحلة البربرية ومرحلة الوحشية قبل ان تصل الى مرحلة الحضارة الحديثة . وتنقسم كل مرحلة من المرحلتين الاوليين الى ثلاث مراحل فرعية : دنيا ووسطى وعليا . وعلى ذلك فالاشارة هنا الى الشعوب المتاخرة التى مرت بمعظم مراحل التطور وباتت على مشارف مرحلة الحضارة — الحديثة (المراجع)

الآن أن أورد بعض الأمثلة عن الآلهة التى كان أتباعها يعتقدون أنها تتجسد كائنات بشرية حية من كلا الجنسين . وليس من الضرورى أن تفصح الأرباب دائماً عن نفسها فى أشخاص الملوك أو أشخاص أناس ينحدرون على العموم من أصل ملكى ، إذ قد يتم التجسد المزعوم حتى فى أشخاص من أحط الطبقات . فنى الهند مثلا بدأ أحد الآلهة البشرية حياته بالعمل بتبييض القطن ، وبدأها آخر ابنا لأحد النجارين . ولذا فلن استمد كل الأمثلة من الشخصيات الملكية وحدها ، ذلك لأننى أرجو أن أوضح المبدأ العام لألوهية البشر ، أو بقول آخر ، لتجسد الأرباب فى صورة بشرية . إن هذه الآلهة المتجسدة ظاهرة شائقة فى المجتمعات غير المتحضرة ، وقد يكون التجسد وقتياً أو مستديماً . وفى الحالة الأولى يتخذ التجسد الذى يعرف حينئذ بأنه وحى أو مس شكل المعرفة أو العلم الخارق وليس شكل القوة الخارقة للطبيعة ، ويعبر بذلك عن نفسه عن طريق العرافة والتنبؤ وليس عن طريق المعجزة . أما حين لا يكون التجسد مجرد حالة مؤقتة وإنما تتخذالروح الإلهية من الجسم البشرى مقرا دائماً لها فإنه يتوقع من « الإله الإنسان » أن يبرز صفاته عن طريق المعجزات . وكل ما يجب علينا أن نتذكره هنا هو أن الناس فى هذه المرحلة من مراحل التفكير لا يعتبرون المعجزات شيئاً متعارضاً مع القانون الطبيعى . فما دام الإنسان البدائى عاجزا عن إدراك وجود القانون الطبيعى يكون عاجزا بالتالى عن تصور خرق هذا

القانون أو الخروج عليه . فالمعجزة بالنسبة له هى تعبير وكشف بطريقة فذة وفريدة عن إحدى القوى العادية المألوفة .

والاعتقاد فى التجسد المؤقت أو الالهام Inspiration شائع فى كل أنحاء العالم . فثمة اعتقاد بأن إحدى الأرواح أو أحد الأرباب قد يحل فى بعض الأشخاص من وقت لآخر وفى أثناء ذلك الحلول تزول شخصيتهم هم أنفسهم وتتعطل . وينعكس وجود الروح فى شكل الارتعادات التشنجية والاهتزازات التى تشمل جسم الرجل كله كما تظهر فى الحركات العنيفة والنظرات القلقة الزائغة التى يردها الناس ليس إلى الشخص ذاته بل إلى الروح التى حلت فى جسده . وفى أثناء هذه الحالة الشاذة يؤخذ كل ما يصدر عنه أو ينطق به على أنه صوت الإله أو الروح التى سكنت فيه والتى تتكلم من طريقة : ففى جزر ساندوتش مثلا نجد أن الملك — وهو تجسيد للإله — كان ينطق باستجابات الكاهن العراف Oracle من مخبئه بين أغصان الصفصاف . أما فى الجزر الجنوبية فى المحيط الهادى فإن الإله كثيراً ما كان يحل فى الكاهن الذى كان يكف كلية عن العمل أو الكلام الإرادى نظراً لحلول قوى الألوهية فيه وسيطرتها عليه تماماً ، ولذا كان يتحرك ويتكلم كما لو كان واقعاً تحت تأثير القوى الاعجازية أو الخارقة للطبيعة ، ومن هذه الناحية كان يوجد تشابه بين الكهنة البدائيين فى بولينيزيا مثلا وأخوانهم عند الأمم المشهورة كاليونان القديمة . وبمجرد أن يحل الإله فى الكاهن

يرتجف جسم الكاهن بقوة ويرتعد بشكل عنيف وقد تشنجت عضلات أطرافه وبدأ جسمه منتفخاً وانقلبت سحنته وتقلصت تقاطيع وجهه وزاغت نظراته فى وحشية وشراسة ، وغالباً ما كان يتلوى متدحرجاً على الأرض وهو فى هذه الحالة وهو يرغى ويزبد من فمه كما لو كان ينوء تحت تأثير الإله الذى حل فيه . وفى غمرة الصيحات المدوية والأصوات المبهمة الأخرى يفصح عن إرادة الإله . ويتلقى الحاضرون من رجال الدين الذين تغمرهم الأسرار ويلفهم الغموض - كل التعاليم التى تلقى إلى الكاهن المتنبىء بهذه الطريقة فينقلونها بدورهم إلى الناس .

وعندما ينتهى رجال الدين من إعلان استجابة الكاهن المتنبىء تنحسر النوبة العنيفة بالتدريج ، ويعود إليه الاستقرار والهدوء النسبى . ومهما يكن من شىء فلم يكن الإله يفارقه دائماً بمجرد انتهاء هذا الاتصال ، انما كان الروح أو الإله يحل فيه يومين أو ثلاثة . وكان يضع حول ذراعه أثناء ذلك قطعة من قماش من نوع خاص علامة على وجود الوحى أو الإلهام ، أو على حلول الإله فى جسده . وكانت أفعاله فى أثناء هذه الفترة ، تعتبر كما لو كانت صادرة من الإله نفسه ، ومن هنا كان الناس يعطون أقصى انتباههم لتعبيراته ولكل ما يصدر عنه من تصرفات . وعندما يكون رجل الدين واقعاً تحت تأثير الروح وهى الحالة التى يطلقون عليها اسم **Ur uhia** كان يعتبر مقدساً كالإله نفسه ، بل وكان يسمى فى أثناء

هذه الفترة أتوا «Atua» أى إله » ولو أنه فى أوقات أخرى كان يوصف بأنه مجرد «كاهن » « taura » إلا أن الأمثلة على هذا النوع من الإلهام أو الوحى المؤقت شائعة فى كل أنحاء العالم ، كما أصبحت معروفة ومألوفة إلى حد كبير عن طريق كتب الأثنولوجيا بحيث لم تعد ثمة حاجة لضرب مزيد منها لتوضيح المبدأ العام . وعلى ذلك فقد يكون من المستحسن هنا أن ننوى إلى طريقتين معينتين بالذات لايجاد حالة الالهام المؤقت ، وذلك لأنهما قد تكونان أقل شيوعاً من غيرهما ، ولأننا سوف نعود إليهما مرة أخرى فيما بعد ، وإحدى هاتين الطريقتين لاستحضار حالة الالهام هى طريقة مص دم الأضحية أو الشريان وهو لا يزال حاراً . ففى معبد ابولو ديراديوتيس Apollo Diradiotes فى ارجوس argos » كانوا يضحون أثناء الليل بحمل صغير فى كل شهر . وتأتى امرأة ممن اشتهرن بمراعاة قواعد الطهر والعفة فترشف من دم الحمل فتحمل فيها روح الرب ، ويباح لها بذلك أن تجلس للتنبؤ والعرافة . وفى آجيرا Aegira بأخايا « Achaia » كانت كاهنة الأرض تشرب دم ثور وهو حار قبل أن تهبط إلى الكهف لتمارس نبوءاتها. وبالمثل كان الاعتقاد يسود بين « الكوروفيكارآن kuruvikarans وهى طبقة تعيش على صيد الطيور والشحاذة فى جنوب الهند — بأن الإلهة كالى Kali كانت تهبط على الكاهن وتوحى إليه بالأجوبة ، بعد أن يرتشف من الدم المتدفق من عنق عنزة بعد

ذبحها . وفى إحدى الاحتفالات التى تقيمها جماعات الالفور Alfoors فى ميناهاسا Minahasa بشمال جزر سلبيز يقوم المحتفلون بذبح خنزير ، فيندفع رجل الدين نحوه فى عنف ويدخل رأسه فى جثته وينهل من الدم المسفوح حتى ينتزعه الناس بعيداً عنه بالقوة ، ويجلسونه فوق مقعد حيث يبدأ فى التنبؤ بما سيكون عليه محصول الأرز فى تلك السنة . ثم يجرى مرة أخرى إلى الجثة ، ويشرب من الدم حتى ينتزع عنها بالقوة أيضاً ويوضع فوق المقعد ليواصل تنبؤاته ، ويعتقد الناس أن إحدى الأرواح التى تملك وحدها قوة التنبؤ تحل فيه .

أما الطريقة الأخرى لاستنزال الوحى والالهام المؤقت التى أعرض لها هنا فتستعين فى ذلك بمفعول بعض الأشجار أو النباتات المقدسة. ففى هندكوش مثلا يوقد الناس النار فى بعض عيدان الأرز المقدس . وتأخذ العرافة فى استنشاق الدخان الكثيف النفاذ ، وقد غطت رأسها بقطعة من القماش . وتظل على تلك الحال حتى تنتابها حالة من التشنج وتسقط على الأرض مغشياً عليها . ولكنها لا تلبث أن تقوم وترفع عقيرتها بالغناء وترتل الأناشيد بصوت رفيع حاد ، فيردد الحاضرون تراتيلها بأصوات عالية ، كذلك كاهنة ابولو Apollo تأكل أوراق الغار المقدس وتتبخر بدخانه قبل أن تمارس تنبؤاتها . كما كان أتباع باخوس Bacchus يأكلون اللبلاب ، والمعتقد أن حالة الهياج التى كانت تنتابهم ، ترجع إلى خواص ذلك النبات

المثيرة المسكرة ، وفى يوغندا ، حين يريد رجل الدين استنزال الوحى والإلهام . يعكف على تدخين الطباق بشراهة وعنف حتى تنتاب جسمه الرعشة ، ويبدو كشخص أصابه المس ، وتصدر عنه الأصوات والألفاظ المحمومة التى كان الناس يعتبرونها أصوات الرب الذى يتكلم عن طريقه . وفى مادورا ، وهى جزيرة تقع أمام الساحل الشمالى لجزيرة جاوة ، يعتقد الناس أن لكل روح وسيطها الدائم ، والأغلب أن يكون ذلك الوسيط امرأة وليس رجلا.

وكانت المرأة تعد نفسها لاستقبال الروح باستنشاق الأدخنة المتصاعدة من البخور وقد جلست مطرقة برأسها نحو المبخرة التى يتصاعد منها الدخان حتى تروح تدريجياً فى نوع من الغيبوبة المصحوبة بالصراخ والارتعادات والتقلصات العنيفة . والمفروض أن تكون الروح قد حلت بها أثناء هذه التشنجات فإذا عاد إليها هدوءها بالتدريج اعتبرت الكلمات التى تفوهت بها كلمات مقدسة جاء بها الوحى لأنها صدرت من الروح التى كانت تسكن فى جسمها ، بينما تكون روحها هى قد فارقتها مؤقتاً .

وأعتقد أن الشخص الذى ينزل عليه ذلك الالهام أو الوحى المؤقت يكتسب ليس فقط العلم الالهى ، بل وأيضاً القوة المقدسة ، من حين لآخر على الأقل . فحين ينتشر أحد الأوبئة مثلا فى كمبوديا ، يتجمع سكان عدد من القرى هناك ثم يتوجهون ، وقد تقدمهم بعض الموسيقيين للبحث عن الرجل الذى يعتقدون أن الإله

المحلي قد اختاره ليتقمصه مؤقتاً . وحين يعثرون عليه ، يقودونه إلى المذبح لذبح ذلك الإله حيث تتم مراسيم وأسرار التقمص الغامضة ، ويصبح الرجل بعدها موضع تقديس زملائه الذين يتوسلون إليه أن يحمى القرية من ذلك الوباء وكان يوجد لأبولو تمثال في أحد كهوف هولاى Hylae بالقرب من ماجنزيا Magnesia ، وكان الشائع أن لذلك التمثال قوة تفوق قوة البشر ، وأنه يمنح هذه القوى لمن يشاء من الناس . وكان فى إمكان الرجال المقدسين الذين يحصلون على بعض هذه القوة أن يقفزوا مثلا إلى أى هوة سحيقة دون أن يصيبهم أذى ، وأن يقتلعوا الأشجار الضخمة ، من جذورها ويحملوها فوق ظهورهم فى أضيق الممرات ، وهكذا . والواقع أن الخوارق التى يمارسها الدراويش الملهمون الآن تدخل ضمن هذا النوع من الأفعال .

وهكذا نرى أن الرجل الهمجى — وقد عجز عن أن يدرك حدود قدرته على السيطرة والتحكم فى الطبيعة — يخلع على نفسه وعلى غيره من الناس قوى معينة يمكن أن نصفها الآن بأنها « خارقة للطبيعة » ولقد رأينا أيضاً أنه إلى جانب هذه النزعة للإيمان بتلك القوى الخارقة ، فإن المعتقد فى المجتمعات البدائية أن بعض الأفراد ينزل عليهم الوحى أو الالهام ، لفترات قصيرة ، من بعض الأرواح الإلهية ، ولذا كانوا يتمتعون مؤقتاً بالعلم والقوة اللذين يمتلكهما ذلك الرب الذى يسكن فيهم ومن السهل الانتقال من كل تلك

المعتقدات إلى الإيمان بوجود أشخاص تحل فيهم روح الرب بصورة مستمرة . ويتميز هؤلاء الأشخاص بشكل أو بآخر وبطريقة غامضة بدرجة عالية من القوة الخارقة التى تضعهم فى مصاف الآلهة ذاتها . ولذا تقدم إليهم الصلوات والقرابين . وقد تقتصر أفعال هؤلاء الآلهة البشرية على الوظائف الفائقة للطبيعة أو الوظائف الروحية الخالقة ، ولكنهم فى أحيان أخرى قد يمارسون بالإضافة إلى ذلك سلطات سياسية عليا . وفى هذه الحالة الأخيرة يكونون ملوكاً وآلهة فى وقت واحد ويؤلفون بذلك حكومة ثيوقراطية . فى جزر الماركاس مثلا وجزر واشنجتن كانت توجد فئة من الناس الذين كانوا يتمتعون بصفات الألوهية والقداسة أثناء حياتهم ، وكان المظنون أنهم يملكون بعض القوى الخارقة التى يستخدمونها للسيطرة على الطبيعة ، وأنه باستطاعتهم على هذا الأساس أن يملئوا الأرض بالمحصول الوافر أو يحيلوها إلى صحراء خاوية جرداء مجدبة ، أو أن يسلطوا المرض والموت على الناس . ولذا كانت تقدم لهم القرابين البشرية لدرء خطر نقمتهم ولعنتهم ، ولم تكن هناك أعداد كبيرة منهم وإن كان يوجد واحد أو إثنان على الأكثر فى كل جزيرة ، وكانوا يعيشون فى عزلة غامضة ، وكانت سلطتهم فى بعض الأحيان — ولكن ليس دائماً — سلطة متوارثة ولقد ترك أحد المستشرقين وصفاً لأحد هؤلاء الآلهة البشرية عن طريق الملاحظة الشخصية « ، كان ذلك الإله رجلا طاعناً فى السن ، يعيش فى منزل

كبير ، يحيط به سياج مرتفع ، وقد أقام له داخل المنزل مذبحاً غريباً ، كما كانت تتدلى من أعمدة البيت ومن الأشجار التى تحيط به هياكل بشرية ، نكست رءوسها نحو الأرض ، ولم يكن يسمح لغير الأشخاص المعينين لخدمة ذلك الإله أن يتخطوا أسياج البيت وإن كان يسمح للناس العاديين بالدخول فى المنزل فى الأيام التى تقوم فيها الأضحيات والقرابين البشرية . لقد كان نصيب ذلك الإله البشرى من القرابين يفوق نصيب غيره من الآلهة ، وكثيرا ما كان يجلس على مايشبه الأريكة ويطلب تقديم اثنتين أو ثلاثاً من الأضحيات البشرية فى وقت واحد ، ولم يكن ثمة مفر من إحضارهم فى كل مرة . ذلك الإله يبث فى نفوس الناس أقصى درجات الرعب ولذا كان لكل سكان الجزيرة أن يتقربوا ويتزلفوا إليه ، ويأتوا من كل حدب وصوب لتقديم الهدايا والقرابين . ومن ناحية أخرى فهناك روايات عن وجود رجل فى كل جزيرة من جزر بحر الجنوب South Sea Islands يمثل الإله ، ويعتبر تجسيدا له ،وكان الناس يطلقون على هؤلاء الأشخاص أسماء الآلهة ، وكان كيانهم المادى يختلط بكيان ذلك الرب ، وكان ذلك الإنسان الإله هو الملك نفسه فى بعض الأحيان ، ولكن الأغلب أنه كان ينتمى إلى طبقة رجال الدين أو الحكام الاقليميين .

وإذا كان المصريون القدماء أبعد الناس عن أن يقصروا اهتمامهم واحترامهم على القطط والكلاب والغزلان الصغيرة ،

فإنهم كانوا فى كثير من الأحيان يحلون ذلك الاهتمام والتبجيل فى البشر أنفسهم ، وكان واحد من هؤلاء الآلهة البشرية يقيم فى قرية « أنابس Anabis » ، وكانت القرابين تحرق وتقدم له على المذابح فيعكف — على ما يروى لنا بروفرى Prophyry — على تناول طعامه كما لو كان بشرا عادياً ، وفى العصور الكلاسيكية القديمة كان الفيلسوف الصقلى امباذوقليس Empedocles يصف نفسه بأنه ليس مجرد ساحر وإنما هو إله . وقد قال مخاطباً مواطنيه فى بعض شعره : —

أيها الأصدقاء فى هذه المدينة العظيمة الشامخة فوق المنحدرات الصفراء ، من قلعة أجرجنتم Agrigentum الذى يبارك أعمالكم على طول المدى ، الذى يجعل من بلادكم ملجأ آمناً ومقاماً هادئاً لكل غريب ، عليكم منا السلام ! ! إننى أمشى بينكم بزهو وخيلاء أيها الشرفاء ، وعلى جبينى العالى النبيل أكاليل الزهور المتفتحة .

لم أعد إنساناً ، إنما أنا الآن الإله الأعظم الذى لا يموت . حيثما توجهت ، تجمهر الناس حولى يقدمون لى فرائض العبادة ، وتبغى الآلاف المؤلفة من البشر تطلب الهدى والطريق المستقيم . منهم من يتوق للرؤى النبوية ، ومنهم من تكاد تضله الآلام من الخوف أو الهلع ، ولكنهم جميعاً يتلهفون على سماع كلمات تريح نفوسهم فلا يشقون بعدها أبدا .

لقد أكد امباذوقليس أنه كان يعلم مريديه كيف يسيرون الريح أو يجعلونها ساكنة ، وكيف ينزلون الغيث أو يأتون بالشمس

المشرقة وكيف يبرئون المرضى ويردون للشيوخ شبابهم ويحيون الموتى – وعنـــدما أعاد ديمتريوس – بوليوركتيس Demetrius Poliorceles الديموقراطية للآثينيين فى عام ٣٠٧ ق . م، خلع عليه الآثينيون وعلى والده انتيجونوس Antigonus وكان لايزال حياً – ألقاب التشريف الإلهية ، وأطلقوا على كل منهما لقب الإله المنقذ » وقد أقيمت المذابح لهذين الإلهين المنقذين وعين أحد الكهنة ليشرف على مراسم العبادة . وكان الناس يخرجون عن بكرة أبيهم للقاء مخلصيهم ومنقذيهم ، وهم يرددون التّرانيم ويرقصون ويحملون الأكاليل ويطلقون البخور ويسكبون الخمر تعظيا للآلهة . كانوا يصطفون على جانبي الطريق ، يرددون الأغانى التى يؤكدون فيها أنه وحده الإله الحق الأمين ، بينما كان غيره من الآلهة يعيشون غافلين عن الناس أوبعيدين عنهم وذلك إن كانوا آلهة على الاطلاق . وقد عبر غن ذلك أحد الشعراء المعاصرين لتلك الأحداث فى أبيات كان الناس يرددونها ، ويترنمون بها علانية ،أو يتغنون بها فى مجالسهم الخاصة :

لقد عاد إلى المدينة بعد غيبة ،
أعز الآلهة وأعظمها جميعاً ،
لقد جاد الزمان علينا بالاثنين معاً : ديمتريا وديمتريوس ،
إنها تأتينا لتحمل شعائر العذرية الطاهرة العفيفة ،
بينما يحمل هو الفرحة والجمال والابتسام .

التى تليق بالآلهة ،
يا لبهاء هذا المشهد وقد أحاط به كل أحبائه ومريديه ،
إنه واقف بينهم كأنهم النجوم وكأنه هو الشمس ،
إنه ابن بوسيدون Poseidon القوى العنيف ، ابن
افروديت السلام عليهم أجمعين ،
لقد أقام الآلهة الآخرون بعيدا بعيدا ،
لقد أصاب الصمم آذانهم ،
ولم يعودوا شيئاً مذكورا ،
لم يعودوا يهتمون بنا أو يعنون ،
أما أنت أيها الإله الذى نراك قائماً بيننا .
فلست إلهاً من الحجر أو الخشب ،وإنما أنت رب الأرباب حقاً
وصدقاً .. ومن أجل هذا نصلى لك وحدك .

ولقد كان الجرمانيون القدماء يعتقدون بأن ثمة شيئاً مقدساً فى المرأة ، ولذا كانوا يستشيرون النساء كعرافات . وقد جاء فى الخبر أن نساءهم المقدسات كن ينظرن للأنهار وهى تزخر بالماء ويصغين لخرير الماء ، ثم يتنبأن بما سيأتى به المستقبل مما يرين أو يسمعن . بيد أن احترام الرجال للنساء كثيراً ما كان يذهب لأبعد من ذلك بكثير ، فقد كانوا يعبدون النساء باعتبارهن لهات يتمتعن بالحياة بكل قوتها وعنفوانها ، مثال ذلك أنه أثناء حكم ڤسباسيان Vespasian كانت توجد امرأة تدعى ڤيلدا Velda من قبيلة بروكيترى

Bructri وكان الناس يعتقدون على العموم أنها إحدى الربات ، وقد حكمت شعبها بهذه الصفة وذاع صيتها حتى طبق الآفاق ، وكانت فيلدا تعيش فى برج يطل على نهر الإلب — أحد فروع الرين — وحين أرسل أهالى كولونيا يطلبون عقد معاهدة معها لم يسمح للسفراء بالمثول أمامها وإنما كانت المفاوضات تجرى عن طريق أحد الوزراء الذى كان يتكلم بلسانها ، وينقل إليهم أقوالها المقدسة .

ويبين لنا هذا المثال إلى أى حد كانت فكرة الألوهية وفكرة الملكية تتداخلان إحداهما فى الأخرى وتختلطان فى أذهان أسلافنا السذج . ويقال إنه كان يوجد عند القوط وحتى أول العهد المسيحى رجل يتجسد فيه الرب دائماً ويطلق عليه الناس اسم « الإله » ، وكان يعيش فوق أحد الجبال المقدسة ، ويقوم بدور المستشار للملك .

ولقد ذكر المؤرخ البرتغالى القـديم ، دوس سانتوس Dos Santos أن المزمبا أو الموزيمبا ، وهم شعب يسكن فى جنوب شرق أفريقيا لا يعبدون الأصنام ، ولا يعترفون بأى إله ، ولكنهم بدلا من هذا يعظمون ملكهم ويقدسونه ويعتبرونه إلهاً مقدساً ، بل يرون أنه أفضل وأعظم إله على الاطلاق .

والواقع أن الملك نفسه يزعم أنه هو وحده إله الأرض ، ولذا فحين يسقط المطر ، مثلا ، على عكس رغبته أو حين تشتد

حرارة الشمس يطلق الملك السهام على السماء ، عقاباً لها على عصيان أمره .»

ولقد ذكر أعضاء قبائل الماشونا Mashona التى تعيش فى جنوب إفريقيا للأسقف الذى يقيم بينهم أنه كان لهم فى الماضى إله يعبدونه حتى قامت قبيلة المتابلى Matabeles بابعاده ونفيه .» وقد وردت هذه الحادثة الأخيرة أثناء الإشارة إلى إحدى العادات الغريبة التى كانت تشيع فى بعض القرى والتى تتمثل فى احتفاظ السكان برجل يزعمون أنه إلههم ، ويبدو أنهم كانوا يستشيرونه فى أمورهم ، ويقدمون له الهدايا . وكان أحد هؤلاء الآلهة يعيش فى قرية تابعة لأحد رؤساء الماجوندى Magoundi فى العهود السابقة . ولقد طلب إلينا ألا نطلق النار من أسلحتنا حين نقترب من القرية حتى لا نثير الخوف فى نفسه فيهرب .وكان يتعين على إله الماشونا قبل ذلك أن يقدم جزية سنوية لملك المتابلى تتألف من أربعة ثيران سوداء ، مع القيام بأداء إحدى الرقصات أمامه . ولقد شهد أحد المبشرين هذا الرب ووضعه أثناء قيامه بالجزء الثانى من التزاماته أمام الكوخ الملكى فقد ظل هذا الإله الأسود الداكن يرقص فى عنف وتهيج ثلاث ساعات كاملة بغير انقطاع على أصوات قرع الطبول المدوية ، ورنين الصاجات وهمهمة الغناء الرتيب ، وهو فى أثناء ذلك يضرب على فخذيه أو يلمسهما كما لو كان حائك ملابس ، بينما كان العرق يتصبب من جسمه . ولكنه كان يتثنى ويعتدل فى رشاقة وسهولة

تشهدان بقوة ساقيه المقدستين ومرونتهما .

ولقد كان الباجندا Baganda فى وسط افريقيا يؤمنون بوجود إله لبحيرة نيانزا ، وأنه كان فى بعض الأحيان يتقمص أحد الرجال أو إحدى النساء . وكان ذلك الإله المتجسد مرهوب الجانب من جميع أفراد شعبه بما فيهم الملك نفسه ورؤساء القبائل.

وحين كانت تتم حالة التجسد كان الرجل - أو الإله بالأحرى يتحرك بعيداً عن حافة البحيرة بحوالى ميل ونصف ويمكث هناك انتظاراً لظهور الهلال الجديد قبل أن يباشروا واجباته المقدسة . ومنذ اللحظة التى يظهر فيها هلال الشهر الجديد خافتاً فى السماء كان الملك وأتباعه يضعون أنفسهم رهن إشارة وأمر الرجل الإلهى أو اللوبارا Lubare (أى الإله) كما كانوا يسمونه والذى كانت له الكلمة العليا ليس فى أمور العقيدة والشعائر فحسب ، بل وأيضاً فى أمور الحرب وسياسة الدولة ، كما كان يستشار فى كثير من الشئون الأخرى باعتباره كاهناً نبياً Oracle يستطيع بكلمة منه أن يسلط المرض على الناس أو يخلصهم منه ، وأن يمسك السماء فلا تسقط المطر ، وأن ينشر المجاعات ، وكان الناس يقدمون له الهدايا الثمينة حين يستطلعون رأيه ونصحه .

ولقد كان رئيس أوروا Urua (وهو اقليم واسع يقع بالقرب من بحيرة تنجانيقا) يخلع على نفسه كثيراً من مزايا ومظاهر السلطة الإلهية ويتظاهر بالعزوف عن الطعام أياماً طويلة دون أن

يشعر بالحاجة إليه وكان يعلن أنه « كإله » يسمو تماماً فوق مستوى الحاجة البشرية إلى الطعام ، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يدخن إلا من أجل النشوة التي تبعثها هذه الأفعال في نفسه .

وعند قبـــائل جالا Gallas ، حين تشعر المرأة بالتعب من الأعمال المنزلية ، تبدأ في الهذيان بكلام غير مترابط تسرف فيه في تحقير نفسها ، ويعتبر ذلك علامة على حلول روح « كالو Callo » المقدسة فيها ، فيأخذ زوجها في الحال في التزلف والتذلل لها ، والتقرب إليها في خضوع ، وينتهي الأمر بأن تتحول المرأة إلى « ربة » أو « إلهة » بعد أن كانت تحمل لقب زوجة ، اللقب المتواضع ، ويسقط عنها بذلك كل تكليف فيما يتعلق بأداء الواجبات المنزلية ، وتصبح إرادتها منذئذ بمثابة قانون إلهي .

ويعظم اللوانجو Loango ملكهم « كما لو كان إلهاً ويطلقون عليه اسم سامبي Sambee أو بانجو Pango أي (الرب) ، كما يعتقدون أنه يستطيع أن ينعم بالمطر حين يشاء . والواقع أنهم يلجئون إليه مرة واحدة في كل عام وذلك في شهر ديسمبر ، وهو الوقت الذي تشتد فيه حاجتهم إلى المطر فيبتهلون إليه أن يمنحهم إياه » . وفي هذه المناسبة يقف الملك فوق عرشه ، ويطلق سهماً في الهواء ، اعتقاداً منهم أن ذلك كفيل بسقوط المطر . والشيء نفسه يمكن أن يقال عن ملك لمبـــاسا . وإلى بضع سنين مضت عندما انهار حكمه الروحي فجأة تحت نيران الأسلحة المادية القاتلة

التى تستعملها البحرية الانجليزية وأصحاب المعاطف الزرقاء ، كان ملك بنين Benin موضع العبادة والتقديس فى ممتلكاته . «فقد كان يحتل مكانة تعلو بكثير على المكانة التى يحتلها البابا فى أوروبا الكاثولوكية ، ذلك أنه لم يكن خليفة الله على الأرض فقط ، بل كان هو الرب نفسه الذى يتقرب إليه الناس ويطيعونه باعتباره إلهاً لهم ، وإن كنت شخصياً أعتقد أن ذلك كان ناشئاً عن الخوف منه أكثر من حبهم له » . ولقد قال ملك الإده Iddah للضباط الانجليز فى حملة النيجر « إن الله قد صنعنى على صورته فأنا أشبه الإله تمام الشبه ، وهو الذى نصبنى ملكاً »

ولقد كان أحد ملوك بورما ويدعى «بادو نساشن Badonsacachen شديد التعطش لسفك الدم لدرجة أن تقاطيعه نفسها كانت تعكس الشراسة المتأصلة فى طبيعته ، إذ أنه قتل أيام حكمه وعلى يد جلاده عدداً من الضحايا يفوق ذلك الذى هلك على يد العدو المشترك . وكان ذلك الملك يؤمن أشد الإيمان بأنه شخص خالد لا يموت ، وأن ذلك الامتياز السامى الذى ينعم به هو منحة حصل عليها جزاء ما قدمت يداه من العديد من صالح الأعمال . وعلى هذا الأساس بدأ يستبعد جانباً لقب الملك ، ويتجه نحو جعل نفسه إلهاً . وتحت تأثير هذه الفكرة ومحاكاة لبوذا الذى هجر قصره الملكى وحرمه السلطانى ولعتزل الدنيا قبل أن يرتقى إلى مرتبة الألوهية ، انسحب بادو نساشن إلى « باغودة » هائلة كانت تعتبر أكبر معبد فى الامبراطورية ،

وكان هو نفسه قد انشغل بتشييدها سنين طويلة . وفى ذلك المكان كان يعقد المؤتمرات مع أوسع الرهبان علماً ، كما كان يحاول أن يقنعهم بأن السنوات التى بلغت خمسة آلاف سنة التى حددت لقيام قوانين بوذا وانتشارها وممارستها قد انقضت وأنه هو نفسه الإله المنتظر الذى كان يتحتم ظهوره بعد تلك الفترة ، كى ينسخ القانون القديم ويحل قانونه هو محله . ولكن لسوء حظه ، وخيبة أمله القاتلة أن الكثيرين من هؤلاء الرهبان كرسوا أنفسهم للتدليل على عكس ما كان يزعم ، وكان لهذه الخيبة ، بالإضافة إلى حبه للسلطة وعدم صبره على قيود ومتاعب حياة النسك والزهد أثرها فى انصرافه بسرعة عن ألوهيته المتوهمة ورده ثانية إلى قصره وحريمه . كذلك الحال بالنسبة للملك سيام الذى كان « يخلع على نفسه خصائص الإلوهية بنفس الطريقة ، وكان يحرم على أتباعه أن يتطلعوا إلى وجهه ويفرض عليهم أن يجثوا على الأرض حين يمر بهم ، وأن يركعوا أمامه على ركبتيهم ، وقد ركزوا الكوعين على الأرض » وكانت هناك لغة لم تكن تستخدم إلا فى الإشارة إلى ذاته المقدسة ، وصفات جلاله ويتحتم على كل من يتحدث إليه أو يتكلم عنه أن يستعملها ، وهى لغة معقدة يصعب حتى على سكان البلاد الوطنيين أنفسهم الإلمام بألفاظها الغريبة : فقد كان لكل جزء من أجزاء جسمه اسم خاص : شعر رأسه ، وكعب قدمه بل ورائحة جسمه ، وكل صغيرة من تفاصيل ذاته سواء الخارجية أو الداخلية.

وحتى أكله وشربه ونومه ومشيه كان لها كلمات خاصة تشير إلى أن هذه الأفعال إنما تصدر عن الملك نفسه ، وهى كلمات لا يمكن إطلاقها على الأفعال الصادرة عن غيره من الناس مهما علا شأنهم وارتفعت مكانتهم . فليس فى اللغة السيامية كلمة يمكن أن يوصف بها مخلوق أعلى أو أسمى وأكرم من الملك ، حتى أن المبشرين كانوا حين يتكلمون عن الله كانوا يضطرون إلى استعمال الكلمة التى تشير إلى الملك فى اللغة السيامية

ومع ذلك فيمكن القول بأنه قد لا توجد دولة فى العالم أخصب من الهند فى الآلهة البشرية ، إذ لا يكاد يوجد مكان فى الدنيا تنهال فيه البركات والنعم الإلهية فى كثرة وسهولة ويسر على كافة الطبقات ابتداء من طبقة الملوك حتى طبقة بائعى اللبن مثلما يحدث هناك ، فعند التودا Todas مثلا وهم شعب من الرعاة يسكنون تلال نيلغيرى Neilgherri فى جنوب الهند ، تعتبر « الملبنة » بمثابة الحرم المقدس ، كما يعامل اللبان الذى يرعاها كما لو كان إلهاً ، ولقد سئل أحد هؤلاء اللبانين المقدسين ذات مرة عما إذا كان التودا يصلون للشمس فأجاب « هؤلاء المساكين يفعلون ذلك » . ثم استطرد قائلا وهو يدق صدره براحته .. أما أنا ....الإله فلماذا أصلى لها ؟ ويتعين على كل الناس بما فى ذلك أبوه نفسه أن يركعوا له ، ولا يجسر أحد أن يرفض له طلباً . وليس لأحد أن يلمسه مالم يكن

لباناً مثله، كما أنه يسدى النصح والحكمة لكل من يستشيره على اعتبار أنه ينطق ويتكلم بصوت الإله.

والأكثر من ذلك أن كل ملك فى الهند « ينزل منزلة تلى منزلة أحد الآلهة مباشرة » . وتذهب قوانين مانو Manu الهندوكية إلى أبعد من ذلك إذ يرد فيها « أنه حتى الملك الوليد لا يجب أن ينظر إليه بازدراء على اعتبار أنه كائن، فان، ذلك لأنه إله عظيم فى صورة بشرية » . وهنا يقال إنه كان يوجد فى أوريسا Orissa منذ بضع سنين إحدى الفرق التى كانت تقدس الملكة فكتوريا أثناء حياتها ويعتبرونها كبير آلهتهم . وحتى يومنا هذا لا يزال الأشخاص الأحياء فى الهند ممن يمتازون بقوة بدنية خارقة، أو إرادة قوية أو الذين يظن أنهم يملكون بعض القوى الاعجازية عرضة لأن يتخذهم غيرهم من الناس آلهة يعبدونها . ففى البنجاب مثلا اتخذت إحدى الفرق إلهاً لهم أطلقوا عليه اسم « نيكال سن Nickal Sen » ولم يكن هذا « النيكال سن » سوى الجنرال نيكلسون General Nickalson المرهوب الجانب .

ولم يكن أى شىء يصدر عن الجنرال من فعل أو قول ليوهن من حماسة أتباعه شيئاً ، بل كان يبدو على العكس من ذلك أنه كلما ازدادت وطأة تعذيبه لهم ، ازدادت رهبته وهى الأساس الذى يقوم عليه تقديسهم له . ومنذ عهد غير بعيد تقمص أحد الأرباب المشهورة فى بنارس Banares شخصيته سيد هندوكى

كان يتباهى زهواً وفخراً باسم زمانى جديد أطلقه على نفسه وهو «سوامى بلاسكارا – نناجى ساراساوانى Swami Blaskarananaji Saraswti» وكان يشبه بشكل غير عادى المرحوم الكاردينال مانينج Cardinal Manning ولكنه كان أكرم منه ، كما كانت عيناه تشعان بنور الشفقة والتراحم الإنسانى ، وكان يعتبر كل ما يدور حوله نوعاً من الاهتمام البرىء بالمزايا الإلهية التى يقدمها إليه أتباعه المخلصون .

وفى تشنشيفاد Chinchivad وهى بلدة صغيرة تبعد عن بونا Poona فى غرب الهند بحوالى عشرة أميال تعيش أسرة يعتقد معظم الناس فى قبيلة ماهراتا Maharattas أن الإله جنبوتى Gunputy الذى يشبه رأس الفيل يتقمص أحد أفرادها فى كل جيل ، ولقد بدأ يتجسد هذا الإله المشهور لأول مرة حوالى عام ١٦٤٠ حين حل فى شخص أحد البراهمة فى بونا واسمه « موربا جوسين Moorba Gosseyn » وقد حاول موربا أن يحقق خلاصة عن طريق التعفف والزهد وكبح الشهوات والصلاة وقد أثيب على صلاحه وتقواه ، إذ ظهر الرب نفسه له فى إحدى الرؤى ليلا ووعده بأن جزءاً من نفسه – أى من روح جنبوتى المقدسة – سوف يحل فيه وفى ذريته لمن بعده حتى الجيل السابع ولقد تحقق الوعد الإلهى بالفعل ، فقد حدثت سبعة تقمصات متتالية انتقلت من الخلف إلى السلف ، وظهر عن طريقها نور الإله جنبوتى فى الدنيا المظلمة .

وكان آخر هذه الآلهة السبعة إلهاً بارز الملامح ذا عينين ذابلتين ، وقد مات سنة ١٨١٠ . إلا أن أصل حدوث هذه التقمصات كان على درجة عالية من القداسة والألوهية ، كما أن ممتلكات المعبد كانت ضخمة جدا بحيث لم يكد البراهمة يسمحون لأنفسهم بالتفكير الهادىء المتزن فى فداحة الخسارة التى كانت ستحيق بالدنيا لو اختفى چنبوتى من هذا الوجود . وعلى هذا الأساس بحثوا ونقبوا حتى عثروا على إنسان مقدس آخر كانت روح الإله المقدسة قد حلت فيه من جديد ، مما أتاح الفرصة لاستمرار التجسد فى سلسلة متصلة من الأشخاص المقدسين منذ ذلك الحين حتى الآن . ولكن ظهر قانون غامض فى مجال التدبير الروحى قد تنعى عليه دوره فى تاريخ الأديان وإن كنا لا نستطيع تغييره مع ذلك . وينص هذا القانون على أن المعجزات التى يصنعها الآلهة البشرية فى عصر الانحلال الحالى لا يمكن أن تقارن بتلك التى كان أجدادهم وأسلافهم يصنعونها فى العهود الغابرة ، بل إنه يقال إن المظهر الوحيد للعطف الذى تتفضل به هذه الآلهة البشرية على أبناء الجيل الحالى من اللئام الجاحدين هو معجزة إطعام ذلك الحشد الهائل من الناس أثناء حفل العشاء الذى يقام لهم فى سنشناد فى كل عام .

وتذهب إحدى الفرق الهندوكية التى ينتمى إليها أعداد كبيرة من الناس فى بومباى والهند الوسطى إلى حد الاعتقاد بأن رؤساءهم الروحانيين — أو المهراجات كما يسمون — هم ممثلون أو حتى

تجسدات فعلية للإله كرشنا Krishna على الأرض . ولما كان كرشنا يشمل خلفاءه وحوارييه بفضله وأنعمه من علياء سمائه ، ويستجيب لمطالب أتباعه ومريديه على الأرض ، وضعت إحدى الشعائر الغريبة التى تعرف باسم « تكريس الذات » والتى بمقتضاها ينزل المتعبدون المخلصون عن أجسامهم وأرواحهم ، بل وأيضاً عما هو أهم من ذلك إذ يهبون كل ما يملكون من متاع الدنيا للأشخاص الذين تقمصهم الإله ، بل إن النساء ينشأن على الإيمان بأن أعلى مستويات الغبطة للمرأة السعيدة المحظوظة ولعائلتها لن تتحقق إلا باستسلامها لأحضان تلك الكائنات التى تجتمع فيها بطريقة غامضة الطبيعة الإلهية مع الصورة البشرية المشخصة بكل نقائصها وشهواتها . ولم تنج المسيحية ذاتها دائماً من أدران هذه الترهات التعسة . فالحقيقة كثيراً ما شابها الكثير من مبالغات الأدعياء الذين كانوا ينسبون إلى أنفسهم قدسية تساوى — إن لم تفق — قدسية المسيح نفسه . فى القرن الثانى أعلن مونتانوس الفروجى Montanus the Phrygian أنه هو التجسد البشرى للثالوث ، وأنه قد اتحد فى شخصه الأب والابن والروح القدس . ولم تكن هذه هى الحالة الوحيدة للمبالغة فى الادعاء الصادر عن ذهن كليل لشخص مختل . فقد ذهب كثير من الفرق والمذاهب إلى القول بأن المسيح بل والرب نفسه يتجسد فى كل مسيحى تحت كرازته ، وقد ساروا مع هذا الاعتقاد إلى النتيجة المنطقية المترتبة عليه وهى أن يعبد بعضهم بعضاً .

ويذكر لنا ترتليان Tertullian أن اخوانه المسيحيين فى قرطاجة فى القرن الثانى كانوا يفعلون ذلك ، إذ كان تلاميذ القديس كولومبا Columba يعبدونه على أنه الصورة المتجسدة للمسيح . كما أن « اليابانلوس القوليلى Elipand us Toledo يتحدث عن المسيح على أنه « إله بين الآلهة » قاصداً بذلك أن جميع المؤمنين كانوا آلهة – بكل معانى الكلمة – مثل المسيح نفسه . كذلك شاعت عبدة الناس بعضهم لبعض عند الأليجنيسيس Aligneses كما وردت ، الإشارة إلى مثل هذه العبادة مئات المرات فى وثائق محاكم التفتيش فى كولوز فى أوائل القرن الرابع عشر .

ولقد ظهرت فى القرن الثالث عشر فرقة تعرف باسم « إخوان وأخوات الروح الحرة Brothers and Sisters of the Freespirit » وكان أعضاؤها يعتقدون بأنه عن طريق التأمل الطويل المضنى يستطيع أى إنسان أن يتجسد مع الرب فى وحدة لا تنفصل وبذلك يتوحد مع أصل وخالق جميع الأشياء ، وأن من استطاع بتلك الوسيلة أن يصعد إلى الله ويذوب فى ماهيته الخيرة الطيبة يصبح جزءاً من الله ذاته ، وبذلك يكون ابناً للرب كالمسيح تماماً ويرتفع بذلك فوق كل أوامر ونصوص الشرائع والقوانين ، بشرية كانت أو إلهية. وعلى الرغم من مظهرهم الخارجى ، وسلوكهم القريب الذى يوحى بالبله وتشتت الفكر فإن العلاقة الباطنية التى نشأت عن ذلك الاقتناع المريح كانت تدفع اتباع هذا المذهب إلى التجول من مكان إلى آخر

وهم يتدثرون بأنواع من الأردية الغريبة الشكل ويسألون الناس فى إلحاف أن يقدموا لهم الطعام وذلك فى الوقت الذي يعلنون فيه احتقارهم وترفعهم عن كل أنواع العمل الشريف ، على أساس أن العمل يعوق المرء عن التأمل المقدس ، والتسامى بالنفس نحو خالق الأرواح . وكان يتبعهم فى تجوالهم عدد من النساء اللاتى كن يعشن معهم عيشة المعاشرة والألفة ، وكان بعضهم يتوهم أنه حقق أكبر قدر من النجاح فى حياته الروحية وان ذلك يعطيه الحق فى الاستغناء تماماً عن الملابس أثناء اجتماعاتهم ، ويعتبرون أن ما يسمى بالتأدب أو الحشمة ليس سوى علامة على الفساد الباطنى الذى تتميز به الروح التى لا تزال خاضعة لسلطان الجسد ، والتى لم ترتفع بعد إلى مستوى الاتحاد مع الروح الإلهية التى انبثقت منها فى الأصل . وكثيراً ما كانت محاكم التفتيش تسارع بهم إلى تحقيق هذا الاتحاد الغامض ولكنهم كانوا يستقبلون الموت فى لهيب النيران ، ليس فقط بهدوء ورصانة بل وأيضاً بمشاعر الفخر والبهجة والفرح . . .

وحوالى عام ١٨٣٠ ظهر فى إحدى ولايات أمريكا المتحدة وعلى مشارف كنتاكى ، افاك دعى أعلن أنه هو ابن الرب ، ومخلص البشرية ، وأنه قد عاد إلى الأرض من جديد ليدعو الأشرار والكافرين المكذبين والآثمين إلى الحق وأنذرهم بأنهم إن لم يعدلوا من أسلوب حياتهم خلال فترة معينة من الزمن ، فسوف يصدر أمره فتتحول الدنيا هباء منثوراً فى غمضة عين . ولقد قوبلت هذه

الادعاءات المسرفة بكثير من الترحيب حتى من الأشخاص ذوي الثراء العريض أو المركز المرموق في المجتمع وأخيراً توسل أحد الألمان في ذلة وضراعة إلى ذلك المسيح الجديد أن يتحدث عن هذه الفاجعة المخيفة التي يهدد بها لاخوانه في أهالي الريف باللغة الألمانية ، نظراً لأنهم كانوا يجهلون الانجليزية ، ولأنه مما يدعو للاشفاق أن تصيبهم هذه اللعنة لا لسبب إلا لأنهم لا يفهمونها ، وهنا اعترف المخلص المنتظر في إجابته بأنه مع الأسف الشديد لا يعرف الألمانية فصاح الألماني قائلا : « ماذا !! . أنت ابن الرب ولا تتكلم جميع اللغات ، بل وحتى لا تعرف الألمانية ؟ يا إلهي حذار حذار لابد أنك محتال وضيع ومنافق بل ومجنون ، إن البيمارستان هو المكان الطبيعي لك » . وضحك الحاضرون ثم انصرفوا عنه خجلين من سذاجتهم .

وفي بعض الأحيان تنتقل الروح المقدسة ، عند موت الجسد البشري الذي كانت تتقمصه ، إلى رجل آخر . ويؤمن البوذيون من التتار ، بوجود عدد كبير من الأحياء الذين يتقمص فيهم البوذا نفسه ، وهم الذين يحتلون وظائف اللاما الأعظم ويرأسون لذلك أهم المعابد البوذية .

وعندما يموت أحد هؤلاء اللامات العظام لا يحزن عليه أتباعه ومريدوه لأنهم يعرفون أنه سوف يعود للظهور بعد قليل في شكل

مولود جديد ، وكل ما يشغلهم حينئذ هو أن يكتشفوا مكان ولادته الجديدة . فإذا رأوا فى هذا الوقت قوس قزح فى كبد السماء ، فإنهم يأخذونه على أنه علامة يرسلها لهم اللاما الراحل لتهديهم إلى ذلك المكان . وقد يكشف المولود الإلهى عن شخصيته بنفسه فى بعض الأحيان . فينطق قائلا : « إننى أنا اللاما الأعظم ، بوذا الحى الذى ينتمى إلى معبد كيت وكيت . خذونى إلى الدير الذى أنتمى إليه فأنا رئيسه الذى لا يموت » . وأيا ما تكون الطريقة التى يكشف بها النقاب عن مكان ولادته ، وسواء أكان ذلك نتيجة لإعلانه هو عن نفسه أو نتيجة لظهور إحدى العلامات فى السماء ، فان الناس يقومون بنصب الخيام ؛ وتبدأ وفودهم وعلى رأسهم فى الأغلب الملك نفسه أو واحد من ألمع أفراد الأسرة الملكية فى التوجه فى فرح وبهجة للجمع إلى ذلك المكان والبحث عن الطفل الإلهى وإعادته إلى موطنه . والعادة أن يولد الإله فى التبت التى تعتبر أرضاً مقدسة . وكثيراً ما يتحتم على القوافل ، لكى تصل إليه ، أن تعبر أكثر صحارى العالم وحشة وقسوة . وحين يعثرون آخر الأمر على الطفل ، فانهم يخرون له سجداً عبداً . إلا أنه يتحتم عليه — كى يعترفوا به على أنه هو اللاما الأعظم الذى يجدون فى البحث عنه — أن يقنعهم بشخصيته . ولذا فانهم يسألونه عن اسم الدير الذى يزعم أنه رئيسه ، وعن المسافة بين الدير ومكان ولادته ، وعدد الرهبان الذين يعيشون فيه ، كما يجب عليه أن يصف عادات اللاما الأعظم الراحل والطريقة

التى مات بها . ثم يوضع أمامه بعد ذلك عدد من الأشياء المختلفة ، مثل كتب الصلاة ، وأوانى الشاى والفناجين لكى يتبقى منها تلك التى كان يستعملها فى حياته السابقة . فإذا فعل ذلك دون أن يقع فى أى خطأ ، قبل الناس دعواه ، وحملوه إلى الدير فى موكب النصر ويرأس اللامات جميعاً الدالاى لاما Dalai Lama فى لاهاسا Lahasa التى تعتبر روما التبت . ويعتبر الدالاى لاما إلهاً حياً ، ولذا فإن روحه الإلهية الخالدة تولد عند موته فى طفل جديد . وتذهب بعض الروايات إلى أن طريقة الكشف عن الدالاى لاما لا تختلف عن الطريقة التى سبق وصفها والتى تستخدم للكشف عن أى لاما أعظم عادى . ولكن هناك روايات أخرى تشير إلى وجود نظام من الانتخابات يقوم على أساس سحب القرعة من إناء ذهبى . وعلى أية حال فانه حينما يولد الدالاى لاما ،فان الشجر والنباتات تورق فتراها مخضرة . كما تتفتح الزهور وتفيض الينابيع بالماء حين يشاء وتعم بركات السماء على الناس حين يهل بطلعته عليهم .

وليس الدالاى لاما هو الرجل الوحيد الذى ينتحل دور الإله فى تلك المناطق . ففى إدارة المستعمرات ببكين يوجد سجل بأسماء جميع الآلهة المتجسدين الذين عاشوا أيام الامبراطورية الصينية ويبلغ عدد الآلهة الذين استخرجوا ترخيصات أيام الامبراطورية

الصينية ، مائة وستين إلهاً . وقد اختصت التبت بركة ثلاثين من هؤلاء الآلهة ، كما سعدت منغوليا الشمالية بتسعة عشر إلهاً « أما جنوب منغوليا فقد كانت تستدفىء بشمس مالا يقل عن سبعة وخمسين منهم .
ولقد حرمت حكومة الصين بدافع — من اشفاقها الأبوى على رفاهية شعبها — على الآلهة المسجلين بهذا السجل أن يولدوا مرة أخرى فى أى مكان غير التبت . فقد كانت تخشى أن يؤدى مولد أحد الآلهة فى منغوليا إلى نتائج سياسية خطيرة عن طريق إيقاظ الوطنية النائمة ، وإثارة الروح المغولية الميالة للحرب ، فيتجمع المتمردون حول أحد هؤلاء الآلهة الوطنيين الطموحين الذين ينحدرون من اللاآله الملكية ، ويحاولون أن ينشئوا لهم ، بحد السيف ، مملكة تجمع بين السلطتين الزمنية والروحية . ولكن إلى جانب هؤلاء الآلهة العموميين أو المرخص لهم بمزاولة عملهم يوجد عدد كبير من الآلهة الخصوصيين الأقل شأناً ممن يمارسون الألوهية بدون ترخيص فيصنعون المعجزات ، ويباركون أتباعهم فى السر أو العلن . وقد رأت حكومة الصين فى السنوات الأخيرة أن تتغاضى عن ميلاد هؤلاء الأرباب الصغار الشأن خارج التبت ومع ذلك فإنه بمجرد ولادتهم تحكم الحكومة الرقابة عليهم مثل ما تفعل تماماً مع الممارسين المحترفين حتى إذا انحرف أحدهم عن جادة الصواب عزل فى الحال من منصبه وأبعد إلى أحد الأديرة النائية وحرم عليه تماماً أن يولد مرة ثانية فى جسد جديد .

ومن هذا العرض للمركز الديني الذي يحتله الملك في المجتمعات الهمجية يمكننا أن نستنتج أن القوى الإلهية الإعجازية التي كان الملوك ينسبونها لأنفسهم في الأمبراطوريات التاريخية العظيمة في مصر والمكسيك وبيرو ، لم تنشأ ببساطة عن الغرور المتضخم كما لم تكن مجرد تعبير أجوف عن التعلق الذليل . وإنما كانت مجرد استمرار وامتداد لعادة تأليه الملوك الأحياء التي كانت توجد عند الشعوب البدائية القديمة . ولذا كان الانكا في بيرو يقدسون ملوكهم مثلما تقدس الآلهة باعتبارهم أبناء الشمس ، فكانوا يعتبرونهم معصومين من الخطأ والشر كما لم يكن هناك من يحلم بالنيل من شخص أو شرف أو ممتلكات الملك أو أي شخص آخر من السلالة الملكية . ومن هنا أيضاً لم يكن ملوك الانكا ينظرون للمرض على أنه شر كما يفعل معظم الناس ، وإنما كانوا يعتبرونه رسولا من عند أبيهم الشمس جاء يدعوهم للذهاب إليه كي ينعموا معه بالراحة في السماء . ولذا كانت الكلمات التي ينصح بها ملك الانكا عادة عن اقتراب أجله هي : « إن أبي يناديني لأذهب إليه وأستريح عنده » . ولم يكن ينبغي لهم أن يعارضوا إرادة أبيهم بأن يقدموا القرابين مثلا أملا في الشفاء . وإنما كانوا يعلنون صراحة أنه قد دعاهم للراحة إلى جواره .

وحين خرج الأسبان الغزاة من الوديان الحارة الرطبة الراقدة على الهضبة المرتفعة في جبال الأنديز في كولومبيا ، أخذتهم الدهشة عندما وجدوا أمامهم شعباً يختلف تماماً عما شاهدوه بين الجماعات

الهمجية التي تركوها في الأدغال الممتدة أسفل الجبال ، فلقد كان لذلك الشعب حضارة على جانب لا بأس به من التقدم ، كما كان يمارس الزراعة ، ويعيش في ظل حكومة قارنها همبولت Humboldt بالحكومة الثيوقراطية Theocracies في التبت واليابان . كانت هذه هي قبائل الشبشا Chibchas والمويسكا Muyscas أو الموزكا Mozcas التي كانت تنقسم إلى مملكتين لهما عاصمتان في بوجوتا Bogota وتونجا Tunja ، ولكنهما كانتا تتحدان على ما يظهر في ولائهما الروحي للكاهن الأعظم في سوجاموزو Sogamozo أو أيراكا Iraca ، فلقد استطاع ذلك الحاكم الروحي بفضل تدريبه الطويل المضني على أعمال الزهد والتنسك أن يكتسب نوعاً من القداسة جعلته يتحكم في الماء والمطر والجو ويخضعها لإرادته . ولقد سبق لنا أن رأينا أن ملوك المكسيك كانوا يحلفون وقت ارتقائهم العرش بأن يعملوا على سطوع ضوء الشمس ونزول المطر من السحاب وعلى فيضان الأنهار ووفرة الثمر في الأرض . والمعروف أن مونتزوما Montezoma آخر ملوك المكسيك كان إلهاً معبوداً من رعيته .

ولقد كان ملوك بابل الأوائل منذ عهد سرجون الأول حتى الأسرة الرابعة في أور Ur » أو ما بعدها يدعون الألوهية أثناء حياتهم . وكان للملوك الأسرة الرابعة في أور على وجه الخصوص معابد كانت تقام لتمجيدهم ، كما أنهم كانوا يقيمون تماثيلهم في كثير

من المحاريب ويأمرون الناس بأن يقدموا لها القرابين. وكان الشهر الثامن بخاصة هو الشهر المخصص للملوك ، كما كانت القرابين تقدم إليهم مع مطلع الإله الجديد ، وفى الخامس عشر من كل شهر . كذلك كان الملوك البارثيون من عائلة ارساكد Arsacid يعتبرون أنفسهم إخوة للشمس والقمر ، ولذا كانوا يعبدون كآلهة ، وكان مجرد الاعتداء على أى فرد عادى من أسرة أرساكيد أثناء المشادات يعتبر انتهاكاً للحرمات المقدسة .

كذلك ارتفع الناس بملوكهم فى مصر إلى مرتبة الآلهة أثناء حياتهم فكانوا يقدمون لهم القرابين كما كانت عبادتهم تقام فى معابد خاصة يشرف عليها كهنة خصوصيون . والحقيقة أن عبادة الملوك كانت تطغى أحياناً على عبادة الآلهة وتكاد تخفيها . وهكذا نجد أنه فى أيام حكم مرنرع ، أعلن أحد الموظفين أنه قد بنى الكثير من الأماكن المقدسة حتى يمكن للناس الابتهال لأرواح الملك مرنرع الخالد أكثر مما يبتهلون ويتضرعون لجميع الآلهة . ولم يكن ثمة أدنى شك فى أن الملك يزعم لنفسه الألوهية الفعلية ، فقد كان هو « الإله الأعظم » و « حورس الذهبى » و « ابن رع » . ولقد كان يمارس السلطة ، ليس على مصر وحدها ، بل وعلى كل البلاد وكل الشعوب ، على الدنيا كلها ، طولا وعرضاً ، شرقاً وغرباً ، وعلى كل محيط الدائرة الهائلة التى تسطع عليها الشمس ، على السماء وما حوت الأرض وما فوقها ، على كل ما يدب على رجلين

أو أربع ، وكل ما يطير أو يخفق بجناحيه . إن الدنيا بأسرها تقدم إليه كل ثمارها . والواقع أن كل ما كان معروفاً عن الإله الشمس كان ينسب بطريقة تحكمية إلى ملك مصر فقد كانت ألقابه مشتقة مباشرة من ألقاب الإله الشمس . وتذكر لنا بعض الروايات أنه طوال فترة حياته كان ملك مصر يستنفد كل المفاهيم التي كونها المصريون القدماء لأنفسهم عن الألوهية . ونظراً لأنه كان بحكم مولده ومكانته الملكية إلهاً فوق البشر فإنه كان يصبح بعد موته إنساناً معبوداً مقدساً وبذلك كانت تتركز فيه كل الصفات المعروفة عن الرب

وهكذا نصل إلى نهاية ذلك العرض المجمل لتطور الملكية المقدسة التي وصلت إلى أسمى صورها وإلى كمال التعبير عن نفسها في ملوك بيرو ومصر . والظاهر أن هذا النظام يرجع في أصوله — من الناحية التاريخية — إلى نظام السحرة العموميين أو المطببين ، ولكنه يقوم من الناحية المنطقية على الاستدلال بطريقة خاطئة لتداعي الأفكار أو المعاني . فلقد كان الناس يخلطون بين نسق أفكارهم ونظام الطبيعة ، وتصوروا بذلك أن قدرتهم على التحكم في أفكارهم أو بالأحرى ما يتصورونه من القدرة على التحكم في أفكارهم — يعطيهم الحق في ممارسة مثل هذا التحكم في الأشياء . ولقد عمل المجتمع بالتدريج على تمييز الأشخاص الذين كان يظن ، لسبب أو آخر ، وتبعاً لضعف أو قوة الجوانب الطبيعية فيهم أنهم يملكون تلك القوى

السحرية فى أعلى درجاتها . وبذلك أصبحوا يؤلفون طبقة منفصلة كان يتعين عليها أن تؤثر ، بكل ما فى وسعها ، فى التطور السياسى والدينى والعقلى للجنس البشرى . ونحن نعلم أن التقدم الاجتماعى يتم على الخصوص نتيجة لتفاضل الوظائف وتباينها باستمرار أو بقول أبسط ، نتيجة لتقسيم العمل . فالعمل الذى نجد أن جميع الأفراد فى المجتمع البدائى يمارسونه بغير استثناء ويؤدونه كلهم بشكل سىء فى الأغلب ، يتم توزيعه تدريجياً على فئات مختلفة من العمال ، كما أن درجة الإجادة فى أدائه ترتفع شيئاً فشيئاً نحو الدقة والكمال . ولما كان جميع أفراد الجماعة يقتسمون ثمار ذلك العمل المتخصص مادية كانت أو غير مادية ، فإن المجتمع المحلى كله يستفيد من ذلك التخصص المتزايد. ويبدو أن السحرة أو المطببين كانوا يؤلفون أقدم طبقة مهنية فى تطور المجتمع ، وهى طبقة مصطنعة بلا شك . والواقع أن السحرة يوجدون فى كل القبائل الهمجية التى نعرفها ، بل إنهم يؤلفون الطبقة المهنية الوحيدة عند أحط هذه الجماعات الهمجية وهم سكان استراليا الأصليون . ومع مرور الزمن والاستمرار فى عملية التفاضل والتباين تنقسم طبقة المطببين ذاتها إلى عدد من الأقسام أو الفئات الفرعية بحيث تختص إحداها بعلاج الأمراض وواحدة أخرى بصنع المطر أو الاستسقاء (١) وما إلى ذلك بينما تحتفظ

---

(١) نظام الاستسقاء (Rain Making) من النظم المعروفة فى كثير من المجتمعات البدائية (المراجع) .

أقوى أعضاء الطبقة كلها بمركز الرئيس ، ولا يلبث أن يتطور بالتدريج حتى يصبح ملكاً مقدساً وتأخذ وظائفه السحرية القديمة فى التراجع شيئاً فشيئاً حتى تتوارى وتحل محلها الواجبات الكهنوية أو حتى الإلهية نتيجة لزحف الدين ببطء على المكانة التى يشغلها الساحر . ثم حدث فى رحلة تالية من التاريخ نوع من الانقسام والفصل بين المظهر المدنى والمظهر الدينى للنظام الملكى بحيث أسندت السلطة الزمنية والسلطة الروحية لشخصين مختلفين . ولكن السحرة الذين أمكن كبت جماحهم نتيجة لازدياد سيطرة الدين ، وإن لم يمكن استئصال شأفتهم تماماً ، ظلوا مع ذلك يمارسون فنونهم القديمة الغامضة بل ويفضلونها على الطقوس الجديدة التى تتمثل فى تقديم القرابين والصلاة. ولم يلبث بعض هؤلاء السحرة ممن يتميزون على غيرهم بالفطنة والحكمة أن أدركوا ما فى السحر من مغالطات وأباطيل فوجهوا جهودهم نحو طرائف أجدى لتسخير قوى الطبيعة لصالح البشرية ، وبذلك هجروا السحر واتجهوا إلى العلم . ولست أقصد بذلك أن أقول أن عملية التطور سارت دائماً وفى كل مكان فى هذه الخطوط أو المراحل بالذات ، إذ ليس من شك فى أنها تنوعت بتنوع المجتمعات ، وكل ما أقصد إليه هو أن أبين بشكل عام جداً ما أعتقد أنه كان الاتجاه العام لسير التطور . فإذا نظرنا للمسألة من زاوية الصناعة لأمكن القول بأن التطور سار من التجانس إلى التغاير والتعدد فى الوظائف . وإذا نظرنا إليها من الزاوية السياسية لوجدنا

أنه يتم من الديموقراطية إلى الاستبداد . ولا يدخل في مجال اهتمامنا هنا البحث فى التاريخ المتأخر للنظام الملكى وبوجه خاص انهيار وتفكك النظم الاستبدادية وظهور أشكال أخرى من الحكومات أكثر ملاءمة للمطالب السامية للجنس البشري : فالموضوع الذى نهتم به هنا هو نمو وارتقاء وليس اضمحلال وانهيار أحد النظم الرئيسية الذى كان فى وقت من الأوقات من أصلح النظم وأكثرها نفعاً وجدوى .

الفصل الثامن



ملوك الطبيعة النوعيون

ظهر من البحث السابق أن اتحاد الوظائف المقدسة مع اللقب الملكي الذي صادفناه في حالات ملك الغابة في نيمي والملك المختص بتقديم القرابين في روما ، والقاضي الذي يطلق عليه اسم الملك في أثينا ، أمر يتكرر حدوثه خارج نطاق هذه العصور الكلاسيكية القديمة ، وهو أيضاً مظهر شائع في كل المجتمعات من مرحلة البربرية حتى مرحلة الحضارة . وبالإضافة إلى ذلك فإنه يبدو أن الكاهن الملكي هو في أغلب الأحيان ملك ، ليس فقط من الناحية الاسمية ، بل وأيضاً من الناحية الواقعية ، فهو يحمل الصولجان مثلما يبارك بالصليب . وهذا كله يؤكد الفكرة التقليدية عن أصل ظهور الملوك الاسميين والملوك الدينيين في جمهوريات اليونان القديمة وإيطاليا . ونرجو أن نكون قد استطعنا على الأقل أن نزيل أي أثر للتشكك في وجود ظاهرة الجمع بين السلطتين الزمنية والروحية في كثير من المجتمعات حين بينا أن التقاليد الاغريقية والإيطالية ذاتها كانت تميل إلى الجمع بينهما . وعلى ذلك فإنه يحق لنا أن نتساءل الآن : أليس من المحتمل أن يكون نظام ملك الغابة قد نشأ عن نوع من التقاليد تشبه تلك التي نشأ عنها ملك القرابين في روما والملك الصوري في أثينا ؟ وبمعنى آخر : أليس من المحتمل أن الاشخاص

* ملوك الطبيعة النوعيون : ترجمة د . محمد احمد غالي .

الذين سبقوه فى هذه الوظيفة كانوا من الملوك الذين انتزعت منهم إحدى الثورات الجمهورية سلطاتهم السياسية ، وتركت لهم فقط وظائفهم الدينية مع بعض ظلال من تاج الملك؟ هناك سببان على الأقل يدعوان للإجابة عن هذا السؤال بالنفى . الأول مستمد من نفس هيكل كاهن نيمى ، والثانى مستمد من اللقب الذى كان يحمله وهو ملك الغابة . فلو أن أسلافه كانوا ملوكاً بالمفهوم العادى ، لوجدناه يقطن بكل تأكيد فى المدينة التى ضاع صولجانها من يده ، كما فعل ملوك روما وأثينا المخلوعين الذين خلعوا من عروشهم ولكانت هذه المدينة هى مدينة أريكيا إذ لم يكن هناك مدينة أقرب منها . ولكن أريكيا كانت تبعد ثلاثة أميال عن هيكله فى الغابة القائمة على شاطىء البحيرة : فلو أنه مارس الحكم لكان حكمه فى الغابة الخضراء وليس فى المدينة . وبالإضافة إلى ذلك فإن لقبه — ملك الغابة — لا يكاد يسمح لنا بأن نفترض بأنه كان ملكاً بالمعنى العام للكلمة فى أى وقت من الأوقات . والأرجح أنه كان ملكاً للطبيعة ، بل ولجانب خاص من الطبيعة وهو الغابات التى منها اتخذ لنفسه هذا اللقب . ولو استطعنا أن نجد أمثلة لما يمكن أن نسميهم بملوك الطبيعة الفرعيين أو التخصصيين ، أى أمثلة لأشخاص يفترض أنهم يمارسون الحكم على عناصر أو جوانب معينة من الطبيعة ، فمن المحتمل أن يكونوا أقرب شبهاً لملك الغابة ، منهم للملوك المقدسين الذين كنا نتكلم عنهم حتى الآن ، والذين يتحكمون فى الطبيعة بعامة ، وليس

فى جانب واحد خاص منها . ولا تعوزنا الأمثلة على هذا النوع من الملوك المتخصصين أو النوعين .

فعلى تلال بوما Bomma قرب مصب نهر الكنغو يسكن ملك المطر والعواصف الذى يدعى نامفولوفومه Namvulu Vumu وتحدثت الروايات عن بعض قبائل أعالى النيل بأنه لا يوجد عندهم ملك بالمعنى المعروف ، وأن الأشخاص الوحيدين الذين يعترفون لهم بهذه المنزلة هم ملوك المطر Mata Kodu الذين يتمتعون بالقدرة على استنزال المطر فى الوقت المناسب ، أى فى الفصل المطير . فقبل أن تبدأ الأمطار فى السقوط فى أواخر شهر مارس ، تكون هذه البلاد صحراء مجدبة جافة ، بينما تموت الماشية التى تشكل الثروة الرئيسية للناس نتيجة لنقص العشب . ولذا ، فإنه حين يقترب شهر مارس من نهايته ، يتوجه رؤساء العائلات إلى ملك المطر ، ويقدم كل منهم له بقرة عساه يجعل ماء السماء المبارك ينهمر على المراعى الصفراء الذاوية . فإذا لم يسقط المطر من السماء تجمع الناس وطلبوا إلى الملك أن يعطيهم المطر . فإذا استمرت السماء صافية غير غائمة ، بقروا بطنه التى يعتقدون أنه يحفظ فيها العواصف. ولقد كان أحد ملوك المطر عند قبيلة البارى يصنع المطر عن طريق رش الماء على الأرض من جرس يدوى (١) .

---

(١) سبقت الاشارة الى صنع المطر فى أجزاء سابقة من الكتاب . ويشيع النظام – كما راينا – عند كثير من القبائل الافريقية ويعتبر صانع المطر زعيما دنيويا وروحيا عند القبائل التى تعرف هذا النظام . وفى كثير من الحالات تنحصر =

وبين القبائل التى تعيش على تخوم الحبشة توجد وظيفة متشابهة ، وقد وصفها أحد الدارسين بقوله : « إن منصب الكهنوت الذى يشغله الألفاى Alfai — كما يسمى عند قبائل باريا Barea وكوناما Kunama — يعتبر من المناصب المرموقة ، إذ يؤمن الناس بقدرته على صنع المطر . ولقد وجد هذا المنصب من قبل بين قبائل الألجيد Algeeds ، ويظهر أنه لا يزال شائعاً بين زنوج النوبا » . ويعيش الفاى « الباريا الذى يستشيره أيضاً أفراد الكوناما الشماليون بالقرب من تمباديرى Tombadere حيث يعيش مع أسرته على جبل منعزل قريب منها . ويحمل الناس إليه الجزية التى تتألف من بعض الملابس والفواكه ، كما يزرعون له أحد الحقول الكبيرة التى يملكها ، ويعتبر الألفاى ملكاً من نوع ما ، كما أن منصبه ينتقل بالوراثة إلى شقيقه أو إلى ابن أخته (١) . ويفترض فيه أنه قادر بسحره على أن يستنزل الغيث وأن يطرد الجراد بعيداً عن البلاد. أما إذا خاب أمل الناس فيه ، وتعرضت البلاد لجفاف خطير ،

= هذه الوظيفة الروحية فى يد احدى عشائر القبيلة بينما تنحصر السلطة الزمنية فى عشيرة أخرى . (المراجع) .

(١) يعتبر ذلك مثالا للنظام المعروف باسم النظام الاموى ، الذى يوجد عند عدد كبير من القبائل السودانية والافريقية والذى بمقتضاه ينسب الرجل الى قبيلة أمه وليس الى قبيلة أبيه ، كما ان السلطة السياسية تتوارث فى خط النساء ؛ وبذلك تنتقل من الرجل الى ابن أخته ، وتوجد بعض رواسب من هذا النظام الاموى عند عدد من القبائل الافريقية التى تدين بالاسلام مثل الهدندوة فى شرق السودان والطوارق فى شمال افريقيا . (المراجع) .

فإن « الألفاى » يرجم حتى الموت ، ويجبر أقرب الأقربين إليه على أن يبدأ أول الرجم . وعندما جسنا خلال هذه الديار ، وجدنا أن منصب الألفاى كان يشغله حتى ذلك الحين رجل مسن ، ولكنني سمعت أن صنع المطر كان قد أصبح بالنسبة له أمراً محفوفاً بالمخاطر ، وأنه أعلن لذلك عن تنازله عن ذلك المنصب .

وفى الغابات النائية فى كمبوديا يعيش ملكان غامضان يعرفان باسم ملك النار وملك الماء . وكانت شهرتهما قد طبقت الآفاق فى جنوب شبه جزيرة الهند الصينية ، وإن لم تكن قد وصل منها إلى الغرب سوى صدى خافت . وإلى بضع سنين مضت ، لم يكن أى أوربى – بقدر ما نعرف – قد استطاع بحال أن يرى أياً من الملكين ، بل إن وجودهما نفسه كاد يكون أقرب إلى الخرافة لولا ما كان معروفاً حتى وقت قريب من وجود اتصالات منظمة بينهما وبين ملك كمبوديا ، الذى كان يتبادل معهما الهدايا عاماً إثر عام . لقد كانت وظائفهما الملكية ذات طبيعة صوفية أو روحية بحتة : فلم يكن لهما أي سلطة سياسية ، بل لقد كانا مجرد فلاحين بسيطين يعيشان بعرق الجبين وبما يجود عليهما به خلصاؤهما من هدايا . وتذهب إحدى الروايات إلى أنهما يعيشان فى عزلة تامة ، لا يرى أحدهما الآخر قط ، ولا يقابلان إنساناً على الإطلاق . وهما يعيشان فى سبعة أبراج تجثم فوق سبعة جبال بحيث ينتقلان بينها كل عام واحداً بعد الآخر . ويأتيهما الناس خلسة ويلقون بين أيديهما كل ما يحتاجان

إليه من قوت ، ويستمر تولى الملك لهذا المنصب سبع سنوات ، وهى الفترة اللازمة للعيش فى الأبراج السبعة واحداً إثر الآخر ، ولكن الكثيرين منهم يموتون قبل أن تنتهى مدتهم . وتعتبر هذه المناصب وراثية فى أسرة واحدة أو (حسب أقوال أخرى) اثنتين من الأسر الملكية التى تحظى باحترام كبير ، وتتمتع بدخل كبير مما يقدمه لها الناس ، كما أنها تعفى من أعمال فلاحة الأرض. ومن الطبيعى هنا أن تكون أبهة الملك أمراً لا يشتهيه أو يطمح إليه أحد ، ولذا نجد أنه عندما يخلو أحد المنصبين يهرب جميع الرجال الصالحين للمنصب ، (ويتحتم أن يكون شاغل المنصب من الرجال الأقوياء من ذوى العيال) ليختفوا عن الأعين . وثمة رواية أخرى تعترف هى أيضاً بتخاذل المرشحين لهذه المناصب الوراثية وتقاعسهم عن قبول التاج ، ولكنها تنكر ما تذكره الأولى من أن الملوك يعيشون فى عزلة تشبه الرهبنة فى تلك الأبراج السبعة بل إنها تصور الناس وهم يسجدون فى ذلة واسترحام أمام هذين الملكين الغامضين كلما طلعا على الشعب، خاصة وأن المعتقد أن البلاد سوف تتعرض للأعاصير العنيفة المدمرة إذا أغفل الناس ابداء هذا المظهر من مظاهر الطاعة والولاء . وكما هو الحال بالنسبة لكثير من الملوك المقدسين ، لا يسمح لملك النار أو ملك الماء أن يموت ميتة طبيعية لأن ذلك يحط من شأنه وقدره ، وعلى ذلك فحين يقع أحدهما فريسة مرض عضال ، يجتمع كبار السن من الرجال للتشاور حتى إذا

تأكد لهم أنه لن يبرأ من علته ، طعنوه حتى الموت . ثم تحرق جثته ويجمع الرماد المتخلف بخشوع وورع ، ويقدسه الناس لأعوام خمسة . ولكنهم يعطون لأرملته قدراً من هذا الرماد ، تحتفظ به فى انبيق (١) يتعين عليها أن تحمله فوق ظهورها كلما ذهبت لتبكى زوجها الراحل على قبره .

وتخبرنا الروايات بأن ملك النار ، وهو أهم الملكين ، والذى لم تكن قواه الخارقة موضعاً للشك أبداً ، كان هو الذى يشرف على حفلات الزواج ، والأعياد ، ويقدم القرابين تكريماً لليان Yan أو الروح . وفى تلك المناسبات كان يخصص له مكان منفصل . ويغطى الممر الذى يأتى منه بالأقمشة القطنية البيضاء . ومن الأسباب التى تدفع إلى قصر هذه الأبهة الملكية على نفس الأسرة أن هذه الأسرة تمتلك ثلاثة أنواع من التعاويذ والطلاسم المشهورة ، وهى التى كانت خليقة بأن تفقد خصائصها أو تختفى كلية إذا نقلت خارج هذه الأسرة . وهذه الطلاسم هى : ثمار إحدى النباتات المتسلقة الذى يعرف باسم كو Cui وكانت قد جمعت منذ أحقاب بعيدة من عهد الطوفان الأخير ، ولكنه لازال يحتفظ بنضرته وخضرته ، وإحدى نخيل الروطان Rattan ، وهى الأخرى شجرة عتيقة جداً ولكنها تحمل زهراً لا يذبل ، وأخيراً سيف يحتوى على إحدى الأرواح Yan التى تقوم بحراسته ، وتفعل به العجائب .

(١) الانبيق قارورة صغيرة مزخرفة ومقدسة يحفظ فيها رماد جسد الميت بعد حرقه حسب التقاليد عند بعض الشعوب . (المترجم) .

أما الروح فالمعتقد أنها روح عبد تصادف أن تساقط دمه على حد السيف أثناء طرقه ، وكان هذا العبد قد مات بمحض إرادته لكى يكفر بموته عن خطيئة ارتكبها بغير ارادته . ويستطيع ملك الماء — بواسطة الطلسمين الأولين — أن يجعل الماء يفيض فيضاناً فى شكل طوفان يغرق الأرض كلها . أما ملك النار فإنه إن سحب ذلك السيف السحرى من غمده لبضع بوصات ، اختفت الشمس ، وراح الناس والدواب فى سبات عميق . أما إذا حدث أن أخرجه تماماً من غمدة تنتهى الدنيا تماما . ولهذا النوع الغريب من الطلاسم تقدم القرابين والأضاحى من الجاموس والخنازير والدجاج والبط طلباً للمطر . وتحفظ هذه الطلاسم ملفوفة بالقطن والحرير ، كما أن من بين الهدايا السنوية التى يرسلها ملك كمبوديا كانت توجد بعض الأقمشة الفاخرة التى تستعمل فى لف السيف المقدس .

وعلى عكس العادة الشائعة ، فإن أجسام هذين الملكين الغريبين كانت تحرق فى الدولة التى تقضى بدفن الموتى دائماً ، بينما تحفظ أظافرها وبعض أسنانها وعظامها كتعاويذ ورقى دينية . وفى تلك الفترة بالذات حين تأخذ النيران فى التهام جثمان الساحر المتوفى ، يهرب أقاربه إلى الغابة ويختفون عن الأنظار ، خشية أن يرفعوا إلى ذلك المنصب الجليل البغيض الذى خلا بموته ويهرع الناس للبحث عنهم ، ثم يتوج أول فرد يمكنهم الكشف عن مخبئه ملكاً للماء أو للنار .

هذه إذن أمثلة لما أسميناه ، ملوك الطبيعة النوعيين أو المتخصصين ولكنها مع ذلك صيحة بعيدة جداً عن أن تصل إلى إيطاليا أو غابات كمبوديا أو منابع النيل . ومع أنه تم العثور على ملوك المطر ، والماء ، والنار ، فلا يزال علينا أن نعثر على ملك للغابة يشبه كاهن أريكيا الذى كان يحمل هذا اللقب ، وربما نجده فى مكان أكثر قرباً من ديارنا .

الفصل التاسع



عبادة الشجر

١ ـ أرواح الشجر :

لعبت عبادة الأشجار دوراً هاماً فى التاريخ الديني للسلالات الآرية فى أوربا وهذا أمر طبيعي للغاية . فقد كانت الغابات الشاسعة المعروفة فى العصور المبكرة تغطي مساحات هائلة من أوربا فى فجر التاريخ بحيث أن المناطق العارية كانت تبدو أشبه شيء بالجزيرات المتناثرة وسط محيط من الخضرة . وحتى القرن الأول قبل الميلاد كانت غابة هيركينيا تمتد من الرين شرقاً إلى مسافات مترامية من الصعب تقديرها الآن . ولقد ذكر الألمان الذين استجوبهم قيصر أنهم سافروا لمدة شهرين خلال تلك الغابة دون أن يبلغوا نهايتها . ثم زارها الأمبراطور جوليان بعد ذلك بأربعة قرون . ويبدو أن ما تمتاز به هذه الغابة من عزلة وكآبة وسكون كان لها آثار وانطباعات عميقة فى طبيعته الرقيقة الحساسة . فقد أعلن أنه لا يعرف لها شبيهاً فى الأمبراطورية الرومانية . أما فى بريطانيا فإن أحراش كنت Kent وسرى Surrey وسسكس Sussex ليست إلا بقايا غابة أندريدا Anderida الضخمة التي كانت فى يوم من الأيام تكسو الجزء الجنوبي الشرقى من الجزيرة . ويبدو أنها كانت تمتد نحو الغرب حتى تلتقي بغابة أخرى كانت تمتد بدورها من هامبشير Hampshire إلى ديفون Devon . وكان سكان لندن

* عبادة الشجر : ترجمة د . محمد احمد غالى

أيام حكم هنرى الثانى لا يزالون يمارسون الصيد لقنص الثيران الوحشية والخنازير البرية فى غابات هامبستيد Hampstead وحتى تحت حكم عائلة بلانتاجنت Plantagenets (١) الذين جاءوا بعد ذلك كانت الغابات الملكية تبلغ فى عددها ثمان وستين غابة . ويقال إنه حتى فى العصور الحديثة كان يمكن لاستجاب أن يقفز من شجرة إلى أخرى فى غابة آردن Arden بطول مقاطعة واروبكشير Warwickshire كلها . ولقد أثبتت أعمال الحفر والتنقيب التى أجريت فى بعض القرى القديمة المطمورة فى وادى البو على أن شمال إيطاليا كانت تغطيه غابات كثيفة من شجر الغرغار

---

(١) عائلة بلانتا جنت تنتسب الى جوفرى كونت انجو Geoffrey Count of Anju (١١١٣ ـ ١١٥١) الذى حكمت سلالته انجلترا فى الفترة ما بين ١١٥٤ ـ ١٤٨٥ .. والاسم نفسه أطلق على جوفرى نظرا لانه كان يضع بعض الفروع الصغيرة من نبات معين genet فى قبعته . ولقد بدات عائلة بلانتاجنت بابنه الذى حكم تحت اسم هرمى الثانى ، وتفرعت الى ثلاثة فروع رئيسية تشمل الملوك الذين حكموا آنجو او انجفين Angevin ولانكستر ويورك . ومن أهم ملوك آنجو هنرى الثانى كما ذكرنا وريتشارد الاول وهنرى الثالث وادوارد الاول والثانى والثالث ثم ريتشارد الثالث . والظاهر ان ملوك عائلة بلانتاجنت لم يطلقوا على انفسهم هذا الاسم الا من عهد ريتشارد بلانتاجنت الدوق الثالث ليورك (١٤١١ ـ ١٤٦٠) ولم يظهر الاسم نفسه فى الوثائق الرسمية الا فى عام ١٤٦٠ . وعلى اية حال فان العادة عند بعض المؤرخين ان يطلقوا اسم بلانتاجنت على الملوك من هنرى الثانى حتى ريتشارد الثالث مع ان هناك فرعين أو اسرتين اخريين من ذرية جوفرى . ولقد كان ادوارد ـ ايرل واروبك Edward, Earl of Warwick ـ هو آخر الذكور الشرعيين من سلالة جوفرى ، ومن بعدهم جاءت اسرة تيودور التى اسسها هنرى تيودور فى عام١٤٨٥ وظلت فى الحكم حتى عام١٦٠٢ (المراجع)

elm والقسطل وبوجه خاص أشجار البلوط أو السنديان ، وذلك قبل قيام روما – أو حتى تأسيسها – بوقت طويل . وهنا نجد أن التاريخ يعزز علم الآثار ؛ ذلك أن الكتابات الكلاسيكية تحتوى على الكثير من الاشارات إلى الغابات الإيطالية التى اختفت الآن تماماً . وإلى آخر القرن الرابع قبل الميلاد كان يفصل روما عن أتروريا Etruria الوسطى غابة سيمنيان Siminian الموحشة التى وازنها لفى Livy بغابات أعانيا . وإذا صدق مايقوله هذا المؤرخ الرومانى ، فلم يحدث قط أن توغل أحد التجار فى أحراشها الموحشة الخالية من الممرات ، ولذا كان من المخاطرات الجريئة أن يقدم أحد القادة الرومان على إرسال جيشه عبر تلك الغابة فى طريقه إلى سفوح الجبال المغطاة بالغابات التى تطل على حقول إتروريا الغنية الممتدة أسفلها مع أنه كان قد أرسل اثنين من الكشافة قبل ذلك ليتعرفوا على مجاهل تلك الأدغال ومدى تشابكها . وفى اليونان لا تزال هناك بعض غابات البلوط والزان الجميلة التى تمتد على سفوح جبال أركاديا العالية تزين بخضرتها ذلك المضيق العميق الذى تنساب خلاله مياه نهر اللادون Ladon لتلتقى بمياه نهر الفيوس Alpheus المقدس . وقد ظلت صورة هذه الغابات تنعكس على صفحة المياه الزرقاء الداكنة فى بحيرة فينيوس Pheneus المقدسة حتى عهد قريب جداً . ومع ذلك فإن ما يوجد الآن ليس إلا أجزاء صغيرة متناثره من بقايا تلك الغابات الهائلة التى كانت

تكسو الممرات العظمى فى العصور القديمة والتى ربما كانت فى فترة زمنية مبكرة تغطى شبه جزيرة اليونان بأكملها من البحر إلى البحر .

وقد رأى جريم Grimm بعد دراسته للكلمات التيوتونية التى تعنى « معبد » أنه من المتحتمل أن أقدم الهياكل عند الجرمان كانت تقام فى الغابات الطبيعية . ومهما يكن من أمر ، فالذى لاشك فيه هو أن عبادة الشجر كانت توجد عند كل الأسر الأوربية الكبيرة التى تنتمى إلى الجنس الآرى ، كما أنها كانت شائعة ومعروفة لدى جميع الكلتيين وبخاصة لدى الدرويديين . ويبدو أن الكلمة القديمة التى تعنى «هيكل» فى لغتهم تتفق فى الأصل والمعنى مع الكلمة اللاتينية Nemus التى تعنى « روضة » أو الأرض المغطاة بالغابات وهو المعنى الذى لا يزال قائماً فى نيمى Nemi فلقد كانت الرياض المقدسة منتشرة بين الجرمان القدماء ، ولا يمكن القول بأن عبادة الشجر اختفت تماماً عند الألمان الحاليين . ويمكننا أن ندرك مدى جدية هذه العبادة فى العصور السابقة من قسوة العقاب الذى كانت القوانين الجرمانية القديمة تنزله بالشخص الذى يجرؤ على نزع لحاء إحدى الأشجار ، إذ كانت سرة الجانى تقطع وتنزع من مكانها ثم تثبت بالمسامير فى ذلك الموضع من الشجرة التى نزع اللحاء عنه ، ثم يؤمر بأن يدور حول الشجرة حتى تلتف أمعاؤه جميعها حول جذعها . وواضح أن الغرض من هذا العقاب هو استبدال جزء حى مأخوذ من جسم الجانى باللحاء الميت ، تبعاً

للمبدأ القائل « حياة بحياة » ؛ وهو هنا : حياة إنسان بحياة شجرة .
وفى مدينة أوپسالا Upsala — العاصمة المدينة القديمة للسويد — كانت هناك غيضة مقدسة تتمتع أشجارها كلها بالقداسة ذاتها التى يتمتع بها الآلهة . ولقد كان اللتوانيون الوثنيون يعبدون الأشجار والأحراج ولم يتحولوا إلى المسيحية إلا قرب نهاية القرن الرابع عشر ، وكانت عبادة الشجر لا تزال سائدة بينهم حين اعتنقوا الدين الجديد ؛ وكان بعضهم يقدس أشجار البلوط الضخمة وغيرها من الأشجار الظليلة التى كانوا يستخبرونها ويتلقون منها الإجابات . وقد كان بعضهم يقيم غيضات مقدسة حول قراهم أو منازلهم ، وكان مجرد قطع فرع صغير من إحدى أشجارها يعتبر إثماً لا يغتفر ، كما كانوا يعتقدون بأن من يقطع أحد الأغصان من هذه الغيضات ، إما أن يموت فجأة أو يصاب بالشلل فى أحد أطرافه . والأدلة على انتشار عبادة الشجر فى اليونان وإيطاليا القديمة كثيرة جداً . فى هيكل إيسكولابيوس Aesculapius فى كوس Cos مثلا ، يحرم قطع أشجار السرو ، وكانت عقوبة ذلك ألف دراخمة . ولكن يبدو أن هذا النمط القديم من الدين لم يستمر قوياً وواضحاً فى أى مكان بقدر ما كان فى قلب العاصمة الكبرى ذاتها . فى الفورم Forum ، وهو مركز الحياة الرومانية الزاخر ، ظلت عبادة شجرة التين المقدسة التى ارتبطت باسم رومولوس Romulus قائمة حتى أيام الإمبراطورية ، وكان

ذبول جذعها كفيلاً بأن ينشر الفزع والرعب فى أرجاء المدينة : ومن ناحية أخرى فقد كانت توجد على سفوح تل بلاتين **Palatine** إحدى الأشجار الضخمة (١) التى كانت تعتبر من أقدس المقدسات فى روما ، للدرجة أنه إذا ظن أحد المارة أنها على وشك الوقوع ، فإنه كان يصرخ بأعلى صوته ، فيتجاوب الناس معه فى الشوارع المجاورة ، ويهرع فى الحال كثير من الخلق مندفعين نحوها ، وهم يحملون الدلاء المليئة بالماء « كما لو كانوا يسارعون إلى إطفاء حريق » – على حد قول بلوتارك .

ولقد كانت العبادة الوثنية بين القبائل التى ترجع فى أصلها إلى الأجريان الفنلنديين فى أوربا تمارس فى الأغلب فى بعض الغيضات المقدسة التى كانت تحاط دائماً بالأسوار . وتتكون الغيضة المقدسة من أرض فضاء تتناثر فيها الأشجار التى كانت تعلق عليها فى العصور الغابرة جلود الضحايا والقرابين . وتقوم وسط الغيضة – على الأقل بين قبائل الڤولجا – الشجرة المقدسة التى كانت تتضاءل أمامها قيمة كل شىء آخر وأهميته . وكان المتعبدون يتجمعون أمامها ويرتل الكاهن صلواته كما تنحر الأضاحى عند جذورها ، بينما كانت أغصانها تستخدم منبراً للخطابة والوعظ فى بعض الأحيان . ولم يكن يسمح بحرق أى قطعة من أخشابها أو قطع أى نوع من أشجارها ، كما كان يحرم دخولها بوجه عام على النساء .

---

(١) فى الاصل الانجليزى Cornel (المراجع) .

ولكن من الضرورى هنا أن ندرس بشىء من التفصيل الأفكار التى تقوم عليها عبادة الأشجار والنباتات . فالعالم عموماً يعتبر بالنسبة للرجل الهمجى كائناً حياً ، ولا يستثنى من ذلك الشجر والنبات ، إذ يظن أن لها نفوساً كنفسه هو ولذا فإنه يعاملها على هذا الأساس . وقد كتب النباتى القديم بورفيرى Porphyry فى ذلك يقول : « والمعتقد أن الرجل البدائى كان يحيا حياة تعسة ، ذلك لأن خرافاته لم تقف عند حد الحيوانات بل إمتدت إلى النباتات ، وكان يتساءل : لماذا يعتبر ذبح ثور أو شاه مثلا خطئاً أكبر من قطع إحدى أشجار الشربين أو البلوط ، مادامت هناك نفس تسكن هذه الأشجار وتقيم فيها ؟ » كذلك يعتقد الهنود الحمر من قبائل الهيداتسا Hidatsa بأمريكا الشمالية آن لكل كائن طبيعى روحاً أو بالأحرى ظلاً خاصاً به ، ويبدون بعض مظاهر الاعتبار أو الاحترام نحو هذه الظلال مع اختلاف فى الدرجة فقط . فظل روح شجرة القطن مثلا — وهى أكبر شجرة فى وادى ميسورى الأعلى — تتمتع فى اعتقادهم بنوع من الذكاء الذى يمكن أن يساعد الهنود الحمر ويعينهم فى كثير من أمورهم وأعمالهم لو عرفوا كيف يستقلونه بينما لا تكاد تكون لظلال الشجيرات والأعشاب أى قيمة أو اعتبار فى هذا الصدد . وعندما يمتلىء مجرى نهر ميسورى نتيجة للزيادة المفاجئة فى مياهه فى فصل الربيع ويجتاح الماء بعض الأجزاء من ضفاف النهر ثم يكتسح الأشجار الطويلة ويدفعها أمامه فى تياره يزعم الناس

أن أرواح الأشجار تصيح منتحبة باكية بينما تتشبث جذورها بالأرض بقوة حتى تنهار جذوعها وتسقط فى المجرى ويتناثر الماء من النهر فى كل اتجاه . وكان الهنود الحمر يعتقدون فى الماضى أن من الخطأ قطع هذه الأشجار الضخمة العملاقة ، وحتى حين حينما يحتاجون إلى بعض الكتل الكبيرة من الخشب فإنهم كانوا يحصلون عليها من الأشجار التى سقطت من تلقاء نفسها . وإلى عهد قريب كان المسنون والشيوخ السذج يعلنون أن كثيراً من المصائب التى حلت بالناس إنما نشأت من إغفال حقوق شجرة القطن الحية كذلك كان الايروكواس Iroquois يعتقدون بأن لكل نوع من الشجر أو الشجيرات أو النباتات أو العشب روحه الخاصة،وكانت تقاليدهم تحتم عليهم توجيه الحمد والشكر لهذه الأرواح . وتتصور قبائل وانيكا Wanika فى شرق افريقيا أن لكل شجرة - وبخاصة شجرة جوز الهند - روحها الخاصة أيضاً وأن « قطع إحدى أشجار جوز الهند يعادل جريمة قتل الأم لأن تلك الشجرة تهبهم الحياة والغذاء مثلما تفعل الأم مع صغارها » . ويعتقد الرهبان السياميون بوجود النفوس فى كل مكان وبأن إبادة أى شىء - مهما صغر شأنه - هى عملية انتزاع بالقوة للنفس من الجسم ولذا فإنهم يمتنعون عن كسر الفروع عن الشجرة لأن ذلك معناه قطع ذراع شخص برىء » . وهؤلاء الرهبان هم بطبيعة الحال من البوذيين ، ولكن النزعة الحيوية (الأنيميزم) البوذية ليست نظرية فلسفية وإنما هى

ببساطة عقيدة همجية معروفة ، وجدت طريقها إلى نسق أحد الأديان التاريخية ، وعلى ذلك فإن ما يذهب إليه بنفاى Benfey وغيره من الكتاب من أن نظريتى الأنيميزم والحلول الشائعتين بين عدد كبير من الشعوب الأسيوية مشتقتان من البوذية هو قلب للحقائق .

وفى بعض الأحيان يكون الاعتقاد فى حلول الأرواح فى الأشجار قاصراً على أنواع معينة فقط من الشجر . ففى جرباليج Grabalj فى دكاسيا يقال إن من بين الأشجار الضخمة ، كالزان والبلوط وما إليها ، توجد أنواع تتميز بوجود ظلال ونفوس لها ولذا فإن كل من يقطع شجرة منها تموت فى الحال ، أو على الأقل سوف يعيش عليلا بقية حياته فإذا خشى الحطاب أن تكون الشجرة التى قطعها واحدةً من هذا النوع فإن عليه أن يقطع رأس دجاجة حية على الجذمور (١) المتبقى من الشجرة وأن يستخدم فى ذلك البلطة ذاتها التى قطع بها الشجرة ، ويعتقد أن ذلك كفيل بأن يدفع عنه الأذى حتى ولو كانت الشجرة من النوع الذى يتمتع بوجود نفوس فيها . وينظر الناس فى غرب إفريقيا من السنغال إلى النيجر بكثير من التقديس والتبجيل إلى أشجار القطن الحريرى التى تنمو جذوعها الضخمة إلى إرتفاع شاهق ، بحيث تعلو فوق كل الأشجار الأخرى فى الغابة ، ويعتقدون أن الأرواح تسكن فيها . وبين الشعوب التى تتكلم لغة الإيوى Ewe على ساحل العبيد يعرف الإله الذى

(١) الجذمور هو بقية النبات بعد قطعه (المترجم) .

يعيش فى هذه الأشجار العملاقة — أو فى بعضها على الأقل باسم هنتن Huntin وتحاط الأشجار التى يسكنها بنطاق من سعف النخل رمزاً على قداستها ، كما تثبت القرابين من الدجاج أو حتى القرابين الآدمية إلى جذوع تلك الأشجار أو تلقى تحتها ، ويحرص الناس أشد الحرص على ألا يلحقوا بأى شجرة تكون محاطة بمثل هذا النطاق من سعف النخل الأذى أو الضرر لدرجة أنهم لا يقدمون على قطع الأشجار التى يعرفون أن روح هنتن لا تحل فيها مالم يقدموا أولاً قرباناً من الدجاج وزيت النخيل لتطهير أنفسهم من الإثم الذى يرتكبونه فى حق الأشياء المقدسة ، ويعتبر إغفال تقديم هذه الأضاحى جريمة يعاقب عليها بالموت . ولقد كان من عادة الناس فى جبال كانجارا Kangara فى البنجاب أن يقدموا كل عام إحدى فتياتهم قرباناً لإحدى أشجار الأرز العتيقة ، وكانت الأسر فى القرية تتناوب فيما بينها تقديم هذه الضحية ، ولكن هذه الشجرة قطعت منذ سنوات قليلة .

وتمتع الأشجار بالنفوس والحياة يعنى أنها تحس وتشعر وبذلك يصبح قطعها بمثابة عملية جراحية دقيقة يجب إجراؤها بكثير من الدقة واللطف مراعاة لأحاسيسها وتخفيفاً لآلامها حتى لا تنقلب عليهم إذا هم أجروها باهمال وتفريط . فحين تجتث إحدى أشجار البلوط مثلا « تصدر عنها صيحات عالية يمكن أن تسمع على بعد ميل منها وكأنما هى أصوات البلوط تندب أحد الموتى » . ولقد

سمع السيد ا. وايلد E. Wyld هذه الأصوات مراراً كثيرة . ونادراً ما يقدم هنود الأوجيبواى على قطع الأشجار الخضراء الحية اعتقاداً منهم أن ذلك يسبب لها الألم ، كما يعترف بعض السحرة المطبين عندهم أنهم كثيراً ما يسمعون أنين الأشجار ونواحها تحت ضربات الفئوس . وتمتلىء الكتب – بما فى ذلك الكتابات التاريخية الصينية المعتمدة – بالكثير من الإشارات إلى الأشجار التى تدمى أو تنطلق منها صيحات الألم أو الغيظ والسخط أثناء قطعها أو حرقها. ولا يزال الشيوخ من الفلاحين فى بعض أنحاء النمسا يعتقدون أن أشجار الغابة تتمتع بالنفوس والحياة ، ولذا فإنهم لا يسمحون بعمل أى حزوز فى لحائها بدون مبرر واضح ؛ فلقد سمعوا من الآباء أن الشجرة تحس بآلام القطع تماماً مثلما يشعر الجريح بآلام جراحه ، ولذا فإنهم يرجون عفو الشجرة التى يريدون قطعها . ويقال إن الشيوخ المسنين من الحطابين فى الإمارات الجرمانية الثلاث الواقعة فى أعالى بلاتينات Upper Palatinate لا يزالون يطلبون العفو والصفح سراً من الشجرة الجميلة السليمة الراسخة قبل أن يقطعوها . ففى ياركينو Jarkino مثلاً يرجو الحطاب العفو والمغفرة من الشجرة التى يقطعها ؛ وقبل أن يقطع الإيلوكين Iliocane فى لوتزن Luzon إحدى الأشجار فى الغابات غير المطروقة أو فوق قمم الجبال فإنهم يرددون بعض العبارات التى تحمل المعنى الآتى : « لا تنزعج أيها الصديق حتى ولو قطعنا ما أمرنا بأن نقطعه » وهم يفعلون ذلك حتى لا يجابوا

على أنفسهم مقت الأرواح التى تحل فى الأشجار والتى قد تثأر لنفسها بأن تسلط عليهم الأوبئة والأمراض والأذى. ويعتقد الباسوجا Basoga الذين يعيشون فى وسط أفريقيا أنه حين تقطع إحدى الأشجار فإن الأرواح الغاضبة التى تسكنها قد تتسبب فى موت الرئيس وأسرته ، ولكى يدفعوا عن أنفسهم شر هذه المصيبة فإنهم يستخيرون أحد السحرة المطببين قبل أن يقدموا على مثل هذا العمل ، فإذا صرح لهم هذا الرجل الماهر بالشروع فى العمل فإن الحطاب يقدم أولاً دجاجة وعنزة قرباناً لروح الشجرة ، وحين يهوى بأولى الضربات على الشجرة فإنه يطبق بفمه على القطع الذى أحدثه فيها فيمتص شيئاً من العصارة وبذلك يقيم معها علاقة أخوة تشبه أخوة الدم التى تنشأ بين رجلين حين يمص كل منهما شيئاً من دم الآخر وبعدها يستطيع أن يقطع « أخته الشجرة » (١) وهو آمن من القصاص .

بيد أن أرواح النباتات لا تعامل دائماً بمثل هذا الإجلال أو الاحترام . فحين لا تفلح معها المعاملة الكريمة الطيبة تتخذ ضدها إجراءات أكثر عنفاً وصرامة . مثال ذلك أن الشجرة المعروفة باسم شجرة الدريان Durian Tree التى تنمو فى جزر الهند الشرقية والتى كثيراً ما يصل ارتفاع جذعها الأملس إلى ثمانين أو تسعين قدماً دون أن يبرز منه فرع واحد ، تثمر نوعاً من الفاكهة

(٨١) فى الاصل الانجليزى Tree-brother (المراجع)

ذات طعم لذيذ جداً أو رائحة كريهة للغاية فى الوقت ذاته . ويزرع الملاويون هذه الشجرة من أجل فاكهتها . والمعروف عنهم أنهم كانوا يقيمون بعض الطقوس المعينة التى تهدف إلى زيادة قدرتها على الإثمار . وتقوم بالقرب من چورجا Jurga فى سلانجور Selangor أجمة صغيرة من أشجار الدريان كان القرويون يتجمعون فيها فى يوم معين بالذات فيتناول أحد السحرة المحليين بلطة صغيرة يضرب بها فى حرص وحذر جذع أكثر الأشجار عقماً عدة ضربات وهو يقول : « أما آن لك أن تحملى فاكهة الآن ؛ إنك لم تفعلى ذلك فسوف أقطعك » . فتجيبه الشجرة على لسان شخص آخر يكون قد تسلق من قبل إحدى أشجار المانجوستين Mangostin (١) القريبة (وذلك نظراً لاستحالة تسلق أشجار الدوريان) : نعم ، سوف أحمل الثمار من الآن ولذا فإننى أتوسل إليك ألا تقطعنى » . وحين يريد الناس فى اليابان أن يجعلوا الأشجار تحمل الفاكهة يتوجه رجلان إلى البستان فيتسلق أحدهما شجرة بينما يقف الآخر تحتها وقد حمل فى يده بلطة أو فأساً . ويسأل حامل الفأس الشجرة عما إذا كانت ستأتى بمحصول جيد فى العام التالى ويهدد بقطعها إن لم تفعل ذلك ، فيرد الرجل القابع بين الأغصان نيابة عن الشجرة بأنها سوف تحمل فاكهة وفيرة وكثيرة . ومهما يكن من غرابة

(١) المانجوستين من الأشجار المثمرة التى تنمو فى جزر الهند الشرقية شأنها فى ذلك شأن شجر الدوريان . والاسم العلمى للمانجوستين هو Garcinia Mangostana (المراجع)

هذه الطريقة فى فلاحة البساتين فإن لها نظائر مشابهة تماماً فى أوربا . ففى ليلة عيد الميلاد يلوّح الكثيرون من الفلاحين من السلاف الجنوبيين والبلغار بالمعاول وهم يتوعدون أشجار الفاكهة العقيمة ويهددونها ، بينما يتدخل فى الأمر رجل آخر يقف قريباً منهم ليدافع عن الشجرة التى يوجه إليها هذا التهديد ويناشدهم ألا يقطعوها مؤكداً لهم أنها سوف تحمل الكثير من الفاكهة فى الحال . ويتكرر تهديد الفلاحين وتلويحهم بالمعاول ثلاث مرات وفى كل مرة يتدخل ذلك الشخص ليشفع للشجرة عندهم . ويؤكد الناس هناك أن الشجرة لابد أن تحمل فى العام الثانى الكثير من الفاكهة نتيجة لهذا التهديد .

وتصور الأشجار والنباتات على أنها كائنات حية لها نفوس يؤدى بالضرورة إلى معاملتها على أنها ذكور وأناث يمكن أن تتزوج بعضها من بعض بالمعنى الدقيق أو الحقيقى للكلمة وليس بالمعنى المجازى أو الشعرى . وليست هذه الفكرة فكرة خيالية خالصة ؛ فالنباتات كالحيوانات فيها الجنسان كما أنها تتكاثر عن طريق اتحاد العناصر الذكرية والأنثوية ؛ ولكن بينما تتوزع الأعضاء ، والأجهزة التناسلية للجنسين عند الحيوانات العليا بين أفراد مختلفين ومتمايزين فإنها توجد معاً فى كل فرد من أفراد النوع أو الفصيلة فى معظم النباتات . وليست هذه قاعدة عامة على أى حال ، ففى كثير من الأنواع النباتية يتميز النبات الذكر عن الأنثى ويبدو أن بعض الشعوب الهمجية قد أدركت هذا التميز . فالمعروف مثلا عن الماؤورى

أنهم« يدركون جنس الشجرة وأنهم يطلقون أسماء مختلفة على المذكور والأناث فى بعض أنواع الأشجار » . ولقد عرف الأقدمون الفرق بين الذكر والأنثى فى نخيل البلح وكانوا يخصبونها صناعياً عن طريق نقل بذور اللقاح من النخلة الذكر إلى أزهار النخلة الأنثى ، وكانت عملية التلقيح أو الإخصاب تتم فى الربيع . وكان أهالى حران الوثنيون يسمون الشهر الذى تتم فيه عملية التلقيح باسم « شهر البلح » ، وفيه كانوا يحتفلون أيضاً بأعياد زواج جميع الأرباب والربات . وينبغى التمييز بين هذا الزواج الحقيقى المثمر المفيد بين النخيل والزيجات غير الحقيقية أو العقيمة التى كانت تتم بين النباتات عند الهندوس والتى تلعب دوراً هاماً فى خرافاتهم . مثال ذلك أنه حين يزرع أحد الهندوس بستاناً من المانجو فإنه يحرم عليه هو أو زوجته أن يأكلا منه شيئاً مالم يتم الزواج — بطريقة صورية — بين إحدى الأشجار التى تعتبر بمثابة العريس وأى شجرة أخرى من نوع مختلف تنمو بجوار تلك الشجرة فى البستان ، والعادة أن تكون إحدى أشجار التمر هندى. فإذا لم يتيسر وجود شجرة تمر هندى لتقوم بدور العروس فإنه يمكن استبدال شجرة ياسمين بها ، وغالباً ما تكون نفقات هذا الزواج باهظة لأنه كلما زاد عدد البراهمة الذين يدعون إلى الحفل ارتفع مركز صاحب البستان وذاع صيته. ولقد باعت إحدى الأسر كل ما تملكه من مصوغات من الذهب والفضة ، بل واقترضت أيضاً كل ما استطاعت الحصول عليه من قروض لكى

تحتفل بتزويج إحدى أشجار المانجو إلى شجرة ياسمين فى حفل بلغ درجة عالية من الأبهة والفخامة . ولقد كان من دعاة الفلاحين الألمان ليلة عيد الميلاد أن يربطوا أشجار الفاكهة بعضها ببعض بحبال من القش كى تثمر وتحمل الكثير من الفاكهة ، ويقولون فى ذلك إن الأشجار « تزوجت » بهذه الطريقة .

وفى بعض الأحيان يسود الاعتقاد بأن أرواح الموتى هى التى تبعث الحياة فى الأشجار . فالناس فى قبائل الديرى Dieri فى وسط استراليا مثلا يقدسون أشجاراً معينة بالذات على اعتبار أن أسلافهم الموتى يحلون فيها ،ولذا فإنهم يتحدثون عن تلك الأشجار بكثير من الاحترام والتقديس والإجلال ويحرصون أشد الحرص على عدم قطعها أو إحراقها ، كما يعارضون أشد المعارضة رغبات المستوطنين البيض فى قطعها وذلك خشية أن يحل بهم أنفسهم الشر والأذى جزاء على إهمالهم القيام بحماية هؤلاء الأسلاف . ويعتقد بعض سكان جزر الفلبين أن نفوس اجدادهم تحل فى أشجار معينة أيضاً وبذلك فإنهم يتجنبون قطعها ما أمكن ، فإذا أجبروا على قطع إحداها تلمسوا لأنفسهم المعاذير بقولهم إنما هم ينفذون فى ذلك بأمر رجال الدين عندهم . وتفضل الأرواح أن تحل فى الأشجار الباسقة الضخمة ذات الأغصان الكبيرة المتفرعة ، وعندما تهب الريح ويسمع حفيف الأوراق يتصور السكان الأصليون أنه هو صوت

الروح ولذا فإن الناس لا يتجاسرون على أن يعبروا الطريق أمام إحدى تلك الأشجار دون أن ينحنوا لها فى إجلال واحترام طالبين من الروح أن تغفر لهم ازعاجهم إياها . ولكل قرية من قرى الإجنوروت Ignorrotes شجرتها المقدسة التى تحل فيها أرواح الموتى من الأسلاف ، ويقدم الناس لها الهدايا والقرابين ، كما يعتقدون أن كل ما يلحق بها من أذى أو ضرر سوف يجر على القرية كل الوبال وسوء الطالع ، فإذا قطعت تلك الشجرة حل الدمار بالقرية وسكانها .

وثمة اعتقاد سائد فى كوريا بأن أرواح الأشخاص الذين يموتون من الطاعون أو على جوانب الطرقات وكذلك أرواح النساء اللاتى يمتن أثناء الوضع تحل دائماً فى الأشجار . ولذا يقدم الناس لهذه الأرواح قرابين من الكعك والنبيذ ولحم الخنزير ويضعونها فوق بعض الأحجار التى يكومونها تحت الأشجار . وقد كانت العادة المتبعة فى الصين منذ عهود سحيقة أن تزرع الأشجار على المقابر « لتقوية » روح الميت ، وبذلك يمكن إنقاذ جثمانه من التلف . ونظراً لما تتمتع به أشجار السرو والبلوط والأرز من الخضرة فإنها تعتبر أكثر حيوية من الأشجار الأخرى ولذا كان الناس يفضلونها على غيرها لهذا الغرض . وهذا هو السبب فى أن الأشجار التى تنمو فوق المقابر ترتبط ارتباطاً وثيقاً بأرواح الموتى . وعند المياوكيا Miao—Kia — وهم من السلالات الأصلية فى جنوب الصين وغربها — تقوم عند مدخل كل قرية شجرة مقدسة يعتقد الأهالى

أن روح جدهم الأول تسكن فيها وأنها تتحكم كذلك فى مصيرهم ، وقد توجد بالقرب من بعض القرى إحدى الأجمات القديمة المهجورة التى تعفنت فيها الأشجار وفسدت تماماً وغطت فروعها المتساقطة الأرض تماماً دون أن يجرؤ إنسان على إزالتها مالم يطلب السماح والغفران مقدماً من روح الشجرة وما لم يقدم لها قرباناً لترضيتها . ويعتبر الماراف Maraves الذين يعيشون فى جنوب إفريقيا أراضى الدفن مكاناً مقدساً يحرم عليهم أن يقطعوا أشجاره أو أن يقتلوا فيه أى حيوان حتى ولو كان متوحشاً لأن المفروض أن كل ما فى ذلك المكان تسكنه بعض أرواح الموتى .

وفى أغلب هذه الحالات ، إن لم يكن فيها كلها ، يعتقد الناس أن الروح تتجسد فى الشجرة وتبعث فيها الحياة ، كما أنها سوف تقاسى الآلام ثم تموت معها . ولكن هناك آراء أخرى يحتمل أنها ظهرت فى وقت متأخر لا تعتبر الشجرة تجسيداً للروح وإنما مجرد مأوى تحل فيه روح الشجرة التى يمكنها أن تغادرها وتعود إليها كيفما شاءت . ويعتقد سكان سياوو Siaoo — وهى إحدى جزر الهند الشرقية — أن بعض الأرواح الشجرية هى التى تسكن الغابات أو تحل فى الأشجار الضخمة المنعزلة ، وأنه حين يكون القمر بدراً تأتى الروح من أماكن تجوالها وتحوم حول الشجر ، وأن للروح رأساً كبيراً وأذرعاً وسيقاناً بالغة الطول وجسما ضخماً مترهلا . ويعمل الناس على استرضاء أرواح الغابة والتقرب إليها عن طريق

تقديم الهدايا من الطعام والدجاج والماعز وما إليها فيتركونها فى الأماكن التى يفترضون أن الروح تسكنها . كذلك يعتقد الأهالى فى نياس Nias أنه حين تموت الشجرة فإن روحها تتحرر وتصبح عفريتاً يمكنه أن يقتل نخيل جوز الهند بمجرد أن يحط على أحد أغصانها ، وأنه يحمل الموت إلى أطفال الدار إذا جثم على أحد الأعمدة التى يقوم عليها ذلك البيت . بل الأكثر من ذلك أنهم يعتقدون بوجود أشجار يسكنها طول الوقت بعض العفاريت الحائلة التى تنطلق من عقالها حين يصيب التلف بعض الأشجار فتخرج منها تحمل الشر والأذى للناس ، ومن هنا كان الناس يحرصون على إبداء الاحترام لتلك الأشجار ويمتنعون تماماً عن قطعها .

وكثير من الطقوس التى تراعى عند قطع الأشجار « المسكونة » تقوم على أساس الاعتقاد بقدرة الروح على مفارقة الأشجار حين تشاء أو عند الضرورة . ولذا فإن سكان جزيرة پيليو Pelew يتوسلون إلى روح الشجرة التى يريدون قطعها أن تتركها وتنتقل إلى شجرة أخرى . وفى ساحل العبيد يلجأ الزنوج إلى حيلة بارعة حين يريدون قطع إحدى الأشجار التى يعلمون أن الأرواح تسكن فيها إذ يضعون على الأرض بالقرب من الشجرة قليلا من زيت النخيل ليكون بمثابة طعم يجذب إليه الروح وحين تترك الروح — التى لا يساورها الشك فى الأمر — تلك الشجرة لكى تنال شيئاً

من هذا الطعام الطيب يسارع الناس إلى قطع الشجرة التى كانت تحل فيها . وحين يشرع أفراد قبيلة توبونجلوس Toboongkoos فى جزر السليبيز فى تطهير جزء من أرض الغابة لزراعة الأرز فإنهم يبنون منزلا صغيراً جداً ويزودونه ببعض قطع الأثاث والملابس الصغيرة الحجم كما يضعون فيه بعض الطعام والذهب ، ثم يوجهون الدعوة إلى كل أرواح الغابة ويقدمون لها ذلك المنزل الصغير بكل محتوياته ويتوسلون إليها أن تغادر المنطقة التى يريدون تطهيرها . وحينئذ فقط يستطيعون أن يقطعوا الأشجار وهم آمنون على أنفسهم من أن يلحق بهم الأذى أثناء العمل . وقبل أن يقطع التوموري Tomori — وهم من الجماعات التى تعيش فى سيليبيز أيضاً — أى شجرة عالية فإنهم يضعون بعض البتل betel تحت الشجرة ويدعون الروح التى تسكن فى الشجرة ان تغير محل إقامتها ، بل إنهم يضعون سلماً صغيراً إلى جذع الشجرة كى يساعدوا الروح على الهبوط براحة وسلام . أما جماعات الماندلنج Mandelings فى سومطرة فإنهم ينسبون كل المتاعب التى من هذا القبيل إلى السلطات الهولندية. وعلى ذلك فحين يريدالرجل أن يشق طريقاً خلال الغابة مثلا ويتعين عليه لذلك أن يقطع إحدى الأشجار العالية التى تعترض الطريق فإنه يقول قبل أن يهوى بمعوله على الشجرة : « أيتها الروح التى تسكن هذه الشجرة ، لا تنقمى على لأننى أهدم دارك ، فلست

أفعل ذلك لأنني أرغب فيه ، وإنما أفعله تنفيذاً لأمر المراقب » .
كذلك الحال حين يريد تطهير قطعة من أرض الغابة لإعدادها للزراعة ، فإنهم يتحتم عليه أن يتفاهم أولاً مع الأرواح التي تعيش هناك ويصل معها إلى حل مرضٍ قبل أن يهدم مساكنها المورقة الظليلة . ولكي يتحقق له ذلك فانه يذهب إلى البقعة التي يريد تطهيرها ثم ينحني على الأرض متظاهراً بأنه يلتقط رسالة من فوقها ، وينشر أمامه قطعة من الورق ويقرأ منها بصوت عالٍ خطاباً وهمياً موجهاً إليه من سلطات الحكم الهولندية تأمره فيه بكل شدة وصرامة بأن يبدأ فى تطهير تلك البقعة من الأرض بغير ابطاء . وحين ينتهي من قراءة الرسالة يقول : « والآن بعد أن استمعت أيتها الأرواح لهذا الخطاب لابد لى من أن أبدأ فى الحال فى تطهير الأرض وإلا أرسلونى إلى المشنقة » .

وقد يستمر حلول روح الغابة فى خشب الشجرة حتى بعد قطع الشجرة ذاتها وتقطيعها إلى الواح تستعمل فى بناء المنازل ، ولذا يعمد بعض الناس إلى استرضاء الروح قبل ان يشغلوا المنزل الجديد او بعد ذلك بقليل . ومثال ذلك ان الناس فى قبائل التورادجا فى سيليبيز حين يعلون أحد المساكن الجديدة للإقامة فإنهم يذبحون رأساً من الخنازير أو الماعز أو الجاموس ويلطخون بدمائه كل المصنوعات الخشبية فى المنزل . اما إذا كان الغرض من البناء

أن يكون «منزلا للأرواح» وهو ما يعرف عندهم باسم Lobo فإنهم يذبحون دجاجة أو كلباً فوق السقف وبالقرب من الحافة ويتركون دمه يسيل على الجدران . أما قبائل التونابو Tonabo ، وهم أقوام أكثر غلظة من التوساوچا ، فإنهم يذبحون فى المناسبات المماثلة أحد البشر فوق سقف المعبد أو بيت الأرواح فيؤدى ذلك بالغرض نفسه الذى يحققه تلطيخ أخشاب المنزل العادى بدماء الضحية. والغاية من هذا العمل إذن هى استمالة أرواح الغابة التى قد تكون موجودة فى الخشب فترضى عن سكان البيت ولا تمسهم بالشر أو الأذى ، وهذا هو السبب أيضاً فى خوف سكان سيليبيز وماقا من أن يثبتوا أحد الأعمدة مقلوباً أثناء بناء أحد المساكن لأن روح الغابة التى قد تكون موجودة فى ذلك العمود سوف تعترض بطبيعة الحال على هذه المعاملة المهينة فتسلط الأمراض على سكان الدار .

ويعتقد الكايان Kayans فى بورنيو أن أرواح الشجر تقف وقفة صلبة دون كرامتها وأنها لا تتورع عن أن تصب نقمتها عليهم إذا لحقها منهم أدنى أذى . وعلى ذلك فحين ينتهى الناس من بناء أى مسكن جديد فإنهم يحرصون على أن يمروا بفترة تكفيرية تمتد إلى حوالى عام يكفرون فيها عن الأذى الذى ألحقوه بكل تلك الأشجار التى قطعوها . وفى أثناء هذه الفترة يمتنعون عن كثير من الأمور مثل صيد الدببة أو القطط البرية والثعابين .

٢ ـ قوى الخير فى ارواح الشجر :

حين يصل الأمر بالناس أن يعتبروا الأشجار ليست على أنها تجسيدات لروح الشجر وانما على أنها مجرد دار لهذه الروح تقيم فيها ويمكنها أن تفارقها حين تشاء فإن ذلك يعتبر دليلا على أن الفكر الدينى حقق درجة ملموسة من التقدم، وأنه انتقل بخطى وئيدة من الأنيميزم إلى مرحلة تعدد الآلهة (١) . وبعبارة أخرى فإنه بدلاً من أن ينظر الإنسان إلى كل شجرة على أنها كائن حى مدرك يراها الآن مجرد كتلة صماء خالية من الحياة ويُسكنها أحد الكائنات الخارقة للطبيعة لفترة من الزمن تطول أو تقصر بحيث يستطيع أن ينتقل بحرية كاملة من شجرة إلى شجرة ، ويمارس بذلك شكلا معيناً من حقوق الملكية والسيادة على جميع الأشجار ، كما يصبح ذلك الكائن الخارق للطبيعة بمثابة إله للغابة بعد أن كان مجرد روح لإحدى الأشجار . وبمجرد أن تتحرر روح الشجرة ـ بشكل أو بآخر ـ من الارتباط بشجرة معينة بالذات فإنها تبدأ فى تغيير شكلها وتتخذ الهيئة الآدمية ، وذلك تمشياً مع الاتجاه العام الذى كان يسود التفكير المبكر من الميل إلى خلع الصورة البشرية المحسوسة على كل الكائنات الروحية المجردة . ومن هنا كنا نجد أن آلهة الغابة والأشجار تظهر فى الفن القديم فى هيئة البشر وصورتهم بينما يشار إلى طبيعتها الشجرية بأحد الأغصان

(١) يتبع فريزر فى هذا التطور فى الفكر الدينى نظرية تايلور كما عرضها فى كتابه « الثقافة البدائية » ، اى أن فريزر لا يأتى هنا بجديد وانما يردد فقط بعض النظريات والآراء التى كانت معروفة على ايامه . (المراجع) .

أو ما شابه ذلك من الرموز الواضحة الدلالة . ولكن هذا التغير فى الهيئة لا يؤثر فى الطباع الجوهرية لأرواح الشجر ، لأن القوى التى كانت تمارسها باعتبارها أرواحاً تحل أو تتجسد فى بعض الأشجار تظل مرتبطة بها بعد أن تصبح آلهة للغابات والأشجار . وهذا ما سوف أحاول التدليل عليه بالتفصيل فيما بعد ولكننى سوف أبين هنا أولا كيف أن الأشجار ، باعتبارها كائنات حية ، تستطيع أن تجعل المطر يسقط والشمس تسطع والماشية تتوالد وتتكاثر كما تساعد النساء على الوضع والولادة فى سهولة ويسر ، ثم أبين بعد ذلك كيف أن آلهة الشجر تتمتع بهذه القوى ذاتها ، وذلك على اعتبار أن هذه الآلهة كائنات بشرية أو أنها تتجسد فعلا فى الأحياء من البشر .

فمن الناحية الأولى نجد أن ثمة اعتقاداً شائعاً بأن فى استطاعة الأشجار ذاتها أو أرواح الشجر أن ترسل الغيث وأشعة الشمس المشرقة . وعندما حاول الأب چيروم Jerome مبعوث براغ أن يقنع سكان لتوانيا الوثنيين بأن يزيلوا غاباتهم المقدسة طلب عدد كبير من النساء إلى أميرهم أن يوقفه عند حده . على أساس أن إزالة الغابات والأجمات سوف يؤدى إلى هدم بيت الإله الذى اعتدن أن يحصلن منه على المطر وأشعة الشمس .ويعتقد الموندارى Mundaris فى أسام أن قطع شجرة فى إحدى الأجمات المقدسة يثير غضب آلهة الغابة التى تعبر عن غضبها بمنع المطر عنهم . ولكى يحظى سكان موفيو Monyo ، وهى إحدى قرى منطقة ساجاينج Sagaing

فى بورما العليـــا ، بأكبر قدر من المطر اختار أكبر أشجار التمر هندى الواقعة بالقرب من قريتهم وسموها Nat أى مثوى الروح التى تتحكم فى المطر وقدموا قرابين من الخبز وجوز الهند والموز والدجاج للروح التى ترعى القرية وتحرسها وللروح التى ترسل المطر وهم يرددون فى صلواتهم « أيها الإله نات ، رحماك بنا نحن الفقراء الفانين .. لا تحجب عنا المطر .. وكما أننا نقدم لك هذه القرابين عن رضا وطيب خاطر أرسل علينا المطر مدراراً بالليل والنهار . » ثم قدموا الشراب بعد ذلك تكريماً لروح شجرة التمر هندى، وبعدها تقدمت ثلاث نساء متقدمات فى السن وقد ارتدين بعض الملابس الجميلة الزاهية وتزين بالعقود والأقراط وبدأن ينشدن أنشودة المطر .

كذلك تساعد أرواح الشجر على نمو الغلات . فعند جماعات الموندارى مثلا توجد غابة أو أجمة مقدسة لكل قرية من قراهم . ويعتبر الناس « آلهة وربات تلك الأجمة مسئولة عن الغلات ، ولذا فإنهم يقدمون لها فرائض التقديس والتبجيل فى كل الأعياد الزراعية الكبرى » والشائع عند الزنوج فى ساحل الذهب تقديم الأضاحى تحت أشجار معينة بالذات تتسم بالطول اعتقاداً منهم أن قطع إحدى هذه الأشجار سوف يؤدى إلى تلف كل ثمار الأرض وفسادها . أما الجالا Galla فإنهم يرقصون أزواجاً حول الشجر

المقدس أملاً فى أن يتحقق لهم المحصول الوفير . ويتألف كل فريق من الراقصين من رجل وامرأة يمسكان بطرفى عصا واحدة لتكون رابطة صلة بينهما ويحملان تحت إبطيهما بعض أعواد القمح الخضراء أو العشب . وفى السويد يثبت الفلاحون فى الأخاديد التى تشقها المحاريث فى حقول القمح أحد الأغصان المورقه ، اعتقاداً منهم بأن ذلك يكفل لهم محصولا وفيراً . وهذه الفكرة ذاتها توجد عند الفرنسيين والألمان وتتمثل فيما يعرف باسم « مايو الحصاد Harvest May » وهو عبارة عن غصن كبير أو شجرة بأكملها ترشق فيها سنابل القمح ثم تنقل إلى البيت الريفى فى آخر عربة تعود من حقل الحصاد ، ويثبت هذا الفرع فى سقف البيت أو المخزن حيث يبقى هناك عاماً كاملا . ولقد أثبت مانهارت Manhardt أن هذا الغصن أو الشجرة هو تجسيد للروح التى تعتبر بوجه عام هى روح الزرع أو الخضرة ، وأنه يمكن بهذه الوسيلة نقل قدرتها الإحيائية والإخصابية إلى القمح بالذات . وهذا هو السبب فى أن « مايو الحصاد » يثبت فى سوابيا Swabia مع أعواد القمح الأخيرة التى تترك قائمة فى الحقول ، بينما يغرس فى مناطق أخرى فى حقول القمح ذاتها وتعلق فى جذعه آخر حزمة يقطعها الناس من الحصاد .

كذلك تساعد أرواح الشجر القطعان على التكاثر كما تمنح النساء نعمة الخلفة والولد . فى شمال الهند تعتبر الشجرة المعروفة باسم

Emblica officinalis شجرة مقدسة . وفى اليوم الحادى عشر من شهر فالجون Phalgun (فبراير) من كل عام تصب أنواع الأشربة تحت تلك الشجرة ويلف حول جذعها شريط أحمر أو أصفر ثم تقام الصلوات لها كى تمنح الخصوبة للنساء والحيوانات والزرع . كذلك تعتبر ثمار جوز الهند فى شمال الهند أيضاً من أكثر الفواكه قدسية ؟ ويطلق السكان على شجرته اسم سريفالا Sripihala أو فاكهة سرى Shri ، ربة النجاح والنماء ، كما أنها تعتبر رمز الخصوبة ، ولذا فإنها تحفظ فى كل تلك المنطقة فى الهياكل المقدسة كى يقدمها رجال الدين والرهبان للنساء اللاتى يرغبن فى الذرية . ولقد كان ينمو فى مدينة كوا Qua بالقرب من كالابار القديمة نوع من النخيل الذى كان يستخدم فى زيادة خصوبة المرأة العاقر حين تقطف إحدى الثمار منها وتأكلها . ويبدو أن الناس فى أوربا يعتقدون أن شجرة مايو أو « سارية مايو » (١) تتمتع بقوى وتأثيرات مماثلة على النساء والماشية ، ولذا يقيم الفلاحون فى بعض أجزاء ألمانيا فى اليوم الأول من شهر مايو « أشجار مايو » على أبواب الزرائب والحظائر بحيث توضع شجرة واحدة لكل جواد أو بقرة اعتقاداً منهم أن ذلك يساعد البقر على إدرار كميات كبيرة من اللبن . والمعروف أن الإيرلنديين يتصورون

(١) سارية تركز فى الساحة وتكلل بالورد ويتجمع حولها الناس حين يحتفلون بعيد أول مايو فى أوربا .

أن وضع أحد الأغصان الخضراء الغضة على باب الدار فى يوم أول مايو كفيل بأن يزيد كمية اللبن خلال فترة الصيف .

ولقد كان من عادة الونديين Wends (١) أن يثبتوا فى اليوم الثانى من شهر يوليو إحدى أشجار البلوط فى وسط القرية ويرفعوا عليها هيكلا من الحديد على شكل ديك ، ويأخذوا فى الرقص حول الشجرة كما يسوقون الماشية لتدور حولها حتى تزيد خصوبتها . ويعتقد الجراكسة أن شجرة الكمثرى تحمى الماشية وتحرسها ولذا فإنهم يقطعون إحدى أشجار الكمثرى الصغيرة من الغابة ويقلمونها ثم ينقلونها إلى منازلهم حيث تعامل بكثير من الإجلال والتقديس . ويكاد يكون لكل بيت شجرة كمثرى خاصة من هذا القبيل . وفى يوم الاحتفال الذى يقع فى أثناء فصل الخريف توضع الشجرة داخل البيت فى حقل كبير تتجاوب فيه أنغام الموسيقى وسط صيحات الفرح والبهجة التى يطلقها سكان البيت ترحيباً بمقدمها السعيد . وتغطى الشجرة بالشموع ويوضع بعض الجبن فى أعلاها ، ويتجمع القوم حولها يأكلون ويشربون ويغنون ، ثم يحيونها فى آخر الأمر تحية الوداع ويحملونها مرة ثانية إلى فناء الدار ويضعونها إلى جانب الجدار حيث تبقى هناك بقية العام دون أن تجد منهم أية عناية أو اهتمام .

(١) الونديون من شعوب الصقالبة فى شرق ألمانيا وبخاصة من فلاحى لوزاليا .

وعند التوهو Tuhoe – وهم إحدى قبائل الماؤورى – « تعزى إلى الأشجار القدرة على زيادة خصوبة النساء، ولهذه الأشجار علاقة بالحبال السُّرِّية لبعض الأسلاف الأسطوريين هناك، خاصة وأن الناس كانوا حتّى عهد قريب يعلقون الحبل السُّرِّى للطفل المولود حديثاً على تلك الأشجار ، وكانت المرأة العاقر تحتضن إحدى هذه الأشجار بذراعيها فتحمل نتيجة لذلك وتلد طفلا ذكراً أو أنثى تبعاً لما إذا كانت احتضنت الشجرة من جانبها الشرقى أو الغربى » وربما كان الأصل الأول للعادة الشائعة بين الأوربيين من وضع شجيرة خضراء فى يوم أول مايو أمام منزل الحبيبة العذراء هو الاعتقاد فى القوة الإخصابية لروح الشجر . وفى بعض أنحاء باڤاريا توضع هذه الشجيرات عند بيوت الأشخاص المتزوجين حديثاً ولا يترك هذا العمل إلا حين تصبح الزوجة على وشك الولادة . ويقول الناس فى هذه الحالة «إن الزوج قد أقام شجيرة مايو لنفسه ». وعند السلاف الجنوبيين تعلق المرأة الحامل التى تريد الحمل قميصاً جديداً فوق شجرة مثمرة ليلة ميلاد القديس چورچ ، وفى صباح اليوم التالى وقبل أن تشرق الشمس تفحص القميص ، فإن وجدت أن أحد الكائنات الحية قد زحف إليه أثناء الليل فإنها تؤمل فى أن تتحقق رغبتها خلال العام ، وبذلك تلبس القميص وهى على ثقة من أنها سوف تحمل مثلما أثمرت الشجرة التى علقت عليها قميصها أثناء الليل . وعند القاراقرغيز Kara-Kirghiz تتمرغ

النساء العاقرات على الأرض تحت إحدى أشجار التفاح المنزلة من أجل الحمل . وأخيراً فإن الناس فى افريقيا والسويد يعزون إلى الشجرة القدرة على تسهيل عملية الوضع والولادة . فى بعض أجزاء السويد كانت توجد إلى جوار كل مزرعة فى الماضى شجرة حارسة (وهى فى العادة إحدى أشجار المردار أو الزيزفون أو الغرغار) ، ولم يكن أى شخص يجرؤ على أن ينزع ورقة واحدة من تلك الشجرة المقدسة لأن أى ضرر أو أذى بها كان يؤدى إلى النكبات وتفشى الأمراض . وقد كانت العادة تقضى هناك بأن تحتوى المرأة الحامل تلك الشجرة بين ذراعيها حتى تلد بسهولة ويسر . وفى بعض القبائل فى الكنغو تصنع النساء الحوامل لأنفسهن من ملابس من قلف إحدى الأشجار المقدسة اعتقاداً منهن أن ذلك يجنبهن الكثير من أخطار الحمل . ومن المحتمل أن القصة التى تقول إن ليتو Leto احتضنت بذراعيها نخلة وشجرة زيتون أو اثنين من أشجار الغار حين أوشكت على أن تلد توأميها الإلهين أبولو Apollo وأرتميس Artemis تشير إلى وجود اعتقاد مماثل عند الاغريق حول قدرة أشجار معينة بالذات على تسهيل عملية الوضع (١) .

---

(١) الاشاره هنا الى الاسطورة الخاصة بالالهة لاتونا Latona وطفليها من جوبيتر وهما ابوللو الذى كان يعتبر الها للشمس واخته أرتميس او ديانا ربة القمر (المراجع) .

الفصل العاشر



بقايا عبادة الشجر في أوربا الحديثة

من العرض السابق للخصائص المفيدة التى ينسبها الناس عادة إلى أرواح الشجر يسهل علينا أن نفهم السبب فى شيوع وانتشار بعض العادات مثل « شجرة مايو » أو « سارية مايو » بحيث أصبحت تحتل مكانة بارزة فى الأعياد والاحتفالات الشعبية عند الفلاحين الأوربيين . ففى الربيع ، أو فى أوائل الصيف بل وحتى فى يوم منتصف الصيف ، كانت العادة — ولا تزال — فى كثير من بقاع أوربا أن يخرج الناس إلى الغابات فيقطعوا شجرة يحملونها إلى القرية حيث يقيمونها وسط مظاهر الفرح والبهجة ؛ أو قد يكتفون بقطع بعض الأغصان فى الغابة ثم يثبتونها على بيوتهم . والهدف من هذه العادات هو أن يجلبوا إلى القرية ، وإلى كل بيت من بيوتها ، البركة التى يعتقدون أن فى إمكان الروح منحها للناس . وهذا هو السبب فى أن الناس فى كثير من المناطق يزرعون شجرة مايو أمام بيوتهم أو يحملون الشجرة المخصصة للقرية كلها ويدورون بها على الأبواب حتى تنال كل أسرة نصيبها من هذه البركات . ويحسن بنا هنا أن نذكر شيئاً من الأمثلة العديدة الخاصة بهذا الموضوع للتدليل على أهميته .

فى كتاب سير هنرى بيرز Sir Henry Piers الذى نشره عام ١٦٨٢ بعنوان وصف وستميث « *Description of Westmeath* »

---

* بقايا عبادة الشجر فى اوربا الحديثة : ترجمة د. محمد احمد غالى

يقول المؤلف : « فى ليلة أول مايو تقيم كل أسرة أمام بابها شجيرة خضراء تتناثر فوقها الأزهار الصفراء التى تنمو بكثرة فى المروج المجاورة . أما فى البلاد التى تكثر فيها الغابات فإن الناس يقيمون بعض الأشجار الطويلة الباسقة التى تظل فى مكانها طيلة العام تقريباً حتى ليكاد الشخص الغريب عن الديار يحار وهو يتخيل أنها كلها عبارة عن لافتات لأماكن شرب البيرة وان كل البيوت ليست سوى أماكن لبيعها » وقد اعتاد الناس فى نورثامبتونشاير Northampton shire أن يزرعوا فى يوم أول مايو شجرة صغيرة يتراوح ارتفاعها بين عشرة أقدام واثنى عشر قدماً أمام كل بيت ، ثم ينثرون الأزهار عليها كما يزينون بها أبواب بيوتهم . « ومن بين العادات القديمة التى لايزال سكان كورنوول يحتفظون بها حتى الآن عادة تكليل الأبواب والمداخل فى أول مايو بأغصان أشجار الجميز الخضراء. وشجيرات الزعرور hawthorn كما يزرعون بعض الأشجار — أو على الأصح الأجزاء السفلى منها — أمام مساكنهم . ولقد كانت العادة فى شمال انجلترا تقضى بأن يستيقظ الشباب بعد منتصف الليل بقليل فى صبيحة أول مايو وينطلقوا إلى الغابات وهم يعزفون الموسيقى وينفخون فى الأبواق، وهناك يقومون بقطع بعض الأغصان ويزينونها بباقات وأكاليل الزهور ثم يعودون إلى بيوتهم مع شروق الشمس حيث يثبتونها فوق الأبواب والنوافذ . كذلك كان الشباب فى أبنجدون Abingdon بمقاطعة بركشاير Berkshire

يخرجون فى شكل جماعات فى صبيحة أول مايو وهم يرددون نشيداً يقولون فى المقطعين الأولين منه :

« لقد كنا نهيم فى تجوالنا طوال الليل
وجزءاً من هذا النهار
وها نحن نعود لديارنا ثانية
حاملين معنا أكاليل الفرح والبهجة :
إننا نحمل أكاليل البهجة إليكم هنا ،
ونقف أمام أبوابكم
إنها غصون ناضجة مليئة بالبراعم
صنعتها يد الرب القدير »

وفى بعض مدن إسكس بانجلترا — مثل مدينة سافرون والدن Saffron Wolden ومدينة دبدن Debden [تخرج الفتيات الصغيرات فى يوم أول مايو فى جماعات تتنقل من بيت لبيت وهن يرددن أغنية تكاد تماثل الأغنية السابقة . وتحمل الفتيات أثناء ذلك أكاليل الزهور التى يتوسط كل منها دمية صغيرة تلبس ملابس بيضاء . والواقع أن مثل هذه العادة كانت — ولا تزال — تراعى فى كثير من أنحاء انجلترا حيث تصنع الأكاليل على شكل أطواق تتداخل بعضها فى بعض وتتقاطع فى زوايا قائمة . ويظهر أن الفلاحين فى بعض انحاء ايرلنده لا يزالون حتى الآن يحملون فى أول مايو ذلك الطوق الذى تزينه بعض الغصون من أشجار

الأنجاص rowan وزهرة حشيشة الذهب Marigold التي تنمو في البرك والمستنقعات كما تعلق كرتان صغيرتان ملفوفتان بأوراق فضية أو ذهبية في وسطه . والمعتقد أن هاتين الكرتين تمثلان في الأصل الشمس والقمر »

وفي بعض قرى جبال الفوج تخرج الفتيات الصغيرات في يوم الأحد الأول من شهر مايو في شكل جماعات تنتقل من دار لأخرى وهن يرددن بعض الأناشيد التي تتغنى بشهر مايو والتي تشير إلى « الخبز والطعام اللذين يتوافران بحلول ذلك الشهر » . فإذا حصلن من سكان أحد البيوت على بعض المال قمن بتثبيت أحد الغصون الخضراء على بابه ، أما إذا رفض أهل البيت تقديم أي شيء لهن دعون عليهم بكثرة العيال وقلة الخبز والطعام . وفي مقاطعة ما بين Mayenne بفرنسا كان الصبية الذين يطلق عليهم إسم « أولاد مايو Maillotins » يتجولون بين المزارع في أول ذلك الشهر وهم ينشدون الأناشيد الدينية ويأخذون في مقابل ذلك بعض المال أو الشراب فيقابلون ذلك بغرس شجرة صغيرة أو غصن من شجرة. كذلك الحال في سافرن Saverne في الألزاس حيث تقوم الجماعات المختلفة بالتجول في المناطق المجاورة وهم يحملون أشجار مايو وقد توسطهم رجل يرتدي قميصاً ابيض وقد دهن وجهه بلون أسود . ويحمل الناس أمامه شجرة مايو ضخمة ، كما يرفع كل

فرد فى الجماعة شجرة أخرى صغيرة بينما يحمل أحدهم سلة ضخمة يجمع فيها البيض ولحم الخنزير وما إليها .

وفى يوم الخميس السابق لأحد العنصرة يخرج القرويون الروس إلى الغابات حيث يرددون الأغانى ويجدلون الأكاليل ثم يقطعون شجرة صغيرة من أشجار البتولا يلبسونها رداء امرأة أو يزينونها بالأشرطة ذات الألوان الزاهية المتعددة ويقيمون وليمة كبيرة . وحين يفرغون من طعامهم يحملون الشجرة بكل زينتها ويعودون بها إلى القرية فى موكب راقص بهيج ، وهناك ينصبون الشجرة فى أحد المنازل حيث تبقى ضيفاً مكرماً حتى يأتى يوم أحد العنصرة . وفى اليومين اللذين يفصلان خميس العهد وأحد العنصرة يتردد الناس على المنزل الذى ينزل فيه « ضيفهم » لزيارته ، ولكن فى اليوم الثالث ، وهو يوم أحد العنصرة نفسه ، يحمل الناس الشجرة إلى إلى أحد النهيرات ويقذفون بها فى مياهه ثم يقذفون بعدها بكل الأكاليل والزهور . وتشير عادة وضع الشجرة فى ملابس امرأة إلى الحد الذى يذهب إليه الروس فى تجسيدهم للشجرة ، أما عملية إلقائها فى النهر فهى فى الأغلب نوع من الرقى أو التعاويذ الخاصة بالمطر .

وفى بعض أنحاء السويد يخرج الصبية فى ليلة أول مايو إلى الشوارع وهم يحملون حزمة من فروع البيولا الغضة الرطيبة المورقة ، ويتقدم موكبهم عازف الموسيقى فى القرية الذى يقوم بالعزف

على الكمان فيطوفون بكل بيوت القرية وهم يترنمون بأغانى مايو . وتدور معظم هذه الأغانى حول الدعاء لله بأن يهبهم الطقس المعتدل والمحصول الوفير وأن يمنحهم بركة الدنيا والآخرة . ويحمل أحدهم سلة يجمع فيها الهبات والهدايا من البيض وما إلى ذلك . فإذا أحسن أهل البيت استقبالهم ثبتوا أحد الفروع المورقة فى السقف فوق باب الكوخ . إلا أن منتصف الصيف يعتبر هو الوقت الذى يهتم فيه الناس فى الأغلب بإقامة هذه الطقوس . فى ليلة مولد القديس يوحنا (وهو يوافق اليوم الثالث والعشرين من شهر يونيو) تنظف المنازل جيداً وتكلل وتزين بالأغصان الخضراء والزهور ، وتوضع أشجار الشربين الصغيرة أمام أبواب المنازل وفى جميع أرجاء البيت كما تقام فى كثير من الأحيان خمائل صغيرة فى الحديقة . وفى استكهولم تقام فى ذلك اليوم سوق لورق الشجر تعرض فيه للبيع صوارى مايو التى يتراوح ارتفاعها بين ست بوصات واثنى عشر قدماً وتزينها أوراق الشجر والزهور وقصاصات الورق الملون والكرات الزجاجية الصغيرة الملونة المثبتة على عيدان من الغاب وغير ذلك من وسائل الزخرفة والزينة . وتشعل النيران على قمم الجبال ، ويرقص الناس حولها أو يقفزون فوقها . ولكن الحدث الأهم والأكبر فى ذلك اليوم هو إقامة سارية مايو ، وهى عبارة عن إحدى أشجار الصنوبر الطويلة المستقيمة بعد أن تنزع عنها كل فروعها . وقد تثبت فى السارية بعض الأطواق أو قطع الخشب بشكل عمودي بحيث يفصلها

بعضها عن بعض مسافات معينة ، أو قد تزود أحياناً بالقسى التى تمثل — على ما يقولون — رجلا يجلس واضعاً يديه فى خاصرته . وتزين السارية بكل ما عليها من أطواق أو قسى بأوراق الشجر والزهور وقصاصات القماش الملونة والبيض الصناعى المموه بالذهب اللامع وغير ذلك . وتثبت فى أعلى السارية « دوارة رياح » أو علم كبير . وتعتبر إقامة السارية التى يتولى زخرفتها فتيات القرية من أهم المناسبات التى يحتفل بها الناس ويتجمعون من أجلها من كل مكان حيث يرقصون حولها فى حلقة كبيرة . ولقد كان الناس فى بعض أنحاء ألمانيا يتمسكون بعادات مماثلة للاحتفال بيوم منتصف الصيف ، فكانوا يقيمون مثلاً أشجار الشربين الطويلة فى مدن جبال هارتز Harz العليا بعد أن ينزعوا اللحاء عن الأجزاء السفلى من جذوعها ثم ينصبونها بعد ذلك فى الخلاء بعد تزيينها بالزهور والبيض الزجاجى الملون باللونين الأصفر والأحمر . وكان الشبان يرقصون حول هذه الأشجار أثناء النهار بينما يقوم كبار السن بالرقص فى المساء ، كذلك تقام فى بعض أجزاء بوهيميا صوارى مايو أو أشجار منتصف الصيف فى ليلة مولد القديس يوحنا . وفى هذه الحالة يجلب الصبية إحدى أشجار الصنوبر أو الشربين الطويلة من الغابة وينصبونها على مرتفع من الأرض حيث تتولى الفتيات زخرفتها بالأكاليل وباقات الزهر والشرائط الحمراء ثم يحرقونها فى نهاية الاحتفالات .

وليس ثمة ما يدعو إلى ضرب كثير من الأمثلة عن هذه العادة التي شاعت في أنحاء عديدة من أوربا مثل انجلترا وفرنسا وألمانيا والتي كانت تقتضى إقامة « شجرة مايو » أو « سارية مايو » للقرية كلها في أول أيام ذلك الشهر . ولذا فسوف نكتفي بعدد قليل من الأمثلة . ففي كتاب *Anatomie of Abuses* الذى نشر لأول مرة في لندن عام ١٥٨٣ يصف لنا الكاتب البيوريتانى فيليب ستبس **Phillip Stubbes** بكثير من التـأفف الطريقة التي كان الناس في أيام الملكة الصالحة بس **Bess** يأتون بها بسارية مايو . ويعطينا وصفه وصورة سريعة حية لروح المرح التي كانت تسود انجلترا في ذلك الحين . ويقول في ذلك . : « ولقد كان الناس من جميع الأعمار ومن الجنسين يخرجون جماعات في أول مايو وفي يوم أحد العنصرة أو غير ذلك من الأيام المماثلة فيطوفون في الغابات والأحراش طوال الليل ويتسلقون الجبال والتلال حيث يمضون الليل كله في هناء وسرور ثم يعودون في الصباح وقد حملوا معهم أشجار البتولا أو فروع بعض الأشجار الأخرى لكي يزينوا بها أماكن الاحتفالات . ولا غرابة في ذلك ، إذ كان يشرف عليهم في مرحهم ويرعى صخبهم الشيطان نفسه ، أمير الجحيم الذى كانوا يتخذونه إلهاً وربّاً أثناء هذه الاحتفالات . لقد كان أثمن ما يجلبونه معهم من تلك الأصقاع هو سارية مايو التي يحملونها إلى الديار في كثير من الإجلال والتعظيم ، وكانوا يستخدمون في ذلك عشرين

زوجاً – وأحياناً أربعين – من الثيران المزينة بباقات الزهور الجميلة التي كانت تعلق فوق قرونها . وكانت هذه الثيران تقوم بسحب تلك السارية (أو على الأصح ذلك الصنم الكريه) المغطاة تماماً بالأزهار والرياحين عن طريق ربطها بالحبال إليها . وكان يتبع ذلك الموكب جمع غفير من الرجال والنساء والأطفال قد يبلغ مائتين أو ثلثمائة شخص يسيرون في جلال ووقار وما أن تقام السارية بهذه الطريقة وترفرف فوقها الأعلام والرايات حتى ينثر الناس القش على الأرض ثم يغرسوا بعض الشجيرات الصغيرة الخضراء من حولها وينصبوا المظلات والخمائل التي تستخدم هناك في الصيف ، ثم يقوم الجميع للرقص حول السارية ويكونون في ذلك أقرب شبهاً بالوثنيين وهم يجلون أصنامهم . ولقد سمعت بعض الثقاة من ذوى المكانة العالية المرموقة – والعهدة عليهم – يؤكدون أنه من بين النساء الكثيرات اللاتي يذهبن إلى الغابة في تلك الليلة لا يكاد يحتفظ بعفتهن وشرفهن الا حوالى الثلث فقط .

كذلك كان الحال في سوابيا Swabia . ففي اليوم الأول من مايو كان الناس في كل قرية يجلبون إحدى أشجار البتولا فيزينونها بالأشرطة الملونة ثم ينصبونها وسط القرية ويرقصون حولها على أنغام الموسيقى وقد ملأتهم السعادة واستبد بهم المرح . وكانت الشجرة تظل قائمة في مكانها طيلة العام وهي محتفظة بنضارتها إلى أن يأتي أول مايو من العام التالى فيجلب الناس شجرة جديدة . أما في سكسونيا

فلم يكن « الناس يقنعون بجلب الصيف بطريقة رمزية (على شكل ملك أو ملكة) إلى القرية وإنما كانوا يجلبون أيضاً الخضرة النضرة ذاتها من الغابات كي تدخل فى بيوتهم ، ونعنى بذلك أشجار مايو أو أشجار أحد العنصرة التى ورد ذكرها كثيراً فى كتابات القرن الثالث عشر وما بعده . ولقد كان إحضار شجرة مايو أيضاً يعتبر مناسبة طيبة للاحتفال وابداء البهجة . فكان الناس يخرجون إلى الغابات للبحث عن « شهر مايو » فيأتون معهم إلى القرية بالأشجار النضرة الخضراء وبخاصة أشجار الشربين والبتولا حيث يضعونها أمام أبواب المنازل أو حظائر الماشية أو حتى فى حجراتهم . ولقد سبق أن ذكرنا أن الشبان كانوا يقيمون أشجار مايو أيضاً أمام مخادع معشوقاتهم . وبالإضافة إلى هذه الأشجار « المنزلية » كان يقام وسط القرية أو فى سوق المدينة إحدى الأشجار أو الصوارى الكبيرة التى يحضرها الناس من الغابة فى موكب حافل ، وكان يشترك فى اختيار الشجرة أو السارية جميع سكان القرية الذين كانوا يعتبرون بذلك مسئولين عن حراستها ورعايتها . وكانت الشجرة تشذب بحيث تنزع عنها جميع أغصانها وأوراقها فلا يترك فيها سوى التاج فقط ، وعليه كانوا يضعون الكثير من أنواع الطعام كاللحم والفطائر والبيض وكان الشبان يبذلون جهدهم للوصول إلى تلك الأطعمة . ولا زالت هذه الصورة تتكرر فى المهرجانات الآن حيث تقام بعض الصوارى العالية المدهونة بالطلاء والتى تعتبر من مخلفات بقايا سارية مايو :

وكان من الشائع آنذاك أن يتسابق الناس إما جرياً على الأقدام وإما على ظهور الخيل نحو شجرة مايو كنوع من التسلية فى عيد أحد العنصرة . ولقد تحولت هذه العادة وانحرفت عن هدفها القديم ، ولكنها لا تزال باقية إلى الآن كعادة شعبية فى كثير من أنحاء ألمانيا ».

ولقد اعتاد الشبان فى مدينة بوردو أن ينصبوا فى كل شارع من شوارع المدينة أول مايو أحد هذه الصوارى ثم يزينوه بالأكاليل ويضعوا فوقه تاجاً كبيراً ويتجمع الشباب من كلا الجنسين كل مساء حول تلك السارية للرقص والغناء ويستمر ذلك طيلة الشهر . ولا يزال الناس فى منطقة البروفانس Provence التى تشتهر بمرح سكانها يقيمون أشجار مايو حتى الآن فى القرى والعزب ويزينونها بالورود والشرائط الملونة والأزهار وتحت هذه الصوارى يمرح الشباب ويبتهجون بينما يهجع إليها كبار السن والشيوخ طلباً للراحة .

ويبدو من كل هذه الحالات أن العرف كان يقضى بإحضار شجرة جديدة فى أول مايو من كل عام . ومع ذلك فالظاهر أن القاعدة العامة فى انجلترا ــ على الأقل فى الأزمنة الأكثر حداثة ــ كانت توضع سارية مايو فى القرى بصفة مستمرة بدلا من تغييرها كل سنة . أما فى باقاريا العليا فالعادة هى أن تغير القرى « سارية مايو » مرة كل ثلاث أو أربع أو خمس سنوات . والسارية هناك عبارة عن إحدى أشجار الشربين التى يجلبونها من الغابة . ورغم كل تلك الأكاليل والأعلام والنقوش التى تزخرف بها السارية

فإن الناس هناك يحرصون على أن يضعوا باقة من ورق الشجر الأخضر الداكن فى أعلى السارية « لتكون علامة ودليلا على أنهم إنما يتعاملون مع شجرة حية أحضروها من الغابة الظليلة ، وليس مع مجرد سارية جامدة وخالية من الحياة » . ولا يكاد يوجد شك فى أن المتبع أصلا فى كل مكان كان هو إقامة شجرة مايو جديدة كل عام : ولما كان الهدف من هذه العادة هو استحضار روح الخصوبة التى تتمتع بها النباتات والتى تنشط من جديد كلما أقبل الربيع . فإن الاحتفاظ بشجرة عتيقة ذاوية واستمرارها عاماً بعد عام بدلاً من تغييرها بشجرة خضراء ناضرة تفيض منها الحياة لا يمكن أن يحقق ذلك الهدف . ولكن بعد أن نسى الناس الغرض من هذه العادة وبدأوا ينظرون إلى شجرة مايو على أنها مجرد مركز للتجمع من أجل تمضية عطلة سعيدة هانئة لم يعد هناك مايدعو إلى قطع شجرة جديدة كل عام ، وأصبح الناس يفضلون الاحتفاظ بالشجرة نفسها بصفة دائمة على أن يقوموا بتزيينها وزخرفتها بالزهور فى أول مايو من كل عام . أى أن الناس ظلوا يشعرون بعد أن أصبحت سارية مايو من الأشياء الثابتة التى لاتتجدد بضرورة إضفاء مظهر الشجرة الخضراء الناضرة عليها حتى لا تبدو مجرد عمود ميت لا حياة فيه . ومن هنا كان الناس فى ويفرهام Weverham وفى تشيشر Cheshire يقومون فى يوم أول مايو بتزيين ساريتين اثنتين ويبذلون فى ذلك من العناية والاهتمام ما يتناسب

وجلال المناسبة فى الماضى ، فيرفعون الأكاليل على الساريتين ذاتهما ويثبتون فى أعلاهما إحدى أشجار البتولا أو ما شابه ذلك من الأشجار الطويلة الباسقة بكل أوراقها الخضر أو بعد أن ينزعوا عنها اللحاء . ثم يثبتون الساق نفسه إلى السارية بحيث تبدو قمة السارية أقرب شىء إلى منظر الشجرة . ومن هنا فإن تجديد شجرة مايو يشبه إلى حد كبير تجديد « مايو الحصاد » أو عيد الحصاد ، لأن كلا منهما يهدف إلى ضمان توفير قسط من روح الخصوبة الكامنة فى النبات والاحتفاظ بها على مدار السنة ولكن بينما يقتصر تأثير عيد الحصاد أو مايو الحصاد على زيادة المحاصيل ونموها فإن تأثير شجرة مايو أو غصن مايو يمتد بحيث يشمل — كما رأينا — النساء والماشية . وأخيراً فإنه يجدر بنا أن نذكر أن أشجار مايو القديمة قد تحرق فى بعض الأحيان فى آخر العام . وهكذا نجد الشباب فى المنطقة المحيطة ببراغ ينتزعون قطعاً من شجرة مايو المخصصة للقرية كلها فيضعونها خلف الصور المقدسة فى حجراتهم حيث تظل فى مكانها إلى أول مايو التالى فيحرقونها فى الموقد . وفى فورتمبرج Wurtemberg تترك الشجيرات التى تقام يوم أحد السعف فى مكانها لمدة عام ثم تحرق .

ويكفى هذا عن روح الشجرة التى يتصور الناس أنها تتجسد فى الشجرة أو تحل فيها ولكن يبقى علينا أن نتبين كيف أن روح الشجرة كثيراً ما تنفصل عن الشجر ذاته وتتخذ صورة آدمية بل وقد تتجسد أحياناً فى الأحياء من الرجال أو النساء . وثمة أدلة

كثيرة على هذا التجسد البشرى لروح الشجرة ، نجدها بوجه خاص في العادات الشعبية الشائعة بين الفلاحين فى أوربا .

وثمة حالات كثيرة لها دلالتها الواضحة فى هذا الصدد ، وفيها كلها تتمثل روح الشجرة فى شكل نبات وصورة إنسان فى الوقت نفسه بحيث تظهر الصورتان جنباً إلى جنب كما لو كان القصد من ذلك هو أن تفسر إحداهما الأخرى . وفى هذه الحالات يتخذ التمثيل الآدمى لروح الشجرة شكل دمية أو تمثال فى بعض الأحيان أو صورة الإنسان الحى فى أحيان أخرى ولكنه فى كلا الحالين يظهر بجوار شجرة أو غصن كبير بحيث يؤلف الإنسان أو الدمية مع الشجرة أو الغصن كما لو كانا نوعاً من الكتابة بلغتين مختلفتين ولكن كلا منهما هى ترجمة للأخرى . وعلى ذلك فليس ثمة أدنى مجال للشك هنا فى أن الناس كثيراً ما يتصورون روح الشجرة فى شكل آدمى بالفعل . مثال ذلك أن الشبان فى بوهيميا يلقون فى الماء فى يوم الأحد الرابع من شهر مايو دمية يطلقون عليها اسم « الموت » وبعدها تخرج الفتيات إلى الغابة فيقطعن شجرة غضة ويثبتون إليها دمية أو « عروسة » فى ملابس بيضاء بحيث تبدو فى هيئة امرأة ثم يتجولن فى القرية وينتقلن من باب إلى باب لجمع الهبات والهدايا وهن يرددن بعض الأغانى التى تنتهى « باللازمة » التالية : —

« إننا نطرد الموت عن القرية
إننا نجلب الصيف إلى القرية »

فالصيف يعتبر – كما سنرى فيما بعد – هو روح الخضرة والنبات التى تعود أو تحيا من جديد فى الربيع . وفى بعض أنحاء بريطانيا يتجول الأطفال وهم يسألون الناس بعض النقود وقد حملوا معهم نماذج مصغرة لصوارى مايو ودمى صغيرة فى ملابس لطيفة جذابة ويطلقون عليها اسم « سيدة مايو The Lady of May » وواضح أن الشجرة والدمية تعتبران فى هذه الحالات متكافئتين تماماً من كل الوجوه .

وفى منطقة تان Thann فى الألزاس تلبس إحدى الفتيات ملابس بيضاء وتحمل شجرة صغيرة من أشجار مايو مزينة بالأكاليل والأشرطة وتنتقل فى جمع من رفيقاتها لجمع الهدايا والهبات . ويطلق الناس على الفتاة اسم « وردة مايو الصغيرة » وتردد الفتيات أثناء ذلك أغنية تقول :

« ياوردة مايو الصغيرة ، دورى حول نفسك ثلاث مرات
ودعينا ننظر إليك وأنت تدورين .
يا وردة مايو ، تعالى معنا إلى الغابات الخضراء البعيدة
حيث نمرح جميعاً ونبتهج
وننتقل بين أشجار مايو والورود »

وتدعو الأغنية على من يرفض تقديم الهدايا والهبات بأن تأكل « العرسة » دواجنهم وبألا تحمل كرومهم عناقيد العنب وألا تثمر أشجار البندق التى يملكونها ولا تجود حقولهم بالقمح ، لأن المفروض

أن محصول العام يتوقف على الهدايا التى يقدمها الناس إلى هؤلاء الفتيات اللاتى يتولين الغناء والانشاد . وفى كل هذه الحالات والأمثلة التى ذكرناها فإن المعنى الذى يتضمنه تجول الأطفال فى يوم أول مايو وهم يحملون الأغصان الخضراء أو أكاليل الزهر ويرددون الأغانى ويجمعون النقود هو أنهم يجلبون مع روح النبات والخضرة الرخاء وحسن الطالع لسكان تلك البيوت ، ولذا فإنهم ينتظرون أن ينالوا أجرهم على تلك الخدمات . ولقد اعتاد الناس فى لتوانيا الروسية أن يقيموا فى اليوم الأول من مايو شجرة خضراء أمام كل قرية من قراهم ثم يختار الشباب أجمل فتاة فى القرية فيضعون تاجاً على رأسها ثم يغطونها تماماً بأغصان البتولا ويجعلونها تجلس إلى جوار شجرة مايو بينما يأخذون هم فى الرقص حولهما . وفى الغناء وهم يصيحون من حين لآخر : « مايو ! مايو ! » . وفى برى Brie بجزيرة فرنسا تقام شجرة مايو وسط القرية وتغطى قمتها بالزهور بينما يزين الجزء العلوى من جذعها بأوراق الشجر وبالفروع الرفيعة المجدولة ويلف حول الجزء السفلى منه بعض الأغصان الضخمة الخضراء وترقص الفتيات حولها . ويأتى الشبان أثناء ذلك بصبي صغير فيغطونه تماماً بأوراق الشجر ويطلقون عليه اسم « أبونا مايو » فيدور الصبى هو أيضاً حول الفتاة . وفى المدن الصغيرة بمرتفعات فرنكلين ڤالد Franklin Wald بشمال باڤاريا تقام شجرة العيد أمام إحدى الحانات فى اليوم الثانى من مايو ، ويأخذ أحد الرجال

فى الرقص حولها وقد غطي تماماً بالقش من قمة رأسه إلى أخمص قدميه بطريقة تسمح بأن تعقد سنابل القمح فوق رأسه على شكل تاج ويطلق على ذلك الرجل اسم « العيد » . وكان الناس يسيرون بهذا «العيد » فى موكب يجوس خلال الشوارع المزينة بفروع البتولا .

وأثناء الاحتفال بمولد القديس جورج (الذى يوافق اليوم الثالث والعشرين من شهر ابريل) يزين الشباب السلافيون فى كارنثيا بالزهور وباقات الورد والأكاليل شجرة يكونون قد قطعوها فى الليلة السابقة ثم يحملونها فى موكب تصاحبه الموسيقى وتتخلله تهاليل الفرحة والبهجة ، وتكون الشخصية الرئيسية فى هذا الموكب هى « جورج الأخضر » وهو شاب يلتف تماماً فى أغصان البتولا الخضراء . وحين ينتهى الاحتفال يلقى بجورج الأخضر — أو على الأصح بدمية تمثله — فى الماء . ويكون الشغل الشاغل لهذا الفتى الذى يقوم بدور جورج الأخضر هو أن ينسل من غلافه الورقى الأخضر ويضع مكانه تلك الدمية دون أن ينتبه أحد لما يحدث : ولكن فى كثير من البلاد يلقى بالفتى نفسه الذى يمثل ذلك الدور فى نهر أو فى بركة ماء كوسيلة للتعبير عن الأمل فى سقوط المطر على الحقول والمراعى بحيث تحتفظ بنضرتها خلال الصيف . وفى بعض المناطق الأخرى تتوج الماشية وتساق من حظائرها بينما ينشد الناس :

« ها نحن نحضر جورج الأخضر

« ها نحن نصطحب معنا چورج الأخضر
راجين أن يطعم ماشيتنا حتى تشبع
وإلا فسوف نلقى به فى الماء » .

فهنا أيضاً نجد أن القوى القادرة على صنع المطر وتوفير الطعام للماشية — وهى القوى التى ينسبها الناس إلى روح الشجرة والتى توجد فى الشجرة ذاتها — هى نفسها القوى التى تنسب إلى روح الشجرة التى يمثلها الشخص الحى .

وعند جماعات الغجر فى ترنسلڤانيا يعتبر الاحتفال بچورج الأخضر هو العيد الرئيسى للربيع . وقد يحتفل به البعض فى يوم عيد الفصح بينما يحتفل به البعض الآخر يوم مولد القديس چورج (اليوم الثالث والعشرون من شهر ابريل) . وفى اليوم السابق للاحتفال تقطع شجرة صغيرة من أشجار الصفصاف ثم تزين بالأكاليل وأوراق الشجر وتقام وسط أرض فضاء ويتوافد عليها النساء الحوامل فتعلق كل منهن قطعة من ملابسها حيث تبقى طول الليل ، فإذا وجدت فى الصباح إحدى أوراق الشجر قد علقت بتلك الملابس علمت أن ولادتها ستكون سهلة . كذلك يتوافد الشيوخ والعجائز والمرضى على الشجرة فى المساء فيتفاون عليها ثلاث مرات وهم يرددون « سوف تموتين عما قريب ، فدعينا إذن نحن نعيش » . فى صباح اليوم التالى يتجمع الغجر حول شجرة الصفصاف وتكون الشخصية الرئيسية فى هذا المهرجان هى « چورج الأخضر » ،

وهو فتى يغطى من أم رأسه إلى أخمص قدميه بأوراق الشجر الخضراء وبالبراعم . ويلقى چورج الأخضر بعدة حفنات من العشب للدواب التى تملكها القبيلة حتى لا تعانى نقصاً من العلف طوال العام ، ثم يتناول ثلاثة مسامير من الحديد سبق أن تركت فى الماء لمدة ثلاثة أيام بلياليها فيدقها فى جذع الشجرة ثم ينتزعها ثانية ويطوح بها فى مجرى ماء بقصد استرضاء أرواح الماء واستعطافها . وأخيراً يتظاهر الناس بأنهم يقذفون چورج الأخضر نفسه فى الماء بينما هم يلقون فى حقيقة الأمر دمية مصنوعة من فروع الشجر وأوراقه . فى هذه العادات نجد أن القدرة على تسهيل عملية الوضع والولادة وكذلك القدرة على ابتعاث الطاقة الحيوية فى المرضى والشيوخ والعجائز تعتبران من أهم الخصائص التى ينسبها الناس إلى شجرة الصفصاف ، بينما يهب چورج الأخضر ، وهو القرين البشرى للشجرة ، الغذاء للماشية كما يضمن للناس رعاية أرواح الماء لهم وذلك عن طريق خلق صلة غير مباشرة . بين الشجرة وتلك الأرواح .

وبدون أن نضرب مزيداً من الأمثلة التى تؤكد المعانى السابقة يمكننا أن نلخص كل النتائج التى أمكن الوصول إليها فى الصفحات السابقة فى العبارة التى قالها مانهارت Mannhardt فى هذا الصدد: « وتكفى العادات التى ذكرناها لكى تؤكد صدق الاستنتاج بأن روح النبات والخضرة كثيراً ما تتمثل أثناء المواكب التى تقام فى الربيع فى شجرة مايو من ناحية وفى أحد الرجال الذى يرتدى حلة من أوراق

الشجر الخضراء أو الزهور أو فى إحدى الفتيات التى تتزين بالطريقة ذاتها من الناحية الأخرى : فالروح التى تحل فى الشجرة وتمنحها الحياة هى نفسها الروح التى يظهر أثرها فى النباتات الأخرى كلها والتى صادفناها فى شجرة مايو وفى عيد الحصاد . ويتفق هذا تمام الاتفاق مع ما يذهب إليه الناس من أن الروح تفصح عن وجودها فى أول زهرة من أزهار الربيع مثلما تتجلى فى الفتاة التى تمثل وردة مايو وكذلك فى الشخص الذى يقوم بدور العيد ، وذلك على اعتبار أن الروح هى التى تهب المحصول الوفير . والناس فى ذلك يفترضون أن وجود هذا الشخص الذى يمثل الإله أو الرب تحقق النتائج الطيبة نفسها بالنسبة للدواجن وأشجار الفاكهة والمحاصيل التى تتحقق بوجود الرب نفسه »، وبقول آخر فإن هذا الشخص البديل المتنكر فى ذلك الثوب الشجرى لم يكن يعتبر مجرد صورة أو خيال وإنما كان ينظر إليه على أنه يمثل فعلاً روح النبات والخضرة . ومن هنا كان دعاء الأشخاص المشتركين مع زهرة مايو أو مع شجرة مايو بحرمان الذين يبخلون عليهم بالهدايا من البيض ولحم الخنزير وما إليها بأن يحرموا هم أنفسهم من البركات التى تمنحها القوى الكامنة فى تلك الروح الأبدية . ويمكننا أن نستنتج من هذا كله أن هذه المواكب التى تنتقل من بيت لآخر والتى يطلب المشتركون فيها إلى الناس أن يمنحوهم الهدايا والهبات ويصطحبون فى تجوالهم أشجار مايو أو فروع مايو (لجلب مايو نفسه أو الصيف إليهم)

كأن لها فى كل مكان فى الأصل معنى خطير أو مقدس — إذا أمكن استخدام هذا التعبير — لأن الناس كانوا يعتقدون حقاً بأن إله النماء كان يوجد بالفعل فى الغصن وإن لم تره العيون ، وأنه عن طريق الموكب كان يزور البيوت كلها ويباركها . والمصطلحات ذاتها التى كانت تستخدم — مثل « مايو » أو « أبونا مايو » أو « سيدة مايو » أو « ملكة مايو » — والتى تشير إلى روح النبات أو الخضرة المتجسدة فى هيئة البشر ، تدل على أن فكرة روح الخضرة تمتزج تماماً بفكرة تجسيد ذلك الفصل من فصول السنة الذى تفصح فيه قوى الروح عن نفسها بأجلى صورها .

ولقد رأينا حتى الآن أن روح الشجرة ، أو روح النبات والخضرة على العموم ، تتمثل إما فى شكل نباتى فقط كشجرة أو غصن أو زهرة مثلا ، وإما فى صورة نباتية آدمية معاً كأن ترتبط هذه الشجرة أو الغصن أو الزهرة بدمية أو بإنسان حى . ولكن يبقى علينا أن نبين أن تمثيل هذه الروح بشجرة أو فرع أو زهرة كثيراً ما يُغفل تماماً بينما يظل تمثيلها بشخص حى قائماً . وفى هذه الحالة يعبر عن الخاصية التمثيلية للشخص عن طريق نقطتين تماماً بحلة من أوراق الشجر أو الزهور كما قد يستدل عليها أحياناً من الاسم الذى يحمله ذلك الشخص ، سواء أكان ذكراً أم أنثى .

وهكذا نجد أنه فى بعض أجزاء روسيا ، وفى يوم مولد القديس

جورج (اليوم الثالث والعشرون من ابريل) يلبس أحد الصبية كساء من أوراق الشجر والأزهار حتى ليكاد يكون صورة أخرى لما يعرف فى انجلترا باسم «جاك ذى الحلة الخضراء Jack-in-the-Green» ويطلق أهالى سلوفانيا اسم جورج الأخضر على هذا الصبي الذى يخرج إلى حقول القمح وقد حمل فى إحدى يديه شعلة متوهجة وفى الأخرى فطيرة بينما تتبعه الفتيات وهن يرددن بعض الأغانى المناسبة. وهناك توقد نار على شكل دائرة من الخشب المجفف وتوضع الفطيرة فى وسطها ثم يجلس كل الذين اشتركوا فى هذا الاحتفال حول النار ويقتسمون الفطيرة فيما بينهم. وواضح أن جورج الأخضر الذى يظهر فى هذه الطقوس مرتديا أوراق الشجر والأزهار ليس إلا صورة أخرى مماثلة لجورج الأخضر الذى يتزيى بهذه الطريقة ذاتها ويرتبط بالشجرة فى أذهان أهالى كارنثيا وسكان ترانسلفانيا ورومانيا الذين يزاولون هذه العادات نفسها فى ذلك اليوم. ولقد رأينا أن الناس فى روسيا يضعون على إحدى أشجار البتولا ملابس امرأة ثم يقيمونها فى الدار فى يوم أحد العنصرة؛ ومن الواضح أن هذا يماثل تماماً العادة التى يتمسك بها الفتيات الروسيات فى إقليم بنسك Pinsk فى يوم اثنين العنصرة حيث يقع اختيارهن على أجمل فتاة من بينهن فيحطنها بغلاف

من أوراق شجر البتولا والشربين ويحملنها للطواف بها فى أرجاء القرية .

وحين تبدأ الأشجار فى الاخضرار أثناء الربيع ، يتجمع الأطفال فى منطقة رولا Ruhla فى يوم من أيام الأحد ويخرجون إلى الغابة حيث يختارون أحدهم ليقوم بدور « رجل أوراق الشجر الصغير » . ثم ينترع الأطفال بعض الأغصان من الشجر ويعقصونها حول ذلك الرجل الصغير حيث لا يكاد يظهر من هذا الدرع الشجرى سوى حذائه ، كما أنهم يتركون فيه بعض فتحات صغيرة ليتمكن من الرؤية من خلالها . ويأخذ طفلان منهم بيده حتى لا يتعثر أو يقع على الأرض ويدور الجميع به على البيوت وهم ينشدون الأغانى ويرقصون ويطلبون أثناء ذلك من الناس بعض الهدايا والهبات من الطعام كالبيض والزبد واللحم والكعك . وفى النهاية يرشونه بالماء ويحتفلون بأكل ما جمعوه من طعام . وفى منطقة فركتال Fricktal بسويسرا يخرج الصبيان فى يوم أحد العنصرة أيضاً إلى الغابة فيغطون أحدهم بكساء من الأغصان المورقة ويطلقون عليه اسم « جلف أحد العنصرة » ثم يضعونه فوق صهوة جواد كما يضعون فى يده غصناً أخضر ويقودونه إلى القرية . وحين يصلون إلى بئر القرية يتوقف الركب ويحمل الصبية ذلك « الجلف » المغلف بأوراق الشجر من فوق جواده ويغطسونه فى الحوض . ويعطيه هذا العمل

الحق فى أن يرش أى شخص شاء بالماء ، والواقع أنه لا يتردد عن ممارسة ذلك الحق وبخاصة مع الفتيات ومع الأطفال الصغار الذين يصادفهم فى الشارع أو الذين يسيرون أمامه فى جماعات وهم يطلبون إليه أن يرشهم ببعض الماء كى تنالهم بركة ذلك اليوم.

وربما كان أفضل مثال فى انجلترا لهذا الصنف من الأشخاص الذين يتنكرون فى أزياء من ورق الشجر هو ما يعرف باسم جاك ذى الحلة الخضراء ، وهو يظهر فى هيئة عمال تنظيف المداخن ويسير فى الشوارع وقد احتواه إطار هرمى الشكل من فروع الصفصاف المجدولة التى تتدلى منها بعض فروع نبات العليق ، ويعلو ذلك كله تاج من الزهور والشرائط الملونة . وفى يوم أول مايو يأخذ جاك فى الرقص على رأس فرقة من عمال تنظيف المداخن الذين يقومون بجمع النقود من الناس . وفى فريكتال بسويسرا يصنع الناس رداء مماثلا من الخوص يطلقون عليه اسم « سلة أحد العنصرة » . وحين يبدأ موسم الإزهار يتجمع شباب القرية فى بقعة يختارونها بالغابة ويعكفون على صنع هذه السلة فى سرية تامة خشية أن يسبقهم غيرهم إلى ذلك . ويجدل الشبان فروع الشجر فى جديلتين ، توضع إحداهما على كتفى الشخص الذى سيتولى لبس ذلك الرداء أو الإطار الشجرى بينما تلف الأخرى حول وسطه ، وتترك بعض الفتحات للعينين والفم ثم يتوج ذلك كله بباقة كبيرة

من الورد . ويظهر الفتى فى القرية فجأة فى هذا الذى التنكرى وقت « طلوع النجمة »(1) وقد تقدمه ثلاثة من الصبية الذين ينفخون فى الأبواق المصنوعة من لحاء شجر الصفصاف . ويتركز كل هم الشبان فى وضع « سلة أحد العنصرة » فوق بئر القرية والابقاء عليها وعلى الفتى نفسه فى ذلك المكان أمام المحاولات والجهود الكثيرة التى يبذلها شباب القرى الأخرى المجاورة لنقلها إلى آبار قراهم .

وواضح من هذه المجموعة من الأمثلة — وهى مجرد عينة بسيطة لفئة متميزة من العادات التى تدور حول هذا الموضوع — ان ذلك الشخص الذى يرتدى زياً من اوراق الشجر والذى يطوف به الناس فى القرية هو مثال آخر من شجرة مايو أو غصن مايو او دمية مايو التى يحملها الأطفال من منزل لآخر سائلين السكان أن يهبوهم بعض الهدايا. إذ يمثل كل منهما روح الخير التى تكمن فى النبات والخضرة والتى يقابل الناس زيارتها لبيوتهم بتقديم الهبات من المال أو الطعام

وكثيراً ما يطلق على ذلك الشخص الذى يرتدى أوراق الشجر والذى يمثل روح النبات والخضرة لقب الملك أو الملكة ، بمعنى أن يسمى « ملك مايو » او « ملك احد العنصرة » أو « ملكة مايو » وهكذا. وقد لاحظ مانهارت أن هذه الألقاب تشير ضمنا إلى أن

(1) المقصود هنا ظهور اول نجمة بعد غروب الشمس ويفطر عليها الصائمون من المسيحيين فى ذلك اليوم ويسمى ذلك الصوم بصيام النجمة ..

الروح التى تحل فى الزرع هى بمثابة الحاكم الذى تمتد قواه وقدراته إلى آماد وآفاق بعيدة .

فى إحدى القرى القريبة من سالزويدل Salzwedel تقام شجرة مايو فى يوم أحد العنصرة ويتسابق الصبية إليها ، فمن وصلها أولاً كان هو الملك فتوضع أكاليل الزهور حول عنقه ويحمل هذا الملك فى يده إحدى شجيرات مايو كى يستعملها فى إزالة الندى أثناء سير الموكب . وحين يتوقف الموكب أمام أحد بيوت القرية ترتفع الأصوات بالغناء والتمنيات الطيبة للسكان ، وتشير تلك الأغانى إلى « البقرة السوداء فى حظيرتها تدر اللبن الأبيض ، والدجاجة السوداء فى عشها تضع البيض الأبيض » ثم يطلبون من سكان المنزل أن يمنحوهم شيئاً من البيض أو لحم الخنزير أو ما إلى ذلك . وفى قرية إلجوت Elgoth فى سيليزيا يقام احتفال كبير فى يوم أحد العنصرة يطلق عليه اسم « سباق الملك » وفيه تقام سارية وسط المرج وتعلق فيها قطعة من القماش ويعدو الشبان أمامها فوق ظهور الجياد وكل منهم يحاول أن ينتزع تلك القطعة من القماش أثناء عدوه . فمن ينجح منهم فى انتزاع القماش وغمسه فى ماء نهر الأودر القريب نادى به الناس ملكاً لذلك الحفل . وتعتبر السارية هنا بديلا لشجرة مايو . وفى بعض قرى برونزفيك يغطى الناس فى عيد العنصرة « ملك مايو » بنباتات مايو وشجيراته بحيث لايكاد يظهر منه شىء .

كذلك الحال فى بعض أجزاء ترنجين Thüringen حيث يتوج الناس ملكاً لمايو فى ذلك اليوم وإن كانوا يضعون عليه رداء مختلفاً بعض الشيء هو عبارة عن إطار من الخشب مصنوع بطريقة تسمح للرجل العادى بالوقوف فيه ، ويغطى الإطار تماماً بأغصان أشجار البتولا وينتهى فى أعلاه بتاج من البتولا والزهور ومثبت فيه جرس . ويوضع هذا الإطار الخشبي فى الغابة فيدخل فيه « ملك مايو » بينما تخرج بقية الجماعة للبحث عنه . وحين يعثرون عليه يحملونه إلى القرية ويمرون به على الحاكم والقسيس وغيرهما يسألونهم أن يخمنوا من هو الشخص الذى يختبيء داخل الإطار النباتى الأخضر ، فإذا أخطئوا فى التخمين هز « ملك مايو » رأسه عدة مرات . فيدق الجرس وحينئذ يتعين على الشخص الذى أخطأ فى الحدس والتخمين أن يدفع غرامة من الجعة أو أى شراب آخر . وفى ڤارشتت Wahrstedt يختار الصبية فى أسبوع العنصرة عن طريق القرعة ملكاً وكبيراً للمرافقين . ويغطى كبير المرافقين تحت الأعشاب وشجيرات مايو بحيث تختفى معالمه تماماً ثم يوضع فوق رأسه تاج خشبى مزين بالزهور ، كما يحمل فى يده سيفاً من الخشب . أما الملك ، فإن الشيء الوحيد الذى يميزه فهو باقة من الزهور تعلو قلنسوته ، كما أنه يحمل فى يده عوداً من الغاب يتدلى منه شريط أحمر . وينتقل الجمع من بيت لآخر . ويسأل الملك وكبير المرافقين الناس أن يمنحوهما

بعض البيض ويهددانهم بأن الدجاج لن يضع أى بيض طيلة العام إن لم يجيبوهما إلى ما يطلبان . ويبدو فى هذه الاحتفالات أن كبير المرافقين قد اغتصب بشكل أو بآخر شعار الملك لنفسه : وفى هيلدشايم Hildesheim . يخرج خمسة أو ستة من الشباب بعد ظهر يوم اثنين العنصرة وهم يضربون الجواء بالسياط الطويلة على فترات معينة ويقومون بجمع البيض من الأهالى . والشخص الرئيسى فى هذه الجماعة هو« ملك أوراق الشجر Leaf-King » ، وهو فتى يلف نفسه تماماً فى أغصان شجيرة التامول بحيث لا يظهر منه سوى القدمين ، ويوضع على رأسه غطاء ضخم من فروع التامول إمعاناً فى إعطائه الصورة النباتية . ويحمل هذا الفتى فى يده كلابا طويلا يحاول أن يمسك به الكلاب الضالة والأطفال. وفى بعض أجزاء بوهيميا يتنكر الشبان فى عيد العنصرة فى قلانس طويلة من اغصان البتولا المزينة بالزهور ، ويلبس أحدهم ، كما لو كان ملكاً ثم يجلس على زحافة يجرها الآخرون إلى حقول القرية الخضراء. فإذا مروا فى طريقهم ببركة ماء أو مستنقع قلبوا الزحافة فيها . وحين يصلون إلى الأرض المزروعة فإنهم يلتفون بالملك ، ويتسلق أحدهم صخرة أو شجرة عالية ، وهو يردد بعض عبارات الهجاء التى يوجهها إلى كل بيت فى القرية وساكنيه . ثم تنزع تلك الملابس التنكرية ويطوف الشبان بديار القرية وهم فى الملابس التى يرتدونها فى العادة فى أيام العطلات والراحة ويحملون معهم

شجرة مايو ويسألون الناس العطاء . وقد يحصلون أحياناً على مقادير من البيض والكعك والقمح بهذه الطريقة . ولقد كان المتبع فى جروس فارجولا Grossvargula قرب لنجنسالز Lengensalzal فى القرن الثامن عشر أن يخرج الناس فى موكب الاحتفال بأسبوع العنصرة فيسيرون فى شوارع المدينة وقد تقدمهم « ملك العشب »، وهو شخص يبدو مغطى تماماً بغطاء هرمى الشكل يصنع من فروع شجر الحور ويعلوه تاج ملكى من الأغصان والزهور . وكان الملك يركب جواداً أثناء الموكب وقد تغطى بذلك الهرم النباتى الذى كان يصل إلى الأرض ولم تكن تترك فيه سوى فتحة واحدة للوجه . وكانت تحف بالموكب أثناء سيره ثلة من الشباب ، ويمر الموكب بقاعة الاحتفالات بالمدينة وبدار ساعى الكنيسة وما إلى ذلك فتقدم لهم الجعة . وفى آخر الأمر كان ملك العشب يخلع ذلك القفص الأخضر تحت أشجار الزيزفون السبعة التى كانت توجد حينذاك فى منطقة سومربرج Sommerberg المجاورة ويسلم التاج لعمدة البلدة ، بينما تغرس فروع الشجر فى حقول الكتان على أمل أن يساعد ذلك على سرعة نمو النبات . وهذه السمة الأخيرة تكشف لنا بوضوح عن اعتقاد الناس فى تمتع الشخص الذى يمثل روح الشجرة ببعض القدرات الإخصابية وفى المناطق القريبة من بيلزن Pilsen (بوهيميا) يقام وسط القرية كوخ صغير مخروطى الشكل خال من الأبواب ، ويتجه إليه فى يوم عيد العنصرة فريق من شباب القرية على صهوات جيادهم وقد تقدمهم

« الملك » وهو يتقلد سيفاً يتدلى بجانبه ويضع على رأسه تاجاً من الحلفاء على شكل قمع السكر ويسير فى ركابه « قاض » و « حاجب » و « سيّاف » كانوا يطلقون عليه لقب « شانق الضفادع » بينما هو فى الحقيقة مجرد بهلوان أو مهرج يظهر فى ملابس ممزقة ويتقلد سيفا علاه الصدأ ويتظاهر بأنه يدافع به عن « الملك » . وحين يصل الركب إلى الكوخ يترجل الحاجب ويدور حول الكوخ بحثاً عن الباب ، وحين يخفق فى العثور عليه يقول : « آه ! ربما كان هذا حصاناً مسحوراً تزحف إليه الساحرات من خلال أوراق الأشجار دون أن تكون بهن حاجة إلى الباب » . ثم يستل سيفه ويشق طريقه به إلى الكوخ حيث يجد بداخله مقعداً فيجلس عليه ويبدأ فى إنشاد بعض القصائد والأشعار التى يعرض فيها بالنقد اللاذع للفتيات والفلاحين وعمال المزارع فى المناطق المجاورة . وحين ينتهى من ذلك يتقدم « شانق الضفادع » فيعرض على الناس قفصاً مملوءاً بالضفادع ثم ينصب مشنقة ويعلق فيها الضفادع فى صف واحد . وتختلف هذه الاحتفالات فى بعض التفاصيل فى المناطق القريبة من بلاس Plas ، إذ يظهر الملك وجنوده فى أردية من قلف الشجر تزينها الزهور والشرائط وهم يحملون السيوف ويمتطون صهوات الجياد المزينة بفروع الشجر والزهور . وبينما ينهال السيّاف أو الجلاد بالنقد على سيدات القرية وفتياتها فى الخميلة التى يجلس فيها الملك يكون الحاجب مشغولا بالضغط

بيديه سراً على إحدى الضفادع ووخزها بقسوة حتى تصرخ فيصدر الملك حكمه بالاعدام عليها ويقوم الجلاد بقطع رأسها بالسيف ثم يلقي بجسدها الدامى بين المتفرجين . ويغادر الملك الكوخ ومن ورائه جنوده . وليس من شك فى أن وخز الضفدعة وقطع رأسها ليسا سوى نوع من التعاويذ الخاصة بالمطر على ما يقول مانهارت . ولقد رأينا أن هنود أورينوكو ينهالون بالضرب على الضفادع بقصد الحصول على المطر ، كما أن قتل الضفدعة هو أيضاً نوع من التعاويذ الأوربية التى تهدف إلى هذه الغاية ذاتها .

وفى كثير من الأحيان يقوم بتمثيل روح النبات والخضرة فى الربيع « ملكة » أنثى بدلا من « ملك » ذكر. فى المناطق المتاخمة لإقليم ليشوفيك Libchowic بوهيميا تلبس الفتيات فى يوم الأحد الرابع من الصوم الكبير عند المسيحيين الملابس البيضاء ويتحلين ببواكير أزاهير الربيع مثل البنفسج و الأقحوان التى يضعنها فى شعرهن ثم يتوجهن إلى القرية ومعهن فتاة صغيرة متوجة بالزهور ويطلقن عليها اسم « الملكة » : وأثناء سير الموكب الذى يتقدم فى كثير من الأبهة والروعة لا يسمح للفتيات بالوقوف ساكنات ، بل ينبغى عليهن أن يدرن حول أنفسهن طول الوقت ويرقصن بغير توقف وهن ترددن الأغانى . وتعلن الملكة فى كل بيت تزوره عن مقدم فصل الربيع ثم تتمنى لساكنيه حسن الطالع وأطيب التمنيات والبركات وتأخذ فى مقابل ذلك بعض الهدايا . وفى المنطقة الألمانية

من هنغاريا تختار الفتيات أكثرهن حسنا وبهاء لتقوم بدور الملكة فى عيد العنصرة فيثبتن على جبينها تاجاً عالياً من الزهور ثم يحملنها ويسرن بها خلال شوارع القرية وهن يرددن الأغانى . ويتوقف الموكب أمام كل منزل فتنشد الفتيات بعض القصائد الشعبية الغنائية القديمة ويتقبان الهدايا من أهل المنزل وسكانه . ولقد كان المتبع فى جنوب شرق ايرلنده أن تختار الفتيات من أول مايو أشدهن جمالا وأكثرهن حسناً لتكون ملكة على الإقليم كله لمدة سنة وكان يوضع على رأس هذه الملكة تاج من الزهور البرية ويقام بعد تتويجها كثير من الحفلات والولائم وحلقات الرقص والألعاب الريفية والحلوية ، ويختتم هذا المهرجان بموكب رائع فى المساء . وخلال تلك السنة كانت الملكة ترأس كل حفلات الرقص والمهرجانات الريفية التى يقيمها الشبان ، ولكنها كانت تفقد هذه المنزلة إذا تزوجت قبل أن يحل عيد مايو من السنة التالية ، ويظل منصبها شاغراً مع ذلك إلى أن يتم اختيار ملكة جديدة فى عيد أول مايو التالى . وتعتبر « ملكة مايو » من الظواهر الشائعة فى فرنسا ، كما أنها تعتبر ظاهرة مألوفة فى انجلترا .

وقد تتمثل روح الخضرة فى بعض الأحيان فى هيئة ملك وملكة معاً أو سيد وسيدة أو فى صورة عريس وعروس وهنا أيضاً نجد ذلك التوازى القائم بين التشبيه البشرى والنباتى لروح الشجرة وهو التوازى الذى سبقت الإشارة إليه حين تكلمنا عن زواج الأشجار

بعضها ببعض : فى هالفورد Halford بجنوب واردبكشير مثلا يخرج الأطفال فى عيد أول مايو فيسيرون أزواجاً أزواجاً فى موكب يرأسه ملك وملكة « ويتنقل بين البيوت وقد حمل اثنان من المشتركين فى الموكب سارية مايو طويلة ، يبلغ طولها حوالى ستة أقدام أو سبعة، وقد غطتها الزهور والخضرة وثبت فى أعلاها قضيبان متعامدان فى شكل صليب وقد علقت إليهما أيضاً الزهور كما تدلت من أطرافهما الباقات والأكاليل المزخرفة بالطريقة ذاتها ، ويردد الأطفال فى المنازل أهازيج مايو ويأخذون نظير ذلك بعض النقود التى ينفقونها فى شراء الشاى لكى يتناولوه فى نادى المدرسة عصر ذلك اليوم نفسه . وفى إحدى قرى بوهيميا بالقرب من كونيجراتز Königrätz يلعب الأطفال فى عيد العنصرة لعبة «الملك» وفيها يسير الملك والملكة تحت مظلة كبيرة وقد تحلت الملكة بأكاليل من الزهور ، كما تسير خلفهما أصغر الفتيات سناً وهى تحمل صفحة عليها باقتان من الزهر ، ويقف على خدمتهما عدد من الصبية والفتيات الذين يقومون بدور الحاشية والوصيفات للعروسين ، ويسير الجميع على هذه الصورة فينتقلون من بيت لآخر لجمع الهدايا والهبات . ومن المظاهر التى كانت تشيع فى الماضى، بل ولا تزال تمارس بطريقة منتظمة فى الاحتفالات الشعبية الخاصة بعيد العنصرة فى سيليزيا تنافس الشباب على منصب الملكية . وكان هذا التنافس يأخذ صوراً وأشكالا عديدة ، ولكن الهدف النهائى كان على العموم

هو شجرة مايو أو سارية مايو . فى بعض الحالات كان يتعين على المتنافسين أن يتسلقوا السارية الملساء ويحضروا الجائزة الموضوعة فى أعلاها فمن ينجح فى ذلك نودى به ملكاً لعيد العنصرة كما أطلق لقب « عروس عيد العنصرة » على صديقته . ويتوجه الملك ومعه بقية الجماعة إلى حانة القرية وهو يحمل شجيرة مايو ، وهناك تقام حفلات الرقص والولائم التى يغلب عليها روح المرح والبهجة .

وفى أحيان أخرى كثيرة كان الشباب من المزارعين والفلاحين يتسابقون على ظهور الجياد للوصول إلى سارية مايو المزينة بالزهور والشرائط والتى يوضع فى قمتها تاج من الزهور أيضاً ، وكان ينادى بمن يصل إلى السارية أولاً ملكاً لعيد العنصرة ، وحينئذ كان يتعين على الآخرين أن يطيعوا أوامره طيلة ذلك اليوم ، بينما يقوم آخر من يصل من المتسابقين بدور مهرج الملك . وعند شجرة مايو كان الجميع يترجلون ثم يحملون الملك على أكتافهم فيتسلق السارية بشيء غير قليل من الوقار والرشاقة لكى يأتى بشجيرة مايو والتاج من أعلى السارية . وفى هذه الأثناء يكون المهرج قد هرع إلى حانة القرية حيث يلتهم ثلاثين شطيرة من الخبز ويزدرد زجاجة كاملة من البراندى بأسرع ما يستطيع . ويصل الملك ورفاقه إلى الحانة وهو يحمل الشجيرة والتاج اللذين أنزلهما من فوق السارية ، فإذا وجد أن المهرج قد أتى بالفعل على كل تلك المقادير من الخبز والخمر قبل وصولهم ثم استقبل الملك بخطبة رائعة بليغة وقدم له كوباً

من الجعة قام الملك عنه بدفع ثمن ما أكل وما شرب وإلا كان عليه هو أن يسدد دينه بنفسه ٥ وبعد انتهاء الصلاة فى الكنيسة فى ذلك اليوم يبدأ ذلك الموكب الفخم المهيب فى السير فى شوارع القرية وعلى رأسه الملك نفسه فوق صهوة جواد مزين بالزهور : ويحمل الملك أثناء الطواف شجيرة مايو، ويسير من خلفه المهرج وقد ارتدى ملابسه مقلوبة وتدلت من ذقنه لحية طويلة مستعارة ووضع على رأسه تاج عيد العنصرة : ثم يأتى من بعدهما إثنان من الركبان المتنكرين فى زى الحراس : وكان الموكب يتوقف أمام أبواب المزارع فيترجل الحارسان ويحبسان المهرج داخل البيت فى المزرعة ثم يطالبان ربة البيت بشىء من النقود إسهاماً منها فى شراء الصابون اللازم لغسل لحية المهرج وتنظيفها . وكانت التقاليد تبيح لهما أن يحملا معهما كل ما تصل إليه أيديهما من مأكولات. وأخيراً يصل الموكب إلى البيت الذى تقيم فيه صديقة الملك فيحيونها باعتبارها « ملكة عيد العنصرة » وتنفحهم هى ببعض الهدايا المناسبة كالأحزمة المتعددة الألوان والأقمشة والمرايل الملونة . أما الملك نفسه فكان يأخذ صديرية ومنديلا للعنق ، كما كان من حقه أن يغرس شجيرة عيد العنصرة أمام المزرعة التى يعمل فيها بحيث تظل قائمة كرمز الشرف حتى يوم أحد العنصرة من العام التالى . وفى نهاية المطاف كان الموكب يأخذ طريقه إلى الحانة حيث يفتتح « الملك والملكة » الرقص . إلا أن هناك حالات أخرى كان الملك والملكة يصلان فيها إلى ذلك المنصب بطريقة

مختلفة ، وفى هذه الحالات كان أهل القرية يصنعون دمية من القش فى حجم الرجل ويضعون على رأسها قلنسوة حمراء ثم ينقلونها على عربة تسير بين رجلين مسلحين يلبسان ملابس الحرس ، ويسير وراء العربة جمع غفير من الناس إلى أن تصل إلى ساحة واسعة تعقد فيها محكمة هزلية تتولى محاكمة « الرجل القش » . وبعد انتهاء هذه المحاكمة الصورية يصدر الحكم بالاعدام عليه ، فيقيد إلى عمود مثبت وسط الساحة تمهيداً لتنفيذ حكم الإعدام فيه ؛ ويحاول الشبان أن يطعنوه بالحراب وهم معصوبو العينين ، فمن ينجح فى ذلك أصبح هو الملك كما تصبح صديقته ملكة . أما الرجل القش فكان يعرف بينهم باسم جالوت (١) .

وكانت العادة فى إحدى الإبراشيات فى الدينمارك تقضى بأن يختار الناس فتاة صغيرة فترتدى ملابس « عروس العصرة » كما يلبس أحد الصبية الصغار ملابس العريس . وكانت الفتاة الصغيرة تتزين كما لو كانت عروساً حقيقية كما كانت تضع على رأسها تاجاً من أزهار الربيع النضرة . أما عريسها فكان يبدو سعيداً فرحاً

(١) ورد ذكر جالوت Goliath فى سفر صموئيل الاول على انه « رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه جليات من جت ، طوله ستة اذرع وشبر وعلى رأسه خوذة من نحاس وكان لابسا درعا حرشفيا ووزن الدرع خمسة آلاف شاقل نحاس ، وجرموقا نحاسيا على رجليه ، ومزراقا نحاسيا بين كتفيه ، وقناة رمحه كنول النساجين ، وسنان رمحه ستمائة شاقل حديد » (صموئيل الاول : اصحاح ١٧) — (المراجع) .

بالأزهار والشرائط و « الفيونكات » التي كان يزين بها فتخلع عليه كثيراً من البهاء . كذلك كان الأطفال يتزينون ببعض الزهور الصفراء الجميلة (1) . ويسير الجميع في موكب فخم رائع خلال القرية فيمرون بالبيوت والمزارع ويتقدم الموكب فتاتان صغيرتان تقرمان بدور وصيفات الشرف للعروس ، بينما يسبق الموكب ستة أو ثمانية من الركبان يركضون على ظهور الخيول الخشبية كي يعلنوا عن قدوم الموكب وكان سكان البيوت الريفية يقدمون لهم الهدايا من البيض والزبد والخبز والقشدة والبن والسكر والشموع التي كانت توضع في سلال كبيرة الحجم . وحين ينتهي الموكب من جولته تتولى زوجات المزارعين إعداد وليمة الزفاف ، ويرقص الأطفال في حبور ومرح وهم يلبسون أنواعاً معينة من « القباقيب » يرقصون بها ويدقون على الأرض التي غطيت بالطين والقش المكبوس . ويستمر الجميع في هذا المرح حتى تشرق الشمس وتبدأ طيور الصباح في التغريد . ولكن هذا كله أصبح الآن من ذكريات الماضي وأحداثه . فلم يعد يذكر عروس عيد العنصرة الصغيرة وموكبها الرمزي إلا العجائز والشيوخ .

ولقد رأينا كيف أن الحفلات التي تقترن في كثير من المناطق بيوم أول مايو أو يوم أحد العنصرة إنما تقام في السويد في العادة

---

(1) في الاصل ازهار trollius و Caltha, « المراجع »

فى منتصف الصيف . وعلى ذلك فلا زلنا نجد الناس فى بعض أجزاء إقليم بليكنجه Blekinge يختارون عروساً لمنتصف الصيف وأن الكنيسة تعيرها تاجا فى بعض الأحيان. وتقوم الفتاة نفسها باختيار « عريس » لها كما يقوم الناس بجمع الهدايا لهما على اعتبار أنهما زوج وزوجته خلال تلك الفترة . كذلك يقوم بقيـــة الشبان باختيار « عرائسهم » . ويبدو أن ثمة حفلات مماثلة لهذه تقام فى النرويج حتى الآن .

وفى المناطق القريبة من بريانسون Briançon فى دوفينى Dauphiné يلف الشبان فى أوراق الشجر الخضراء واحداً منهم تكون صديقته قد هجرته أو تزوجت من شخص آخر غيره . ويرقد الشاب على الأرض متظاهراً بالنوم . فتأتى إليه فتاة من المعجبات به بحيث لا تجد ثمة ما يمنعها من أن تتزوج منه فتوقظه من نومه ثم تأخذ بيده حتى ينهض على قدميه فتقدم له ذراعها كما تعطيه علماً صغيراً وتتوجه معه إلى الحانة حيث يفتتحان الرقص . ويتحتم على الشاب والفتاة أن يتزوجا فى غضون السنة وإلا عومل الشاب على أنه أعزب قديم العزوبية كما تعتبر الفتاة عانساً وبذلك يحال بينهما وبين صحبة الشبّاب . ويعرف الشاب باسم « عريس شهر مايو » . وفى الحانة يخلع الشاب عن نفسه الرداء المصنوع من أوراق الشجر فتأخذه رفيقته فى الرقص وتصنع منه ومن بعض الزهور باقة تحلى بها

صدرها في اليوم التالي عندما يصحبها مرة أخرى إلى الحانة . وثمة بعض العادات الروسية المماثلة التي لا تزال تراعى للآن في إقليم نيرشتا Nerechte في يوم الخميس الذى يسبق أحد العنصرة (خميس العهد) . فى ذلك اليوم تخرج الفتيات إلى إحدى أجمات التامول حيث يلففن حول إحدى الأشجار الضخمة نطاقاً أو شريطاً ويقمن بتضفير الفروع السفلى لتلك الشجرة على هيئة جديلة مستديرة ، ثم تأخذ كل اثنتين منهما فى تبادل القبلات من خلال الجديلة ، وبذلك تصبح كل منهن خدناً للفتاة التي تبادلت معها القبلات. وتخطو إحدى الفتيات بعد ذلك إلى الأمام وتسير مثلما يسير السكران بحيث تقلد حركاته تماماً ثم تلقى بنفسها على الأرض وتتمرغ على العشب بعض الوقت ثم تتظاهر بأنها راحت فى سبات عميق . وتتقدم نحوها فتاة أخرى لكى توقظ « الرجل » النائم ثم تقبله . ويتجول الجميع فى الغابة وهن يرددن الأغاني العذبة ويقمن بجدل الأكاليل ثم إلقائها فى غدران الماء . تراقب كل فتاة ما يحدث للإكليل الذى صنعته وتتعرف بذلك على مصيرها هى ومستقبلها . وفى بعض الأحيان كان يقوم بدور الشخص النائم أحد الفتيان لا إحدى الفتيات . وفى كل هذه العادات الفرنسية والروسية كان يقوم بدور العريس شخص مهجور أو منبوذ من النساء ، ولكن هناك أمثلة أخرى تخضع فيها العروس إلى هذه العملية ذاتها من النبذ والإهمال .

فى يوم ثلاثاء الاعتراف يقوم السلوفيون فى أوبركرين Oberkrain بسحب دمية من القش وجرها على الأرض خلال شوارع القرية وهم فى سرور وابتهاج ثم يلقون بها فى الماء أو يحرقونها ، ويتنبئون من ارتفاع اللهب المتصاعد بما سيكون عليه المحصول التالى من وفرة وكثرة . وتسير وراء هذه الجماعة الصاخبة فتاة وضعت على وجهها قناعاً وهى تجر وراءها لوحاً كبيراً مربوطاً بخيط وهى تصرخ وتصيح معلنة على الملأ بأنها عروس مهجورة من الرجال .

وفى ضوء هذه الأمثلة يمكن القول إن إيقاظ النائم المنبوذ فى هذه الاحتفالات قد يكون نوعاً من الطقوس التى ترمز إلى إعادة الحياة إلى الخضرة والنماء والربيع وإن كان من الصعب مع ذلك تحديد العلاقة بين كل جزء من هذه الطقوس على حدة والدور الذى يقوم به العريس المنبوذ أو الفتاة التى توقظه من نومه . فهل يرمز الفتى النائم إلى الغابة العارية أو إلى الأرض الجرداء أيام الشتاء؟ وهل ترمز الفتاة التى توقظه من نومه إلى الخضرة النضرة أو إلى شمس الربيع المشرقة البهيجة ؟ من الصعب أن نجتب إجابة شافية على هذه الأسئلة فى حدود المعلومات والشواهد التى بأيدينا .

ولقد كانت العادة فى مرتفعات سكتلندة تمثيل إعادة الحياة إلى النباتات فى الربيع بطريقة مثيرة فى يوم مولد القديسة برايد

Bride's Day (١) الذى يوافق اليوم الأول من فبراير .
فى هذا اليوم تقوم ربات البيوت فى الهبريدز مثلا ومعهن خادماتهن بصنع دمى من نبات الشوفان ووضع الملابس عليها بحيث تبدو فى صورة امرأة ثم توضع الدمية فى سلة كبيرة وإلى جانبها هراوة خشبية يطلق عليها اسم « سرير برايد » ، ثم تصيح السيدة وخدمها ثلاث مرات : « لقد جاءت برايد ، مرحباً ببرايد » . ويتم هذا كله قبيل أن يأوى أفراد العائلة إلى فراشهم . وحين يستيقظون فى الصباح ينقبون فى رماد المدفئة عسى أن يجدوا فيه أى أثر أو علامة تكون هراوة برايد قد تركته فى الرماد ، فإذا وجدوا مثل هذا الأثر كان ذلك بشيراً بجودة المحصول وبالرخاء فى العام الجديد ، بينما يعتبر العكس فألا سيئاً ودليل شؤم ونحس . ويصف شاهد عيان هذه العادات والطقوس على النحو التالى . « تقضى العادة بأن يهيىء الناس فى الليلة السابقة لعيد الشمع فراشاً من أعواد الحنطة والقش ثم تغرس فوقه بعض البطاطين فى مكان من الدار بالقرب من الباب . وحين ينتهون من ذلك يخرج أحد أفراد العائلة من البيت وينادى ثلاث مرات : « بريدچت ، بريدچت ، ادخلى . لقد تم إعداد فراشك » . ويترك بجوار الفراش شمعة أو أكثر تظل مضاءة طول الليل » .
وبالمثل كانت العادة فى جزيرة مان تقضى على الناس بأن يقيموا

(١) يلاحظ أن برايد Bride هنا تعنى فى الوقت ذاته «عروس» .

فى مساء اليوم الأول من فبراير حفلاً كان يطلق عليه فى الماضى اسم Loa'l Breeshy باللهجة الدارجة المستعملة هناك ، وذلك تكريماً للسيدة الإيرلندية التى ذهبت إلى الجزيرة لتتسلم القناع من سانت موغولد Saint Maughold . وكانت العادة أن يجمع الناس حزمة من الحلفاء الخضراء ويقف أحد أفراد الأسرة على عتبة الدار وهو يلوح بها ويدعو القديسة بريدجت للدخول والإقامة معهم تلك الليلة قائلين (١) « بريدچت ، بريدچت ، تعالى إلى بيتى . إلى بيتى هذه الليلة .. افتحوا الأبواب لبريدچت ردعوها تدخل » . وبعد أن يكرر هذه العبارة كان ينثر الحلفاء على الأرض لتكون بساطاً أو كراشاً تستخدمه القديسة . وثمة عادات مماثلة كانت تشيع فى جزر آوت فى مملكة مان القديمة » . وواضح ان القديسة برايد أو بريدچت التى تظهر فى هذه الطقوس والشعائر التى كانت تمارس فى جريرة مان وفى منطقة المرتفعات باسكتلندة لم تكن إلا إحدى ربات الخصوبة فى العهود الوثنية القديمة ، تظهر متخفية أو متنكرة فى صورة مسيحية باهتة . ومن المحتمل أنها هى الربة بريجيت Brigit إلهة النار ، وربما أيضاً إلهة الحصاد ، عند الكليتين ،

إلا أن تمثيل زواج البنات والخضرة لم يكن يتم فى أغلب الأحيان بشكل مباشر صريح وإنما كان هذا التمثيل يتم بطريقة رمزية أو ضمنية

(١) ترجمت بشىء من التصرف ـ المراجع .

عن طريق إطلاق كلمة « عروس » على ذلك البديل البشرى الذى يمثل الروح وظهوره أيضاً فى ملابس الزفاف . مثال ذلك ما نجده فى بعض قرى ألتمارك Altmark من خروج الأولاد فى عيد العنصرة وهم يحملون شجرة مايو ويدفعون أمامهم غلاماً مغطى تماماً بأوراق الشجر والزهور ، بينما تدفع الفتيات أمامهن أيضاً « عروس مايو » وهى فتاة تلبس ملابس الزفاف وتضع فى شعرها باقة كبيرة من الزهر ، ويطوف الجميع ببيوت القرية مرددين الأغانى التى تطالب العروس فيها بالهدايا وتخبر فيها سكان البيت بأنهم سوف ينالون الكثير من الخيرات طول السنة إن هم قدموا إليها بعض الهبات والهدايا ؛ وتهددهم بأن منع الخير عنها سوف يمنع عنهم الخير بالمثل . وأخيراً فإن فى بعض أنحاء وستفاليا تقوم اثنتان من الفتيات باصطحاب فتاة ثالثة تلبس تاجاً من الزهور ويطلق عليها اسم « عروس العنصرة » فتطوفان معها بكل البيوت وهما ترددان أغنية معينة تطلبان فيها منحهما هدية من البيض .

الفصل الحادى عشـــر



تأثير الجنسين على الزرع

من الدراسة السابقة لأعياد الربيع والصيف فى أوربا يمكن أن نستنتج أن أسلافنا غير المتحضرين كانوا يجسدون قوى الزرع والخضرة فى شكل ذكور وإناث ، كما كانوا يعملون — تبعاً لمبدأ السحر التشاكلي أو سحر المحاكاة — على نمو الشجر والنباتات بسرعة ، وذلك عن طريق تمثيل زواج آلهة الغابات فى شخص ملك أول مايو وملكته ، أو عريس أحد العنصرة وعروسه ، أو ما إلى ذلك . وعلى هذا الأساس فإن هذه الأشكال من التمثيل لم تكن مجرد تمثيليات رمزية أو تشبيهات مجازية أو مسرحيات ساذجة تهدف إلى تسلية النظارة الريفيين أو تثقيفهم وإنما كانت تعاويذ تساعد على نمو الغابات واخضرارها ، وعلى تكاثر العشب الأخضر ونمو الحنطة ونضجها وتفتح الزهور . وكان من الطبيعى أن يفترض أنه كلما كان هذا الزواج الوهمى الذى يتم بين الشباب الذين تغطيهم أوراق الشجر أو الذين يتزينون بالزهور محاكياً للزواج الذى يتم بين أرواح الغابة ، كلما زاد تأثير تلك التعاويذ وفاعليتها . وعلى ذلك فإنه يمكن الزعم بأن ثمة احتمالا كبيراً بأن الإسراف والمجون اللذين كانا يصاحبان هذه الاحتفالات لم يكونا مجرد مبالغات عابرة ،

* تأثير الجنسين على الزراعة : ترجمة د. محمد احمد غالى .

وإنما كانا جزءاً جوهرياً من تلك الشعائر ، على اعتبار أن الناس الذين كانوا يمارسون هذه الطقوس كانوا يعتقدون أن زواج الأشجار والنباتات لن يكون زواجاً مثمراً إن لم يكن هناك اتحاد حقيقى بين الجنسين . وربما يكون من العبث فى الوقت الحاضر أن نبحث فى أوربا المتحضرة عن عادات من هذا القبيل يزاولها الناس بقصد زيادة نمو الزرع . ولكن الشعوب الهمجية فى نواح أخرى من العالم يلجأون عمداً إلى الاتصال الجنسى كوسيلة لضمان خصوبة الأرض وقدرتها على الإثمار ، كما أن بعض الشعائر التى لا تزال موجودة — أو التى كانت موجودة إلى عهد قريب — فى أوربا يمكن تفسيرها بشكل مقبول على أنها مجرد رواسب وبقايا ومخلفات شعائر قديمة مماثلة . وسوف توضح الحقائق التالية ما نذهب إليه هنا .

كان هنود البيبليز Piples فى أمريكا الوسطى يعتزلون زوجاتهم طوال أربعة أيام قبل أن يودعوا البذور فى التربة « وذلك حتى يستطيعوا أن ينغمسوا إلى أبعد حد ممكن فى نشوة الجماع معهن فى الليلة السابقة لبذر البذور . بل إنه يقال إن الاتصال الجنسى بالزوجات كان يقوم به أناس معينون فى اللحظة ذاتها التى يقوم فيها الأزواج بوضع البذور الأولى فى الأرض . » والواقع أن اتصال الرجال بزوجاتهم ، كان من الواجبات الدينية التى يوصى رجال الدين بأدائها فى ذلك الوقت بالذات ، وأن التراخى فى أداء هذا

الواجب كان يجعل بذر البذور عملاً غير مشروع . ويبدو أن التفسير المقبول الوحيد لهذه العادة هو أن هؤلاء الهنود خلطوا بين العملية التى يتم بها تكاثر الكائنات البشرية و"عملية التى تؤدى بها النباتات هذه المهمة ذاتها ، وأنهم يتصورون أن قيامهم بالعملية الأولى يساعد على تحقيق العملية الثانية . وفى بعض أجزاء جاوة يذهب الفلاح وزوجته إلى الحقل أثناء الليل ويمارسان العملية الجنسية فى الفترة التى تكسو النوّرة فيها حقول الأرز ، على أمل أن يساعد ذلك على زيادة نمو المحصول . وفى جزر ليتى **Leti** وسارماتا **Sarmata** وبعض المجموعات الأخرى من الجزر الواقعة بين الطرف الغربى لغينيا الجديدة والجزء الشمالى من استراليا تعتبر الشعوب الوثنية التى تعيش هناك الشمس هى مبدأ الذكورة الذى يتم عن طريقه إخصاب الأرض التى تعتبر عندهم من مبدأ الأنوثة ، ومن هنا فإنهم يطلقون على الشمس اسم « أوپوليرا **Upu-Lera** » أو « السيد الشمس » ويمثلونها فى صورة المصباح المصنوع من أوراق جوز الهند والذى يعلقونه فى منازلهم وفى شجرة التين المقدسة . وتوجد تحت تلك الشجرة صخرة كبيرة مسطحة ومستوية تعتبر بمثابة المذبح الذى تقدم عليه القرابين . ولا يزال الناس فى بعض هذه الجزر يضعون على ذلك المذبح رءوس الأعداء الذين يقتلونهم . وفى فصل الأمطار من كل عام ينزل «السيد الشمس» ليحل فى شجرة

التين المقدسة لكي يخصب الأرض . ولكي تتم هذه العملية بسهولة يصنع الأهالى سلماً من سبع درجات ليكون رهن إشارته ويضعونه أسفل تلك الشجرة بعد تزيينه برسوم محفورة تمثل مختلف أنواع الطيور التى ترتفع أصواتها الحادة معلنة عن قرب ظهور الشمس فى الشرق . وتقدم فى هذه المناسبة القرابين من الخنازير والكلاب فى شىء من الإسراف ، كما ينغمس الرجال والنساء فى إشباع ملذاتهم ، ويقوم الناس بتمثيل ذلك الاتحاد الغامض بين الشمس والأرض علانية بممارسة الاتصال الواقعى بين الجنسين تحت تلك الشجرة فى جو يسوده الغناء والرقص : ويقال إن الهدف من هذا الاحتفال هو الحصول من « جدنا الشمس Grandfather Sun على المطر الكثير والطعام الوفير مع ضمان الزيادة فى الماشية والأطفال والثروة . ولذا يبتهل الناس بالدعاء له كى تلد كل عنزة مولودين أو ثلاثة ، وكى يتناسل الناس ويتكاثروا وأن يعوضهم عن الخنازير التى نفقت بخنازير اخرى حية ، وأن يملأ سلال الأرز الفارغة وما إلى ذلك من أنواع الدعاء . بل إنهم يقدمون له القرابين من لحم الخنزير والأرز والنحم ويدعونه لكى يتناول شيئاً منها حتى يضمنوا أنه سوف يجيبهم إلى ما يطلبون . وفى جزر بابار Babar يرفع الناس أثناء هذا الحفل علماً خاصاً من القطن الأبيض ليكون رمزاً لطاقة الشمس الخالقة . ويبلغ ارتفاع هذا العلم حوالى تسعة أقدام ،

ويصنع على هيئة رجل فى وضع ملائم لهذه المناسبة . وليس من الإنصاف أن نعتبر هذه التصرفات الخليعة مجرد انطلاقات للنوازع الجنسية الهوجاء ، فهى بغير شك تصرفات تخضع لكثير من التنظيم الدقيق الهادف ، كما أنها إجراءات أساسية لضمان خصوبة الأرض وتحقيق الخير والرفاهية للإنسان .

ومن الطبيعى أن الأساليب التى يتبعها الناس بهذه الطريقة للتأثير فى نمو المحاصيل تستعمل هى ذاتها لتأمين إثمار الشجر . ففى بعض أجزاء أمبونيا Amboyna عندما يظهر من حالة الزرع أن محصول القرنفل لا يبشر بخير يذهب الرجال عراة إلى المزارع ليلا ويحاولون أن يخصبوا الأشجار بالطريقة التى يتبعونها تقريباً فى إخصاب النساء ويصيحون أثناء ذلك : « مزيداً من القرنفل » . والمفروض أن هذا العمل يؤدى إلى زيادة إثمار الشجر .

ويعتقد الباجندا Baganda فى وسط افريقيا اعتقاداً جازماً بوجود علاقة وثيقة بين الاتصال الجنسى وخصوبة الأرض ، لدرجة أنهم كثيراً ما يسرحون الزوجة العاقر لأن وجودها يصيب الأشجار التى يملكها الزوج بالعقم ، بينما نجد على العكس من ذلك أن الزوجين اللذين يبرهنان على تمتعهما بدرجة غير عادية من الخصوبة ، وذلك عن طريق إنجاب التوائم — يعتبران فى نظر الباجندا قادرين على زيادة إثمار شجر الطلح أو الموز الذى يمدهم بالغذاء

الرئيسى ولذا نجد أنه بعد مولد التوائم بقليل تقام بعض الطقوس التى تهدف إلى نقل هذه القدرة التناسلية من الأبوين إلى أشجار الطلح ، فتستلقى الأم على ظهرها بين العشب الكثيف قرب المنزل وتضع إحدى أزهار شجرة الطلح بين فخذيها ثم يأتى الزوج فيزيح الزهرة بعضوه التناسلى ، ثم يطوف الزوجان بالمناطق المجاورة ويقومان ببعض الرقصات فى مزارع أصدقائهما المقربين ويبدو أن الهدف من ذلك هو زيادة قدرة أشجار الطلح على الإثمار .

ولقد كان يسود فى كثير من أنحاء أوربا بعض العادات التى كانت تمارس فى الربيع وفى موسم الحصاد بالذات ، وهى كلها عادات ترتكز على تلك الفكرة البدائية ذاتها حول إمكان الاستعانة بالاتصال الجنسى بين البشر فى الاسراع بنمو النباتات . ففى أوكرانيا مثلا يخرج القسيس فى يوم مولد القديس جورج (الثالث والعشرين من ابريل) فى ملابس الكهنوت ومن حوله الشمامسة ويتوجه إلى الحقول المحيطة بالقرية حيث يكون الزرع الأخضر قد بدأ يغطى سطح الأرض فيباركه ، ثم يرقد المتزوجون من الشباب مع زوجاتهم فوق الأرض التى بذرت بها الحبوب ويتمرغون فوقها عدة مرات ، اعتقاداً منهم بأن ذلك سوف يزيد نمو المحاصيل . وفى بعض أجزاء روسيا يتمرغ القسيس نفسه — ويساعده فى ذلك بعض النساء — على الزرع النابت دون أن يبالى بالطين أو الحفر التى

يقع فيها أثناء قيامه بهذا العمل الطيب المفيد . أما إذا خطر له أن يعترض على ذلك أو أن يمتنع عن القيام به فسوف يثير المعارضة والسخط فى أتباعه الذين يواجهونه بقولهم : « يا أبانا الصغير ، إنك لاتريد لنا الخير ولا تريد لنا أن نحصل على القمح مع أنك تعيش فى الوقت ذاته على القمح الذى نقدمه نحن لك » . وفى بعض أجزاء ألمانيا يتمرغ الرجال والنساء الذين اشتركوا معاً فى حصد القمح وذلك بعد أن ينتهوا بالفعل من الحصاد . وربما كانت هذه أيضاً صورة مخففة من تلك البداثية التى كان يلجأ إليها البيبليز فى أمريكا الوسطى فى الماضى والتى يمارسها زراع الأرز فى جاوة فى الوقت الحاضر والتى تهدف فى آخر الأمر إلى نقل الخصوبة إلى الأرض الزراعية .

وقد يكون من الطريف بالنسبة للباحث الذى يعنى بمتابعة الطريق الشاق الوعر الذى يسلكه العقل البشرى فى بحثه عن الحقيقة أن يعرف أن ذلك الاعتقاد النظرى فى التأثير التعاطفى للجنسين على الزرع — وهو الذى أدى ببعض الشعوب إلى الإغراق فى شهواتها كوسيلة لإخصاب الأرض — أدى بشعوب أخرى إلى أن تعمل على تحقيق هذا الهدف ذاته بأساليب مناقضة لذلك تماماً . فمنذ اللحظة التى يبذر فيها هنود نيكاراجوا مثلاً بذور الذرة حتى يوم حصاده يتعفف الناس عن الاتصال الجنسى ويجتنب الرجال زوجاتهم لدرجة أنهم قد ينامون

فى أماكن منفصلة ، كما أنهم يمتنعون عن تناول الملح مع طعامهم وعن شرب الكاكاو أو التشيتشا Chicha – وهو السائل المخمر المصنوع من الذرة . وبالاختصار فإن الموسم كله يعتبر بالنسبة لهم فترة زهد وحرمان كما يقول أحد المؤرخين الأسبان. ولا تزال بعض قبائل الهنود الحمر فى أمريكا الوسطى حتى الآن تمتنع عن الاتصال الجنسى كوسيلة لزيادة المحصول . ويقال إن هنود الككشى Kekchi يعتزلون زوجاتهم ويمتنعون عن أكل اللحم مدة خمسة أيام قبل أن يبذروا الذرة ، بينما تصل فترة الامتناع عن تلك الملذات الجسدية إلى ثلاثة عشر يوماً عند قبائل اللانجوينيرو Languineros والكاجابونيرو Cagaboneros . كذلك يقال إن العادة عند بعض الألمان فى ترنسلفانيا تقضى بألا يتصل الرجل بزوجته جنسياً طول الفترة التى يستغرقها بذر الحبوب .

وهذه القاعدة نفسها تراعى بدقة فى كالوتاسج Kalotaszeg فى المجر حيث يعتقد الناس أن خرق هذه العادة يؤدى إلى إصابة محصول القمح بمرض « صدأ الحبوب » وتعفنها . وبالمثل فإن رئيس قبيلة الكايتيش Kaitish فى وسط استراليا يمتنع تماماً عن كل العلاقات الجنسية مع زوجته طوال الوقت الذى تستغرقه الطقوس السحرية التى يمارسها من أجل نمو العشب اعتقاداً منه بأن أى خرق لهذه القاعدة سوف يمنع بذور العشب من أن تنبت .

وفى بعض جزر ميلانيزيا يحرص الرجال عندما تبزغ أوراق درنات اليام فوق سطح الأرض على أن يناموا بالقرب من مزارعهم وعلى ألا يقربوا زوجاتهم على الإطلاق ، اعتقاداً منهم بأن الدخول إلى تلك المزارع بعد خرق هذه القاعدة المتعلقة بالاستعفاف يؤدى إلى تلف المحصول .

وإذا تساءلنا عن السبب فى أن المعتقدات المتشابهة تؤدى بصورة منطقية عند الشعوب المختلفة إلى مثل هذه الأنماط السلوكية المتعارضة التى تتراوح من العفة المتناهية فى الصرامة إلى الإباحية الصريحة فلن يكون من الصعب علينا أن نعرف السبب كما يتراءى للعقل البدائى . فإذا كان الرجل البدائى يرى نفسه متوحداً مع الطبيعة بشكل أو بآخر ، وإذا كان يعجز فى الوقت ذاته عن أن يميز بين النوازع والعمليات التى تعتمل فى نفسه من ناحية والطرق التى تلجأ إليها الطبيعة لتكفل عملية التكاثر فى النبات والحيوان من ناحية أخرى ، فإنه يصبح من السهل عليه أن يقفز إلى إحدى نتيجتين : فهو إما أن يستنتج أن إطلاق العنان بشهواته يمكنه من أن يساعد فى عملية تكاثر النبات والحيوان ، وإما أن يتصور أن الحيوية التى يأتى إنفاقها فى إنجاب ذرية من نوعه هو سوف تتحول إلى طاقة مختزنة تمكن أن تفيد منها الكائنات الأخرى من حيوانات ونباتات فى التوالد والتكاثر . وهكذا نجد أن الرجل الهمجى يستطيع أن يصل من نفس

الفلسفة الساذجة ومن نفس الأفكار البدائية عن الطبيعة — إلى إقرار قواعد مختلفة كل الاختلاف بعضها عن بعض بحيث تحتم عليه أحياناً التحرر والفسوق وأحياناً أخرى التعفف والتبتل تبعاً لاختلاف أساليب التفكير التي يتبعها .

وهذا التفسير لقواعد الاستعفاف التي تراعيها الشعوب البدائية أو الهمجية تحت ظروف معينة قد يبدو للقارىء الذى نشأ فى ظل دين متأثر بمثاليات الشرق الصوفية أمراً بعيداً عن التصور أو الاحتمال. فقد يظن هذا القارىء أن الطهر الأخلاقى الذى يرتبط فى ذهنه ارتباطاً وثيقاً بمراعاة هذه القاعدة يكفى فى حد ذاته لتفسير هذه القاعدة وقد يتفق مع ميلتون Milton فى رأيه أن العفة فى ذاتها هى أنبل الفضائل ، وأن القيود التى نفرضها على الشهوة الجنسية — وهى أعنف النوازع فى طبيعتنا الحيوانية — إنما تميز فقط الأشخاص الذين يستطيعون تقبلها طواعية باعتبارهم رجالا ارتفعوا بأنفسهم فوق مستوى عامة البشر ، وأنهم خليقون لذلك بأن يحظوا بالرضا الإلهى ، وقد يبدو هذا النمط من التفكير طبيعياً بالنسبة لنا ولكنه غريب تماماً ولاشك على الرجل الهمجى ؛ بل إنه فى الحقيقة بعيد تماماً عن فهمه . وإذا كان الرجل البدائى يقاوم فى بعض الأحيان الغريزة الجنسية فإن ذلك لا يرجع إلى أى مثالية سامية أو إلى أى رغبة شريفة فى تحقيق التطهر الأخلاقى وإنما يرجع إلى الرغبة فى الوصول إلى بعض الأهداف

المادية المحدودة الملموسة التى يعتقد أنها خليقة رغم ذلك بأن يضحى من أجلها بالمتعة الحسية السريعة . والأمثلة التى ذكرناها فيها ما يكفى تماماً للتدليل على صدق مانقول . فهى كلها تبين أنه حيثما تتعارض غريزة المحافظة على الذات — وهى التى تعبر عن نفسها أساساً فى البحث عن الطعام — مع الغريزة إلى استمرار النوع فإن الغريزة الأولى تستطيع بسهولة أن تسيطر تماماً ويكون لها الغلبة باعتبارها هى الغريزة الأولية والأساسية . وباختصار فإن الرجل الهمجى خليق بأن يكبح جماح ميوله الجنسية الفطرية ويتحكم فيها فى سبيل الحصول على القوت . ويعتبر الانتصار فى الحروب من أهم المطالب أيضاً التى يمارس الرجل الهمجى من أجلها ضبط النفس وكبح جماحها ، ولا يقتصر ذلك على المحارب وحده فى ميدان القتال وإنما يمتد ذلك إلى أصدقائه الذين يتنكرون لكل شهواتهم الحسية اعتقاداً منهم أن ذلك سوف يؤدى إلى هزيمة الأعداء . والأغلوطة التى يتضمنها هذا الاعتقاد واضحة ، مثلها فى ذلك الاعتقاد بأن امتناع الرجل عن الاتصال الجنسى أثناء بذر الحبوب يساعد على نمو النبات . ومع ذلك فقد يكون لهذا النوع من ضبط النفس الذى تفرضه هذه المعتقدات وأمثالها على الإنسان — رغم عدم جدواها وعدم صدقها — بعض الفائدة فى ترابط النسل وتقويته . ذلك لأن قوة الخلق فى أى سلالة من السلالات وكذلك فى الفرد تقوم أساساً

على إرادة التضحية بالحاضر من أجل المستقبل، وفى إغفال عوامل الإغواء والإغراء لتحقيق لذة مؤقتة زائلة فى سبيل الوصول إلى مصادر أبعد وأدوم للإشباع والرضا . وكلما ازدادت ممارسة الناس لهذه الإرادة كلما سما الخلق وازداد قوة وتماسكاً إلى أن يصل الإنسان إلى أعلى مراتب البطولة التى تتحقق فى الأشخاص الذين ينبذون تماماً ملذات الحياة — بل والحياة ذاتها — فى سبيل تحقيق نعمة الحرية والحق للآخرين وللأجيال التالية على مر العصور .

الفصل الثانى عشر



الزواج المقدس

١ ـ ديانا كالهة للخصوبة :

رأينا أن أحد الاعتقادات الشائعة ـ وهو اعتقاد له ما يسنده من الواقع ـ تفترض إمكان تكاثر النباتات عن طريق الاتصال الجنسي بين الذكور والإناث وأنه تبعاً لمبدأ السحر التشاكلي أو سحر المحاكاة يمكن افتراض حدوث هذا التكاثر عن طريق الزواج الحقيقي أو الوهمي بين الرجال والنساء الذين يتنكرون لفترة معينة في شكل ارواح النباتات . ولقد لعبت هذه التمثيليات السحرية دورا كبيراً في الأعياد الشعبية في أوربا ، وبالرغم من أنها تقوم على تصور بدائي ساذج للقانون الطبيعي فمن الواضح أنها انتقلت إليهم من عصور سحيقة ، وعلى ذلك فلن نكون مخطئين إذا زعمنا أنها ترجع إلى العصور التي كان الأسلاف الأوائل لشعوب أوربا المتحضرة لا يزالون فيها على بربريتهم يرعون الماشية ويزرعون الحنطة في مساحات صغيرة مبعثرة في المناطق التي يطهرونها من الأشجار في الغابات الواسعة التي كانت تغطي حينئذ الجزء الأكبر من القارة بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط المتجمد . ولكن إذا كانت هذه التعاويذ والرقى والطقوس الخاصة بنمو الأوراق الخضراء والبراعم والعشب

* الزواج المقدس : ترجمة د. محمد احمد غالى .

والأزهار والثمار قد استمرت فى الوجود حتى عصرنا الحالى فى شكل مسرحيات ريفية ومهرجانات شعبية ، أفلا يكون من الأقرب إلى العقل إذن أن نفترض أنها كانت توجد فى صور وأشكال أقل تعديلا وتهذيباً منذ حوالى ألفى سنة بين الشعوب المتحضرة فى الأزمنة القديمة ؟ وبقول آخر ، أليس من المحتمل أن نجد فى بعض الأعياد القديمة ما يماثل تماماً احتفالات أول مايو أو عيد العنصرة أو منتصف الصيف عندنا ، مع فارق واحد هو أن تلك الاحتفالات لم تكن قد تضاءلت فى ذلك الحين بحيث أصبحت مجرد استعراضات ومواكب بل كانت عبارة عن شعائر دينية أو سحرية يدرك القائمون بها أنهم يعاونون الأرباب والربّات فى اداء مهام وظائفهم السامية. ولقد رأينا فى الفصل الأول من هذا الكتاب أن ثمة من الأسباب ما يجعلنا نعتقد أن الكاهن الذى كان يحمل لقب « ملك الغابة » فى نيمى كان يتخذ إلهة الأجمة ديانا ذاتها شريكة لحياته ، وعلى ذلك ألا يمكن أن يكون الإثنان — باعتبارهما ملك الغابة وملكتها — هما المقابل الحقيقى للأشخاص الذين يتنكرون فى الوقت الحالى للقيام بدور ملك مايو وملكته أو عريس أحد العنصرة وعروسه فى أوربا الحديثة ؛ ثم ألا يحتمل أن يكون اتحادهما هو السبب فى هذه الاحتفالات السنوية بالزواج المقدس ؟ وسوف نرى فيما بعد أن هذه الزيجات التمثيلية بين الأرباب والربات كانت تتم فى أنحاء كثيرة من العالم القديم

على أنها شعائر دينية مقدسة لها جلالها وقدسيتها ، وعلى ذلك فليس هناك مايدعو إلى الظن بأن الغيضة المقدسة فى نيمى كانت مسرحاً لمثل هذه الاحتفالات السنوية . والواقع أنه ليس لدينا أى دليل واضح صريح على ذلك وإن كانت المماثلة تؤيد هذه النظرة وتسندها ، وهذا ما سوف أحاول تبيينه هنا .

ولقد كانت ديانا أساساً إلهة للأحراش مثلما كانت كيريس Ceres إلهة للقمح وباخوس Pacchus إلهاً للكروم ، وكانت هياكلها المقدسة تقام فى العادة وسط الأجمات والرياض ، بل الواقع أن كل أجمة كانت تعتبر مكاناً مقدساً لها ، كما انها كانت ترتبط فى الأغلب بإله الغابة سيلفانوس Silvanus فى كل ما يتعلق بالنذور . ويبدو أن ديانا قد تطورت – مثل شبيهتها الإغريقية أرتميس – بحيث أصبحتا تجسيداً للطبيعة الزاخرة . بالحياة ، سواء فى ذلك الحياة الحيوانية أو النباتية . وكان من الطبيعى أن تبدو ديانا فى أعين الناس – باعتبارها سيدة للغابات الخضراء – مالكة لكل ما فيها – حيوانات مستأنسة أو وحشية ، ما يرتع منها فى أمان بين الأشجار أو يكمن لفرائسه فى أعماق الأدغال المظلمة ؛ وما يقتات منها على الأوراق والنباتات الصغيرة الخضراء الغضة وهى قابعة فى هدوء بين الأغصان أو ما يتغذى منها على العشب فى الأحراش المكشوفة والوهاد . وعلى ذلك فإنها قد تصبح الإلهة

٤١/٦

الراعية لقانصى الحيوانات وللرعاة على السواء ، تماماً مثلما كان سيلڤانوس إلهاً للأدغال وللماشية . وبالمثل كانت الحيوانات المتوحشة فى فنلندة تعتبر ملكاً خالصاً لإله الأدغال تابيو Tapio وزوجته بخليلة الجميلة . ولم يكن يحق لإنسان أن يقتل أحد تلك الحيوانات قبل أن يحصل على الإذن السامى بذلك من صاحبها الإلهى . ومن هنا كان يتعين على الصياد أن يصلى لآلهة الغابات والأشجار وينذر أو يقدم لها القرابين بسخاء من تلك الحيوانات إن هى دفعت بالقطيع إلى الطريق الذى يسلكه . ويبدو أن الماشية كانت تتمتع هى الأخرى برعاية تلك الأرواح ذاتها ، سواء أكانت فى حظائرها او تسرح فى الغابة . وترى جماعات الجايوس Gayos فى سومطرة أنه لابد من الحصول على ترخيص من إله الغابة الذى لاتدركه الأبصار قبل أن يخرجوا إلى الغابات مع كلاب الصيد لقنص الغزلان أو الماعز والخنازير البرية ، ويقومون لذلك ببعض الطقوس التى يحددها لهم شخص له دراية خاصة بفن الحفر على الخشب. فيضع جزءاً من نبات البتل Betel أمام وتد من الخشب قطع بطريقة معينة كى يمثل إله الغابة ثم يصلى للروح لكى تبدى ما يدل على القبول أو الرفض . ويذكر لنا آريان Arrian فيما كتبه عن القنص أن الكلتيين كانوا يقدمون قرباناً كل سنة لأرتميس فى يوم عيد ميلادها ، وأنهم كانوا يشترون الذبيحة من حصيلة الغرامات التى يدفعونها

أثناء السنة حين يقتلون أحد الثعالب أو الأرانب البرية أو إناث الظباء . وتدل هذه العادة بوضوح على أن الحيوانات البرية كانت تعتبر ملكاً للإلهة وأنه يجب لذلك تعويضها عما يقتل منها .

ولكن ديانا لم تكن مجرد راعية للحيوانات المفترسة أو سيدة للأدغال والتلال والوهاد الموحشة والأنهار الهادرة ، وإنما كان الناس يحسبون أيضاً أنها هي التمر وبخاصة قمر وقت الحصاد الأصفر ، وأنها هي التي تملأ مخازن الفلاح بالثمار الطيبة وتستجيب لدعاء النساء أثناء المخاض . ولقد رأينا أنها كانت تُعبد في غيضتها المقدسة في نيمي على أنها إلهة الولادة والوضع والإنجاب التي تهب النسل للرجال والنساء . وعلى ذلك يمكن أن نصف ديانا مثل أرتميس اليونانية التي تشبهها تماماً — بأنها إلهة الطبيعة على وجه العموم، والخصب على وجه الخصوص . ولذا فليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة حين نجد أنها كانت تمثل في هيكلها فوق جبل الأفنتين Aventine في شكل تمثال منقول عن صورة أرتميس أفسوس ذات الأثداء العديدة وبكل ما عليها من رموز تشير إلى الخصوبة الوفيرة الدافقة. ومن هنا أيضاً نستطيع أن نفهم السبب في أن أحد القوانين الرومانية القديمة التي تنسب إلى الملك تولوس Tullus Hostillius كان يقضي في حالة الزنا بالمحارم بضرورة تقديم قربان للتكفير عن هذه الجريمة بشرط أن يتولى كبير الأساقفة بنفسه ذبح هذه الضحية في أجمة

ديانا . والمعروف أن الزنا بالمحارم كان يعتبر من الأسباب التى تؤدى إلى القحط ، ولذا كان يبدو من الملائم أن يوجه التكفير عن هذه الخطيئة إلى إلهة الخصوبة .

وتبعاً للمبدأ القائل بأن إلهة الخصوبة يجب أن تكون هى نفسها ولوداً كان يتعين على ديانا أن تتخذ لنفسها قريناً من الذكور . وإذا صحت رواية سرڤيوس فإن قرينها كان هو ڤربيوس الذى كان يتمثل – أو بالأحرى يتجسد – فى ملك غابة نيمى (١) . ويبدو أن الهدف من اتحادهما كان هو العمل على زيادة ما تجود به الأرض من ثمار وحيوان وبشر . وكان من الطبيعى أن يعتقد الناس إمكان تحقيق ذلك الهدف عن طريق الاحتفال بهذا العرس المقدس فى كل عام بحيث يقوم بدور العروسين إما تماثيل تمثلها أو حتى أشخاص من الأحياء . ولا يذكر أحد من الكتاب القدامى إن كان ذلك يحدث بالفعل فى أجمة نيمى ، ولكن معلوماتنا عن الشعائر فى أريكيا بوجه عام قليلة بحيث أن ندرة المعلومات الخاصة بهذا الموضوع بالذات لن تقف عقبة أمام هذه النظرية . ونظراً لعدم وجود أدلة مباشرة فإنه يجب أن تقوم النظرية على أساس المماثلة بالعادات المشابهة التى توجد فى المناطق الأخرى . ولقد ذكرنا فى الفصل السابق

(١) سبق ان عالج فريزر هذه المسألة بالتفصيل فى بداية الكتاب .. راجع الفصل الاول الفقرة الاولى عن « ديانا وفربيوس » – المراجع .

بعض الأمثلة الحديثة لهذه العادات التى داخلها كثير من الضعف والوهن ؛ وسوف نتعرض هنا لبعض العادات القديمة التى تقابلها .

٢ – زواج الآلهة :

يقوم هيكل بعل المقدس فى بابل كالهرم المنيف ويرتفع فوق المدينة فى سلسلة من ثمانية أبراج أو أدوار ترتكز بعضها فوق بعض ، وفوق البرج العلوى الذى يمكن الوصول إليه عن طريق درَج يدور حول الأبراج جميعاً يقوم معبد فسيح فيه سرير كبير فُرِش بالأغطية والوسائد الوثيرة وبجانبه منضدة ذهبية . ولا يظهر فى المعبد أى صورة على الإطلاق ، ولم يكن يسمح لإنسان بأن يمضى الليل فيه ما عدا امرأة وحيدة هى التى اختارها الرب من بين نساء بابل حسب ما يقول كهنة الكلديين . وكانوا يقولون إن الرب نفسه كان يأتى إلى المعبد أثناء الليل فينام فى ذلك السرير الفخم . وكان يحرّم على المرأة باعتبارها قرينة الرب أن تجامع أحداً من البشر الفانين .

وفى طيبة بمصر كانت إحدى النساء تنام فى معبد آمون باعتبارها قرينة للإله وكان يحرم عليها أن تتصل بالبشر – شأنها فى ذلك شأن زوجة بعل الآدمية فى بابل . وكثيراً ما يرد ذكر هذه المرأة فى النصوص المصرية على أنها « القرينة الإلهية » . ولم تكن هذه « القرينة » فى العادة شخصاً بأقل من ملكة مصر نفسها . فلقد كان المصريون يعتقدون أنهم ينحدرون من صلب الإله آمون نفسه الذى كان يتنكر

فى صورة الملك الحاكم ثم يجامع الملكة وهو على هذه الهيئة . وقد نقشت هذه العملية المقدسة بكثير من التفاصيل على جدران اثنين من أكبر معابد مصر وهما الدير البحرى ومعبد الأقصر ، ثم إن النصوص المكتوبة مع هذه الرسوم لا تدع مجالا للشك فى معناها.

وفى أثينا كان ديونيزوس **Dionysus** إله الكروم يتزوج الملكة كل عام أثناء ذلك الاحتفال . ولكننا لا نعلم ما إذا كان دور الإله يقوم به رجل حقيقى أو أحد تماثيل الإله نفسه . ونحن نعلم مما كتبه أرسطو أن هذا الحفل كان يقام فى المقر الرسمى القديم للملك ، وهو الذى يعرف باسم « حظيرة الماشية » ، وكان يوجد بالقرب من البريتانيوم **Prytaneum** أو قاعة احتفالات المدينة إلى الجانب الشمالى الشرقى من الأكروبول **Acropolis** ومن الصعب أن تكون الغاية من هذا الزواج شيئاً آخر غير توكيد وضمان خصوبة الكروم وأشجار الفاكهة التى يعتبر ديونيزوس إلهاً لها ، وعلى ذلك فإن هذه الطقوس تتفق فى شكلها وفى مغزاها مع حفلات الزواج التى تقام لملك « أول مايو » وملكته .

وفى الطقوس والأسرار العظيمة التى كان يحتفل بها فى شهر سبتمبر فى وادى الإيليزيه كان اتحاد إله السماء « زيوس **Zeus** » وإلهة الحنطة ديميتر **Demeter** يمثله على ما يبدو « الهيروفانت **Hierophant** » وكاهنه ديميتر اللذان كانا يقومان بدور الإله

والإلهة ، ولكن الاتصال الجنسي بينهما كان مجرد عملية تمثيلية أو رمزية لأن الهيروفانت كان يحرص على أن يطفىء حيويته ورغباته الجنسية بتناول شراب السوكران . وبعد أن تطفأ المشاعل ينزل الزوجان إلى مكان مظلم ، بينما ينتظر جموع المتعبدين فى لهفة وقلق نتيجة هذا اللقاء الغامض الذى يتوقف عليه فى اعتقادهم رفاهيتهم وسعادتهم . وبعد فترة من الزمن يعود الهيروفانت ويعرض عليهم تحت وهج الأضواء — وقد ساد الصمت المطبق على الناس — سنبلة قمح حديثة الحصاد على أنها ثمرة هذا الزواج المقدس . ثم يعلن فى صوت جهورى « لقد أنجبت الملكة بريمو Brimo المولود المقدس بريموس Brimos ، ويعنى بذلك أن » الإله القوى قد أنجب الكائن القوى » . وهذا يشير فى الواقع إلى أن « الحنطة الأم » قد أنجبت وليدها الحنطة ، وأن التمثيلية المقدسة إنما ترمز إلى آلام المخاض التى كانت تعانى منها . ويبدو أن ظهور هذه السنبلة التى حصدت حديثاً كان هو المعجزة التى تتوج كل هذه الطقوس السرية الغامضة . ورغم كل الأضواء التى سلطها الشعراء والفلاسفة فى العصور التالية على تلك الشعائر فإنها تبدو أشبه شىء بلوحة باهتة . بعيدة تحت بصيص من نور الشمس بحيث تظهر كما لو كانت مجرد احتفال ريفى بسيط يهدف إلى وفرة المحصول بحيث يعطى كل سهول الإيليزيه الفسيحة المترامية عن طريق تزويج إلهة الحنطة إلى إله السماء

الذى يخصب الأرض بوابل من قواه الإخصابية الدافقة . ولقد كان أهالى بلاتيا Plataea فى بويوتيا Boeotia يقيمون مهرجاناً كل بضع سنين يطلقون عليه اسم « ديدالا الصغيرة Little Daedala » وفيه كانوا يقطعون إحدى أشجار البلوط من إحدى الغابات القديمة وينحتون منها تمثالاً يضعون عليه ملابس عروس ويحملونه فوق عربة تجرها الثيران وإلى جانبه وصيفة العروس ذاتها . ويبدو أنهم كانو يتجهون بالتمثال إلى شاطىء نهر أسوپوس Asopus ، ثم يعودون به ثانية إلى المدينة وهم يرقصون ويعزفون على المزامير . كذلك كان يقام مهرجان « ديدالا الكبيرة » كل ستين عاماً ويشترك فيه جميع أهل بويوتا ، وفيه كان الناس يأتون بكل التماثيل التى تم صنعها فى الأعياد الصغرى وهى تبلغ أربعة عشر تمثالاً — فيحملونها كلها فوق إحدى عربات المزارع الكبيرة ويتجهون بها فى موكب كبير إلى نهر أسوبوس ثم إلى قمة جبل كيثايرون Cithaeron حيث يحرقونها فى نار كبيرة . والقصـــة التى تروى لتفسير هذه الأعياد توحى بأن القصد منها كان هو الاحتفال بزواج زيوس وهيرا Hera التى يرمز إليها بالتمثال المصنوع من خشب البلوط وتوضع عليه ملابس الزفاف . وكان الناس فى السويد يصنعون فى كل عام تمثالاً بالحجم الطبيعى للإله فراى Frey — إله الخصوبة فى الحيوان والنبات — ثم يطوفون به فى المناطق الريفية

فوق عربة وإلى جانبه فتاة جميلة يعتبرونها « زوجة الإله » . وكانت هذه الفتاة تقوم بدور كاهنة الإله أيضاً فى معبده الكبير فى مدينة أبسالا . وحيثما تمر العربة كان الناس يتجمعون حول تمثال الإلهوعروسه الصغيرة المتفتحة للحياة ويقدمون إليهما القرابين من أجل عام كثير الخير والثمر .

وهكذا نرى أن عادة تزويج الآلهة من التماثيل أو البشر الأحياء كانت شائعة بين الشعوب القديمة . ولقد بلغت الأفكار التى تقوم عليها هذه التقاليد القديمة من البساطة درجة لا تجعلنا نتردد فى القول بأن الشعوب المتحضرة القديمة كالبابليين والمصريين القدماء والإغريق ورثوها عن أسلافهم المتبربرين أو الهمج (١) . ويقوى من هذا الافتراض وجود شعائر مماثلة عند كثير من الشعوب الدنيا . من ذلك مثلاً ما يروى عن جماعات الوتياك **Wotyaks** فى إقليم مالميز **Malmyz** فى روسيا من أن محصولاتهم تعرضت للتلف لعدة سنوات متتالية ، ولم يعرف الناس ماذا يفعلون ، ولكنهم استنتجوا فى آخر الأمر أن إلههم القوى الجبار كيريمت **Keremet** لابد أن يكون

---

(١) سبق القول ان فريزر يتبع التيار العام الذى كان سائدا فى عصره والذى كان يميل على العموم الى تصور النظم والثقافة الانسانية على انها مرت بعدد من المراحل التى تتفاوت بين البساطة والتعقيد وان ابسط هذه المراحل واقدمها فى الزمن هى مرحلة الهمجية ثم تلتها مرحلة البربرية . ويظهر هذا الاتجاه بشكل واضح عند لويس مورجان وبخاصة فى كتابه عن المجتمع القديم الذى سبق ظهوره كتاب « الغصن الذهبى » بثلاثة عشرة عاما ـ المراجع .

ناقماً عليهم لأنه لم يتزوج . وقامت جماعة من كتاب القوم بزيارة الويتاك الذين يعيشون فى كورا Cura ووصلوا معهم إلى قرار فى هذا الشأن . وحين عادوا إلى بلادهم أعدوا قدراً كبيراً من البراندى ثم ساروا فى موكب رائع وهم يسوقون أمامهم عربة كبيرة مزخرفة تجرها الجياد ويدقون النواقيس كما يفعلون حين يحماون عروساً إلى بيت عريسها . وسار الموكب فى طريقه حتى وصل إلى الأجمة المقدسة فى كورا وهناك أمضوا الليل كله فى الطعام والشراب بين صيحات الفرح والبهجة . وفى صبيحة اليوم التالى انتزعوا قطعة من تربة الأجمة وعادوا بها إلى موطنهم . ولكن يبدو أن هذه الطقوس التى عادت على أهل ماليز بالخير فزادت عندهم الحنطة أضرت بأهل كورا الذين أصابهم القحط . وأنحى الناس هناك باللائمة على الأشخاص الذين وافقوا على هذا الزواج وتعرضوا لهم بالأذى . ويقول الكاتب الذى يذكر لنا هذه المعلومات « وليس من السهل علينا أن نعرف ماذا كانوا يقصدون من هذا الزواج . فقد يكون القصد منه هو – كما يعتقد بشتريو Bechterew أن يتزوج كيريمت من الإلهة الطيبةالصالحة الولود موكلشين Mukylcin – الزوجة الأرض – كى تحثه على فعل الخير ». وفى البنغال حين يحفرون أحد الآبار يصنع الناس تمثالاً من الخشب لأحد الآلهة ثم يزفونه إلى إلهة الماء .

وفى كثير جداً من الأحيان لم تكن « زوجة الإله » مجرد لوح من الخشب أو تمثالاً من الطين بل امرأة حية بالفعل . فالمعروف مثلا عن سكان إحدى قرى بيرو من الهنود الحمر أنهم كانوا يزوجون فتاة جميلة فى الرابعة عشرة من عمرها لتمثال منحوت من الحجر على شكل إنسان ويعتبرونه أحد آلهتهم . وكان جميع سكان القرية يشتركون فى حفل الزواج الذى كان يستمر ثلاثة أيام مليئة بالضجة والعربدة . وكان يقضى على الفتاة أن تظل عذراء بقية حياتها وأن تهب نفسها لهذا الصنم من أجل سعادة الناس الذين كانوا يعاملونها بأبلغ آيات الإجلال وينظرون إليها على أنها كائن مقدس . كذلك كان هنود الألجونكان والهيرون يعملون كل عام — حين يبدأ موسم صيد السمك بالخطاف فى منتصف مارس تقريباً — على تزويج شباك الصيد من فتاتين صغيرتين فى السادسة أو السابعة من العمر . وفى أثناء حفل الزواج كانت توضع شبكة بين الفتاتين وتقدم لها النصائح بأن تصطاد أكبر قدر ممكن من السمك فى شجاعة وجرأة . والسبب فى اختيار العروسين فى هذه السن الصغيرة هو التأكد من عذرتهما . ويرد الناس هذه العادة إلى حادثة قديمة : ففى إحدى السنوات عندما جاء موسم صيد السمك ألقى الألجونكان بشباكهم فى البحر ولكنها لم تمسك أى صيد على الإطلاق . وحين تملكهم العجب لذلك وتحيروا فيما عساهم فاعلين ظهرت لهم « روح الشبكة » المعروفة باسم

أوكى Oki فى صورة رجل فارع الطويل قوى البنية وقال لهم فى تأثر وانفعال : « لقد فقدت زوجتى ولا أستطيع أن أجد امرأة أخرى لم تعرف رجلا آخر غيرى ، وهذا هو السبب فى فشلكم الآن وفى أنكم لن تحققوا أى نجاح فى الصيد إلا إذا وجدتم حلاً لهذه المشكلة » . وتشاور الألجونكان فى الأمر وعقدوا العزم على إرضاء الشبكة عن طريق تزويجه من فتاة فى مثل هذه السن الصغيرة حتى لا يكون لديه أى مبرر للشكوى من هذه الناحية . ونفذوا ما عقدوا العزم عليه وحققوا بذلك ما كانوا يأملونه من الصيد . وانتشر الخبر بين جيرانهم من الهيرون Hurons الذين اقتبسوا الفكرة . ويحرص الصيادون أن يعطوا جزءاً من الصيد لأسرتى الفتاتين اللتين تقومان بدور عروسى الشبكة فى ذلك العام .

ويعبد الأوروان Oroans فى البنغال الأرض على إنها إلهة ، ويحتفلون فى كل عام بزواجها من إله الشمس دارمى Dharme فى موسم إزهار نوع معين من الشجر يعرف باسم سال Sâl وفى أثناء الحفل يغسل جميع الناس أجسامهم ثم يتوجه الرجال إلى الأجمة المقدسة (سارنا Sarna) بينما تتجمع النسوة فى منزل كاهن القرية . ويقدم الرجال بعض القرابين من الدجاج إلى إله الشمس وروح الأجمة ثم يعكفون على الطعام والشراب . « ويحمل أحد الرجال الأشداء الكاهن على كتفيه ويعود الجميع به إلى القرية

فتستقبلهم النساء عند مدخلها و يقمن بغسل أقدام الرجال و يتوجه الجميع بين قرع الطبول وترديد الأغانى والرقص والقفز إلى بيت الكاهن المزين بأوراق الشجر والزهور ، وهناك تجرى مراسيم الزواج المألوفة بين الكاهن وزوجته كرمز إلى الاتحاد المفروض بين الشمس والأرض ، وبعدها يتناول الجميع الطعام والشراب وتنتابهم نوبة من المرح الشديد فيرقصون ويرددون الأغانى المبتذلة الخليعة وينغمسون فى أسوأ أشكال التهتك والعربدة . والغرض من هذا كله هو استثارة الأرض الأم كى تنجب وتثمر » . فكأن الاحتفال بالزواج المقدس بين الشمس والأرض — اللذين يتجسدان فى شخص الكاهن وزوجته — يعتبر تعويذة لضمان خصوبة الأرض ، وهذا هو السبب أيضاً فى انغماس الناس فى تلك الملذات الحسدية الإباحية تمشياً مع مبدأ السحر التشاكلى .

ومما يستحق الذكر هنا أن الكائن الخارق للطبيعة الذى تزف إليه النساء هو فى الأغلب أحد آلهة (أو إحدى أرواح) الماء . فقبائل الباجندا مثلا يقدمون بعض الفتيات العذارى إلى موكاسا **Mukasa** إله بحيرة فيكتوريا — على أنهن زوجات له بقصد استرضائه حين يزمعون القيام برحلة طويلة . وكان المفروض فى هؤلاء الزوجات أن يتمسكن بأهداب العفة ، تماماً كما هو حال عذارى فستا .

ولكن الواقع غير ذلك تماماً . وقد استمرت هذه العادة إلى أن اعتنق موانجا Mwanga المسيحية . وتعبد قبيلة أكيكويو Akikuyu في شرق أفريقيا البريطانية الثعبان الذي يعيش في نهر معين هناك : ولذا فإنهم يزوجون ذلك الإله الثعبان مرة كل بضع سنين من عدد من النساء وبخاصة من الفتيات الصغيرات ، وتقام لهذه المناسبة بعض الأكواخ تبعاً للأوامر والإرشادات التي يصدرها لهم السحرة المطببون الذين يتولون إتمام الزواج المقدس مع النساء المتعبدات المؤمنات . فإذا لم تأت الفتيات من تلقاء أنفسهن وبأعداد كافية إلى تلك الأكواخ تولى الرجال إحضارهن بالقوة ودفعوا بهن عنوة إلى أحضان الإله . وينتسب الأطفال الذين يأتون نتيجة لهذا الزواج الغامض إلى الإله نفسه . والواقع أن هناك عدداً كبيراً من الأطفال عند الأكيكويو يعتبرون أبناء للإله . ومما يحكى أن سكان كايلي Cayeli في بورو Buru — وهي إحدى جزر الهند الشرقية — تعرضوا ذات مرة للخطر والدمار نتيجة لهجوم جحافل كبيرة من التماسيح وردوا تلك الكارثة إلى الشوق الشديد الذي يقاسي منه أمير تلك التماسيح نحو إحدى فتياتهم ، فأجبروا أباها على أن يهيئها في ملابس الزفاف ويقدمها طائعاً إلى مخالب التمساح العاشق .

وثمة عادة من هذا النوع نفسه يقال إنها كانت منتشرة في جزر المالديف Maldive قبل أن يعتنق السكان هناك الإسلام . وقد وصف

الرحالة العربى الشهير ابن بطوطة هذه العادة وطريقة القضاء عليها . فلقد ذكر له الكثير ون من الثقاة من أهل الجزيرة - وقد ذكر الكاتب أسماءهم - أنه فى الوقت الذى كان الناس هناك يعبدون الأوثان كانت تظهر لهم فى كل شهر روح شريرة من الجن تأتى عبر البحار على شكل سفينة مليئة بالمشاعل الملتهبة . وكان الشغل الشاغل للناس حين يرونها هو البحث عن فتاة عذراء صغيرة يزينونها ثم يسوقونها إلى معبد وثنى معين على الساحل وله نافذة تطل على البحر فيتركون الفتاة هناك طول الليل ، وعندما يعودون إليها فى الصباح كانوا يجدون أنها فقدت بكارتها وفارقت الحياة . وكان الناس يسحبون (القرعة) فى كل شهر ، فمن وقعت عليه (القرعة) وجب عليه أن يتنازل عن ابنته لجنى البحر ، وظل الحال كذلك حتى جاء رجل صالح من البربر وأمكنه أن يخلص آخر فتاة قدمت بهذه الطريقة إلى ذلك العفريت وأن يطرد العفريت ذاته إلى البحر بتلاوة القرآن عليه .

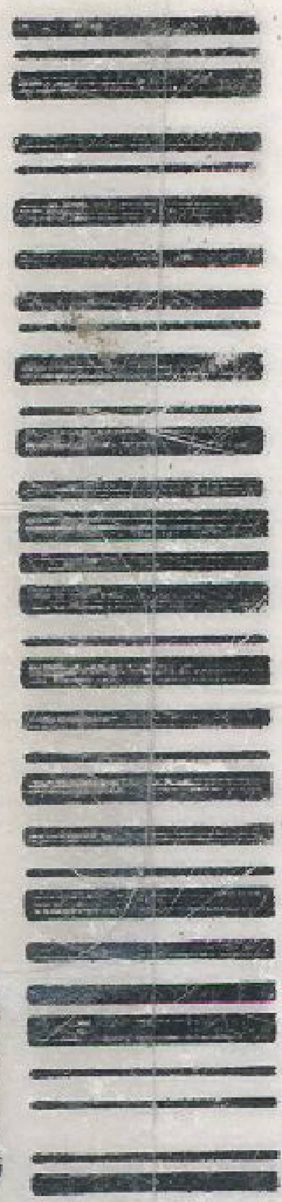
والقصة التى يحكيها ابن بطوطة عن الجنى العاشق وعرائسه الآدميات تشبه شبهاً قوياً نوعاً معيناً من القصص الشعبى الشائع والذى يتخذ صوراً وأشكالاً مختلفة من اليابان وأنام Annam فى الشرق إلى سينجامبيا Senegambia واسكنديناوه واسكتلندة فى الغرب . وتختلف القصة فى التفاصيل من شعب لآخر . ولكنها

فى عمومها تتخذ الشكل التالى : « وكانت هناك بلد يهددها ثعبان (أو تنين أو أى وحش آخر) له عدة رءوس وينذر أهلها بالدمار إن لم يقدموا له على فترات معينة ضحية من البشر تكون فى العادة فتاة عذراء . وقد وجد عدد كبير من الفتيات الضحايا حتفهن نتيجة لذلك إلى أن جاء الدور على ابنة الملك لتكون هى الضحية . وألقى بالفتاة إلى الوحش ، وهنا يظهر بطل القصة — وهو فى العادة شاب صغير من أصل متواضع — فيتدخل لإنقاذها ويقتل الوحش وينال يد الأميرة جزاء له على عمله . وفى كثير من القصص يسكن الوحش (الذى يوصف أحياناً بأنه ثعبان) فى ماء البحر أو البحيرة أو أحد الينابيع ؛ أو قد يظهر فى بعض القصص الأخرى على أنه يسيطر على ينابيع الماء فلا يسمح للماء بالانسياب كما لا يسمح للناس باستعماله إلا بعد أن يقدموا له ضحية آدمية .

وقد يكون من الخطأ أن نرفض كل هذه القصص على أنها مجرد أوهام اخترعها الرواة ؛ والأحرى بنا أن نفترض أنها تعكس بعض العادات الحقيقية التى كانت تقوم على تضحية الفتيات أو النساء بتزويجهن لروح الماء التى كان الناس يتصورونها فى الأغلب على شكل ثعبان أو تنين كبير .

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٦٥٩١/١٩٧٠



الهيئة العا...

الثمن ٧٥ قرشا